

①

سلسلة تاريخ العصور الوسطى

عالم العصور الوسطى في النظم والمضارة

تأليف
ج. ج. كولتون

ترجمة وتعليق
دكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت من. ب. ٧٤٩

هذه ترجمة كتاب :

Coulton, G. G., The Medieval Scene :

An Informal Introduction to the
Middle Ages. Cambridge (At the
University Press), 1961.

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في لغته الأصلية سنة ١٩٣٠ ،

ثم صدرت طبعة مخفضة سنة ١٩٥٩ ، وأعيد طبعه سنة ١٩٦٠ ،

وسنة ١٩٦١ .

مقدمة الطبعة الثالثة

في عام ١٩٦٤ ظهرت الطبعة الأولى من الترجمة العربية لكتاب «عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة»، تأليف العالم الانجليزي جورج جوردون كولتون، وقد ضمنتها العديد من الشروح والخواشي. وفي عام ١٩٦٧ ظهرت طبعته الثانية، وقد مهدت للترجمة بدراسة تاريخية للأسس التي تركز عليها حضارة أوروبا ونظمها في الفترة الوسيطة من التاريخ.

واليوم أقدم لقراء العربية الطبعة الثالثة من هذه الترجمة لتكون المجلد الأول في «سلسلة تاريخ العصور الوسطى» التي تصدرها دار النهضة العربية ببيروت لبنان.

والكتاب يلقي الضوء على حلقة هامة في سلسلة التطور الحضاري الذي شهدته البشرية منذ القدم وحتى اليوم. إذ يزود القارئ بصورة واضحة عن أوضاع أوروبا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية إبان العصور الوسطى التي اقتطعت من تاريخ الانسانية عشرة قرون أو يزيد.

والله أسأله السداد.

جوزيف نسيم يوسف

بيروت (لبنان) يناير ١٩٨١

تصميم

في يناير سنة ١٩٦٤ ظهرت الطبعة الأولى من الترجمة العربية لهذا الكتاب ، بعد جهد من الاعداد دام سنوات ، وكنى قد ضمنتها عديدا من الشروح والحواشي ، وقدمت لها بكلمة تاريخية موجزة ، وذيلتها بالمراجع والفهارس التي لا يشتمل عليها النص الأصلي في الانجليزية .

والآن ، وبعد سنوات ثلاث ، أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الثانية ، مزينة ومنقحة . مزينة بما أضفت إليها من تعليقات ، ومنقحة بما جدت فيها من صياغات .

ولما كانت المقدمة التي صدرت بها الطبعة الأولى ، دراسة تاريخية موجزة عن أهم نظم أوروبا وحضارتها في العصور الوسطى ، وكانى - بتعبير أدق - مدخلا إلى النظم الأوروبية الوسيطة وحضارتها ، فقد رأيت أن هذه المقدمة في حاجة إلى شيء من الافاضة بحيث تكون أكثر شمولاً واستيعاباً لما أوجزه المؤلف أو تجاوز عنه .

وبالله التوفيق

جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية في أول مارس ١٩٦٧

كلمة المترجم

(تصدير الطبعة الاولى)

مؤلف هذا الكتاب هو جورج جوردون كولتون ولد بمدينة كينجزلين King's Lynn بانجلترا سنة ١٨٥٨ . و زاول مهنة التدريس في كلية ترينيتي Trinity College بكامبريدج محاضراً في مادة تاريخ الكنيسة . وكان زميلاً في كلية سان جون St. John's College ، ومحاضراً في اللغة الانجليزية بالجامعة . وهو احد الثقات المتخصصين في تاريخ العصور الوسطى . وفي سنة ١٩٢٩ قبل زميلاً في الاكاديمية البريطانية . وله مؤلفات عديدة أهمها « الصورة العامة للعصور الوسطى » Medieval Panorama ، و « دراسات في العصور الوسطى » Medieval Studies ، و « الحياة الاجتماعية في بريطانيا » Social Life in Britain ، و « الدين خلال خمسة قرون » Five Centuries of Religion ، و « الحياة في العصور الوسطى » Life in the Middle Ages ، و « القرية والاقطاعية والدير في العصور الوسطى » The Medieval Villlage ، و « القرية والاقطاعية والدير في العصور الوسطى » Medieval Village, Manor and Monastery ، و « عقوبة الموت على الهرطقة في الفترة من ١١٨٤ إلى ١٩٢١ » The Death Penalty for Heresy from 1184 to 1921 ، و « محاكم التفتيش » The Inquisition ، و « تشومر وانجلترا في عصره » Chaucer and his England ، و « الفن وحركة الاصلاح الديني » Art and the Reformation ، و « من القديس فرنسيس إلى دانتي » From St. Francis to Dante ، و « حياة القديس برنارد » The Life of St. Bernard ، و « دراسات في الفكر الوسيط » Studies in Medieval Thought . هذا

بالإضافة إلى الكتاب الذى نتولى ترجمته وهو Medieval Scene بعنوان « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » ، وكثير من البحوث والمقالات فى مختلف الدوريات التاريخية . وقد توفى ج. ج. كولتون سنة ١٩٤٧ عن تسعين سنة ، بعد حياة حافلة أمضاها فى المحاضرة والكتابة والتأليف .

لقد كان كولتون من كبار المشتغلين بالتاريخ الأوروبى الوسيط ، وبخاصة النظم والحضارة موضوع هذا الكتاب . وجدير بالذكر أنه ظهرت فى هذا الموضوع فى الغرب كتب مستقلة قائمة بذاتها ، نذكر منها تأليف مونرو وسيليرى (١) Munro & Sellery ، وج. كورث (٢) G. Kurth ، وج. جروب (٣) G. Grupp ، وف. فون يزولد (٤) F. v. Bezold ، وك. فوسلر (٥) K. Vossler ، وا. أير (٦) E. Eyre ، وكرمب وجاكوب (٧) Crump & Jacob وجاك لى جوف (٨) Jacques le Goff ، وغيرهم

Munro & Sellery, Medieval Civilization. New York, 1907. (١)

Kurth, G., Les origines de la Civilization moderne. (٢)
2 vols. Burssels, 1923 .

Grupp, G., Kulturgeschichte des Mittelalters. 6 vols. (٣)
Paderborn, 1921 - 25.

Bezold, F. v., Aus Mittelalter und Renaissance (٤)
kulturgeschichtliche Studien. Munich and Berlin, 1918.

Vossler, K., Medieval Culture. 2 vols New York, 1929. (٥)

Eyre, E. (ed.), European Civilisation. Vol. III: The (٦)
Middle Ages. London, 1935.

Crump, C. G. & Jacob, E. F., The Legacy of the (٧)
Middle Ages. Oxford, 1951.

Jacques le Goff, La Civilisation de L'Occident (٨)
Médiéval. Paris, 1965.

وإلى جانب ذلك ظهر العديد من الكتب والمقالات التي تناولت إحدى نواحي
النظم والحضارة ، أو نظم وحضارة إحدى الدول الأوروبية بالذات .

ومما يذكر أن المكتبة العربية فقيرة في هذا الحقل . فالكتب المؤلفة
بالعربية نادرة ، وتكاد تقتصر على الجزء الثاني من كتاب « أوربا العصور
الوسطى » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وهو الكتاب الوحيد الذى عالج
النظم والحضارة الوسيطة . أما عن المؤلفات التي تناولت جانباً من جوانب النظم
والحضارة ، فنذكر منها كتاب « النهضة الأوروبية في العصور الوسطى
وبداية الحديثة » للدكتور سعيد عاشور والدكتور محمد أنيس ، و « المجتمع
الأوربي في العصور الوسطى » للدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، و « الجامعات
الأوروبية في العصور الوسطى » للدكتور سعيد عاشور ، و « تاريخ الفلسفة
الأوروبية » ليوسف كرم ، و « فلسفة العصور الوسطى » للدكتور عبد الرحمن
بدوى ، و « تاريخ المجترات وحضارتها في العصور القديمة والوسطى » للدكتور
نظير حسان سعداوى ، و « محاكم التنقيش » للدكتور على مظهر .

ومن الكتب والأبحاث المعربة نذكر كتاب « نماذج بشرية من العصور
الوسطى » تأليف ايلين بور وتعريب محمد توفيق حسين ، و « الاقطاع والعصور
الوسطى في غرب أوربا » تأليف كوبلاندر وفينوجرادوف ترجمة الدكتور محمد
مصطفى زيادة ، و « الديبرية : أسبانيا ونتائجها » تأليف كوانتون ترجمة
الدكتور جمال الدين الشيال ، و « المسرح الدينى في العصور الوسطى » تأليف
ج. فرايبه و ا.م. جوسار ترجمة الدكتور محمد القصاص ، و « القرى البحرية
والتجارية في حوض للبحر المتوسط » تأليف ارشيبالد ر. لويس ترجمة أحمد
محمد عيسى ، وكتاب « تراث العصور الوسطى » الذى أشرف على تحريره
كومب وجاكوب ، وقام بمراجعة الترجمة العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة

والاستاذ محمد بدران ، وقد صدر الجزء الاول منه ، وكذلك كتاب « الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى » تأليف ل. م. هارتمان و ج. باراكلاف ، وقد قمت بنقله إلى العربية . وهناك أيضا بعض الكتب المعربة عن تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى ، تناولت فيما تناولته بعض جوانب الأنظمة الوسيطة . مثال ذلك كتاب « أوروبا في العصور الوسطى » تأليف ه. ر. ديفز ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدي محمود الذي يحوى فصولا عن الاقطاع والمدن الحرة والدولة في العصور الوسطى ، وكتاب « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى » تأليف ه. ا. ل. فشر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العربى والدكتور إبراهيم احمد العدوى ، وقد تضمن بدوره فصولا عن نمو المدن والحركتين الفكرية والدينية .

وإن الحديث عن الأنظمة والحضارة الوسيطة يقودنا إلى الإشارة إلى الكتب المؤلفة والمعرّبة عن الحضارة الإسلامية وأثرها في حضارة أوروبا خلال تلك الفترة من الزمن . فمن النوع الأول كتاب « المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية » تأليف الدكتور سعيد عاشور ، و « تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى » تأليف الدكتور عبد المنعم ماجد . ومن النوع الثانى « تراث الإسلام » تأليف توماس ارنولد وآخرين ترجمة الدكتور زكي محمد حسن ، و « تاريخ الحضارة الإسلامية » تأليف ف. بارتولد ترجمة حمزة طاهر ، و « حضارة الإسلام » تأليف جوستاف جرونبيوم ترجمة عبد العزيز جاويد ، و « أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى » لجورج يعقوب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على .

من العرض السابق يتضح لنا أنه لا يرجد كتاب شامل تناول النظم والحضارة الأوروبية الوسيطة باللغة العربية سوى مؤلف الدكتور سعيد

هاشور . وفيما عدا ذلك فليس هناك غير تنف أو شذرات أو بضع صفحات أو فصل أو بعض فصل عالج زاوية معينة من زوايا النظم أو الحضارة . وعلى هذا فالكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أول كتاب معرب شامل للنظم والحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى لأحد المؤرخين الغربيين النفاة المتخصصين فى هذه الناحية .

ومن سمات هذا الكتاب أنه يجمع بين دفتيه أهم مظاهر التاريخ الأوروبي الوسيط فى النظم والحضارة . وكان هذا من دواعى اختيار عنوان الكتاب على الوجه الذى صدر به . فهو يتناول الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية السائدة فى الغرب الأوروبي إبان تلك الحقبة من الزمن ، منذ انحلال الامبراطورية الرومانية حتى حركة الإصلاح الدينى . ويقسم المؤلف هذه الفترة الى قسمين متميزين هما : العصور المظلمة وتمتد من سنة ٤٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ ، والعصور الوسطى الحقيقية من سنة ١٠٠١ إلى سنة ١٥٠٠ . ويستعرض عبر هذه القرون الطويلة أهم الأنظمة الوسيطة كالأقطاع والقرية والمدينة والكيسة والنظام الأبرشى والفرومية والرهينة . ثم ينتقل إلى أبرز مظاهر الحضارة الأوروبية ، وهى التجارة والأسفار والفلسفة والفكر الحر والقانون والسياسة والديانة الشعبية .

قسم كولتون كتابه إلى أحد عشر فصلا ، تناول فى الأول الذى أطلق عليه « القوضى والتجديد » تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها فى قبضة العناصر الجرمانية فى القرن الخامس ، ذلك القرن الذى شاهد من الأحداث والتغيرات الخطيرة ما يبين بصفة قاطعة أن العالم الرومانى قد انتهى عندما تداعى « النظام القديم » من أساسه أمام جحافل الجرمان المتبربرين ليفتح المجال لأنظمة وحضارة جديدة . لقد كان هذا بمثابة نهاية عصر وبداية عصر

جديد . انهار ذلك الصرح الشامخ في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفكر الذي كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله أنظمة مغايرة وأمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها . ولقد عبرت الانسانية خلال هذه الفترة نوعا من الحضارة الوسيطة المتوسطة الشأن سداها الدين ولحمتها الحرب : فالأول أوحى به منذ البداية ظهور المسيحية وانتشارها وتأصل جذورها به في القضاء على الوثنية وعبادة الاباطرة . ثم اعتراف الاباطرة بها آخر الامر كديانة رسمية للدولة ، وتأسيس الكنيسة الرومانية ، وبجى الغزاة البرابرة وإبقائهم على تلك الكنيسة في الوقت الذي كانوا يكتسحون فيه الدول والحكام العلمانيين . أما الحرب فترتبط بنشأة الاقطاع وتطوره . ويوضح المؤلف كيف استمد الاقطاع أصوله من عادات وتقاليد الجرمان حتى قبل أن يستقروا في جوف الإمبراطورية . ويخلص من هذا أن مجتمع العصور الوسطى في ظل الاقطاع كان يختلف عما كان معروفا أيام الامبراطورية الرومانية ، أو عما هو معروف في أيامنا هذه . فبينما كانت الإمبراطورية الرومانية تقوم على المركزية المتطرفة ، كانت العصور الوسطى لا مركزية إلى حد بعيد . ومع ذلك فقد كان هناك نوع من الامتزاج التدريجي البطيء بين العنصرين التيوتوني والروماني . فضلا عن الأثر الذي تركته الوثنية القديمة في الديانة الجديدة . ومن الكتاب الغربيين المحدثين الذين كتبوا عن الاقطاع في المجتمع الغربي الوسيط ، الى جانب كولتون ، يجب أن نذكر ج . و . كوبلاندوب . فينوجرادوف و ج . كالمت و ا . دوبش و ر . كولبورن و بول لاكروا .

ويختتم كولتون هذا الفصل الأول بكلمة سريعة عن مساوئ العصور الوسطى

ومزاياها . فيذكر أن العصور الوسطى كانت على حد رأى ادوارد جيبيون — فترة ركود وظلام وجود ليس فيها أى خير للإنسانية . إذ قال جيبيون فى مقدمة كتابه « تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » إنه إنما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط التى تغلبت فيها البربرية والدين على النظام والحضارة . فانهارت الدولة الرومانية وقيام الدول المتبربرة ، والقضاء على الوثنية وظهور المسيحية — كل هذا كان فى نظر جيبيون بمثابة انهيار المدنية وبدى البربرية فى التاريخ الغربى الوسيط . يأخذ بهذا رأى أيضا المؤرخ و . ب . كير W . P . Ker فى كتابه « انهيار روما ونشأة أوروبا فى العصور الوسطى » . وفى هذا الحكم كثير من الظلم والبعد عن الحقيقة . حقا لقد أوجدت غارات المتبربرين حالة من الفوضى والاضطراب فى وقت كان فيه العالم الرومانى يلفظ آخر أنفاسه وكان على العصور الوسطى التخلص من هذه الحالة ، وإيجاد نوع من الهدوء والاستقرار النسبى . وقد قامت تلك العصور بمهمتها ، ونجحت فى إعادة الحياة إلى ما كانت عليه من قبل . وبدأ الظلام الذى شاب الغرب الاوروبى ينقشع تدريجيا . ثم أن هذه العصور لم تخل من مدنية خاصة بها لها صفاتها ومقوماتها وميزاتها ، مدنية كانت نتيجة طبيعية للظروف التى أحاطت بالانسان فى فترة التغير والانتقال من القديم الى الوسيط . وعلى هذا ، فانه وإن كان للقرون الوسطى بعض المساوئ فقد كان لها أيضا بعض المزايا ، مما ساعدها على تأدية واجبها فى التمهيد لعصر النهضة الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة .

أما الفصل الثانى وعنوانه « القرية فى العصور الوسطى » فيوضح فيه المؤلف

كيف كانت القرية الوسيطة تمثل الوحدة السياسية والدينية في المجتمع الغربي، بينما قامت الوحدة الزراعية على ما يعرف بالاقطاع . والاقطاع نظام يتعلق بالأرض وفلاحتها وتوزيعها بين الناس، تلك الأرض التي على أساسها انقسمت المجتمعات افقياً الى طبقاتها المعروفة في العصور الوسطى ، لكل منها مكانها ومميزاتها وحقوقها وواجباتها في السلم الاقطاعي تبعاً لما ترتبط به من سعة الاقطاع . فكان هناك السادة كبار ملاك الأرض من رجال الدنيا والدين على السواء في الطبقات العليا ينعمون بكل شيء ، والأقنان ورقائق الأرض في الطبقات الدنيا محرومين من كل شيء . ولقد كان الترابط وثيقاً بين القرية والاقطاع في تلك العصور ، بمعنى أن القرية الوسيطة كانت قرية اقطاعية . ويحدثنا المؤلف عن نظام الزراعة في هذه القرية الاقطاعية ، وعن مروجها، ومراعيها ، وغاباتها وحقوقها ، والأرض المشاع فيها ، وموظفيها ، وعمالها ، وحاجياتها ومطالبها ، ومجلسها ومحكمتها ، ثم قصر البارون وأرضه . وأخيراً عزلة القرية عن العالم المحيط بها واكتفائها الذاتي . ونخرج من هذا كله بصورة واضحة مبسطة عن الطبقة والاقطاع والقرية الاقطاعية في المجتمع الغربي الوسيط .

وفي الفصل الثالث وهو « الكنيسة والقرية » ، يشير كولتون إلى احـتـكار الكنيسة الرومانية للتعليم الديني الذي أصبح مقصوراً عليها وعلى رجالها ؛ وكيف أن رجال الدين لم يبذلوا نشاطاً ملموساً في هذا المضمار ، ولم يكونوا على قدر كبير من الكفاءة التي نسبت لـيـهم . وقد بلغ الأمر بالكنيسة الوسيطة أنها أصبحت تهيم على مصالح الخلق ومقدراتهم ، وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، حتى أن مجرد الخروج على أوامرها ونواهيها وتعاليمها كان يعتبر

هرطقة يتعرض صاحبها لأشد أنواع العقاب : وما أكثر أسلحة الكنيسة التي كانت تستخدمها ضد معارضيها ، من حرمان ونقمة ولعنة وقطع : وهكذا كانت تلك الكنيسة في ظل الظروف التي أحاطت بزوال الدولة الرومانية وبداية العصر الوسيط هي كل شيء بالنسبة لكل الناس : وقد ساقها هذا مع مرور الزمن إلى الدخول في صراع عنيف مع القوى العلمانية ، مما ترتب عليه هو وسياسة الاحتكار التي اتبعتها ، فقدان هيبتها ونموذها ، ثم انهيارها آخر الأمر : وتضمن هذا الفصل أيضا دراسة مركزة عن أبرشية العصور الوسطى ونظامها ، وموظفيها ، ودخلها ، وكل ما يتعلق بها . وقد تناول النظام الأبرشي بشيء من التفصيل العالم البلجيكي هنري بيرين H. Pirenne في كتابيه «مدن العصور الوسطى» و «تاريخ أوروبا الاقتصادية والاجتماعي في العصور الوسطى» .

وخصص كولتون الفصل الرابع وهو « المدن الحقول » لمدينة العصور الوسطى . فذكر أنه ليس هناك فارق كبير بين المدينة والقرية في تلك الأزمنة ؛ بمعنى أن المدينة الوسيطة لم تكن سوى قرية نامية . وكانت الحياة فيها عبارة عن غرس جديد ناهض أكثر منها امتدادا للحضارة الرومانية القديمة . ثم ينتقل إلى الحديث عن مقومات المدينة ، ومظاهرها الحياة فيها وفي ضواحيها ، ومساكنها ، ونظمها البلدية ، وضرائبها ، والحريات التي حصلت عليها والامتيازات التي تمتعت بها . ويعتبر كتاب بيرين « مدن العصور الوسطى » ، حتى اليوم من أحسن ما كتب في هذا الموضوع .

وفي الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن ظاهرة بارزة من ظواهر العصور الوسطى وهي الفروسية التي تعتبر نظاما دينيا وحريريا معا . لقد كان الفرسان

أصلا من الرجال الأحرار الذين انخلوا من الحرب صناعة لهم ، وكانوا يعملون في أوائل القرون الوسطى في فرق المشاة في جيوش الجرمان . ثم انتقلوا في القرن التاسع إلى القتال على ظهور الخيل ، وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الحين بالفرسان : وأصبح لكل منهم تابع يعاونه في ارتداء ملابسه وحمل سلاحه . وكان هذا التابع يتلقى أصول الفروسية على يد سيده ؛ وعندما يبلغ سن الرشد يصبح هو الآخر فارساً ، ويتقلد رتبة الفروسية في احتفال كبير له تقام أليده وطقوسه ؛ وجدير بالذكر أن أبناء الفرسان لم يتمتعوا في البداية بحقوق الوراثة من حيث اللقب وشرف الأصل ، وإنما استقرت هذه الأمور متأخرا في القرن الحادى عشر حينما أصبحت الفروسية لا تعنى صناعة الحرب والقتال فحسب ، وإنما اصطبغت بصبغة النبيل وشرف الدم يتوارثها الإبن عن أبيه . كل هذا مر عليه كولتون مروراً سريعاً . ولكنه مع ذلك زودنا بنماذج وأمثلة طريفة مسهبة عن الفروسية وحفلاتها وطقوسها ومبارياتها ، مستقاة من كتاب جوانفيل عن حياة القديس لويس ومن حولية فرواسار عن حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا . ويعتبر كتاب سيدنى بنتر S. Painter عن الفروسية في فرنسا في العصور الوسطى متما لئلا أغفله كولتون في هذا الشأن . كما تمدنا كتابات ب . لacroix و P. و . تذييسون E. Tenison و ف . وودهاوس F. Woodhouse بمعلومات مسهبة عن الفروسية .

وفي الفصل السادس يتكلم المؤلف عن ظاهرة أخرى هامة من تاريخ القرون الوسطى ، وهى الرهبنة التى كانت أول نشأتها في مصر في هيئة حركة توحيدية انفرادية . ثم تطورها إلى حركة الحياة الاجتماعية الاشتراكية بين الرهبان ، وانتقالها إلى أوروبا حيث ساعدت على انتشارها هناك الظروف

المختلفة التي سادت في ذلك الوقت ، وهي حالة القلق والاضطراب إثر غزوات
الجرمان ، وقيام الحروب المستمرة ، وحركة الاضطهاد الديني التي صاحبت
ظهور المسيحية . وقد بدأت الحياة الديرية تأخذ شكلها الواضح في أوروبا على
يد القديس بازيل في القرن الرابع الميلادي . وفي القرن السادس تطورت الفكرة
الرهبانية إلى ما يعرف بالديرية البندكتية نسبة إلى القديس بندكت الذي وضع
قانونا للربان أساسه إنساني وروحي معا ، ويقوم على أربعة أسس هي التبتل
والطهارة وتكران الذات والطاعة العمياء . ولم يغفل بندكت الناحية العلمية ،
فكانت أديرته منبعاً للعلم بينما كان عامة الناس يغطون في جهل عميق .
ونتيجة لذلك انتشرت ديرية بندكت على حياة التوحد والتقشف . ولكنها لم
تلبث أن سارت نحو الانهيار بسبب ازدياد الثروة الموقوفة عليها . وباتت
الرهينة في أمس الحاجة إلى الإصلاح .

ولم تلبث أن ظهرت حركات إصلاح جديدة منها الحركة الكلوية التي
بدأت في القرن العاشر ضيقة أول الأمر . ولكنها أخذت تتسع وتنتشر ،
وكان أساسها الاتحاد التام بين جميع البيوتات الكلوية والاتصال المباشر بالبابا .
ولحققتها جماعات رهبانية أخرى مثل جماعة السسترشيان التي عادت إلى التقاليد
البندكتية الأصلية مع إدخال شيء من التصوف فيها ، وتجنب الملبس الفاسخ
والتمسك بالبساطة في كل شيء . وجماعة الكارثوذيان وكان أعضاؤها ينزعون
إلى التوحد كل منهم داخل صومعته ، وإن كانوا يعيشون تحت سقف دير
واحد . وجماعة الاخوان الفرنسيسكان التي كان أساسها الفقر والتقشف مع
الاندماج في الحياة العامة للوعظ والتبشير والارشاد والتعليم . وكذلك
الاخوان الدومينيكان الذين كان من مبادئهم الوعظ والارشاد بين الناس ،

مع العمل بكل الوسائل على مكافحة تيار الهرطقة الذي كان قد اشتد وقتذاك. هذا ، إلى جانب جماعات أخرى مثل الاخوان الكرمليين ، والإخوان الأوغسطينيين ، وغيرها : ولكن مع مرور الزمن أخذ الفساد يدب في نظم الرهبنة والديرية نتيجة تكاثر الأوقاف والهبات على الأديرة وإهمال روح تعاليمها وقوانينها ، الأمر الذي أدى إلى تدهورها وانحلالها في أخريات العصر الوسيط ، بعد أن فقدت مثالياتها الأولى وبعد أن انحرف الرهبان عن مبادئها الأصلية .

وجدبر بالذكر أن المؤرخ فردريك هير F. Herr يعرض في كتابه « عالم العصور الوسطى - أوروبا من ١١٠٠ إلى ١٣٥٠ » لموضوع الرهبنة والديرية في الغرب من زاوية مر عليها كولينتون مرورا سريعا . يقول في الفصل الثالث من كتابه ، وعنوان الفصل المذكور « ديانة الشعب » ، إنه مما يشير الدهشة أننا إذا بحثنا عن قلب الكنيسة النابض بالحياة في تلك الأزمان قبل تعرضها لتيار الهرطقة وحركات الإصلاح ، لوجدناه في الدير . فحتى منتصف القرن الثاني عشر لم تكن قيادة العالم المسيحي في يد البابوات أو المشرعين الكنسيين أو اللاهوتيين الجامعيين ، ولكنها كانت في يد الرهبان وقد شهدت الخمسون سنة التي سبقت عام ١١٢٢ عددا من البابوات الذين نشأوا داخل الأديرة وكان كبار أساتذة اللاهوت من بين الرهبان . وكذلك كان أوائل الفلاسفة العظام في التاريخ . كما كان وعاظ الأديرة هم الحفاظ على الثقافة الشعبية . وقد ظل الفن الشعبي باقيا وتطور في كنف الأديرة . لقد عاش الرهبان بين الناس ، وشاركوهم أفراحهم وأحزانهم . وكانت الأديرة هي الملاذ الذي يهرب إليه الفلاحون السكادحون في الأرض هربا من آلام الجوع وقسوة

واستبداد سادتهم الأرستقراطيين . وكان طبيعيا أن يتوقع الناس من الرهبان أن يكونوا على مستوى عال من التوجيه والارشاد . وكان على الرهبان ، تحت ظل هذه الظروف ، أن يصلوا إلى مرتبة الكمال .

وكان هذا أمرا صعب التحقيق بعيد المنال . ويفوق في أهميته النواحي الأخرى من سياسية واجتماعية . فقد وقع الناس جميعا ، من رجال الدنيا والدين على السواء ، في شباك الصراع العلماني . وأدركوا أنه من المستحيل أن يعيشوا في هذا العالم ، وأن يكونوا في ذات الوقت أشبه بالمالائكة . وقد وجد من يستطيع القيام بهذا العبء . إذ وقع على الرهبان في أديرتهم مسئولية اصفاء لون من القداسة على الحياة المسيحية . ومع استحالة تحقيق تلك الأمنية في عالم ملئ بالعنف ومشبع بالإثم والخطيئة - كان باستطاعة الراهب وحده الوصول إلى مستوى الكمال الشخصي المنشود . وكان هذا اليقين في استحالة بلوغ الناس مرتبة الكمال هو أساس حركات الإصلاح التي شهدتها العصور الوسطى في قرونها الأخيرة ؛ وعندما انعدم الأمل نهائيا في إدراك هذا الكمال ، اتجه الجميع إلى المحافظة على نقاء الديرية كما كانت في بداية عهدها ، والعمل على تطهيرها من الفساد الذي بدأ يستشري فيها ويهدد كيائها . وهكذا كان على كل من يبحث عن هذا الكمال أن ينهذ الحياة الدنيا بالالتجاء إلى الدير . ولكن ماذا بوسع تلك الدير أن تفعل عندما تصبح هي نفسها موطنًا للفساد حيث يمضي الرهبان وقتهم في الشجار وشرب الخمر ؟

ومبكرا منذ القرن التاسع تسلت أنواع من حركات الإصلاح كشعاع أو بصيص من نور عبر تاريخ الكنيسة اللاتينية . وأصبحت مثل هذه الحركات

خلال القرنين العاشر والحادى عشر أكثر تركيزا . كما اكتسبت أهمية سياسية واجتماعية واعتبارا من القرن الثالث عشر غدت أكثر قوة ونفوذا ، ومهدت الجماعات الرهبانية الجديدة لعصر جديد تسوده الكنيسة التي يحكمها البابوات . ومما يذكر أن كثيرا من حركات الاصلاح السابقة للقرن الثانى عشر ، وكذلك معظم الجماعات التي ظهرت فى القرن الثالث عشر ، قد اتسمت بالتحفظ - ظ ؛ ذلك أنها قامت باصلاح النظم القائمة فحسب .

ومن ثم بدأت هذه الزعامة الديرية فى الانهيار لأسباب مختلفة ، منها - الثراء المتزايد عن طريق الهبات والأوقاف ، والبطالة ، وحياة التراخي والكسل التي نفشت بين الرهبان نتيجة استخدامهم الاقنان للعمل فى أراضي الأديرة . وكان أن بدأت حركات اصلاح الرهبنة والديرية حتى تعود إلى سيرتها الأولى . وكانت هذه الحركات والجماعات الرهبانية الداعية لها خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر تعمل بطريق غير مباشر لإصلاح الكنيسة وهيئة رجال الدين العلمانيين . وكان انشاء دير جديد ، أو اصلاح آخر قديم فى الغرب ، يعنى تنقية الدماء المسيحية مما شابها من عفن وفساد . وهكذا كانت هذه الحلايا التي تهب الحياة هي الملاذ الذى يأوى إليه المسيحيون الهاربون من العالم بحثا عن الكمال المنشود .

فن ناحية ، كانت الحاجة الى تأسيس جماعات رهبانية جديدة بمثابة ود فعل للدهوة الى الاصلاح ، ومن ناحية أخرى ، كان البابوات ، بعد أن ناءوا بمطالب الكنيسة المتزايدة ، يبحثون عن حليف لهم . وكان هذا الحليف هو الدير . ولم يترك أمر اصلاح الديرية للصدفة ، ولكنه كان طبقا لنظام مدروس . وهكذا شهد القرن الثانى عشر العديد من الجماعات الرهبانية الجديدة

الداعية للإصلاح مثل السسترشيان . وكان هدفها جميعا هو التجليق بعيدا عن هذا العالم ، بعد أن غرقت كنيسة العصور الوسطى بخاصة والعالم المسيحي بصفة عامة في الدنيويات .

لقد نظر المعاصرون الى الجماعات الديرية والرهبانية الجديدة بمزيج من الاعجاب والأمل والخوف . وغدا التساؤل : هل سيعود الرهبان الجددبالعالم المسيحي الى سابق عهده ؟ أم هل يعتبر ظهور هؤلاء الرهبان النذير بنهاية العالم والحساب الأخير ، وبحكم الله على الأرض ؟ وكيف يمكن أن يتفق الوضع الجديد في تلك الجماعات الرهبانية مع وحدة الكنيسة ؟ وفي الحال لاحت في الأفق بذور الكراهية والشك والمنافسة بين الجماعات الرهبانية الجديدة ، وبينها وبين الجماعات القديمة . ولكن ما وجدته المعاصرون كان أكثر هولا وبشاعة . ذلك أن المؤسسات الجديدة لم يكن باستطاعتها مواجهة اللفتة الدينية المألوفة وكافة المطالب التي تضطرم في النفوس . كما لم يكن بوسعها مواجهة تدفق الحركات الفكرية والروحية الجديدة الوافدة من بلاد البحر المتوسط . وكان أن ظلت الديرية — سواء الطراز القديم منها ، أو الديرية في ثوبها الجديد الذي تزيت به في القرن الثاني عشر — هيثة ارمستقراطية اقطاعية ترتبط بالأرض وبالاقتصاد الزراعي ، بعيدة عن المدن واقتصادها النقدي المرتبط بالتجارة والصناعة . ووجدت بطبيعة الحال ، استثناءات قليلة من تلك القاعدة في المناطق التي كانت فيها خطوط التقسيم بين المدينة والقرية غير واضحة تمام الوضوح . وقد ساهم الرهبان بقدر ضئيل في الحياة الفكرية الجديدة التي ازدهرت في المدارس الكاتدرائية والجامعات والمدن الجديدة — تلك الأماكن التي سرى فيها تيار الحياة قويا دافقا مندفعاً جارفا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

ولقد بقيت الكنائس والأديرة ذات الانظمة القديمة داخل نطاق ضيق محدود من الأرض التي شيدت فوقها . وكان الرهبان ، بصفة عامة ، مرتبطين بأديرتهم مدى الحياة . وكانت الأديرة البندكتية التي يزيد عددها عن الألف ، وكذلك الجماعات الرهبانية الجديدة التي تجاوزت المائة والتي شكلت على نفس الطراز ، عبارة عن واحات تنوغل في أودية الغابات أو على ضفاف الجداول الصغيرة أو فوق المرتفعات الجبلية في إيطاليا والمانيا . وكان بوسع تلك الأديرة إيواء اللاجئين إليها هربا من الأزمات والفوضى والاضطرابات التي كانت أوروبا مسرحا لها خلال تلك الحقبة من الزمن . ولكن لم يكن بوسعها القضاء على تلك الفوضى أو حتى العمل على إزالة أسبابها .

وفي الفصل السابع من هذا الكتاب يعالج كولتون موضوع التجارة والأسفار . فيحدثنا عن الاتحادات ونقابات المهن في العصور الوسطى وأنواعها . فقد كانت هناك مهن كبرى ومهن صغرى ، وكان الأفراد ينضمون إليها كل حسب ميله ومهارته وحذقه في صناعته . ويستعرض نشأة هذه النقابات وتطورها مع بيان مساوئها ومزاياها . فمع مضارها أنها وجدت أساسا لمصلحة المهن وأربابها فحسب . فهي تتحكم في تحديد الصناعة ونوعها والسعر وأماكن للبيع بحيث تنعدم حرية الفرد العادي . وكانت الأرباح لا تعود إلا لصالح أعضاء النقابة دون باقي أفراد الشعب : وأما من محاسنها فكانت تنحصر في أمرين : أولهما محافظتهما على مستوى العمل ، وثانيهما مكافحتها للغش وأساليبه قدر الاستطاعة . ومع ذلك لم تصادف إلا نجاحا ضئيلا في هذه الناحية . هذا عن التجارة المحلية الداخلية الضيقة ؛ أما الرحلات والأسفار والمغامرات البحرية بمعناها الواسع فتبدو في نشاط انجلترا التجارية عبر القناة ، وفي بعثات البابوية إلى التتار ، ورحلات آل بولو إلى

الشرق الأقصى ، وفي ازدياد التعامل التجاري بين الغرب والشرق الأدنى وبخاصة أثناء الحروب الصليبية وبعد انتهائها . لقد أدت هذه الحروب إلى نشاط الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، وازدياد القوة البحرية للمدن التجارية الأوروبية ، وبصفة خاصة المدن الإيطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية وفلورنسا التي غدت طرقا هامة للتجارة الدولية وقتذاك . وهذا يدل على أنه مع بداية العصور الوسطى الحقيقية بدأ نشاط واضح في ميدان التجارة الخارجية ، سواء بين الجزيرة البريطانية والقارة ، أو بين بلدان القارة وبعضها البعض ، أو بين أوروبا وبلاد الشرقيين الأقصى والأدنى . وجدير بالذكر أن كتاب هنري بيرين « تاريخ أوروبا الاقتصادية والاجتماعي في العصور الوسطى » يعتبر من أفضل ما كتب في هذه الناحية . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا عن كتاب وليم هايد W. Heyd وعنوانه « تاريخ تجارة الخيول الشرق للبحر المتوسط في العصور الوسطى » :

ويعالج الفصل الثامن موضوع « الفلسفة والفكر الحر » . ولا بد أن نقدم لذلك بكلمة سريعة لم يعرض لها المؤلف إلا في أسطر معدودات ، عن الأسباب التي أدت إلى ظهور الفكر الحر والمذاهب الفلسفية المختلفة في أواخر العصور الوسطى . لقد تسلطت الكنيسة الرومانية على عقول الأفراد ومقدراتهم ، وكانت نظرة أهل العصور المظلمة إلى الحياة نظرة ضيقة في نطاق المسيحية التي كانت تدعو إلى التفكير في العالم الآخر . فكان الفرد يقبل كل شيء دون فهم أو إدراك أو مناقشة ، وخضع لآراء الكنيسة وتعالمها خضوعا أعمى ، وأصبح يصدق كل ما يقال له من الخزعبلات والخرافات وهكذا لم يهتم أهل العصور الوسطى المبكرة بهذه الحياة الدنيا ولم يقدروها حق قدرها ، فهم في نظرهم فترة زائلة لا قيمة لها . وكان من أثر ذلك أن نظروا إلى التراث القديم نظرة ضيقة ،

مما أدى في نهاية الأمر ومع مرور الزمن إلى وجود شعور بالسأم والملل وحالة من الضغط والكبت والحرمان ؛ ونتج عن ذلك الغليان والانفجار . كل هذا يعتبر من أهم عوامل التغيير في الإنسان وفي المجتمع الغربي الوسيط ، في وقت بدأ فيه هذا المجتمع ، بعد أن انقشع الظلام الذي صاحبه بداية التـاريخ الوسيط ، ينفض عن كاهله غبار الماضي ويستعيد قوته ونشاطه وفكره . فكان أن تخلخلت المفاهيم والمعايير البسيطة ، وبدأت النفس البشرية محاولاتها الأولى للانطلاق من تلك الدائرة المغلقة التي وضعها فيها الكنيسة ، والخروج على تعاليمها وطاعتها . وساعد على ذلك أيضا ظهور أسطورة في اخريات القرن العاشر تقول بأن العالم سينتهي بنهاية الألف الأولى ، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به . فكان أن ظهرت موجة من الزهد والتقصف والتصوف والبعث عن ملذات الحياة ومباهجها . وان تميزت هذه الأسطورة بشيء فإنيما تتميز بقيمتها الرمزية فقط باعتبارها من العوامل التي ساعدت على نهضة القرن الحادى عشر وظهور الفكر الحر في القرن الذي يليه . وتناول ذلك بالتحليل والبحث والدراسة المؤرخ شارل هورمر هاسكنز في كتابه « نهضة القرن الثانى عشر » .

على أية حال ، أصبح الفكر الحر يمثل تحرك الروح الإنسانية من قيود العصور المظلمة إلى أوضاع جديدة . فحاول المفكرون الخروج عن التفكير المسيحي البسيط المتزمت ، والتحرر من تقاليده البالية التي كانت تحدد من نشاطهم وانتاجهم . كما عادوا إلى التراث القديم محاولين إحيائه والإفادة منه . وبدأت المذاهب الفلسفية القديمة مثل الارسططالية والأفلاطونية في الانتشار . وأخذت الأذهان والعقول تحتك بين العنصرين الرجعى المتزمت والمجدد المتحرر ، على مسائل حيوية في التفكير والفلسفة في ذلك العصر . ويتمثل هذا أصدق تمثيل في شخصيتين من أكبر الشخصيات التي ملأت العصور الوسطى حركة ونشاطا ، ألا وهما القديس برنارد أرف كليرفو الذي يمثل التفكير

الدينى الضيق والفيلسوف بطرس ابيلارد زعيم الفكر الحر فى القرن الدانى عشر، والداعى إلى تحرير الذهن من التقاليد البالية واستخدام العقل وتطبيقه على كل شىء حتى على الدين نفسه . وإن كان الفكر الدينى قد انتصر على الفكر الحر فى أول الأمر ، إلا أن قوة فلسفة ابيلارد صمدت فى الأجيال التالية ممثلة فى هذا الرعيل من الفلاسفة والمفكرين الذين جاءوا بعده ، ومن بينهم تلميذه بطرس المباردى مؤلف كتاب الجمل ، ، وتوما الأكرينى صاحب الكامل فى اللاهوت ، ، ووليم اوكهام ، ومارسيل اوف بادرا ، وغيرهم .

لقد وجدت الكنيسة فى هذه النهضة الفكرية وتلك المذاهب الفلسفية خطرا يهدد كيانها ويقوض بنيانها . ولذلك قاومتها بكل ما وسعها من قوة ، مستخدمة فى ذلك أسلحتها التقليدية . وأخذت تصمم كل من يحاول الخروج على تعاليمها بالهرطقة وتوقع عليه قرار الحرمان ؛ وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف ابيلارد نفسه وتلميذه بطرس اللبـاردى . وساعد ذلك على ظهور حركات الهرطقة ومحاكم التفتيش وما ترتب عليها من آثار مفرجة من حيث المحاكمة واحراق من أدانتهم الكنيسة . ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف عجلة الزمن عن السير فى الطريق المرسوم لها . فقد بدأ سلطان الكنيسة فى التناقص تدريجيا ، بينما أخذ أفق الإنسان الضيق يتسع شيئا فشيئا ، مما يؤكد بأن الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى كانت تتميز بنوع من التحرر والانطلاق من قيود العصور المظلمة وأنظمتها وتعاليمها وفلسفتها وتفكيرها إلى أوضاع جديدة مغايرة .

وينقسم الفصل التاسع من هذا الكتاب إلى قسمين : الأول يتناول فيه كولينتون القانون ، ويكتفى بالحديث عن القانون الكنسى وعن هبة قسطنطين المزورة وغيرها من المراسيم المزيفة التى أصدرتها البابوية تمكينا لسيادتها الدينية

والدنيوية على الغرب الأوروبي كله . ثم يشير إلى النهضة التي شملت الكنيسة في القرن الثاني عشر ، واهتمام جراسيان باحياء القانون الكنسى فى تلك المراسيم التي أصدرها فى منتصف ذلك القرن ؛ ولو انها لم تكن فى هيئة مجموعة قانونية بالمعنى المفهوم ، وإنما فى شكل مرجع عام للطلاب !متاز بطابعه المدرسى . وكانت هذه المراسيم والمجموعات اللاحقة لها مندا للبابوية فى صراعها ضد القوى العلمانية وعلى رأسها الإمبراطورية . ويختتم هذا القسم بالكلام عن دور الجامعات التي بزغت شمسها فى القرن الثانى عشر ونهضته العلمية الأولى التي صاحبت النهضة الكنسية . فالجامعات هي التي حملت لواء العلم والمعرفة مما ساعد على تنوير أذهان الناس وزيادة عدد المثقفين . كما خرج من بين جدرانها الكثير من العلماء والمفكرين الذين أخذوا ينادون بالإصلاح الشامل فى النظم والتعاليم الكنسية ، ويطالبون بتحرير الفكر وانطلاقه .

وفى القسم الثانى من الفصل التاسع يتحدث كولتون عن الفكر السياسى . فيشير فى عجلة إلى الكفاح المبرر بين البابوية والامبراطورية الذى شغل الفترة الثانية من العصور الوسطى . ولتفصيل ذلك نقول ان الأسباب الحقيقية لهذا الكفاح هي محاولة كل من السلطتين الدينية والدنيوية لإعلاء شأنها على حساب الأخرى . وقد مر هذا الكفاح بعدة مراحل كانت أولاها بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع حول مشكلة التقليد العلمانى . وانتهت باذلال الامبراطورية فى حادثة كانوسا الشهيرة . أما المرحلة الثانية فكانت بين البابا كاليكستس الثانى Calixtus II والامبراطور هنرى الخامس ، وانتهت بعقد اتفاقية ورمز بين الطرفين سنة ١١٢٢ لحل مشكلة التقليد العلمانى . ولم يلبث أن ثار النزاع مرة أخرى بين البابا اسكندر الثالث والامبراطور فردريك بارباروسا الذى قام بعدة حملات فى ايطاليا لتحقيق سيادته عليها . ولكنه هزم فى الحملة الأخيرة ، واضطر إلى عقد اتفاقية مع البابا تقوم على

نفس الأسس السابقة . وكانت المرحلة الرابعة من الصراع أيام البابا انوسنت الثالث الذى أذل الملوك والامراء فى الغرب ، وبلغت البابوية فى عهده أقصى قوتها فى التاريخ الوسيط ، وإن كانت تحمل بين جنباتها عوامل ضعفها وانهارها .

لقد نشأت حول الكفاح بين الكنيسة التى يمثلها البابا والدولة التى يمثلها الامبراطور كثير من النظريات السياسية التى قام بترويجها أصحاب المصالح من مناصرى الكنيسة لتدعيم سلطانها ونفوذها على أساس ديني وقانوني معا ، وقد تعرض كولتون للنظرية الخاصة بهبة قسطنطين المزورة وتلك التى ضمنها القديس أوغسطين فى كتابه « مدينة الله » . فضلا عن بعض الأقوال المنسوبة إلى عدد من البابوات . ولكنه لم يشر إلى النظريات الأخرى مثل « نظرية الوحدة » ، و « نظرية السيفين » ، والعبارات المأثورة للبابا انوسنت الثالث عن سيادة البابوية . وكلها تنادى بتفوق البابوية على الامبراطورية ، وجدير بالذكر ان مثل هذه النظريات كانت عند البابوات بمثابة عقيدة متأصلة فى أعماق أذهانهم ، وأصبحت هديا وسندا لهم فى تحقيق مصالحهم وأطماعهم ورفع سلطانهم على الامبراطورية وغيرها من القوى الزمنية الأخرى فى العالم المسيحي الوسيط .

ومع ذلك فان هذه الانتصارات التى حققتها البابوية فى الشؤون العلمانية كانت تحمل بين طياتها بذور التدهور والخللان . إذ خرجت البابوية على رسالتها الروحية فى محاولة هدفها هدم الأباطرة وإذلال الملوك . فأثارت الشكوك حول قدسيتها ، وبدأ الناس يتفضون من حولها . حدث كل هذا فى الوقت الذى كان فيه العالم الغربى يتغير من العصر الوسيط إلى عصر النهضة .

ويتناول كولتون في الفصل العاشر موقف الكنيسة من التجارة بمعنيها الضيق والواسع ، وموقفها من الربا والربح والإقراض بالفائدة . لقد كانت التجارة في القرون الأولى من المسيحية في حكم المعدومة . إذ حرمها الكتاب المقدس صراحة . وكان هذا أيضا هو موقف الآباء والكتاب المسيحيين الأول مثل حنا فم الذهب . وعلى هذا الأساس نظرت الكنيسة إلى التجارة باعتبارها عملا مردوفا . وازداد موقفها من التجارة عنقا وتشددا بعد أن تحولت إلى هيئة اقطاعية لها مصالح ترتبط بالأرض وفلاحتها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من السادة الاقطاعيين . ومع ذلك فقد اضطرت تحت ضغط الظروف وبمرور الزمن إلى ائراج التدرجي عن موقفها المتزمت ، وان لم يكن ذلك بصورة رسمية واضحة . ووجد بعض الكتاب المعتدلين الذين وافقوا على حصول التاجر على كسب شريف . معقول ، مثل كل من القديس توما الأكويني والقديس أنطولينو فكان هذا بداية ظهور مبدأ السعر العادل في التجارة وحتى ذلك الحين كان مجرد الحصول على ربح كبير يعتبر لاثما لا تقبله السلطات الكهنوتية . وطبقا لذلك تم تحديد الاسعار منعا من التلاعب أو الكسب غير الشريف . واعتبارا من القرن الثاني عشر ظهرت مشكلة جديدة هي مشكلة الربا ، أى اقراض النقود بفوائد . وكانت المسيحية تعتبر الربا خطيئة يميته لانه محرم في الكتاب المقدس بحيث لم يكن سهلا الجدل فيه . وكان هذا يعنى بكلمة واضحة القضاء على حرية التجارة النامية في ذلك الحين . وكان الامر يستلزم ادخال تعديلات في القانون السائد أو في التعريف الأصلي للربا نفسه ، حتى ينهض المجتمع وتسير عجلة الحياة . فعلا استجدت مبادئ عن الربا هدفها تخفيف التحريم المسيحي له . فوجد بابا مثل انرسنت الثالث مثالا يوافق على استثمار الاموال في بعض النواحي . ومع ذلك نجد بابا آخر مثل جريجورى التاسع يعود إلى موقف الكنيسة المتزمت ، ويحرم الربا تحريما باتا ، متحديا

بذلك التجارة النامية في المجتمع الغربي الوسيط . ولم تكن مثل هذه المعارضة لترجع عقارب الساعة الى الوراء ، إذ وجد كثير من علماء اللاهوت الذين هارضوا رأى البابا في هذا الشأن ، وفي مقدمة هؤلاء الآكوييني ومن جاء بعده من الفلاسفة . ولكن بظهور المؤثرات الجديدة في أخريات العصور الوسطى ، تغيرت نظرة كثير من البابوات والحكام العلمانيين إلى التجارة والربا ، مما يؤكد بأن عصرًا قد ولى بأوضاعه وتقاليده ليحل محله عصر جديد مغاير .

والفصل الأخير من الكتاب وهو « ديانة الشعب » عبارة عن دراسة في أفكار الرجل العادى ومعتقداته . يقول المؤلف إن معظم المعتقدات والنبوءات والأساطير والاحتفالات الدينية والأعياد المقدسة وطقوس الكنيسة تنبعث من بين الطبقات الدنيا . ولذلك كانت موضع الرضا والقبول والارتباح . وأما الدين الرسمى بأمراره ومغاليقه ، فقد عملت الكنيسة قدر استطاعتها على تبسيطه حتى يكون في مستوى الفهم من عامة الشعب ولم يكن هذا بالأمر السهل أو الميسور .

ومرة أخرى يدلى فردريك هير بدلوه في موضوع ديانة الشعب ، الذى خصص له فصلا مسهبًا قائمًا بذاته في كتابه « عالم العصور الوسطى » يتمم ما أغفله كولتون ، يقول إن ديانة العصور الوسطى كانت مزيجًا من عناصر عديدة هي الوثنية والتراث القديم والشعب والمسيحية . وكانت تلك هي ديانة الفلاحين وجانب كبير من النبلاء والطبقة البرجوازية في المدن وصغار رجال الدين والرهبان . ويدل مظهر تلك الديانة على قيام صراع واضح بين عناصرها المختلفة التى تتألف منها . ومع ذلك فقد حدث تآلف بينها في الحياة اليومية العادية . وتكشف عن ذلك الأحوال في مقاطعة بريتانى

التي تعتبر حتى يومنا هذا حصص الكاثوليكية الفرنسية التقليدية .

وكان التوازن بين تلك العناصر في تغير مستمر ، مما يصعب معه تقدير المواضع التي حلت فيها الصلاة محل السحر أو العكس . لقد قامت الكنيسة - أى بيت الله - مكان المعبد الوثني القديم ومارست أعماله . كما اتبعت في تقويمها التقويم الوثني القديم الذى تساطت أعياده واحتفالاته على كافة شئون الحياة في المجتمع الغربى الوسيط من المهد إلى اللحد كذلك تحولت الآلهة والأرواح الخيرة في الوثنية إلى قديسين في الدين الجديد . وكان أن صعدت المسيحية والكنيسة اللاتينية فوق أكتاف الناس ، وقد اصطنعت لنفسها سلطة خارقة للطبيعة : فالاله المسيحى هو اله للقوة والرعب ، وهو اله للمرح في نفس الوقت . وقد استعبد الشيطان الانسان بسبب الخطيئة التي تردى فيها . ولكن هذا الانسان يدين بالطاعة والولاء للاله الجديد ، والولاء والایمان يعنيان الطاعة دينيا وسياسيا . لقد كان قانرنا فعلا ذلك الذى ربط الانسان في خوف ومحبة الى الله خالق الكون ، وإلى القديسين حاملياء الله في المعركة ضد الشيطان

لقد كانت الحياة معركة مستمرة بين الله والشيطان أو بين الخير والشر . وقام الفداس وغيره من الطقوس والشعائر الدينية طالبا لخلاص النفس ، بدور بالغ الأهمية في الحرب ضد الشيطان . هذا ، وتمثل ملابس رجل الدين عدة الخلاص ، فهو برصفه ممثل المسيح على الأرض ، يقود الناس الى ارض الله الأبدية بعد صراع مرير مع العدو القديم ، أى الشيطان . وقد أخذ شراح ومفسرون كثيرون بهذا التفسير الشعبى للقداس خلال القرن الثانى عشر ولفترات طويلة لاحقة ؛ بينما نبذه علماء القرن الثالث عشر . ومع ذلك فقد

فشلوا في استئصاله واجتثاث جذوره من الديانة الشعبية : وقد اورد
هونوريوس تفسيراً شعبياً يرى فيه القداس الدينى كما لو كان مجلساً للقضاء
حيث يحاكم الله الخطاة من الناس ، ويقوم الشيطان فى هذا المجلس بدور
المدعى ورجل الدين بدور الدفاع .

وان من يبغى الحصول على فكرة شاملة لما تعنيه الديانة الشعبية ، عليه دراسة
الكنائس الرومانية فى اوروبا فى العصر السابق للقوط . لقد بنيت الكنائس ابتداء
من عصر الامبراطور شارلمان على هذا الطراز القوطى ، وبخاصة فى فرنسا
والمانيا ووسط اوروبا . وبحلول القرن الثانى عشر أصبحت الكنيسة الرومانية
هى الكنيسة التى اعتادها الشعب . وهكذا بقيت طوال الفترة الوسيطة من
التاريخ ، على الرغم من الغزو القوطى والنماذج الجديدة الأخرى التى انتشرت
مع حركات الإصلاح . ولا جدال أن تلك الكنيسة قد تركت اثراً بالغاً فى
تشكيل حياة الناس وقتذاك .

ويستطرد هير قاثلاً بأن الكنيسة الرومانية بأسوارها الحجرية القوية كانت
معقل الله على الأرض . ففيها كان الله وحده سيد الجميع . ومنها طردت كل
الارواح الشريرة التى تقود الناس الى الخطيئة وتجذبهم الى مملكة الجحيم .
فالكنيسة هى بيت الله الذى يهب الحماية والعدالة للانسان الخاطئ . وقد
حوالت الطاقات السلبية الى اخرى ايجابية عن طريق الكفارة والاعتراف
والطقوس الدينية التى تؤدى الى الهداية والخلاص . وكانت هذه الكنيسة
المقدسة نبعا للطاعة المقدسة . وأخذ انصارها من الاساقفة ورؤساء الاديرة
والسادة العلمانيين وصغار الكهنة ، يجمعون الآثار والمخلفات والذخائر الدينية
من شتى أرجاء العالم لحفظها بها ، كى يزيّدوا من قدرتها على اتيان
المعجزات وعلى اجتذاب الحجاج وجمع الأموال .

وقد آثر الناس أن يدفنوا في ظل حامية كنيستهم وقديسيها . ففي هذه الصحبة المقدسة كانوا يترقبون بخوف وفرح البعث والدينونة . وكانت جنازة الميت موضع اهتمام زائد . كما كانت احتفالات الكلونيين ، طليعة المصلحين الديريين ، لتكريم الميت ، كبيرة الأثر في تغلبهم على الارستقراطية الفرنسية والاسبانية والمجرية ؛ بل وعلى الامبراطورية نفسها . وحديث بالذكر ان العطايا والهبات السخية التي أغدقت على الأديرة والكائس في العصر الوسيط ، قد اضطرتها الى اقامة شعائر وطقوس دينية في المواسم والاعياد المقدسة . وخلال القرن الثاني عشر تفشت بين الرهبان ورجال الدين العلمانيين ظاهرة الافراط في الاكل والشراب ، وبخاصة في الأعياد المقدسة . وليست هذه الظاهرة الا استمرارا لفكرة عيد المحبة بين الاله المسيحي وابناء بيته ، وهي الفكرة الرئيسية في الكتاب المقدس على هداية البشر .

وقبل أن تغزو الهرطقة وحركات الاصلاح الكنيسة اللاتينية ، كان رجال الدين على اتصال عاطفي بمعتقدات وأحاسيس شعوبهم . وقد تقاسم رجال الدين مع بنى جلدتهم من العلمانيين جميع مظاهر حياتهم ، بما في ذلك أعيادهم وخلافاتهم وأفراحهم . وقد حاولت المجامع الكنسية ، دون جدوى ، اقصائهم عما درجوا عليه . والأمثلة عديدة على مشاركة قساوسة الأبرشيات شعوبهم في حرفة الزراعة .

لقد أعطت ديانة الشعب أسبقية هائلة للمعركة المخدمة بين النعيم والجحيم أو بين الروح والجسد . ومع ذلك ارتبط الإثنان ببعضهما ارتباطا وثيقا ، ذلك انهما وجهان لحقيقة واحدة . فمعركة قس الأبرشية أو الراهب في ديرهِ ضد الشيطان ، لا تختلف في شيء عن معاركهما ضد عدو في قرية مجاورة .

لقد كان الشعار الدائم هو الله والحق . ويعتبر الإيمان أقدس سلاح للوصول إلى هذا الحق . ووجدت الكنيسة نفسها منذ العصور الوسطى المبكرة مجبرة على توسيع نطاق مباركتها حتى تشمل العادات القديمة جداً ، مثل المبارزة والوسائل البربرية التي كانت متبعة لتبرئة البريء وتذويب المذنب ، وغير ذلك من العادات التي تغلغلت في عقائد الناس وأذهانهم ، ولم يكن من السهل استئصالها بين يوم وليلة . وكان يفضل عقد المحاكمة إما داخل الكنيسة نفسها أو خارجها مباشرة ؛ لأن الفكرة الراسخة عند الناس هي أن الله إله الكنيسة سيساعد الشخص للوصول إلى الحق .

ومع كل ذلك ، يؤخذ على ديانة العصور الوسطى في المجتمع الغربي ما يبتها وافتقارها إلى الروحانية الحقيقية . كما أنها كانت تعتبر انعكاساً للسحر والشعوذة . ويمكن تفسير مثل هذه الأمور بسهولة . ذلك أنها نابعة أساساً من الشعب الذي كانت تجاربه في الحياة مخالفة تماماً . وإن كان هذا لا يمثل ، في الحقيقة ، واقعية العقيدة وحيويتها . وقد اتسمت ديانة الشعب في الحقبة الوسيطة من التاريخ بالجهاد وميلها إلى العدالة ، وهما الخاصيتان اللتان ساعدتاها على تحقيق مكانة بارزة في مجتمع تسوده الحرب والغلبة فيه للقوى ، وفي وقت كان على كل فرد أن يكافح في سبيل حقه . وكانت مخالفة القانون أمر اعدائاً يتكرر حدوثه . وكان العالم يعيش في خطر حيث تهدده قوى خفية غير معروفة مليئة بالمخاطر والأهوال . وتبدو هذه القوى في الأفق في أوقات الحزن والأزمات والمجاعات والأوبئة والفيضانات ، وغيرها من الأحداث اليومية التي قد تكلف الفرد حياته . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن جمال المظهر الخارجي ليس إلا غلافاً سميكا تكمن تحته عوامل الانفجار .

لقد كانت الديانة الشعبية في العصور الوسطى ديانة ساذجة بدائية ، ولكنها حققت في تلك الفترة من الزمن ضرورات حيوية لا غنى عنها في حياة الفرد والمجتمع

ويختتم كولتون الفصل الأخير من كتابه بدراسة تحليلية لقصيدة بطرس الفلاح ، وهي للشاعر الإنجليزى ولیم لانجلاند الذى عاش فى القرن الرابع عشر وتميز القصيدة بأهميتها الثقافية ، لأنها تلقى ضوءا كافيا على أفكار الناس العاديين ومداركهم فى أخريات العصور الوسطى : وفيها يكشف المؤلف عن أحاسيسه وعواطفه وانفعالاته النفسية فى صدق وأمانة وإخلاص . فهو يسلط الاضواء على مختلف الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع آنذاك ، وبخاصة الطبقة الدنيا التى كانت تعيش فى بؤس وشقاء مريعين ، ونعنى بها طبقة الفلاحين الكادحين فى الأرض ويصف التدهور الذى أصاب شق مرافق الحياة . فالرشوة متفشية ، والمال يتحكم فى كل شيء ، والعدالة تباع وتشترى ، والتجار يمتصون دماء الشعب فى جشع ونهم ، والشعب مسكين مغلوب على أمره ، والفساد يستشري فى الجهاز الكنسى البابوى . والشاعر يصور ذلك فى صورة قائمة بحيث يبدو أن الطريق مسدود أمامه ، وهو لا يكاد يجد المنفذ أو الخلاص . ومع ذلك فهو يطالب فى إصرار بإصلاح جذرى شامل ، مما يدل على أنه لم يفقد الأمل النهائى فى أن تحدث المعجزة ويتم الإصلاح المأمول ، الذى سيكون على يد بطرس ذلك الفلاح المسكين الذى تدور حوله القصيدة .

القصيدة إذن تدور بصفة أساسية حول الفلاحين غصب المجتمع الغربى الوسيط وعموده الفقرى . وقد تعرض لذلك بالدراسة التحليلية فردريك هير فى الفصل الثانى من كتابه ، وعنوان الفصل المذكور « الطبقة الأرستقراطية والفلاحون » . يقول إن الفلاح أوجد لنفسه خلال تلك الحقبة من الزمن ، ثقافة خاصة متميزة تركز على كده وعرقه وعمله الشاق فى الأرض : وقد مكنته هذا من المساهمة الفعالة فى عملية الاستقرار الزراعى الذى حدث فى الغرب فيما بين القرنين

السادس والثالث عشر فأصلح الأرض البور الكراب الخلاء وأفلحها ، وان كانت ثمارها قد عادت على سادته الإقطاعيين .

ويرجع شعور الفلاح بالكبرياء إلى عدة عوامل ، منها سوء معاملته سيد فظ مستبد غليظ القلب وأرض قاحلة جرداء وكنيسة لا ترحم . وتبدو نغمة الكبرياء هذه بوضوح في قصيدة ولیم لانجلاند . إذ يرى الشاعر أن الكنيسة هي المكان الذى يفوق الأماكن الأخرى ، والذى يعيش فيه الناس جميعا على مختلف فئاتهم وطبقاتهم أخوة متحابين أحرارا . ويتساءل الشاعر : هل يمكن حقيقة القول بأن الكنيسة ، وهى « بيت الله » الذى يتآلف فيه الجميع ، كانت أبوابها مفتوحة أمام الجميع حيث تهيئهم الحماية والمأوى والعدل والأمن والسلام ؟ إن الرد بالإيجاب على ذلك أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد . إذ ازداد الارتداد عن المسيحية ، واتسع نطاق انقشاره بين النبلاء والفلاحين فى أجزاء كثيرة من جنوبي أوروبا ووسطها ، ممن رفضوا تقبل حماية الكنيسة أو الاعتراف بأنها صورة من بيت الله على الأرض .

لذا كانت صيحة النصر التى أطلقها مارتن لوثر البروتستانتي العظيم فى القرن السادس عشر وترنيمته « ما يزال الله حصن الأمان » ، تعبر بحق عن نهاية المأساة التى كانت العصور الوسطى المتأخرة مسرحا لها . ذلك أن الكنيسة اللاتينية غدت خرابا أوقفها الفلاح الأخرى عند حدها ، ونعنى بذلك أكواخ الفلاحين وأسوار المدن الجديدة . ففى هذه المدن اختفت الكنيسة وسط الأعداد الهائلة من البيوت والمباني ، أو بقيت مهملة بينها مثل المتاحف ودور الآثار تماما . وكانت هذه هى النتيجة النهائية والحتمية لكفاح الكنيسة ضد القوى العلمانية وأزماتها المتتالية فى العصور الوسطى المتأخرة ، عندما جاهدت

عينا لتسمو فرق النبلاء والناس جميعا ، مدعية التفوق على سلطة النبلاء المتعطين بدورهم للتحكم فى أقدار الشعب المسكين المغلوب على أمره ، ومدعية كذلك التحكم فى عواطف الفلاسفة .

وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن قصيدة بطرس الفلاح تعبر بحق عن عصر تغير وانتقال ، وعن وجود عالم متغير تحرك فيه الركب الإنسانى من قيود وتقاليد العصر الوسيط المبكر ؛ وخرجت فيه النفس البشرية من نطاق التفكير المسيحي المحدد المعالم إلى مجالات أوسع وأفق رحب ، معلنة بذلك انتهاء العصور الوسطى وانبثاق عصر آخر جديد .

تلك هى محتويات الكتاب التى عرضها كولتون غرضا مركزا واضحا مبسطا . ويلاحظ أن الأمثلة العديدة الواردة فى ثنايا الفصول مستمدة أساسا من تاريخ انجلترا الفكرى والاجتماعى والاقتصادى ، والتى يمكن اتخاذها كنموذج للحالة التى كان عليها المجتمع الأوروبى الوسيط بصفة عامة ، اللهم إلا إذا أشار المؤلف إلى غير ذلك .

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر وهى أن مؤلف الكتاب يتصف بالحياة فيما كتبه إلى حد بعيد فلم يكتف بذكر الجوانب الحسنة فى حضارة العصور الوسطى وأنظمتها ، بل أشار أيضا إلى الجوانب السيئة فيها . فهو يذكر فى الفصل الثانى مثلا كيف كانت قوانين الكنيسة وأحكامها تهدر إهدارا تاما ، وخاصة فى أيام الآحاد والأعياد المقدسة ، ويبين فى الفصل الثالث أنه فى الوقت الذى حرمت فيه المجالس الدينية إقامة الأسواق فى أهباء الكنائس ، كان رجال الدين هم أول من خرج على هذا التحريم ، بتكديس الحبوب والغلال ووضع الجمعة والنيلذ فى ممرات كنائسهم ، وترك ماشيتهم

ترتع في أهبائها . ويؤكد في نفس الفصل أن رجال الدين كانوا يمارسون الربا الذي اعتبرته الكنيسة والكتب المقدسة خطيئة مميتة . وفي الفصل الخامس الذي تناول فيه نظام الفروسية يؤكد تفوق العرب على الغربيين في هذا الميدان . ويضرب مثلاً لذلك بالأسبان الذين أخذوا عن المغاربة أصول الفروسية وتقاليدها . ويشير في الفصل السادس إلى فساد الحركة الديرية بعد أن تكاثرت الهبات والأموال على الأديرة ، وكيف تخلى الرهبان عن مبادئ وتقاليدهم الرهبانية المبكرة ثم يعرج إلى فساد الرهبان حتى وصل بهم الحال إلى الاتجار بالقداديس ، والانغماس في الفسق والفجور ، واقتراف جرائم الزنا دون خشية من عقاب الله : كما كانوا يتعاطون الخمر مما ترتب عليه الإهمال في إقامة الخدمات الدينية . وتفشى الجهل بينهم ، فهبط مستوى التعليم هبوطاً واضحاً ونزلوا اللغة اللاتينية حتى باتوا يتلون القداس دون فهم معانيه . ويشير كولتون في الفصل السابع الخاص بالتجارة إلى الحيل العديدة التي كان يلجأ إليها المتلاعبون في كل حرفة وتجارة : وكيف كان شعار أعضاء نقابات المهن السائد هو الغش والخداع والتدليس ، والحلف زوراً وبهتاناً باسم الله في سبيل الحصول على المكاسب من عرق الشعب وكده . وفي الفصل الثامن يبرز لإفادة كثير من الفلاسفة والمفكرين في العصور الوسطى في الغرب من مفكرى الإسلام وفلاسفته . فنجد القديس توما الأكويني مثلاً يعتمد على على فلاسفة كل من ابن سينا وابن رشد ؛ بينما اعتمد روجر بيكون على ابن سينا وهكذا ، مما كان له أثره في التعجيل بظهور الفكر الحر في الغرب الأوروبي الوسيط . وأوضح في الفصل الأخير الذي تحدث فيه عن ذبالة الشعب ، كيف أن قصيدة بطرس الفلاح تثير الشفقة والمطف على الجياع والفلاحين المساكين السكادحين الذين كتب عليهم أن يحيوا حياة تعة شقية كان لها أثرها في الانفجار الذي زلزل أركان العالم الوسيط .

هذا عرض تحليلي للمؤلف وكتابه . وبعد فقد اقتضى نقل الكتاب إلى العربية تزويده بكثير من المعلومات والبيانات والفهارس التي لم يتضمنها الأصل الانجليزي . منها هذه المقدمة السريعة في نظم وحضارة أوروبا في العصور الوسطى ؛ وكذلك التعليق في الحواشي على الكثير من النقاط التي قد تكون معروفة للقارئ الغربي ، ولكنها في حاجة إلى المزيد من الإيضاح بالنسبة للقارئ العربي . ومعظم هذه التعليقات خاصة بالأعلام والأماكن والأحداث الهامة والاصطلاحات . وللتمييز بين حواشي المؤلف الأصلية وبين حواشي المترجم فقد أضيف لإسم المؤلف بين قوسين (كولتون) بعد حواشيه . كما ذيلت الترجمة العربية بقائمة بأسماء المراجع التي اعتمد عليها المراجع في تعليقاته بالحواشي . وذيل كل فصل من فصول الكتاب بقائمة بأهم المراجع الخاصة به . ونظرا لأنه لا يوجد في الأصل الانجليزي فهرس تفصيلي لمحتويات الكتاب ، وفهرس آخر أبجدي عام بأسماء الأعلام والأماكن وغيرها — فقد قام المراجع بتضمين ترجمته هذين الفهرسين ، تسهيلا للقارئ العربي ، وتحقيقاً للفائدة المرجوة من هذا الكتاب .

والله ولي التوفيق ؟

الاسكندرية في يناير سنة ١٩٦٤

جوزيف نسيم يوسف

مقدمة المؤلف

إن الجانب الأكبر من هذا الكتاب الصغير ، والذي يتناول الأحوال الاجتماعية ، كان قد صدر في شكل حلقات متسلسلة من الأحاديث الإذاعية في خريف سنة ١٩٢٩ . وكان ينشر اسبوعيا في مجلة « المستمع » « Listner » . أما كل ما يتعلق بالفكر الوسيط ، فقد أعيد طبعه أو تم نقله من مقالتي الواردة في كتاب « تاريخ العالم » لهارمز ورث Harmsworth (الفصل ١١٧) .
وإني لمدين بالشكر للناشر لتفضله بالسماح لي بإعادة نشره في هذا الكتاب .

ج. كولتون
كايه سان جون بكامبريدج
اغسطس سنة ١٩٣٠

الفصل الأول

الفوضى والتجديد

لا يسعنا فهم عقلية العصور الوسطى إذا لم نضع أنفسنا أولا عند نقطة البداية للسير نحو مجتمع هذه العصور . ونرى من المناسب أن يشمل بحثنا هذا ما يطلق عليه اسم العصور المظلمة ، وأن نحدد العصور الوسطى بصفة عامة بأنها الفترة التي تبدأ بانحلال الإمبراطورية الرومانية وتنتهى بحركة لإصلاح الدينى . ولا يمكن وضع حد فاضل عند أى من الطرفين . ونستهل الحديث بقولنا إنه كانت هناك حكمة ثابتة مستقرة ظلت قائمة أجيالا طويلة فى بعض أرجاء أوروبا، بعد أن قضت عليها غزوات البرابرة فى مناطق أخرى . فضلا عن أن دعوة لوثر قد أقحمت بعض أصقاع المانيا سنة ١٥١٧ فى ثورة دينية أشد وطأة من تلك التي كان يطلق عليها حركة الإصلاح النيابى فى إنجلترا سنة ١٥٣٠ . هذا ، وكان عصر النهضة قد بدأ يؤثر على الفكر الايطالى سنة ١٣٥٠ ، أكثر مما أثر على الفكر الفرنسى سنة ١٤٥٠ ، أو الفكر الانجليزى سنة ١٥٠٠ . ويمكن تحديد العصور المظلمة — وهى النصف الاسبق — بأنها تقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ ميلادية وأما القرون الخمسة التالية فانها تشكل بمعنى أخص ما يعرف بالعصور الوسطى الحقيقية حسبما يطلق عليها المؤرخون الفرنسيون .

وهنا يجدر بنا أن نتناول كلا الفترتين على التوالى ، لانهما كانتا متصلتين بطبيعة الحال . وإذا تعين علينا ، من باب الاختصار ، أن نعالج

الموضوع إجمالاً ، وجب أن نضع نصب أعيننا دائماً أن أى تمييز غير محدد بين الفكر فى العصور الوسطى من جهة والفكر القديم أو الحديث من جهة أخرى ، لا يمكن أن يكون حقيقة مؤكدة . ويمكن القول ، بوجه عام ، إن بعض وجوه الفكر هى التى تحدد خصائص أى عصر من هذه العصور الثلاثة .

لقد كان البرابرة الذين أغاروا على الامبراطورية الرومانية شديدي التمسك عادة بمبدأ الفردية . وغالباً ما كانت قبائل الشمال من مستوطنى الأدغال التى اعتمدت فى حياتها بصفة أساسية على صيد الحيوانات والأسماك وتربية الماشية ، والتى بلغ أرقاها حضارة ومدنية مرحلة الزراعة المستقرة ، وبفضلها كانت القرية هى الوحدة الأساسية الرئيسية — أقول غالباً ما كانت هذه القبائل تعيش فى تجمعات كبيرة تنفق تقريباً مع الولايات الحديثة . وكان الفرد يستدعى فى أوقات الأزمات الكبرى فحسب لى يقوم بواجبه نحو القبيلة أو الأمة بأسرها . وكان الغزاة المغول القادمون من الشرق هم أيضاً لا يزالون أشد تمسكاً بالفردية . وكان ثمة شبه اعتراف ببعض الفوارق بين الطبقات ، ولكن المغول كانوا يفخرون بشعارهم القائل « لا ملك لنا ، ولا نريد لنا ملكاً أياً كان ، ففيما بيننا كل رجل ملك » . وظل الغزاة ينمون هذه الفردية المتطرفة إلى حد ما ، حتى قبل أن ينقضوا على الامبراطورية الرومانية والواقع لولا أنهم تعلموا فعلاً وقتذاك كيف يوجهون ضرباتهم بشىء من قوة أمة متحدة ، بل وبقوة جنسيات متباينة يربطها معا فى تلك الآونة هدف واحد محدد ، لما وسعهم قط أن يهزموا الجيوش الرومانية . ولقد أدرك القوط ، وهم أسبق أولئك الغزاة وأكثرهم تمدناً ، بصورة جلية ، أهمية قيام حضارة راقية فلم يتطلعوا إلى تحطيم جهاز العمل الرومانى أو إبداله

بأنظمتهم الاجتماعية ؛ بل عمدوا إلى أن يهيئوا لأنفسهم أولا مكانا في ظل هذه الحضارة العظيمة . وحتى بعد نجاحهم فيما بعد في العمليات الحربية ، فقد حاولوا الاحتفاظ بالنظام القديم طالما كانوا يشعرون بالقدرة على العمل (١) . وكان النظام الامبراطوري الذي يمتاز بدقته المتناهية في شئون الضرائب والمالية شديد التعقيد بالنسبة لهم ، بحيث لم تكن هناك ضرائب مفروضة من جانب الدولة في الامبراطورية الغربية خلال ستة قرون أو سبعة ، إلى أن أدت الحروب الصليبية إلى قرض أنظمة تباء في شئون الحكم . ففي خلال تلك القرون الستة أو السبعة ، كان على الحكام أن يعيشوا ويعملوا اعتمادا على دخل أملاكهم الخاصة ، وعلى الخسومات الإجبارية التي كان لهم أن يطلبوها من رعاياهم أثناء الخدمة العسكرية ، وفي تشييد الحصون والجسور ، وعلى ما يتسنى لهم الظفر به من غنائم الحرب . وقد ساهم ذلك - شأنه شأن أى أمر آخر - في جعل الحرب أمرا عاديا مألوفا في المجتمع

(١) نجد مثلا واضحا لذلك في القوط الشرقيين في إيطاليا الذين كانوا متفوقين حضاريا على العناصر الجرمانية الأخرى . لقد أدركوا أهمية قيام مدينة متقدمة وهم الشعب الغالب الأقل مدينة الذي عاش مع الشعب الروماني المغلوب صاحب التراث القديم . لذلك لم يحطموا جهاز العمل الروماني ، ولم يستبدلوه بأنظمتهم الاجتماعية . بل نراهم يبقون على النظام القديم ، ويهيئون لأنفسهم مكانا في ظله ومن أشهر ملوكهم الذين نهجوا هذا السبيل وشجعوه مؤسس دولتهم المسمى ثيودوريك ، أنظر Katz, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, 109,110; LaMonte, The World of the Middle Ages, 46; Cantor, The Medieval World, 73 sqq.

الوسيط (١) .

على أنه وجدت في تلك الأثناء مدنية جديدة آخذة في النمو على أنقاض
المدنية القديمة ، تلك هي مدنية النظام الاقطاعي — أو كما يود البعض تسميتها
على سبيل السخرية — مدنية تفتقر إلى النظام . ونقول « على سبيل السخرية »
لأنه يبدو أننا نجهل الحقيقة الجوهرية ، وهي أن الاقطاع ولو أنه غير منظم ،
إلا أنه — على الرغم من بيروقراطية الامبراطورية الرومانية (٢) الفائقة التكوين،

(١) على الرغم من أن الجيش الاقطاعي كان يضم أحيانا فرقا من رماة
السهم والمشاة ، إلا أنه كان يتألف في معظمه من الفرسان الذين ينحدرون من
أصل عريق يرتبط بالمولد وشرف الدم ويقاتلون على ظهور الخيل . وكانت
شجاعة الفارس نوعا من المغامرة الموهبة ، وولاؤه هو ولاء التابع للسيد
المتبوع . وكانت مصالحه الخاصة لها اعتبارها ، خاصة إذا تعلق الأمر بالغنائم
والاسلاب والحصول على فديات عن الاسرى . ومن ثم إذا تقابل جيشان
اقطاعيان ، كان بوسع أى فارس التصرف كما يحلو له . أما النتيجة النهائية
فتعتمد على سلسلة من المبارزات التي يحددها عامل الشجاعة الفردية . وأما
الحروب بمعناها الواسع المعروف فكانت نادرة الوقوع في أوروبا الاقطاعية .
وقد تميز القتال في ذلك العصر ، بصفة عامة ، بشن الغارات على أرض العدو
بقصد السلب والنهب ، أو قيام المنـاوشات بين جماعات قليلة العدد من
الفرسان ، أو المنازلات والمباريات الفردية ، أو المعارك المتعلقة بحصار
المعاقل والحصون . أنظر ، C. Stephenson, Mediaeval Feudalism, 67 — 68 .

(٢) للمزيد من المعلومات عن البيروقراطية الرومانية ، أنظر هارتمان
وبارا كلايف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة وتعليق د.
جوزيف نيسيم يوسف ، ص ٧٣ وما بعدها .

والمثلة في أكبر هيئتها البيروقراطيتين كما يود غالبية الناس أن يقولوا - كان مع ذلك منظما إذا ما قورن بتلك الحياة الموغلة في البدائية التي عاش الغزاة في ظلها في غاباتهم ومستنقعاتهم الوطنية . وبوسعنا أن نقول بأن الاقطاع كان ، على وجه التقريب ، عبارة عن امتزاج بين العناصر التوتولية والعناصر الرومانية القديمة قدر الاستطاعة ، بحيث يتم التآلف بينهما على أكمل وجه . وكان المجتمع الروماني قد أخذ فعلا في الانحلال قبل غزوات البرابرة ، بينما كان المجتمع التوتوني آخذا في التبلور في صورة مجتمع أرقى مدنية عما كان عليه في الماضي . وترتب على ذلك أن أصبح الائتلاف أيسر مثالا عندما حان الوقت ليستقر الشعب التوتوني الغالب مع الشعب المغلوب ذى التقاليد الرومانية .

لقد كانت العلاقة بين القن وسيدته في النظام الاقطاعي (١) علاقة مزدوجة،

(١) جدير بالذكر أن لفظ الاقطاع Feudalism لم يستخدم في اللغتين الانجليزية والفرنسية وفي غيرها من اللغات الاوروبية الحديثة إلا في أخريات القرن الثامن عشر ، عندما وجهت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ عناية العلماء والباحثين الى بعض خصائص الانظمة القديمة . ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمات مثل « الاقطاع » ، و « النظام الاقطاعي » ، و « القن » ، و « الفئدة » ، و « المانور » و « الدومين » ، وما شابهها لها مكانها في المعاجم والقواميس ؛ وأصبحت تكون جزءا من حصيلة المصطلحات التي يستخدمها الكتاب والمؤرخون المحدثون ويقول كارل ستيفنسون في كتابه « الاقطاع في العصور الوسطى » اننا نجد مثل هذه التعبيرات مناسبة عند ما نتحدث عن تلك العلاقات المتشابكة التي قامت بين الأفراد وبعضهم البعض في القرون الوسطى .

أنظر C. Stephenson, Mediaeval Feudalism, 1 — 2.

إذ تشمل الساحيتين الاقتصادية والشخصية . فالرجل الواحد ، حسبما ذكرنا آنفا ، لم يكن مالكا لأرض رجل آخر فحسب ، بل كان أيضا سيداً له . وكان الميل نحو هذا الاتجاه خلال الأجيال الأخيرة من تاريخ الامبراطورية ، يرجع أساسا إلى مدى استغلال الطبقات العاملة والطبقات الوسطى المكافحة ، وهي عصب المجتمع وعموده الفقري . أما الضرائب فقد توخت الدولة الرومانية في فرضها عناية تامة ودقة متناهية . وكانت من بعض الوجوه فائقة من حيث أصالتها وقدرتها المنتجة . غير أنها لم تلبث أن تحولت زرع ينجيا إلى أداة كبرى للظلم والطغيان . فقد كان من أيسر الأمور على الرجل صاحب النفوذ أن يتخلص من أعبائه عن طريق الرشوة أو التهديد والإرهاب . أما صغار القوم فكانوا يلوذون بالفرار لضيق ذات أيديهم ولعجزهم عن مراعاة جباية الضرائب . ومن ثم وقع العبء الرئيسى على الفلاحين والمزارعين . واضطر هؤلاء الناس الذين كان عددهم في إزدیاد مطرد إلى الاحتماء في كنف أقرب سيد من ملاك الأرض . وكان المالك الكبير يقول بلهجة طبيعية فيها من الاقتناع ما يكفي : « إن باستطاعنى حماية أرضى لا أرض الآخرين ، فاعطني أرضك ، وسوف أردما إليك مقابل أجر بسيط » .

وهكذا نشأ ما عرف في القانون بحق الملكية غير الثابت . وبموجب هذا الحق يكون لمن يحرث الأرض حقوقا قبل الغير ، ولكن لا يكون له أى حق قبل السيد الكبير الذى آلت الأرض إليه . وكثيرا ما تقع أعيننا على شيء من هذا القبيل في مجتمعنا الحديث . مثال ذلك أن يقوم أحد الأديرة أو فاعل خير بإنشاء ناد للصغار يمارسون فيه لعبة الكريكت أو كرة القدم . فهو يذهب إلى صاحب أرض فضاء صالحة للبناء ويحصل منه على إذن مؤقت ليلعب الأولاد فيها ، ويصبح هؤلاء الأولاد ومدبرهم حقوقى قبل أى قادم

جديد ، في حين أنه لاحقوق لهم قبل المالك الاصلى الذى يحق له أن يسحب ترخيصه في أية لحظة .

هذا ، وقد اعترف المجتمع الثيوتونى بصورة قاطعة بوجود رابطة شخصية بين فرد وآخر ، لاصلة إطلاقا بينها وبين الروابط العائلية أو روابط الدولة . فكان على الشبان أن يلتحقوا بخدمة محارب عظيم ، يأكلون على مائدته ، ويقاتلون في معاركه . وإن هذه « الألفة والزمالة » كما كان يطلق عليها ، أو « حق السيد على المسود الذى يدين له بحاف يمين التبعية والولاء » (١)

(١) أوضح كارل ستيفنسون فى مؤلفه « الاقطاع فى العصور الوسطى » الاجراءات المتعلقة بيمين التبعية والولاء فى المجتمع الغربى الوسيط . يقول ان القرن عبارة عن فلاح يعيش على قطعة من الأرض عبارة عن خصص صغيرة مبعثرة يمنحها اياه سيده اللورد صاحب الدومين ، وهو مرتبط بهذه الأرض ارتباطا وثيقا بموجب واجبات التبعية التى لاتعرف حدا . إذ جرت العادة أن يقدم التابع بين يدي السيد المتبوع يمين الطاعة والتبعية « homo » ، ثم يؤدى بعد ذلك يمين الولاء والاخلاص « fidelitas » ، وذلك فى احتفال واحد ذى شقين . يبدأ الشق الأول بأن يركع التابع أمام سيده واضعا يده فى يده ، معتبرا نفسه رجلا متعهدا بالدفاع عنه ضد الجميع ، فى الحياة وحتى الموت . بعد ذلك يقول السيد انه قبل . فلان تابعا له . وبعد هذه الاجراءات يؤدى التابع يمين الولاء والاخلاص : وهى أن يحلف على الكتب المقدسة والذخائر الدينية بما يؤكده العهد الذى قطعه على نفسه . ولم تكن هناك بطبيعة الحال صيغة معينة لهذا القسم ، وإن كان لا يخرج فى مجملته ومضمونه عما ذكرناه . وكانت اجراءات التبعية معروفة عند الفرنجة ، ولعلها كانت أقدم من ذلك . ويبدو أن الاحتفال كان فى جوهره خاضعا للتقاليد الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التى تقضى بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة أو ==

كما يجب أن نسميها ، كان معترفا بأنهم - رابطة أوثق من تلك التي تقوم بين الإبن وأبيه ، أو بين أحد الرعايا والحاكم . وقد اعترف المجتمع الروماني كذلك منذ أقدم العصور بوجود روابط اختيارية من هذا القبيل تحت اسم « الحماية » *patrocinium* . ولما كانت هذه العادات قوية متأصلة على جانبي الحدود قبل الغزو الجرمانى ، فإنه يسهل علينا أن نرى كيف حافظت تلك الغزوات عليها ، وعملت على نشرها وتقديسها . وتحت ظل هذه الظروف كان الشخص البسيط فى أشد الحاجة إلى المساعدة عما كان عليه من قبل ، وكان على استعداد لأن يبيع نفسه فى سبيل هذه المساعدة ؛ بينما كان بوسع الشخص المقدر أن يفوز بصفقة رابحة من وراء ذلك .

وهكذا نشأت حالة مجتمع دامت قرونا طويلة ، وبلغت ذروة نموها حوالى فترة الغزو النورمانى لـإنجلترا . وكان هذا المجتمع يشمل أفرنجة الغرب ، وهم أولئك السكان الذين نزلوا فيما نسميه الآن فرنسا ، وقد أخذ للنورمان عنهم معظم حضارتهم . وكان دخول الإقطاع فى شكل أكثر تنسية - ونظاما عما هو موجود فى بعض الأنحاء الأخرى بأوروبا ، ميزة كبرى لإنجلترا .

== العشرة . أما يمين الولاء والاخلاص فقد استحدث نتيجة التأثير المـيـحى . ومع ذلك لم يكن هذا اليمين وحده كافيا لإيجاد رابطة التبعية . إذ نعرف أنه كان يطلب من الرعايا الأحرار فى عهد الكارولنجيين ، كما كان الحال فى عصر متأخر ، أداء يمين الولاء للحاكم حتى ولو لم يكونوا اتباعا له . ونخلص من هذا أن يمين الولاء بمفرده لا يعنى التبعية ، فى حين أن المبايعه والتبعية كانتا تدلان ضمنا على الولاء والاخلاص للسيـد المتبوع . أنظر C. Stephenson, Mediaeval Feudalism, 18 - 19 .

ومن ثم كان المجتمع الأوروبي في ظل النظام الإقطاعي منظماً تنظيمياً يختلف اختلافاً كبيراً عما كان عليه أيام الإمبراطورية الرومانية ، أو عما هو عليه الآن . وأياً كانت النظرية ، فالواقع أن الطاعة يدين بها الفرد لصاحب الأرض التابع له تبعية مباشرة . وربما كان للفرد سيد واحد لأن المقتنيات الملكية كانت وفيرة ، وكان الفلاح يدين بالولاء للملك وحده فيما يتعلق بهذه التخصيصات : هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجوز أن يكون الفلاح تابعاً لستة من السادة ملاك الأرض تتفاوت درجة صلته بهم . فإذا كان صاحب الأرض التابع له الفلاح مباشرة هو السيد صاحب الأملاك ، فإن هذا التابع المحلى - ونقول ذلك لنضع الكلام في صيغة حديثة - قد يصبح المستأجر المباشر من الملك . بيد أنه ، من ناحية أخرى ، يجوز لهذا التابع أن يحصل على أراضيه تحت تبعية متبوع آخر ، وهذا الأخير تحت تبعية شخص ثان ، وهذا الثاني تحت تبعية كونت أو بارون أو أسقف أو رئيس دير ؛ بحيث أنه كان ثمة مراحل عديدة بين الفلاح الحقيقي الذي يحث الأرض وبين الحكومة المركزية . ولكن الفرد كان يدين بالولاء لصاحب الأرض التابع له مباشرة . ومن الجائز أن يكون له سادة عديدون ، ومع ذلك لم يكن له سوى سيد واحد من المتبوعين ، وهو الشخص الذى استمد منه الأرض رأساً . ومن هنا نشأ التناقض العجيب الذى أصبح الفلاح بمقتضاه يكن لسيد . النبيل من الولاء أكثر ما يكن للملك . وكان يفصل في التخصيصات أمام محكمة السيد النبيل ، أى محكمة صاحب الأرض حقاً أنه لو قتل أحد الأرقاء فعلاً أو مثلاً به ، كان من الجائز استئناف الحكم أمام محكمة الملك ، أما في غير هذه الحالة فيتعين على العبد وسيد أن يتقاتلا دفاعاً عن النفس . لقد كانت الإمبراطورية الرومانية قائمة على المركزية المتطرفة ، بينما

كانت العصور الوسطى لا مركزية إلى حد بعيد (١) .

على أنه كانت في تلك الاثناء سلطة مركزية كبيرة آخذة في النمو ، ففي أثناء انحلال الإمبراطورية الرومانية — والذي كان قد أصابها بصفة قاطعة قبل تلك الكارثة التي انتهت بغزوات البرابرة — كان هناك شيئا واحدا آخذاً في النمو بصورة أقوى ، ونعني بذلك ظهور الدين المسيحي . وقد اختلفت الآراء في تفسير هذا الحدث ؛ ولكنه مع ذلك حدث لا سبيل إلى إنكاره ، شأنه شأن أى ظاهرة أخرى في التاريخ . ذلك أن الإيمان بنجار مصلوب ، وباتحاد دائم فيه عن طريق الأسرار المقدسة التي وضعها ، قد اختطف من الناس قلوبهم ، وأذهل عقولهم أكثر من أى حادثة أخرى سجلها الزمن بما في ذلك الديانة البوذية . وقد خشيت الحكومة الامبراطورية من أمر هذه الطائفة الجديدة ، وكرهتها باعتبارها دولة داخل الدولة . ولذلك نشأت الديانة الجديدة في ظل الاضطهاد . وأخيراً رأى قسطنطين الكبير أنه عاجز عن سحقها ، فأثر التحالف معها . وأصبحت الكنيسة الجديدة هى كنيسة الدولة . (٢) وإذا كان قد سمح للعقائد الأخرى بالبقاء بصفة

(١) أنظر عن ذلك كرو بلاند وفينو جرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٨ . والكتاب مذيل ببعض المراجع المتعلقة بالإقطاع في العصور الوسطى . راجع أيضا هارتمان وباراكلاف : الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف ، ص ٧٥ .

(٢) أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٩٣ - ٩٤ والخواشي : راجع أيضا Cantor, The Medieval World: 300 — 1300, 22—24; Jones, Constantine and the Conversion of Europe, 29 sqq., 46 sqq., 79 sqq.

عامة ، فإنما سمح لها بذلك باعتبارها ضربا من الشعوذة . فحسب . أما الآن فما عاد يسمح بأية عقائد أخرى . وقد غدت الكنيسة بعد أن كانت مضطهدة تستجدي الرحمة ، هيئة قوية قام كثيرون في وجهها مرادون جدوى . وكانت هذه الكنيسة قد بلغت مرحلة النضج والقوة قبل انحلال الامبراطورية ، وكان تنظيمها ، وملابسها ، وحتى بعض طقوسها متمشية على نسق ما كان متبعها في الامبراطورية نفسها .

وقد أغدقت عليها هبات لها وزنها ولكن جانبها كبيرا منها استخدم في الأغراض الدينية أو الخيرية . بل كان البرابرة ، وهم في أحسن أحوالهم ، يحترمون الكنيسة ويبيعون لها . (١) ولهذا السبب ظل الأسقف والقس عادة كل منهما في وظيفته ، بينما كانت غارات البرابرة تكتسح أمامها الحكام المدنيين ، وهكذا اتخذت الكنيسة قالب الامبراطورية ، كما يتخذ سرطان البحر قالب قشرته لينزوي بداخله . ويمكن القول بأنه حوالى عام ٧٠٠ كانت الكنيسة الرومانية هي كل ما تبقى من الامبراطورية الرومانية . ذلك أن أسقف روما وصل تدريجيا ويمضى الزمن إلى مركز رئاسي ، واعترف به بصفة قاطعة تقريبا على كافة الاساقفة الآخرين . وهكذا أضفى بصورة واضحة ملبوسة نموذج عملي على تلك النظرية الخاصة بمدينة الله ، وهي النظرية التي ابتدعها القديس أوغسطين (٢) ، بينما كانت « مدينة الإنسان » ، أى

(١) للمزيد من المعلومات ، أنظر . Pirenne, Medieval Cities, 42 sq.

(٢) هو القديس أوغسطين أوف هيبو St. Augustine of Hippo . ولد سنة ٣٥٢ وتوفي في ٤٣٠ عن ٧٧ سنة . كان قبل اعتناقه المسيحية مدرسا . لعلم اليونان في إيطاليا . كما كان على علم بأداب اللاتين القدامى والمناقشات =

الامبراطورية ، آخذة في التدهور والانقسام على بعضها . وان هذا المثل الأعلى الذى سنعود اليه فى أحد الفصول القادمة ، قد سيطر تقريباً على عقلية الفرد فى القرون الوسطى ؛ ولو أن هذه السيطرة لم تبلغ هذا الحد من الناحية العملية :

لقد بدأت العصور الوسطى ببعض المزايا والمساوىء . أما المزايا فأهمها اثنتان تبدأ بهما صفحة ناصعة إلى حد بعيد . ففى طبيهما تكمن القوة الدافعة للدين الجديد وهو المسيحية . ولم يعترف جيون Gibbon بهاتين المزيتين . فن الواضح أن مجيء المسيحية كان فى نظره أول الانتصارات البربرية وأكثرها شؤماً . وكان يهزأ بمفاخرة أحد آباء المسيحية الأول وهو الأب

=الفلسفة والأدبية فى عصره ، وقرأ الكثير عن أدب الاغريق وفلسفتهم فى التراجم اللاتينية . وله مؤلفات عديدة أهمها كتابة المشهور « مدينة الله » « De Civitate Dei » ، الذى بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ ، وقد تحدث فيه عن فلسفة المسيحية : والكتاب فى الواقع عبارة عن لاهوت وقصص أكثر منه تاريخ وفلسفة . وما يذكر أن جهود القديس أوغسطين الأدبية هو وغيره من القديسين كانت لها آثارها فى سرعة انتشار الرهبنة فى أوروبا فى القرن الخامس . أنظر عن ذلك : هرنشو : علم التاريخ ، ص ٤٢ ، يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية ، ص ١٥-٤٦ ، عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٥-٢١ . أنظر كذلك . Mommsen, Med. and Ren Studies, 265-98 - ومؤلف كتاب « مدينة الله » هو غير القديس أوغسطين أول رؤساء أساقفة كانتربرى الذى أوفده البابا جريجورى الكبير إلى إنجلترا عام ٥٩٧ على رأس بعثة تبشيرية لنشر المسيحية فيها . من جهة والعمل على إعادة فرض النفوذ البابوى الرومانى عليها من جهة أخرى : أنظر : Woodward, Hist. of England, 13.

ترتوليان (١) Tertullian (ت حوالى سنة ٢٢٠ م) بأن فجارا مسيحيا كان على استعداد للرد على أسئلة جبرت عقول أعظم حكماء العصور القديمة . لقد كان لهذا الازدراء ما يسوغه إذا نظرنا إليه من وجهة نظر واحدة : ولكن إذا امعنا فى الأمور بعمق ، يتعين علينا أن نعتبر اهتمام النجار (٢) جديا بكل هذه المسائل ، وفى أن يجد جوابا يكون له بصفة عامة قيمة أخلاقية بارزة ، كسبا حقيقيا للحضارة . ذلك أن المجتمع فى الامبراطورية الرومانية أصبح تدريجيا مجتمعا جامدا لا حياة فيه . فكانت الأصالة فى الآداب والفنون قد تدهورت ، وكان المواطن الرومانى قد تخلى عن الكثير من حرياته السياسية ، قانعا بأن يعهد بأمر الدفاع عن الامبراطورية إلى المرتزقة من البرابرة . وكانت الطبقات الوسطى ، وهى الطبقات العاملة الكادخة ، تسام الاضطهاد والقسوة عن طريق نظام ضرائبى تلقى بمقتضاه « أنقل الأعباء على ظهر الجـواد الوديع » وفى غمرة هذا الاستهتار أو الانحلال كان هناك شيء واحد قد نما بقوة وثبات ، الا وهو الدين الجديد .

(١) ولد ترتوليان سنة ١٦٥ وتوفى فى ٢٢٠ عن ٥٦ سنة : وهو محام كبير من قرطاجنة ، وقد اعتنق المسيحية ورسم كاهنا ، وانصرف منذ ذلك الحين إلى التأليف فى الشئون الدينية . وكان متفقا فى اللغتين اللاتينية واليونانية ، ووضع عدة مؤلفات منها كتاب يسمى « دفاع » تناول فيه اضطهاد الرومان للمسيحية ، وكتاب « إلى الأمم » الذى يهاجم فيه الوثنية . وقد حمل بشدة على الفلسفة والفلاسفة لإعتقادهم أنهم أعداء للدين ؛ ويبدو هذا واضحا فى كثير من تأليفه . أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية، ص ١٢-١٣ ، Katz, Decline of Rome, 7-8, 132; Coulton, Med. Panorama, 13-14, 260; Dill, Roman Soc., 385.

(٢) أى المسيح .

ولكن هذا الدين فقد بعض خصائصه السابقة حوالى سنة ٤٠٠ م . وقد أدى قبوله كدين للدولة إلى ضعف هذا المجتمع ، كما أدى إلى قوته . بيد أنه ظل محتفظا بكثير من تلك القوة والأصالة اللتين ميزتا المجتمع المسيحي باعتباره الشيء الوحيد الذى لا يتفق قيامه مع الحضارة الرومانية التقليدية ، والشيء الوحيد الذى طالب بأحقية فى إجراء تغييرات جذرية شاملة داخل مجتمع اعتمد فى سبيل ثباته على كيان أفقى يقوم على الفوارق الطبقيّة . وكذلك بوصفه الشيء الذى طالب بولاء يفوق الولاء المفروض للدولة ، ومن ثم بوصفه الشيء الذى دمج بالاضطهاد فى عالم يختلف فيه وجه التسامح . وتتميز عقلية القرون الوسطى ، ولو من الناحية الشكلية على الأقل ، بالافتناع بأن لكل انسان روح يتعين عليه أن يلتمس لها الخلاص . ومع هذا كان الخلاص هو الغاية النهائية التى لا بد منها لكل كائن حى . وليس ذلك بالمثل الأعلى البعيد التحقيق ، ولكنه أعظم واجب عملى فرض على الجميع .

لقد غرست هذه البذرة الثورية فى أرض تم حرثها بيد الثورة السيامية والاجتماعية . وربما كانت الاستعارة أدق إذا قلنا إنه تم حرثها فى حقول اكتسحها طوفان جبار ثم تركت بصفة مؤقتة قاحلة جرداء مع بقائها غنية بالأرض البكر . وقد أصبح ذلك بمرور الزمن ميزة العصر الوسيط الثانية ، الجديرة بالثناء كما كان شأنها فى بادئ الأمر . وقد احتفظ النصف الشرقى من الامبراطورية الرومانية (١) بدستوره السيامى والاجتماعى سليما نسبيا لعدة قرون أخرى ؛ ولم يكده يعمل أكثر من أن يسجل الزمن طيلة هذه الحقبة . أما النصف الغربى فقد غرق وأصابه الانحلال ، ولكنه لم يلبث أن طفا على

(١) المقصود بذلك الامبراطورية البيزنطية .

وجه الماء بحيوية بلغ من أمرها أنه ما أن ولت العصور المظلمة حتى سار الغرب فى المقدمة ، وأحرز سبقاً فى تلك الفنون التى تفوق فيها الإغريق .

ولنعد الآن إلى الوراء لنواجه مساوىء العصور الوسطى . فهذه العصور تنطوى بدورها على سوائين ، إحداهما معنوية والأخرى مادية . وهذه الأخيرة لا تحتاج هنا إلى اهتمام خاص . ذلك أن الفوضى التى ألت بالعلم الغربى معروفة تماماً . ونجد من الوجهة المعنوية العملية أنه بينما احتضنت المسيحية الكثير من أفضل ما أنتجه الفكر القديم ، فقد اختلطت فى الوقت ذاته إلى حد بعيد بمعدن غير أصيل .

ويمكن تقدير العناصر الرئيسية قبل المسيحية بأربعة . العنصر الأول وهو الفلسفة التى تحتوى على قدر عظيم من دروس الأخلاق ؛ ولكنها فى جوهرها دروس أكاديمية ، فضلاً عن قصورها عن الوصول إلى مستوى الرجل العادى . أما العنصر الثانى فهو دين الدولة الذى تظاهر به الرجل العادى بوصفه أمراً رتبياً روتينياً . ولكن هذا الدين لم يعتمد قط إلى تدريس الأخلاق أو حتى النظار بذلك ، إذ كان ديناً رسمياً بحثاً فحسب : والعنصر الثالث هو العبادات المختلفة وبخاصة تلك التى من أصل شرقى . مثال ذلك عبادات سيديل Cybele ، وإيزيس Isis ، وسيراپيس Serapis ، ومثرى Mithras . (١) وقد تميزت هذه الديانة الأخيرة بقدر ضئيل من المعنويات ؛ بينما اتصفت العبادات

(١) فيما يتعلق بهذه العبادات أنظر : Rose, Ancient Greek Religion, 108, 126-9 ; idem, Ancient Roman Religion, 94-5, 132 sqq. , 136 sqq ; Ceroy, Ancient Egyptian Religion, 134 sqq. ; Dill, Roman Society, 76-83.

الأخرى ، أو بعضها على الأقل ، بإباحية صريحة : والعنصر الأخير هو اليهودية ، وهي قوية في إيمانها بالوحدانية وفي نفورها من عبادة الأصنام ، كما أنها قوية في تضامن شعبها اجتماعيا ، وإن كانت تتميز بضيق الأفق والتعصب . ذلك أنها كانت تتخيل يهره Jehovah على أنه إله قبلي صديق لبني إسرائيل فحسب ، وأنه يكره من ليس من أصل يهودى . ولقد اتحدت هذه الخيوط الأربعة في الديانة المسيحية .

سبق أن ذكرنا ما يبدو لنا أنه أعظم حدث لا يقبل الجدل فى التاريخ ، ذلك هو الإيمان بنجار مصلوب . ولو أنه صعد الى السماء ، إلا أنه أذهل عقول الناس واختطف قلوبهم الى حد لا مثيل له بين الأحداث التى سجلها التاريخ . ولقد تمكنت هذه الأفكار الجديدة تماما من الكثيرين ، حتى أنهم صموا آذانهم عن كل نصيح لهم بالعدول عنها ، وكانوا على استعداد لاية تضحية فى سبيلها . وكان هذا هو مصدر ما بدا من حماسهم وصلابتهم التى لا تلبث فى تمسكهم بهذا الدين ؛ وهو ما ذكر جييون أنه أحد الأسباب الرئيسية التى أدت الى انتشار المسيحية . فمن أجل إنسان واحد ملهم تأثر مئات من الناس تأثرا عميقا ، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة . وهكذا اتجه الدين الجديد الى استيعاب الكثير من أفضل عناصر الفكر السابقة . ولكن كان ثمة ما هو أكثر من الاستيعاب ، إذ وجد تآلف حقيقى بينها . وكان أن صهرت هذه الشعلة الحية تلك الأسلاك التى كانت منفصلة عن بعضها وحولتها الى سلك واحد . ويمكن القول أن الفكر بالنسبة للقرون الوسطى قد سار فى اتجاه واحد وبصورة أبلغ وضوحا وتحديدا مما جرى فى أى وقت مضى ، بل ومنذ أن درنت أحداث التاريخ . وظل هذا الوضع حقيقة ماثلة حتى بعد أن استقرت كافة الأوضاع التى سنعود إليها فيما بعد .

بيد أن هذه العقيدة الجديدة قد أثرت فيها الآراء القديمة ، فأخذت عنها بعض نواحي ضعفها . فأنحدر الفكر من مستواه الرفيع إلى مستوى العامة ، مما يتفق مع المعنيين اللذين تنطوى عليهما كلمة Vulgaris اللاتينية ، أى الشعبى أو العامى . إذ انتشرت المعرفة Vulgus بين الناس قاطبة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تعين على الفكر أن يتنازل من عليائه لينتصر . لذلك عمد الفكر الرفيع الى التوفيق الى حد ما بينه وبين الآراء الفجة المفوضة . فعن الوثنية أخذت المسيحية عادة عبادة العصور التى يمتتها الآباء الأقدمون . ويؤكد أوريجين (١) Origen (سنة ٢٤٠ م) أنه لا يوجد مسيحى بلغ به الجهل أن

(١) تلمذ أوريجين على يد كلمنت الاسكندرى ؛ ويعتبر من أبرز الشخصيات التى ظهرت فى تاريخ الكنيسة المسيحية . ولد حوالى سنة ١٨٥ م . وهو من الاسكندرية ، ونشأ فى بيئة مسيحية . ونعرف عنه أنه تلقى تعليمه الدينى على يد والده . وفى أثناء اضطهادات الإمبراطور سيفيروس استشهد أبوه ليونيداس . واضطرت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية الى التوقف عن أعمالها ، خاصة وأن رئيسها كلمنت كان قد غادر البلاد ولم يحل محله أحد . وهكذا بدأ أوريجين فى التدريس بصفة غير رسمية بالمدرسة المذكورة . ثم قام ديمتريوس أسقف الإسكندرية وقتذاك بتثبيته فى منصبه كرئيس للمدرسة ، وكان لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره . وقد أدى نشاطه الى ظهور نهضة كبيرة فى تلك المدرسة . وهو يعتبر بحق أول أستاذ للنقد العلمى للتعاليم الدينية . ويبدو انه اهتم فى الفترة الاولى من حياته العملية بدراسة النصوص الدينية ، وكتب عليها كثيرا من التعليقات . وقد حذا حذو استاذة كلمنت فى استخدام الفلسفة اليونانية لخدمة المسيحية . واضطر الى مغادرة مصر سنة ٢١٥ م . ويبدو انه عاش فى مدينة فيسارية بعض الوقت ، ثم عاد مرة اخرى الى الاسكندرية . ولكه العلاقات ساءت بينه وبين الاسقف ديمتريوس ، واضطر الى ترك البلاد مرة ثانية سنة ٢٢١ حيث أمضى البقية الباقية من حياته فى سورية . وقد توفى أثناء اضطهادات الامبراطور ديكىوس سنة ٢٥٠ م عن ٦٥ سنة تقريبا . وما يذكر عنه انه استخدم التعليم الدينى فى خدمة العقيدة الجديدة ،

يؤمن بأنه يستطيع أن يتهل إلى الله عن طريق التأمل في صورة ما (١) ومن العبادات الدينية انتقل إليها حماسة لم تكن دائما متفقة مع الأخلاق . واما عن اليهودية فقد انتقل إليها تعصب لا سبيل معه إلى التسامح . ذلك أن المختارين الذين اصطفاهم الله كانوا يؤلفون جانبا من الإنسانية ؛ أما الباقون — أى « الأمم » و « غير اليهود » — فإن الله لم يشملهم بهمه . لذلك كان الدين الجديد على استعداد لتبني الفكرة الامبراطورية التي كانت تهدف إلى السيطرة على العالم ولو بالقوة إذا اقتضت الضرورة ذلك . وهكذا احتفظ بالفكرة الامبراطورية العظيمة البناء ، الا وهي فكرة العالمية .

وحيثما اكتسح البرابرة في أثناء غزواتهم الحكام والقضاة الرومان ، كانوا يستبقون عادة الأسقف في أسقفيته والقس في مذهبهم . وكان من المتعذر القضاء على السلطات الأسقفية والكهنوتية نظرا لتمامسها الشديد وقوتها الروحية . أما اللاتينية التي كانت في وقت ما هي اللغة المألوفة لدى كافة الشعوب الغربية المثقفة ، فقد بقيت بفضل كتب الخدمة الدينية في الكنيسة ، وبفضل

== وجاهد للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة . كما قام بتفسير العهد القديم ، وبخاصة سفر التكوين ، على أساس فلسفة أفلاطون القائمة على ثنائية العقل والمادة . لقد كان أوريجين متطرفا في آرائه أثناء حياته . وبمعه وفاته اشتد الجدل حول أفكاره خلال القرنين الخامس والسادس ، ورفضت المجامع الدينية قبول الكثير منها : أنظر عن ذلك المراجع التالية :

French, The Eastern Orthodox Church, 29 sqq. ; Tollington, Clement of Alexandria, Vol 1, 48 ; katz, Decline of Rome, 56; Burgh, Legacy of Ancient World, II, 362—6 & notes.

وكذلك راغب عبد النور : أوريجانوس ، مقال في رسالة مارمينا الرابعة ،

ص ٥ — ٣٦؛ بتشر : تاريخ الأمة القبطية ، ج ١ ، ص ٦٢ — ٩٦ .

(١) Contra Celsum, bk. VII, c. 44. (كولتون) .

ترجمة الكتاب المقدس الذى أصبح بعد مراجعة القديس جيروم (١) St.Jérôme له هو النسخة اللاتينية المعتمدة المعترف بها فى العالم ، والتي حلت عمليا محل النص الاصلى . وفى الظروف المواتية ظلت بعض المجموعات من الكتب ، أو مئات منها ، فى مأمن من الضياع داخل الأديرة ، أو فى السكرسنيات (٢) الملحقة بالكنائس الكبرى — نقول ظلت هذه المجلدات باقية بعددء كل شىء ، طالما لم تمسها أسوأ غارات القراصنة بأى سوء :

وهكذا عملت المسيحية ، مرة أخرى ، على تبسيط المعرفة بما يتفق مع المعنيين الذين ينطويان تحت هذه الكلمة . فمن ناحية ألفت من فوق ظهر السفينة إلى اليم بقدر كبير من أفضل ما يحتويه التراث الفـكرى القديم ، باعتباره تراثا ضارا عديم الفائدة . وكان طبيعيا أن يجتذب المذهب الطهرى (٣) الآباء الاول . وقد شكّا ترتوليان من أن الفلاسفة الاقدمين كانوا زعماء حركات الهرطقة . بينما أحس القديس جريجورى الكبير بالخرى

(١) ولد القديس جيروم سنة ٣٤٦ وتوفى فى ٤٢٠ عن ٧٥ سنة : وهو أحد الكتاب المسيحيين ، عاش متنسكا داخل صومعته فى فلسطين وله مؤلفات عديدة من أهمها ترجمته لحياة الرهبان المصريين وأنظمتهم إلى اللاتينية بعد أن زارهم فى مصر فى أوديتهم ومغاورهم فى بطون الصحراوت الشرقية والغربية . وقد ساعدت كتاباته باللاتينية على سرعة انتشار الرهبنة فى الغرب . أنظر : Coulton, Medieval : Burgh, op. cit., 1, 310—1 ; Panorama. 9,11

(٢) السكرسنيات هى الحجرات الملحقة بالكنائس لحفظ مقدساتها فيها ، كالملابس الكهنوتية التى تستعمل عند أداء الطقوس الدينية ، والأواني المقدسة وما إليها .

(٣) هذه الطائفة شديدة التمسك بالعفة والطهر وآداب الدين ، ولذلك عرف أصحابها بالطهريين .

عندما سمع أن أسقفًا كان يدرس قواعد اللغة ، أى آداب اليونان والرومان القدماء التى كان الطالب يتلقونها فى سن مبكرة بدراسة فرجيلـ Vergil مع امتداحه لجوبيتر Jove بوصفه رب الأرباب الذى يطالب مشددا بالحببة على الأرض : (١) ومن ثم كانت المحاضرات الخاصة بـتراث اليونان والرومان القدماء التى حفظها لنا الزمن ، بـبـه العدد نسبيا ، وضعيفة فى مستواها . أما رؤيا الكاردينال نيومان Newman التى تراءى له فيها راهب العصور الوسطى على أنه عالم كلاسيكى ، فيغلب عليها عنصر الخيال إلى حد بعيد . ومن ثانيا هذه المبالغات تتضح لنا الحقيقة ، وهى أنه « مهما كان تعليم رجل الكنيسة للمثالية محدودا ، فان التعليم المثلالي لم يتمكن من المحافظة على كيانه إلا فى أحضان رجال الكنيسة ... ولم يكن مرد أكبر جهالة فى العصور المظلمة راجعا إلى قوة النظام الكهنوتى بل إلى ضعفه » . (٢) وأما ما تبقى من العلم القديم فقد انتشر بين شعب أقل ثقافة من المجتمع الذى حل محله . ومع ذلك فقد كان أوفر منه نشاطا ، كما تميز بنظرة أحدث إلى الأمور .

وكما كانت المسيحية ، كما يقول الدكتور وارد فاوولر Warde Fowler ، « غرسة وإن نمت فى أرض أنبتت محاصيل أخرى ، فلا تزال جديدة كل الجدة من حيث تكوينها وحيوية عنصرها » ، كذلك كان شأن الفكر الوسيط . وربما يختلف هذا الأمر اختلافا بينا عن كل من الفكر الكلاسيكى من جهة والفكر الحديث من جهة أخرى : لقد كان الفكر الوسيط فى أول الأمر فخورا بوعيه الجديد . واستلهم موقفه حيال اليونان والرومان من وحي شعار ترموليان القائل : « إننا رجال الأمس ، ومع ذلك قد ملائنا عالمكم » .

Ep IX, 54; cf. R.L. Poole, Medieval Thought and Learning, (١)

2nd ed. , 7 (كولتون) .

(٢) (كولتون) H. Rashdall, Universities of Europe, I , 26

« hesterni sumus, et vestra omnia implevimus » . كذلك كان الفكر من وحى الدعوة إلى استجابة الفرد لضميره . « وإن لحظة خاطفة إلى عقيدة العصر الوسيط تكفى ليدرك المرء كيف سرت في غمرة ذلك كله فكرة قيمة الفرد الخالدة في تباين شديد مع نظريات العصر القديم . وهي فكرة أوحى بها المسيحية ، وتشبثت بها الروح الجرمانية إلى أعماق أعماقها ، » (١) ولم تفقد القرون الوسطى إطلاقاً تلك النعمة الواردة في رؤيا يوحنا اللاهوتي (٢) : «وهاك ما جاء في الإصحاح المنزه عنه : « سقطت سقطت بابل العظيمة (٣) أخرجوا منها يا شعبي لئلا تشركوا في خطاياها (٤) ... والروح والعروس يقولان تعال ... ومن يعطش فليأت (٥) ... يقول الشاهد بهذا نعم . أنا آتي سريعاً . آمين . تعال أيها الرب (٦) » .

ولو أن العودة الثانية المرتقبة للمسيح قد طال انتظارها بمرور الزمن، فلا يبدو مع ذلك أنها ستجاوز قط الأفق المباشر . إن المؤلفات عن

Gierke-Maitland, Political Theories of the Middle Age, 81 (١)

(كولتون) .

(٢) وهي عبارة عن سفر رمزي من أسفار العهد الجديد ، شديد الغموض، وضعه يوحنا اللاهوتي في جزيرة باتموس في عهد دوميشيان Domitian . وفيه يدعى كاتبه أنه يكشف عن مستقبل المسيحية بعد زوال مملكة المسيح الدجال : وقد ظل اسم هذا السفر مرادفاً لاستعارة غامضة .

(٣) الرؤيا — الإصحاح ١٨ : ٢ .

(٤) الرؤيا — الإصحاح ١٨ : ٤ .

(٥) الرؤيا — الإصحاح ٢٢ : ١٧ .

(٦) الرؤيا — الإصحاح ٢٢ : ٢٠ .

المسيح الدجال وفيرة ، وقد كتب روجر بيكون (١) Roger Bacon في سنة ١٢٧١ عن هذا الاعتقاد بين « المتعقلين » قائلا إن هذه المرحلة الأخيرة في العالم وشبكة الحلول . ولم يترك دانتى (٢) غير النذر اليسير من المقاعد المعدة للجلوس عليها في فردوسه . وإذا اتبعت له أن يدعى من جديد إلى الأرض ، فربما كان أقل دهشة أمام أى اختراع حديث منه أمام إدراكه أن العالم قد بقى ستمائة عام بعد موته . واننا نعاود الالتقاء بنفس الاعتقاد في كل جيل

(١) ولد روجر بيكون سنة ١٢١٤ وتوفى سنة ١٢٩٤ عن ٨٠ سنة . وهو من جماعة الاخوان الفرنسيسكان باكونفورد ومن أعظم عباقرة العصر الوسيط . كان جريئا في نظرياته وتجاربه ، كما امتاز عقله بالعمق وسعة الأفق . وليكون شروح على الطبيعيات وما بعد الطبيعة لأرسطو ؛ ويبدو أنه لم ينفذ تماما إلى هذا الفيلسوف بعد أن تصدى لشرحه ، وكان يعيب على الترجمات اللاتينية لكتبه : ومن أهم مصنفاته « الكتاب الاكبر » ، و « الكتاب الأصغر » ، و « الكتاب الثالث » ، و « موجز دراسة اللاهوت » . والمعروف عن بيكون انه اوغسطينى يعمل للادوية المقام الأول . ويمتاز بشهوره القوى بأهمية التجربة وضرورتها وفائدتها . كذلك أفاد فائدة كبرى من الكتب العربية ، وبخاصة كتب ابن سينا الذى يعتبره « زعيم الفلسفة » . وينحصر منهجه العلمى فى ثلاث وسائل هي : « النقل والاستدلال والتجربة » . انظر : يوسف كرم : الفلسفة الأوروبية ، ص ١٣٠ - ١٣٦ ؛ فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ؛ Shorter Cambridge Med. Hist., I, 631, 676 , 1096.

(٢) ولد دانتى الجيبرى سنة ١٢٦٥ وتوفى سنة ١٣٢١ . وهو شاعر فلورنسى ، ومن أعظم العباقرة الذين أنجبتهم القرون الوسطى . توفى ابواه وهو لا يزال صغيرا . ولسنا نعرف الكثير عن سنى حياته الأولى . وكل ما نعرفه ان وطأة الحرمان التى قاساها فى الصغر تركت أثرها فى مؤلفاته ، ومنها كتاب « الحياة الجديدة » الذى خلد فيه هيامه بمعشوقته بيئاتريس . وقد لازمه الحزن منذ موتها سنة ١٢٩٠ ، فالكتب على الدراسة والاطلاع ، =

تقريباً . وكان سير توماس مور (١) Sir Thomas More نفسه يؤيد ذلك . ولهذا ، فبينما كان الفكر الرفيع في العصور الوسطى متميزاً بجدية عميقة ووعى شديد من حيث المسؤولية الشخصية ، عانى مع ذلك أحياناً من افتقار إلى الصبر ، وهو العيب الذي شاب هاتين الصفتين . وكان من الممكن أن يفي العالم في أية لحظة : فأية فائدة كانت تترجى من بداية مؤلة لسلسلة مستمرة ممتدة من الأحداث والامتتاجات التي استغرقت جهود أجيال أو قرون بأكملها ، على حين أن بضع سنوات أو حتى بضعة أسابيع كانت كافية لإهلاك كل شيء ؟ ولا يمكن أرجاع النقص الأليم في الوعي التاريخي والملاحظة العلمية أو التجربة في علم الطبيعة والتاريخ الطبيعي خلال الازد الطويل ، إلى صعوبة التدوين والمحافظة على الوثائق والمستندات فور كتابتها ومقارنتها عن طريق المبادلة المستمرة الحرة بين طلاب العلم . إنما يرجع ذلك في معظمه إلى هذا الاتجاه الذهني المسيطر على كثير من كبار المفكرين في العالم الآخر ، ومؤداه أنه فيما يتعلق بهذه الحياة الدنيا يجب « أن نتخلى عن

== وتشيع بفلسفة توما الاكوينى، وتاريخ اوروسيوس وملاخم فرجيل وستاتئوس . وتعتبر « الكوميديا الإلهية » هي أروع ما خلد لنا دانتى ، تلك الملحمة الدينية الدنيوية التي وضعها شعرا باللغة الإيطالية المعاصرة بدلاً من اللاتينية ، والتي لخص فيها ما وصل إليه خيال العصر الوسيط ، كما بدأ بها أيضاً بذور الفكر الحديث : ولذلك يعتبر دانتى بداية لحركة النهضة العلمية التي كانت بشيراً بنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . أنظر فشر : أوربا في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٢٧ وما بعدها ؛ Burckhardt, The Civilization of the Renaissance, 49-50; Coulton, Med. Panorama, 207-222; Hay, The Italian Renaissance, 55-7, 74-7.

(١) يعتبر سير توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) من مشاهير الساسة والكتاب

الانجليز . أنظر عنه كتاب : Coulton, op. cit, 664 sqq.

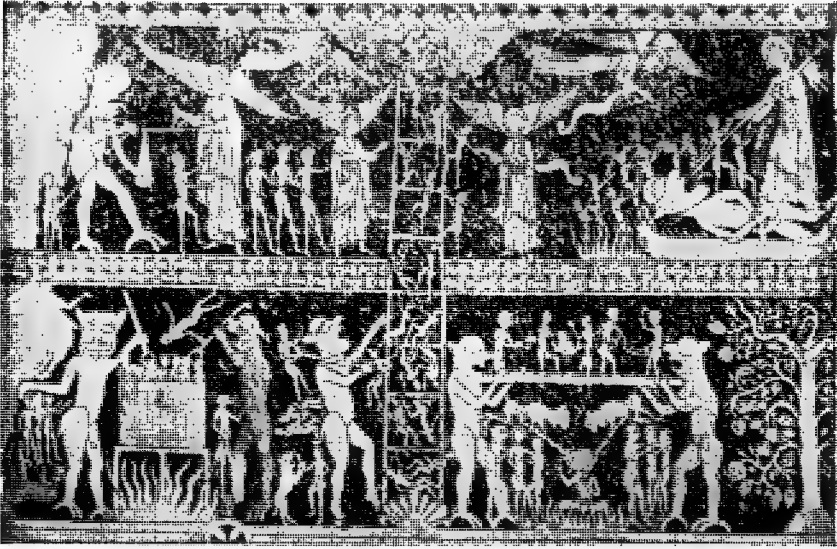
الامل الطويل والافكار الواسعة - ذلك أن أول واجب للانسان وآخره هو أن يعد نفسه للحياة الأبدية .

ولأي نوع من الأبدية ؟ نعاود القول بأننا لا يسعنا تقدير قيمة الفكر الوسيط، ما لم نتذكر الأنس التي كانت نقطة انطلاقه . أما الاختلافات بين الآراء الوسيطة وآراء ما بعد الاصلاح الديني التي تناولها مراراً الكتاب المحدثون حول حصمة الكتاب المقدس من الخطأ ، فهي في أغلب الأحيان إما كاذبة برمتها ، وإما مبالغ فيها للغاية . وفيما يتعلق بتفسير نصوص الكتاب المقدس فثمة في الواقع هوة عميقة بين الرومان الكاثوليك وبين النظرية البروتستانتية . فالرومان الكاثوليك يفرضون الحكم النهائي قاطبة للكنيسة الرسمية ؛ على حين أن النظرية البروتستانتية تطالب بحق كل امرئ في أن يفسر النص وفقاً لرأيه الخاص ويوحى من ضميره . ولكن نظراً لحصمة الكلمة المكتوبة من الخطأ ، فانه يصعب تبيان أي فارق حقيقي : وقد بشر القديس توما الأكويني (١)

(١) ولد القديس توما الأكويني سنة ١٢٢٥ وتوفي في ١٢٧٤ عن ٥٥ سنة : وهو ابن الكونت دي أكوينو بجنوب إيطاليا . التحق في سلك الرهبان الدومينيكان وهو لم يتجاوز العشرين من عمره . وتعلم على البرت الكلوني العظيم (١٢٣٩-١٢٨٠) ، وتنقل بين مدن إيطاليا وفرنسا إلى أن أصبح استاذاً في جامعة باريس وهو في الحادية والثلاثين : ومن مؤلفاته كتاب «شرح الاحكام» ورسالة «في الوجود والماهية» يبدو فيهما اعتماداً كبيراً على ابن سينا وابن رشد . وكذلك «شرح الأسماء الالهية لديونيسيوس» و«المجموعة الفلسفية» و«الشروح على أرسطو» ورسالة «في وحدة العقل رداً على الرشدين» وأخرى «في أزلية العالم رداً على المتأزمين» وكتابه الضخم المعروف باسم «المجموعة اللاهوتية» الذي لخص فيه مؤلفاته السابقة . أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية ، ص ١٤٤ - ١٧٧ ؛ فشر : اوربا في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ -

Coulton, Med. Panorama, §332 sqq; Downs, ٢٧٩ - ٢٨٠ ; Basic Doc. in Med Hist., 116.

لوحة رقم ١



سلم الخلاص

صورة حائط بكنيسة شالدون في سيري

(تاريخها حوالى سنة ١٢٠٠ م)

St. Thomas Aquinas الذى نهج نهج القديس أوغسطين St. Augustine ، بأن مؤلف الكتاب المقدس هو الله الذى له القدرة على تفسير معانيه لا بالكلام فحسب كما يستطيع الإنسان أن يفعل ، بل بالأفعال أيضا ، و يترتب على ذلك ، نتيجة أولى ، أن الكتب المقدسة لا يمكن البتة أن تتضمن أى كذب فى معانيها الخرفية . لذلك ، كان لزاما على جميع المسيحيين أن يؤمنوا بكل ما جاء فى الكتاب المقدس باعتباره كلام الله ؛ لأن كل ما يتعلق بشئون الايمان والأخلاق لا يعتبر حقائق أقرها الله فحسب ، ولكن محتويات هذا الكتاب التاريخية تعتبر هى أيضا كذلك . ومن ثم إذا حدث مثلا أن قال شخص ما إن صموئيل لم يكن ابن كنعان لترتب على ذلك أن تكون الكتب المقدسة كاذبة ، وهو ما يتعارض مع الايمان ولو عن طريق غير مباشر . ومن هنا يقع صاحب هذا القول فى الهرطقة . وليس الكتاب المقدس بأقل وضوحا فى غير ذلك من النقاط المماثلة . وبوسعنا فى الواقع أن نرمرز إلى شجرة الحياة كما وصفت فى سفر التكوين . ويمكن الاقتباس من الاصحاح الثالث (١) لبيان أنها إنما تعني « الحكمة » ؛ ولكن ذلك لا يجب أن يؤثر بحال فى قبولنا للأوصاف من حيث حرفيتها فى أدق معناها . « إنه ليتبين علينا أن نتخذ حقيقة الخبر أساسا لنا ، وأن نبني على هذا الأساس تفاسيرنا الروحية » . وبناء على ذلك لا يتسنى لنا انكار الواقعة النباتية لهذه الشجرة ، أو الحقيقة الجغرافية الخاصة بوجودها فى الفردوس الأرضى (٢) وهناك فى الواقع ثلاث

(١) انظر العهد القديم - سفر التكوين - الاصحاح الثالث : الآية ٨ .

(٢) Sum. Théol , pars. I. quaestt XXXII and CII (كولاتون) . ويوضح المؤلف هنا كيف كان يسير الفكر الوسيط فى نطاق التعاليم التى أوحى بها المسيحية ، والنسبة كان الخروج عليها يعتبر هرطقة يتعرض صاحبها لأشد أنواع العقاب ؛

حالات فقط يمكن بمقتضاها إجراء أى استثناء يتفق كل الاتفاق مع كافة آيات الكتاب المقدس بمعناها الحرفي ، وهذه الحالات هي :

(١) ينبغى التجاوز عن ضعف لغة الإنسان ، وما يستتبع ذلك من عجزها عن التعبير عن أرقى الأفكار .

(٢) ينبغى التجاوز أيضا عن ضعف فهم المستمعين . ولهذا السبب اضطر موسى إلى الهبوط الى بني اسرائيل ليشرح لهم ببساطة ، ومن ثم لم يستخدم في تعبيره ألفاظا دقيقة محكمة .

(٣) ويحتمل كذلك أن يكون عبور موسى وشعبه البحر الأحمر (١) رمزيا بحتا . بيد أننا نرى من المثلين اللذين ضربهما موسى بنفسه ، ومما كان يجرى بصفة عامة في كنيسة القرون الوسطى وفي الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، إلى أى حد كان ضئيلا أثر الاتجاه نحو الرمزية على تمسك الناس بالمعنى الحرفي للأحداث .

ولما كتب البابا انوسنت الثالث (٢) يطالب الكنيسة اليونانية بالطاعة لكنيسة روما ، بنى مطالبته أساسا ، من بين أسباب أخرى ، على مثلين رمزيين فجين . أولها عندما القى القديس بطرس بنفسه في البحر بدون إبطاء ليلحق

(١) العهد القديم - خروج - الاصحاح ١٤ . وفيما يتعلق بالخروج أنظر الدراسة التي عقدها الدكتور نجيب ميخائيل في كتابه « مصر والشرق الأدنى القديم » - ج ٢ - سورية ، ص ١٥٥ - ١٦٦ .

(٢) يعتبر البابا انوسنت الثالث من أقوى شخصيات القرون الوسطى ، احتل الكرسي البابوي في الفترة الواقعة بين عامي ١١٩٨ و ١٢١٦ . ويعتبره كثير من المؤرخين خليفة هيلد براند الحقيقي . درس بجامعة روما وباريس =

بالمسيح عند صعوده (١) . وثانيهما عندما سار بطرس لحظة ، في مناسبة سابقة ، مع المسيح فوق الماء (٢) . فتنبأ البابا على هذا الأساس بالسيادة على الجنس البشري قاطبة ، ما دام الشرح القديم للمزامير يفسر «مياها كثيرة» (٣) بما معناه «العالم أجمع» (٤) ولكن انوسنت حينما استعمل الرمز على هذه الصورة ، لم يخافه أدنى شك من حيث الوصف الحرفي لتصرف

= وبولونيا ، وتفوق على الكثيرين من جهابذة العلم من معاصريه في الفلسفة واللاهوت وفي القانون أيضا . كان طموحا واسع الآمال ، متمسكا أشد التمسك بحقوق البابوية . وكان البابا في نظره هو خليفة الله على الأرض ، وخليفة القديس بطرس رأس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . ولذلك تميز عهده بتجدد الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية ممثلة في شخص هنري السادس ملك صقلية وابن فردريك بارباروسا . ولقد بلغت البابوية في عهد انوسنت الثالث أقصى قوتها وأوج مجدها بعد انتصاراتها على القوى العلمانية في الغرب . ومع ذلك ، فإن هذه الانتصارات كانت تحمل في طياتها بذور تدهور البابوية وفقدان مكانتها بعد أن خرجت عن رسالتها الروحية وانغمست في الأمور الدنيوية . فبدأ الناس يتشككون في قدسيتها وينصرفون عنها ، مما هبأ الجور اظهر عصر جديد : أنظر : Baldwin, Med. Church, 9-58, 85-48 وكذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى - ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف - ص ٤٧ - ٤٨ .

(١) أنظر العهد الجديد - انجيل يوحنا - الاصحاح ٢١: ٧.

(٢) أنظر : العهد الجديد - انجيل متي - الاصحاح ١٤ . وفيما يتعلق

بنظرية السيادة البطرسيّة ، أنظر : Cantor, The Medieval World, 93 sqq.

(٣) أنظر : العهد القديم - مزامير ٩٣: ٤.

(٤) لقد أوردت الاقتباسات كاملة في الفصل الرابع عشر من كتابي :

Medieval Studies, 3rd ed. p.9 (كولتون) :

بطرس في أى من الحالين . وعندما أدين جاليليو Galileo بعد ذلك بقرون عدة ، كانت إحدى التهم الموجهة ضده أن نظريته (١) تتعارض مع النص الواضح في المزامير : « أيضا تثبتت المسكونة لا تتزعزع » (٢) “ firmavit orbem terrae, qui non commovebitur.”

وهكذا أدركت كنيسة العصور الوسطى أنها ملزمة بقبول نصوص الكتاب المقدس في أدق معانيها حول الجنة والجحيم . وقد ساهمت ظروف كثيرة في تلك الأزمنة المضطربة في إضفاء لون معتم على تلك الصورة التي كانت قائمة أصلا . وكان القديس توما يتأذى للغاية من أننا قد يساورنا الشك في الحقيقة المادية الملموسة عن وجود نار الجحيم : وقد أفاض توما حقا في وصف العذاب ، وفي تأكيد وجود هذه النار بما يفوق ما ذهب إليه كالفن (٣) Calvin الذي كان يؤمن أحيانا عن جهل لإيمانيت في الغالب ، بما يتميز به من صرامة ، إلى أسلافه في العصور الوسطى . وواقع الأمر أن شيئا من المبالغة في بعض آيات الانجيل ، وفي التقاليد الموروثة عن اليهودية أو المأخوذة عن ديانات أخرى ، وكذلك تحت وطأة شيء من قسوة الاضطهاد وسوء الحالة النفسية — بادرت المسيحية إلى ابتداع مذهب غريب في النبوات

(١) نظرية جاليليو هي إحدى النظريات الفلكية التي أثبتت أن الأرض ما هي إلا أحد الأجرام السماوية . وفيما يتعلق بجاليليو ونظريته أنظر : Crombie, Augustine to Galileo, 4, 6, 18; 59, 60, 116, 119.
(٢) العهد القديم — مزامير ٩٣: ١ (كولتون) .

(٣) حنا كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) هو قائد حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في فرنسا :

المتعلقة بنهاية العالم (١) . وقد دلت مرارا تنبؤات ترتوليان المخيفة عن عذاب الجحيم الذي سوف يلقاه مرتكبو الاضطهاد . وهذا وجعهم دانتى معروف أيضا لكثير من القراء . ولكن تعبير دانتى عن المفارقات بين الجنة والجحيم أقل خشونة من تعبيرات الواعظ العادى فى زمانه أو فى زمان لاحق له . وكان القديس فرنسيس الاسيسى (٢) St. Francis of Assisi يعظ عن الجحيم بمثل الدقة التي وصفه بها الجنرال بوث Booth . وقد تعرض

(١) تحتفظ مكتبة دير سانت كاترين فى سيناء بعدد من المخطوطات العربية القيمة عن النبوات ، هى مخطوط رقم ١١ وتاريخه ١١١٦ ، ومخطوط رقم ١٢ وتاريخه القرن ١٤ ، ومخطوط رقم ١٤ وتاريخه القرن ١٧ ، ومخطوط رقم ١٥ وتاريخه القرن ١٤ ، ومخطوط رقم ١٦ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ١٧ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ١٨ وتاريخه ١٣٥٠ ، ومخطوط رقم ٥٨٨ وتاريخه أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر ، ومخطوط رقم ٥٩٤ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ٥٩٥ وتاريخه ١٢٩٠ ، ومخطوط رقم ٥٩٦ وتاريخه القرن ١٣ ، ومخطوط رقم ٦٠٢ وتاريخه القرن ١٧ ، ومخطوط رقم ٦٨٩ وتاريخه القرن ١٨ ، أنظر أيضا الفصل الثامن من هذا الكتاب . أنظر كذلك مقالى J. N. Youssef ، *Prophetologion - An Arabic Manuscript in the Library of the Monastery of St. Catherine in Sinai, no. 588 - A Survey and Critical Study, Cahiers d'Alexandrie, série 4, no. 4, 1966, 1-10.*

(٢) ولد القديس فرنسيس الاسيسى سنة ١١٨١ أو ١١٨٢ وتوفى سنة ١٢٢٦ . وهو من الشخصيات البارزة التى أسهمت فى تطور حركة الفكر وتحرر الروح والنفس البشرية فى المرحلة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، وكانت دعوته تتميز بوجود عنصر التفاؤل فيها ، بعكس من سبقوه . وقد تركت حياته وعقليته والعصر الذى عاش فيه آثارها فى الأفكار والآراء التى نادى بها . ومن أهم ما نادى به التمتع بالحياة ، وتمجيد الطبيعة فى شتى =

لهذا الموضوع برتولد اوف ريخنسبورج Berthold of Regensburg
الفرنسيسكاني الذي امتدحه ووجر ليكون بوصفه أعظم واعظ من بين رجال
البعثات التبشيرية في ذلك الزمان . وفيما يلي خلاصة موجزة لأبيه ، مشفوعة
بالإشارة إلى الجزء والصفحة في طبعة بيفر Pfeiffer النموذجية .

« إن الخاطئ ، ليغاني الموت مرارا بمدد ما يتراقص في الشمس من ذرات
التراب (ج ٢ ص ٢) . فإذا كان جسمك كله من حديد ساخن حتي الاحمرار ،
وكانت الدنيا بأسرها من الأرض الى السماء شعلة متأججة من النار ، وكنت
أنت في وسطها ، فاعلم أن هكذا يكون الانسان في الجحيم ، مع فارق واحد
هو أن عذابه يكون أسوأ مما وصفنا مائة مرة (ج ١ ص ١٢٧) . وعندما تتحد
النفس والجسد مرة أخرى في اليوم الآخر ، ويتعين عليهما أن يذهبا معا الى
الجحيم ، فإن من حلت عليه اللعنة سيشعر بسعيرها ، وهو أسوأ مرارا مما يشعر
به من يقفز من حيث الندى الرطيب إلى جبل من نار (ج ٢ ص ٤٠) . وتلدوم
ألوان العذاب آلافا من السنين بقدر ما في البحر من قطرات الماء ، أو بقدر

= صورها وعناصرها . كما حاول إيجاد نوع من التوافق بين الله والطبيعة
والإنسان . لقد كان انسانا بمعنى الكلمة ؛ ويتضح هذا في نظراته للبشر جميعا
على أنهم متساوون في كل شيء . والقديس فرنسيس ، فوق هذا وذاك ، هو
مؤسس جماعة الاخوان الفرنسيسكان . ولم يكن غرض أعضاء هذه الجماعة
البقاء في أديرتهم لأداء فروض العبادة والصلاة فحسب ، وإنما السعي في
الأرض للوعظ والتبشير وتعليم الناس ، مع الفقر والاكتفاء بالكفاف من
العيش . انظر فشر : أوربا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٧ :

Heer, Med. World, 79-89 ; Shorter Cambridge Med. Hist.,
II, 669-71; Downs, Basic Doc., 139-144,

عدد الشعر الذى نما فى جسم الانسان والحيوان منذ خلق الله آدم فى بدء الخليقة . وبعد كل هذه السنين ، لا تكون الآلام الا فى بدايتها (ج ١ ص ٧٢) ٥٠

وقد ذهبت أغلبية الجنس البشرى إلى هذا الجحيم ، وكان ذلك أمرا مسلما به : كما سلم به القديس توما الأكويني ، الذى اشتهر من بين جميع فلاسفة القرون الوسطى باتزان حكمه بوجه خاص : وقد قدر الكتاب الآخرون عدد من ظفروا بخلاص نفوسهم بإحدى فى الآلاف أو فى العشرة آلاف أو أكثر من ذلك . أما الأطفال غير المعمدين ، والوثنيون ، ولو أنهم أطهار أبرياء ، فلا بدمع ذلك من ذهابهم الى الجحيم . وبالنسبة للباقيين - وإن كان ذاتى قد تخلى عن اوغسطين وتابع توما الأكويني فى نبذ فكرة العذاب الجثمانى - فإن الهواء مثقل بما يصدر عنهم من آهات وأنات . هذا ، وقد استقر الفكر المسيحى الوسيط على افتراض أن آخر لحظة فى حياة الانسان هى التى تحدد مصيره إما الى حياة أبدية ناعمة تفوق كل وصف ، أو الى عذاب مقيم يجاوز كل تصور . ولما كان هذا المصير يتقرر تبعا لظروف المتوفى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فإن العامل الحاسم فى هذه الحالة إنما يكون إيمانه بالله : وسيزداد وضوحا فيما بعد المعنى الضخم المستفاد من هذه النتائج الأساسية .

ونعود مرة أخرى الى العصور المظلمة لنقول إنه يجب الانهمل أثر الديانات الوثنية ، كديانات التيرتوت والكلت والسلاف ، التى انتصرت عليها الكنيسة ، ولكن مع شئ من التساهل . لقد لاحظت الكنيسة أن قتل الأطفال كان مسلما به قانونا فى بعض الحالات بين الفريزيين (١) فى القرن الثامن ،

(١) ينسب الفريزيون إلى فريزيا ، الواقعة غربى أوستفاليا ، بين نهري إيمز والراين . وهى حاليا عبارة عن المنطقة الواقعة شمال ألمانيا .

وسكان ايسلندا في القرن الحادى عشر . وحتى فى هذه الحالة الأخيرة تساهلت الكنيسة لفترة ما ، إذ علمت الوثنيين فى جزيرة ريغن (١) Rügen العبادة على طريقة القديس فيتوس (٢) St. Vitus . وقد غدا تمثال القديس المذكور بعد ذلك بأجيال قلائل ، أى فى منتصف القرن الثانى عشر ، صنما معبودا أطلق عليه المواطنون اسم « سوانتوفيت » Suántovit . وكانوا يقدمون له من حين لآخر ضحايا بشرية ، ولكنها كانت من بين المسيحيين فحسب . ولقوا أوصى جريجورى الكبير (٣) مشددا فى نصيحته للمبشرين الذين أوفدهم الى الوثنيين الانجليز لردهم عن الوثنية ، بضرورة التساهل

(١) جزيرة ريغن هى إحدى الجزر الألمانية فى بحر البلطيق .

(٢) القديس فيتوس هو الذى أدخل المسيحية فى جزيرة ريغن . وبعد موته بفترة قصيرة عاد سكان الجزيرة إلى وثنتهم ، وأخذوا يعبدون صنما كبيرا أطلقوا عليه اسم سوانتوفيت . وكانوا يفضلون تقديم القرابين والضحايا له من بين المسيحيين . وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على أن أولئك البرابرة الذين غزوا روما وأخذوا من نظمها وحضارتها بنصيب ، لم يلبثوا أن عادوا إلى بربريتهم القديمة . أنظر : Coulton, Med. Panorama, 42 .

(٣) البابا جويجورى الكبير مع أسرة رومانية عريقة ، اعتزل الحياة الدنيا وانخرط فى سلك الرهبنة . وشغل كرسى البابوية فى الفترة من ٥٩٠ الى ٦٠٤ . واستعمل ميراثه الذى آل اليه مع أبويه فى بناء الاديرة والصرف على الفقراء وشراء العميد من أسرى الحرب المسيحيين لتحريرهم . كان عالما يتمتع بمقدرة سياسية وإدارية هائلة . وهو من كبار رجال الإصلاح الكنسى ، كما عرف بنشاطه الكبير فى ميدان التبشير . فقد نجح فى تحويل القوط الغربيين من المذهب الأريوسى الى المسيحية على مذهب روما الكاثوليكي . وارساء بعثته المعروفة برئاسة القديس اوجسطين إلى انجلترا سنة ٥٩٧ لنشر

في غير النقاط الجهرية . إذ سمح بتدشين (١) المعابد القديمة بما يتفق مع طقوس الكنيسة الجديدة ، والإبقاء على حفلات الوثنيين كما هي ، على أن يوجهونهم في ذات الوقت من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق . وكان هذا التماهل بدون شك أسرا حكيما وضروريا وقعداك ، فضلا عن أنه آتى ثماره المحتومة . وهكذا نجد أنه باندماج المسيحية في العبادات الوثنية ، توارث كثير من هذه الأفكار تحت جناحي كنيسة العصور الوسطى .

== الكاثوليكية بها واعادة بسط نفوذ بابوية روما عليها . كل هذا أكسب أسقفية روما مكانة كبيرة ، وأصبح الغرب يعترف بسلطان أسقف روما الدينى والسياسى ، في وقت كانت فيه أوروبا مرتعا للقوضى من جراء غزوات البرابرة . وفصلا عن ذلك فقد كان جريجورى متمعقا فى العلوم والبحوث الفلسفية واللاهوتية ، كما قام بدراسة كتب آباء الكنيسة الأول وأسهم هو نفسه بنصيب وافر فى التأليف وفى تسجيل الألحان الكنسية . انظر عن ذلك :

Sullivan, Heirs of the Roman Empire, I—8, 48—9; Baldwin, Med. Church, 27; LaMonte, The World of the Middle Ages, 31, 72, 75, 79; Painter, A Hist. of the Middle Ages, 84—85.

(١) المقصود بالتدشين هنا الرش بالماء المقدس مع إقامة الصلوات المناسبة .

بعض المراجع للفصل الاول

- Baldwin, M. W., *The Mediaeval Church*. New York, 1960.
- Bark, W., *Origins of the Medieval World*. 1958.
- Bigg, C., *The Church's Task in the Roman Empire*. Oxford, 1905.
- Carter, J. B., *The Religious Life of Ancient Rome*. Boston, 1911.
- Cutts, E. L., *Saint Jerome*. London, 1897.
- Dill, S., *Roman Society in the Last Century of the Western Empire*. London, 1910.
- Dufourcq, A., *L'avenir du christianisme*. 8 vols. Paris, 1908 ff.
- Ferrero, G., *The Ruin of Ancient Civilization and the Triumph of Christianity*. Trans by Hon. Lady Whitehead. New York, 1921.
- Fliche, A. C.,
- 1 — *The Rise of the Mediaeval Church*. New York, 1909.
- 2 — *La chrétienté médiévale*. Paris, 1929.
- Gibbon, E., *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*. Ed. by J. B. Bury. 7 vols. London, 1896—1900.

- Grindle, G. E. A., *The Destruction of Paganism in the Roman Empire.* Oxford, 1892.
- Hardwick, C., *A History of the Christian Church. Middle Age.* London, 1861.
- Huttmann, M. A., *The Establishment of Christianity and the Proscription of Paganism.* New York, 1914.
- Jackson, F. J., *An Introduction to the History of Christianity, A. D. 590-1314* New York, 1921.
- Jones, A. H. M., *Constantine and the Conversion of Europe.* London, 1961.
- Katz, S., *The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe.* New York, 1960.
- Lagarde, A., *The Latin Church in the Middle Ages.* Trans. by A. Alexander. New York, 1915.
- Laistner, M. L. W., *Intellectual Heritage of the Early Middle Ages.* Ed. by Starr. London, 1957.
- Langen, J., *Geschichte der römischen Kirche.* 4 vols. Bonn, 1881-93.
- Laurent, F., *Les barbares et le catholicisme.* Brussels, 1864.
- Lewis, A. H., *Paganism Surviving in Christianity.* New York, 1892.
- Maclear, G. F.,
- 1 — *A History of Christian Missions During the Middle Ages.* Cambridge, 1863.
 - 2 — *Apostles of Mediaeval Europe.* London, 1869.

Milman, H. H., History of Latin Christianity. 9 vols.
London, 1883 ff.

Pope, R. M., Early Church History. The Relations of
Christianity and Paganism in the Roman Empire.
London, 1918.

Renan, E., Lectures on the Influence of the Institutions,
Thought and Culture of Rome on Christianity and on
the Development of the Catholic Church Trans. by C.
Beard. London, 1880.

Robertson, J. C., History of the Christian Church to the
Reformation 8 vols. London, 1874-75.

Ropes, C. J., The Conflict of Christianity with Heathenism.
New York, 1908.

Schubert, H. v., Geschichte der christlichen Kirche im
Frühmittelalter. Tübingen, 1921.

Smith, T., Mediaeval Missions. Edinburgh, 1880.

Stahlin, O., Christentum und Antike. Würzburg, 1921.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York,
1960.

Taylor, H. O., The Classical Heritage of the Middle Ages.
New York, 1957.

Zeiller, J., L'empire romain et l'église. Paris, 1928.

الفصل الثاني

القرية في العصور الوسطى

يلاحظ القارىء أن معظم الأمثلة الواردة في ثنايا هذا الكتاب الصغير مستمدة من تاريخ إنجلترا الاجتماعى : وفى حالة عدم الإشارة إلى العكس ، فللقارىء أن يتخذها على أنها أمثلة نموذجية للمجتمع الأوروبى بصفة عامة :

كان التيوتون ، كماغذول ، فى الكثير من أحوالهم ديمقراطيين متعصبين لديموقراطيتهم . لاذكان يحضر اجتماع مجلس القرية بعض ذوى المكانة الذين يتمتعون بنفوذ كبير : ولكن النظرية مؤداها فى أدق معناها أن كل من شبوا محاربين كانوا يعتبرون ، فى حقيقة الامر ، متساوين متكافئين ويحتمل أن عددا كبيرا منهم كان يتكلم فى وقت واحد : ولكن من المؤكد أن الموافقة على القرارات أو رفضها كان يجرى إعلانها بصوت مرتفع . وغالبا ما كان يتم ذلك فى معمعة من صليل السيوف والحرا ب والدروع . لذلك كان الجانب الذى يشعر بأنه الأضعف ، يعتمد الى الانسحاب تدريجيا : وتتلخص فحوى نظرية القانون للتيوتونى فى اعتبار القرار صادرا باجماع الآراء . ولا زالت هذه النظرية قائمة فى هيئة المحلفين عندنا (١) . وما ذكرناه عن اجتماع مجلس القرية يمكن ذكره أيضا عن تلك الاجتماعات التى كانت بطبيعة الحال أكثر أهمية ونادرة ، وكان يحضرها جميع أفراد القبيلة ، أو سكان الولاية كما نسميها الآن .

(١) يقصد المؤلف إنجلترا .

لقد انطوت هذه المساواة النظرية بين جميع الرجال الأحرار ، بطبيعة الحال ، على شيء أشبه ما يكون بتقسيم أراضي القرية الى قطع مساوية . وفي معظم الأحوال كان يعاد في الواقع توزيع الأرض من عام الى آخر . وكان ذلك الأمر ميسورا جدا قبل أن تصل تلك القبائل الى حضارة زراعية مستقرة ، وظل كذلك حتى بعد تلك المرحلة . ووجد الغزو النورماندى أن انجلترا لم تكن قد تجاوزت بعد هذه المرحلة . فكان ثمة بقايا لا مراء فيها لنظام التوزيع البدائى للأرض على أساس المساواة . وكان يخص الفلاح العادى قطعة أرض طيبة أو قطعة بور قاحلة ، بقدر ما يسمح لرجل وأسرته أن يحرثوا الأرض على وجه ملائم ، مع الاستعانة بشورين . وكان ذلك يختلف طبقا باختلاف طبيعة الأرض نفسها . ويبلغ متوسط مساحة الأرض نحو ثلاثين فدانا . بيد أننا نلاحظ أحيانا أن مساحتها كانت تزيد أو تنقص كثيرا عن ذلك . واعد عرفنا الكثير عن الفلاح من كتاب الروك النورمانى (١) Domesday Book ، وهو عبارة عن سجل للأرض

(١) تم انجاز هذا الكتاب الخاص بمسح الأرض سنة ١٠٨٦ . وهو يستهدف تنظيم ضريبة الدانين Danegeld . وتفصيل ذلك أن مملكة وسكس الانجلوسكسونية لجأت في أخريات القرن العاشر الى شراء أولئك الدانين بالمال بعد أن تجددت إغاراتهم على انجلترا ، حتى تمتى شرهم . واضطرت الى فرض ضريبة باهظة على المزارعين وغيرهم من السكان عرفت باسم مال الدانين . وبلغ من فداحتها أن أثقلت كواهلهم ، وغدا الناس في حالة أقرب الى القنينة والعبودية منهم الى المزارعين الأحرار . وعلى هذا يمكن القول بأن الحياة الاقتصادية قد تأثرت فى الجزيرة تأثرا شديدا بضريبة المال الدانى التى أسهمت بدورها فى التطور الاقطاعى والعبودية الزراعية فى البلاد . =

الزراعية وضع لأغراض الضرائب بناء على أمر ولیم الفاتح . ولا يزال هذا الكتاب باقيا باعتباره أقيم سجل من نوعه وقدمه في العالم أجمع . ويوضح لنا الى أى حد كانت نسبة المواطنين الذين كانوا عبيدا بالفعل . كما يوضح كم كان عدد أفراد طبقة أنصاف العبيد ، أى رقيق الأرض ، وقد زادت هذه الطبقة المتوسطة بنسبة ما حدث من نقصان في طبقة العبيد من جهة ، وفي الرجال الأحرار من جهة أخرى . وانا لنحسب بسرور أن العبيد قد تناقص معظمهم بمرور الزمن . ذلك أن القنية لم تكن مجردة من المحبة وروح الخير فحسب ، بل كانت كفاعدة عامة منافية لروح الاقتصاد أيضا . ويكشف كتاب الروك النورمانى عن طائفة من العبيد هبط عددهم في إقطاعية واحدة ، من اثنين وثمانين إلى خمسة وعشرين فى السنوات العشرين الأخيرة . أما فى انجلترا فقد تلاشت العبودية الحقيقية قبل القرن الثالث عشر ؛ بينما ظلت مزدهرة طيلة العصور الوسطى فى اسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا . وكانت العبودية فى الدويلات البابوية أقرب إلى الزيادة منها إلى الزوال بنهاية هذه الحقبة من التاريخ . لقد شرع أكثر من بابا فى أخريات العصور الوسطى ، العبودية كمعقبة لأعدائهم فى ميدان السياسة . وأما تجارة الرقيق فترجع نشأتها

= ويدل كتاب الروك النورمانى الذى وضع أساسا لتنظيم تلك الضريبة على مبالغ الدقة التى بذلها عمال المالية النورمانية فى الكشف عن كل مصدر من مصادر المال فى طول البلاد وعرضها . ولهذا يعتبر الكتاب المذكور سجل فردي نوعه وقيمتة وقدمه عن الحياة فى القرية الإقطاعية فى انجلترا فى العصور الوسطى . أنظر فشر : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٢٢ و ١٦٣ ؛ وكذلك : Coulton, Med. Panorama, 72 sq. , 367 ; idem, Med. Village, 10, 111.

القانونية إلى مرسومين باباوين (١) . بيد أن اقتناء العبيد في انجلترا ، قد دل إلى حد ما على افتقاد الرجل الحر لحرية : فقد كان السادة اللوردات يريدون عملا رخيصا ، ومن ثم كانوا في معظم الأحوال يستغلون مراكزهم في سبيل الحصول على هذا للعمل بالقوة والإكراه أو بطرق ملتوية ، واستخلص السيد ولیم هدسن (٢) William Hudson ، الذي قام بصبر يدعو إلى الاعجاب بحفائر أثرية عظيمة الأهمية لم يكن ينبغي من ورائها مصلحة شخصية - استخلص سلسلة قيمة من المعلومات المأخوذة من سجلات مقاطعة نورفولك (٣) Norfolk الانجليزية في حقول نورفولك ، ويلاحظ من كتاب الروك أن نسبة الأحرار هناك كانت كبيرة ، كما كان الحال في كل المقاطعات التي تأثرت إلى حد كبير بالغزوات الدانية . فالفلاحون كانوا من سلالة الفاتحين الدانيين ، وكان ثمة ثمانية وسبعون من الأحرار في مقابل سبعة من رقيق الأرض . ولكن أساقفة نوريتش Norwich النورمان ، والذين ذهب إليهم صاحب الأرض ، قد أنزلوا خمسة وستين من الثمانية والسبعين من الأحرار إلى مرتبة العبيد ، وكان في مقاطعة كامبريدج أيضا تسعمائة من الأحرار عند الغزو ، وقد هبط عددهم بعد عشرين عاما من ذلك الستاربخ إلى مائتين وثلاثة عشر حرا فقط .

(١) أنظر : Coulton, Med. Village, 171,495 sqq. (كولتون) .

(٢) ولیم هدسن روائي انجليزي ولد في أمريكا الجنوبية سنة ١٨٤١ وتوفي سنة ١٩٢٢ عن ٨٢ سنة .

(٣) نسبة إلى مدينة نورفولك الانجليزية الواقعة على الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحر الشمال .

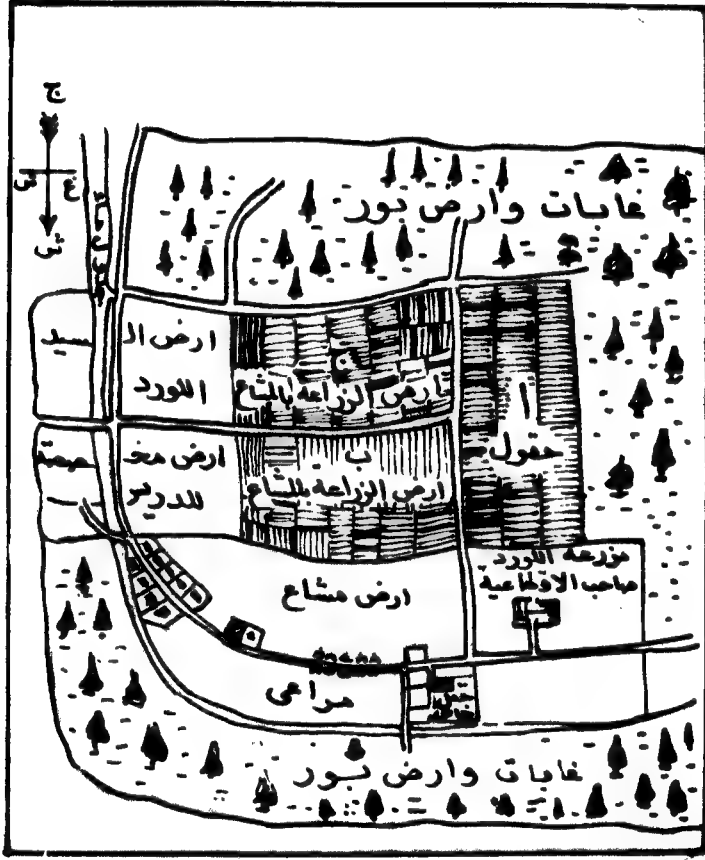
وقد سارت عملية تجريد الأحرار من ممتلكاتهم خلال الشطر الأول من الحقبة الوسيطة بخطوات أوسع مما سارت به القنية الحقيقية نحو الزوال . وفي منتصف الحقبة الوسيطة - أى في عصر تشوسر (١) Chaucer مثلا - كان أقل من نصف مواطني هذه الجزائر أحرارا .

(١) عاصر جوفري تشوسر النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، إذ ولد حوالي ١٣٤٠ وتوفي سنة ١٤٠٠ وقد أمد إنجلترا بما كانت تفتقر إليه منذ أيام الانجلوسكسون ، ونعني بذلك الخلق والابداع الأدبي الذي يرقى إلى مستوى يفضل بكثير ما انتجه معاصروه في القارة . ولم يصل إلى ما وصل إليه بمحاولة تجنب التأثير الخارجي ، وإنما بالغوص في أعماق الأدب الفرنسي والأدب الإيطالي والإفادة منهما . كما احتك بنماذج عديدة من الناس ، وعرف حياة البلاط بزواجه من إحدى وصيفات الملكة ، وترسل في مهمات دبلوماسية خارج البلاد . وتقلب في العديد من الوظائف ، مما أكسبه خبرة بالناس والحياة تركت أثرها في أعماله التي خلفها لنا . وله مؤلفات عديدة نذكر منها « The Book of the Duchess » الذي وضعه سنة ١٣٧٠ ، و « The House of Fame » (حوالي سنة ١٣٨٠) و « The Parliament of Fowls » (حوالي ١٣٨٢) ، و « Troilus and Criseyde » . وكان آخر وأضخم أعماله هو قصص كانتربري « Canterbury Tales » . وقد توفي قبل اتمامه ، وفيه يصف المجتمع الذي عاش فيه وعاصره فيما عدا طبقة الأرستقراطية : لقد نال تشوسر شهرة واسعة بعد موته مباشرة ، ويكفي أن الشعراء الانجليز في القرن الخامس عشر اعترفوا به بوصفه أستاذهم ، وكانوا يجاهدون في تقليد منهاجه وطريقته . أنظر : Myers, England in the Late Middle Ages, 85-6, 165 . مما سبق يتضح لنا أن شاعرنا كان على معرفة بكل مظاهر الحياة في عصره . وبالرغم من أنه لم يدخل الجامعة، فقد كانت =

كانت القرية هي الوحدة السياسية والدينية ، بينما قامت الوحدة الزراعية على الاقطاعية . وغالبا ما كانت القرية وإقطاعيات السيد الاقطاعي متلازمين ، ولكن كثيرا ما يحدث أن تضم قرية واحدة اقطاعيتين أو أكثر . وإذا بحثت عن قريتك في تاريخ المقاطعة ، أو سألت أحد رجال الآثار المحليين ، فلربما وقعت على أسماء مختلف الاقطاعيات ، وهي تحمل عادة أسماء بعض الملوك السابقين على غرار الأسماء التي لا تزال تطلق حتى وقتنا هذا على كثير من المزارع والحقول .

وكان للسيد اللورد مزرعته الخاصة التي يعيش فيها ، وهو قابع في قصره . ويحتمل أن هذه المزرعة كانت في المهود المبكرة تحرث برمتها بطريق « السخرة » . بيد أن نظام العمل مقابل أجر نقدي كان قد أدخل أيضا بصورة تدريجية : ونقول « السخرة » لأن القرن لم يكن له من ريع سوى ما يلتقطه من الأرض بكده وعرق جبينه . وقد عدد لنا أحد كتاب

= دائرة اطلاعه تدعو إلى الدهشة . كان متبحرا في فهم فرجيل واوفيد وستاتيوس وكلوديان وغيرهم من الكتاب القدامى : كما اطلع على مؤلفات جيروم وبيوثيوس . وكان على معرفة بكتابات معاصريه الفرنسيين وعلى رأسهم فرواسار ووليم دى ماشو . وأضاف إلى دائرة معلوماته بعد زيارته الأولى لاطاليا إنتاج دانتى وبترارك وبوكاشيو . وهو يشارك شكسبير في مجده ، ويعتبر أحد المؤسسين للأدب الشعري في إنجلترا . انظر : لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٣ ، ص ٧٢٨ - ٧٢٩ ؛ وكذلك McKisack, Fourteenth Century, 529—32; Huizinga, Waning of the Middle Ages, 326.



رسم تخطيطي يوضح كيفية تنسيق الأرض
في إحدى إقطاعات القرن الثاني عشر
التي يبلغ تعداد سكانها حوالى ١٥٠ نسمة

العصور الوسطى مختلف الأسباب التي آلت بالرجال الأحرار إلى الرق .
ويستهل حديثه بذكر هذه الأسباب وهي :

أولا - من الجائز أن يكونوا قد طلبوا للخدمة في الحرب فرفضوا ،
وعوقبوا بانزاهم إلى مرتبة القنية .

ثانيا - ربما يكونون قد وهبوا أنفسهم للكنيسة .

ثالثا - يبيع أنفسهم كما يحدث إذا افتقر رجل فذهب إلى أحد السادة
اللوردات وقال له : « اعطني مقدار كذا فأصبح رجلك وأكون
رهينة لك » .

رابعا - للدفاع عن أنفسهم ضد طاغية أو عدو محلي بتسليم أنفسهم إلى
رجل أقوى .

ويجب علينا أن نتذكر دائما جانبي حياة رقيق الأرض . فاللورد
كان بالنسبة له ، كما تعتبر الطبيعة بالنسبة لنا ، أى أنه صديق أو
عدو له طبقا للزاوية التي ننظر منها ، ولكنه ضرورة على أية
حال . ثم أن القرن كان مرتبطا بالأرض ارتباطا وثيقا . على أنه
في انجلترا ، على أية حال ، لم تكن لديه وسيلة لتغيير سادته
إلا عن طريق اقتراف جريمة ما ، أو المخاطرة بالهرب ، أو عن الطريق الأكثر
صعوبة ، ألا وهو تكديس المال وشراء حريته به ، هذا إذا ابتسم له الحظ فقبل
السيد أن يبيعه حريته (١) . نقول إن القرن كان مرتبطا بالأرض ، وكانت

(١) هذا عن وسائل الخلاص من القنية وعبودية الاقطاع . كما
جاء في مرسوم أصدره الامبراطور شارلمان في القرن التاسع أنه يحق
للتابع ترك سيده المتبوع لأحد الأسباب التالية : إذا عمل السيد على =

الأرض أيضا مرتبطة به ، ولم يكن فى استطاعة السيد تجريدته منها الا فى حالة رفضه أداء واجباته القانونية ، أو لآى سبب وجيه آخر.

كانت هذه الواجبات القانونية ، فى الأصل ، هينة للغاية . فقد كان الفلاح يحصل على أرضه ، بشرط أن يعمل ثلاثة أيام فى الاسبوع لحساب سيده ، وثلاثة آخر لنفسه . أما يوم الاحد فكان العمل فيه محرما تحريما باتا ، وكانت الكنيسة نظريا سبتية (١) ، شأنها فى ذلك من حيث العمل ، بل ومن حيث الله وأحيانا ، شأن الكثيرين من أولئك الذين نطلق عليهم اسم « الطهرين » . وثمة أمثلة على كل من الحالىين : فقد دون الأسقف أودو ريجالدى Odo Rigaldi الفرنسيسكانى من مدينة

== انزال تابعه بالقوة إلى مرتبة القنية ، أو تأمر على حياته ، أو اقترف جريمة الزنا مع زوجته ، أو هاجمه بسيفه قاصدا الحاق الأذى به ، أو تتخاذل عمدا عن حمايته بينما كان بوسعه القيام بذلك وقد أكد المبدأ الأخير بعد ذلك بقرنين أحدا ساقفة مدينة شارتر ويدعى فولبرت Fulbert فى خطاب بعث به الى دوق اقطانيا . أنظر عن ذلك 20 Stephenson, op, cit., — ومع ذلك يجب أن نتذكر أنه بالإضافة الى الوسائل العديدة التى اورد هاكولتون فى كتابه للخلاص من القنية وعبودية الاقطاعي ، كانت الثورة هى الطريق الأخير الذى لجأ اليه الفلاحون والاقنان للحصول على حريتهم . فقد كانوا دائمي الثورة على سادتهم الاقطاعيين . وزادت هذه الثورات حدة وعنفًا فى اواخر العصور الوسطى ، فى وقت كان فيه النظام الاقطاعى فى المجتمع الغربى يلفظ آخر أنفاسه أمام التغييرات الهائلة التى طرأت على العالم الغربى وقتذاك .

(١) أى أنها تحفظ يوم السبت .

روان (١) Rouen ، في يومياته لسنة ١٢٦٠ ، كيف وجد محارث منهمكة في العمل في عيد القديس متى (٢) . فسحب الخيل إلى الاصطبل حيث حبسها حتي يدفع أصحابها الغرامة التي تراءى له أن يوقعها عليهم : وحدث بعد ذلك بأربع سنوات ، أن شاهد في يوم من أيام الآحاد عربجيا يسوق عربية فغرمه عشرة سولات (٣) ، أي ما يوازي أجسره عن ثلاثة أسابيع (٤) . وكثيرا ما امشهد علماء الأخلاق بعبارة للقديس اوغسطين ، قاموا بتفسيرها بمعنى أنه حتي إذا عمل أي فرد في أيام الآحاد أو الأعياد ، فإن الوزر في هذه الحالة يكون أقل درجة من الوزر الذي ينجم عن الرقص . كذلك عمد القساوسة الاتقياء ليس فقط إلى النهي عن هذا الضرب من اللهو بعدم تشجيعه ، بل أيضا بتحريمه فعلا في بعض الأحيان : وقد أدان بعض الوعاظ هذا الضرب من اللهو بوصفه خطيئة مميتة . (٥) ومع ذلك فهنا ، كما في أي مكان

(١) تقع مدينة روان على نهر السين شمال غربي باريس ، وهي عاصمة مقاطعة نورمانديا .

(٢) يقع عيد القديس متى عند الغربيين في ٢١ سبتمبر من كل عام .

(٣) السول Solidus عملة ذهبية رومانية سكّت لأول مرة في أيام الامبراطور قسطنطين الكبير حوالي سنة ٣١٢ م ، واستمرت مستعملة حتي نهاية الدولة البيزنطية . وقيمتها تساوي ١٢ شلنا وثمانية بنسات ونصف . ووزنها بالذهب ٤ من الرطل الانجليزي . أنظر عن ذلك :

Seyffert, A Dictionary of Classical Antiquities, 595.

(٤) Coulton, Medieval Village, 256 ; cf. pp. 530 sqq. (كولتون).

(٥) Ibid, pp. 559 sqq. (كولتون) .

آخر فى العصور الوسطى ، كان ثمة هوة عميقة بين النظرية والعمل . ولدينا دليل قوى على أن الفلاحين كثيرا جدا ما عمدوا إلى إهدار المبدأ السبتى Sabbatizare كما ورد فى الصيغة اللاهوتية فى كلا الحالين . وكثيرا ما شكوا علماء الأخلاق من مقدار العمل الذى كان يتم عادة ، ومن الحركة الجارية فى الأسواق ، على الرغم من أيام الآحاد أو الأعياد المقدسة . ويدلون إلينا ، فضلا عما تقدم ، بالعلاقة المباشرة بين أيام الآحاد والأعياد وبين كافة أنواع اللهو ، المشروع منها وغير المشروع . وعندما اقترحت حكومة هنرى الثامن فى سنة ١٥٢٦ إلغاء الأعياد غير الهامة ، لم يكن ذلك إلا اعترافا متأخرا سبق أن أصر عليه إصرارا علماء اللاهوت منذ أمد بعيد ؛ وهو أن الشرائع التى تهدر فى أيام الآحاد وأعياد القديسين ، أكثر منها فى باقى أيام الاسبوع .

وكانت ثمة واجبات أخرى معينة ، وهى أصلا واجبات اختيارية الغرض منها إرضاء السيد . ثم غدت تقليدا مألوفا لم يلبث أن تحول أخيرا إلى التزام قانوني ، شأنه فى ذلك شأن لإكرامية العشرة فى المائة المفروضة قانونا فى فنلندا حاليا . وبالتدريج أصبح مفهوما لدى كل من السيد والمسود أن الدفع النقدي كان أنسب مساومة بين الطرفين . بيد أن التقنية كانت فى عصر تشوسر (١) ، هى الظاهرة الأكثر شيوعا . فكانت أرض السيد يزرع جانب منها بواسطة السخرة ، والباقي مقابل أجر يدفع نقدا من المال الذى كان بعض الأرقاء يردونه مقابل اعتاقهم . وكانت الزراعة بصفة عامة ، سواء فى أرض السيد أم فى باقى الاقطاعية ، تتم أحيانا طبقا لنظام الحقولين ، وفى أغلب الأحيان طبقا لنظام الحقل الثلاثي . وكانت الأرض الصالحة للزراعة ،

(١) أى فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

فى جملتها ، تقسم الى حقلين أو ثلاثة . وطبقا للنظام الأول ، كانت الدورة الزراعية الوحيدة عبارة عن مجرد الانتقال من دورة الحبوب الى ترك الأرض بورا لإراحتها من سنة الى أخرى على التماقب . أما طبقا للنظام الثانى ، فقد كانت الدورة ثلاثية . وفى السنة الأولى كان يبذر القمح ، ويليه الشعير فى السنة الثانية ، وفى الثالثة يترك الحقل بورا لإراحته (١) .

وكانت الزراعة فى العصور الوسطى الى حد ما على المشاع . أما عن الحدود الحقيقية فقد كانت مثار نزاع دائم بين الناس . ولا شك أن الأراضى المملوكة كانت فى أول الأمر عبارة عن قطعة واحدة غير مجزأة . ولكن بمرور الزمن ، ونتيجة لتقسيمها بين الأبناء ، وتحويلها الى الغير وما شابه ذلك ، انقسمت الأرض ثم تفتت . وفى مقاطعة مارثام Martham ، مثلا ، وضع المستر هدمن خريطة تبين ما اجرى من التفتت فى ملكية واحدة مساحتها ستة أفدنة خلال قرنين من الزمان بعد كتاب الروك النورمانى (٢) . فقد قسمت هذه الأفدنة الستة على عشرة مستأجرين مختلفين ، كان واحد فقط من بينهم يحمل لقب مالك الاقطاعية : أما الأراضى الصالحة للزراعة فى إقطاعية مارثام ، فقد تفتت الى ما يزيد عن ألفى حصة مبعثرة . وربما كانت حصص فلاح واحد متباعدة الواحدة عن الأخرى بمسافات شامعة . وما لاشك فيه أن أولئك الناس كانوا يتكبدون مشقة كبيرة ، فضلا عما يضيعونه من وقت طويل فى نرحالهم من قطعة الى أخرى . ومع ذلك ، فلا بد أنه كانت

(١) انظر عن ذلك كوبلاند وفينو جرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب اوربا - ص ٨ - ٩ .

(٢) أى بعد سنة ١٠٨٦ بقرنين من الزمان .

هناك حركة كهري منظمة للأخذ والعطاء ، نظرا لوجود أرض متجاورة تم حراثتها وبذرها وجمع حصاها جملة واحدة . وكان الحصاد يقسم بين أصحابه بنسبة ما يملكه كل منهم من الأقدنة . ويشبه ذلك الى حد كبير ما يفعله الجبليون الآن في سويسرا باللبن الذي يستدر منه أبقارهم التي تساق في قطيع واحد إلى مراعي الصيف العليا ؛ وكذلك الجبن الذي يعمل من ذلك اللبن . الا أن مثل هذه التنظيمات انما تفتح الباب على مصراعيه للاحتكاك والمخاضات . ومع ذلك فإن هذا العمل الجماعي كان أقل تبذيرا مما يحدث في ظل الانفرادية المطلقة . فمن جهة كان الفلاح مشدودا إلى الأرض بصورة لا فكاك له منها . وكان يتناول أنصبة الخاصة قمحا أو شعيرا أو أرضا غدير مزروعة في دورة الراحة ، شأنه في ذلك شأن غيره ممن يعملون في الحقل . وبعد الحصاد ، يترك الحقل بما عليه من مخلفات القش وسنابل القمح والحبوب التي تتساقط من عمال الحصاد ، غذاء لدجاج القرية وبطها وأوزها ، حيث تلتقط هذه الدواجن غذاءها من تلك المخلفات لتصبح في أوج سميتها ولذيذ مذاقها حوالى عيد القديس ميخائيل (١) .

ولم تعرف انجلترا السياج خلال العصور الوسطى . وظلت الامور على هذا الوضع إلى أن جاء في النسخة المعتمدة للعهد القديم ان اسحق خرج مساء ، لا إلى الحقول (بالجمع) ، بل إلى الحقل (بالمفرد) . (٢) وكان لكل كوخ

(١) يقع عيد القديس ميخائيل عند الغريين في ٢٩ سبتمبر من كل عام .

(٢) نص الآية « وخرج اسحق ليتأمل في الحقل عند إقبال المساء » .

انظر : سفر التكوين - اصحاح ٢٤ : ٦٣ .

عادة مزرعته الصغيرة المسورة وحديقته . كذلك كانت أجل أراضى المروج مسورة ليتسنى الاحتفاظ بها للدريس ، ولكن الأرض الصالحة للزراعة كانت على امتدادها الشاسع تفصل قطعها الواحدة عن الأخرى هروك من الخشب ، أو سياج رفيع من الحشائش . وما زال نظام الحقل الكبير قائما فى مختلف أنحاء إنجلترا حتى يومنا هذا . ولكن المفروض أن مشاهدة معالم العصور الوسطى على حقيقتها تستلزم منا الرحيل إلى الخارج ، كأن نذهب إلى وديان نورمانديا حول ديب (١) Dieppe ، التى تشبه فى تكوينها الطبيعي كنت Kent وسامسكس (٢) Sussex ، وإن كانت تختلف عنهما من وجوه عديدة .

وإلى جانب الأراضى الصالحة للزراعة ، والمروج المسورة لحفظ الدريس ، كان هناك دائما كثير من المراعى غير المنظمة والأراضى المشاع التى كان

(١) تقع ديب فى السين الأدنى بفرنسا .

(٢) تقع كنت وسامسكس جنوبى غابة ويلد Weald بإنجلترا . وقد استقر فيهما السكسون فى أولى غزواتهم على الجزيرة البريطانية حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى . وكانت كنت أول مملكة بالجزيرة تؤول إلى الغزاة الجدد ، وقد اشتملت على أجناس شتى من الخلق ، وكانت مدينتها مزيجا من عناصر حضارية متنوعة . كما كانت على صلة طيبة بجميرانهم البريطانيين فى الممالك الأخرى : وامتدت حضارتها إلى الممالك المجاورة لها ، وقامت بينها وبين شعوب القارة ، علاقات تجارية واجتماعية . أنظر عن ذلك :

Whitelock, Beginnings of English Society, 8,13-4, 122, 145,150;
Woodward, Hist. of England, 11, 17; Shorter Cambridge Med.
Hist., I, 172 sqq.

للفلاحين عليها حق—وق الرعى والكلاء . وكذلك بعض الغابات التي كان من حق القرية استخدام الحطب الموجود بها للوقود أو لإقامة السياج دافعا عن القرية نفسها . وكانت الأخشاب تستخدم أحيانا في البناء . ولكن لم يكن للقرية ، الى جانب ما تقدم ، أية حق—وق رياضية . بل إن ممارسة الرياضة في انجلترا كانت تخضع في أيام تشوسر لقيود أشد مما خضعت لها أيام فيلدنج (١) Fielding .

وللاقطاعية ثلاثة موظفين زراعيين رئيسيين . وكان اليد اليمنى للسيد المالك هو وكيل أعماله أو نائبه الذي كان يتصدر الجلسة في محكمة الاقطاعية . ولم يكن يقل عن هؤلاء أهمية كبير القضاة « Praepositus » الذي كان ينتخب سنويا باعتباره ممثلا اسميا عن المستأجرين . ولكن هذا الممثل كان في الواقع يحاول المحافظة على مصالح السيد مثلما يفعل وكيل أعماله تقريبا . أما الموظف الثالث فهو موظف الأبرشية « Hayward » الذي كانت مهمته في الواقع حراسة الدريس . ولفظ « Hayward » هو تحريف للاسم الأصلي « Heggeward » ، وكانت وظيفته السهر لمنع أى حيوان من التسلل من بين السياج الى حقل الدريس أو الحبوب ، أو الى غابة أى شخص

(١) هنرى فيلدنج قصصي وكاتب سياسى انجليزى ، ولد فى لشبونه سنة ١٧٠٧ وتوفى فى ١٧٥٤ ولم يتجاوز الخمسين من عمره . اشتهر بدقة ملاحظته وعمق تجاربه . وله عدة مؤلفات منها كتابى « جوزيف اندروز » و « توم ثمب » Tom Thumb الذى يهاجم فيه الحكومة الانجليزية بشدة وعنف . أنظر : Plumb, England in the 18th. Century, 35, 100, 163; Trevelyan, Shortened Hist. of England, 385, 386.

آخر . كما كان عليه أن يسوق أية ماشية يراها شاردة إلى حظيرة القرية التي لا يزال بعضها موجودا إلى الآن . وكانت الحظيرة في مدينة كمدن كينجز لين King's Lynn لا تزال قائمة حتى خمسين عاما مضت . أما الموظف الرابع فكان دون اولئك الموظفين الثلاثة أهمية من الناحية الرسمية ، وكان يزاول مهمته في موسم الحصاد . وهذا الموظف الأخير هو كبير الفلاحين الذي كان من شروط تعيينه في وظيفته أن يحمل عصاه رافعا إياها فوق رؤوس عمال الحصاد ، ذلك أنه يجوز للسيد أو لموظفيه ضرب رقيق

رسم رقم ٢



عصا مقدم الفلاحين

الأرض ، طالما أن العقوبة لم تصل إلى حد الأذى الجسدي الخطير . ومن المفروض أن يكون لكل قرية حدادها أيضا . فإن لم تراع القرية ذلك طواعية أرغمت عليه قسرا ، لأن وجود الحداد كان ضرورة ملحة للمجموع . كذلك كان يتحتم وجود نجار في القرية . أما التريزى فإن حاجة القرية إليه كانت أقل بكثير . وأما أصحاب الدكاكين والحوانيت فلم يكن لهم وجود في القرية على الإطلاق . فقد كان الطعام والشراب والكساء متوفرة أسبابه

داخل القرية . فمن زراعة تنمى ، الى كساء يصنع ، الى شراب يعد حتى آخر كسرة من الطعام ، ونقطة من الشراب ، أو غرزة من الخياطة . وما كان يتعذر عمله فى القرية كانوا يجلبونه من المتاجر والأسواق القائمة فى أقرب مدينة منها .

ويمكن وصف الفلاح الذى عاش فى عصر تشوسر ، تماما كما وصف فرجيل (١) فلاحه الايطالى الخاص ، وهو يحمل محصوله الى المدينة ، ويعود منها وييده حجر مسنن ، أو حفنة من الصنوبر . إذ قال : « وكثيرا ما يعمد

(١) هو بولبيوس فرجيليوس Publius Virgilius أو فرجيليوس مارو Virgilius Maro ، من أشهر شعراء اللاتينية . عاش فى عصر اغسطس . ولد فى سنة ٧٠ ق . م بالقرب من مدينة مانتوا Mantua بشمال إيطاليا حيث كان أبوه يملك قطعة أرض صغيرة يقوم بزراعتها . وتلقى التعليم المعتاد فى ذلك الوقت . فتعلم اللغة والفلسفة اليونانية ، وبدأ فى عصر مبكر فى كتابه القصائد القصيرة . وسرعان ما فقد أراضيه وممتلكاته أثناء الحروب الأهلية ، ثم أعادها إليه الامبراطور أغسطس فيما بعد . وانضم إلى حاشية الامبراطور ، وكتب القصائد العديدة فى مدحه . كما كتب مجموعة من القصائد عرفت باسم القصائد الريفية وتسمى باللاتينية Georgics . ومن أهم أعماله أيضا الملحمة الكبرى للغة اللاتينية « الانياذة » Aeneid ، التى كتبها بناء على طلب اغسطس نفسه . وتوفى فرجيل فى برندينزى سنة ١٩ ق . م عن ٥٢ سنة تقريبا . وقد تأثر به كثير من كتاب وأدباء وفلاسفة ومفكرى العصور الوسطى . انظر عن ذلك المراجع التالية :

Dict. of Classical Antiquities, 681—3; Burgh, Legacy of Ancient World, I, 303, 305—6, 313—4; Barrow, Romans, 84 sqq., 118 sqq.

لوحة رقم ٢

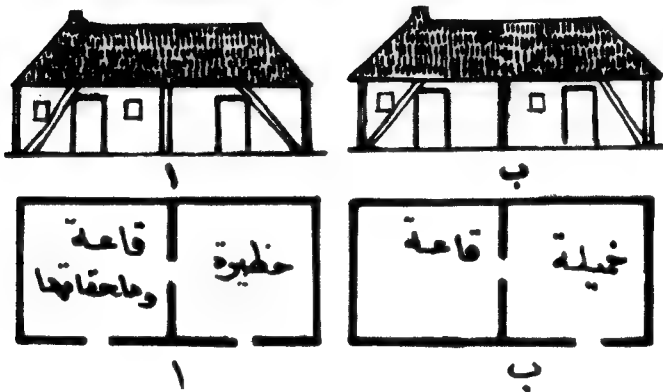


موكب كنسى في قرية

سائق الحمار البليد الى تحميل ظهره بجرار الزيت ، أو بالتفاح الرخيص ؛
وعند عودته من المدينة يحضر معه حجر شحذ أو كمية من الصنوبر
المعطوب . (١)

ولما لاحتاج في الواقع الى قدر من الجهد ليتسنى لنا تكوين فكرة عن
طريقة الاكتفاء الذاتي ، وبالتالي عن العزلة التي كان يعيش فيها الريف في
القرون الوسطى . كان متوسط تعداد أفراد القرية لا يزيد عن ٤٠٠ تقريبا ،
يبلغ عدد البالغين منهم ٢٥٠ على الأكثر وربما أقل من ذلك ، وعدد
الأطفال ١٥٠ طفلا . وكان كل أولئك يقضون حياتهم عادة داخل
القرية ، دون أن يشاهدوا من الخلق إلا للقاليل فيما جاوز حدود
قربتهم . فقيما عدا المارة والزائرين المؤقتين ، كان أولئك الرجال
وهايك النسوة يعيشون في انقرية من المهد الى اللحد ، حيث يرافقهم
إليه عدد من البالغين بقدر ما يكفي ملء أربع من عربات لندن وكانوا

رسم رقم ٣



كوخ تاريخه حوالى سنة ١٣٠٠

يعرفون كل واحد منهم باسمه ، كما كانوا يرون كل واحد منهم ويتحدثون إليه يوميا .

أما عن محكمة السيد الاقطاعي فقد كانت مهمتها مزدوجة : مدنية وجنائية . فقد كانت المحكمة تفصل في كافة الشئون المتعلقة بالملكية موضوع النزاع ، والخدمات التي لم يتم تأديتها ، والغرامات غير المسددة ، وهكذا . كما كانت تفصل في جرائم الهجوم ، والتعمد على الغير ، واغتصاب الأرض ، وبذاءة اللسان . مثال ذلك أن تنادى رجلا بقولك له « يا عبد » احتقارا منك بشأنه ، وكذلك تلويث آبار القرية ، أو احداث حفر في الطريق العام لاستخراج الصلصال ، أو الحصول على الطمي المحتوى على الصلصال ، و كربون الجير الذي يستعمل في السجاد ، وبالإضافة الى ما تقدم ، فقد كانت المحكمة تنظر أيضا في محاولة الاساءة إلى الغير التي كانت ترتكب في ذلك الزمن ، ولا تزال ترتكب حتى الآن ، وهي أن يتزك شخص ما سيارته في مكان غير ملائم بحيث يضايق الغير . وفيما يلي بعض الأمثلة الملموسة التي تؤيد ذلك .

لقد سجلت في كتابي « القرية في العصور الوسطى » (١) كيف أننا نجد مبكرا منذ سنة ١٣٦٤ الأمر الصادر الى « كافة المستأجرين في رينتون الشرقية East Raynton و رينتون الغربية West Raynton ، والذي يحرم عليهم مناداة أى رجل من أية اقطاعية بأنه « عبد السيد المتبوع » ،

(1) Coulton, Medieval Village, 91 (كولتون) .

كما قضى الأمر بمعاقة المخالف لذلك بغرامة قدرها ٢٠ شلنا .
وفي سنة ١٣٦٥ صدر مرسوم بمدينة نيوتن بولي—و Newton Beaulieu
بتوقيع غرامة قدرها ٦ شلنات و ٨ بنسات على أى شخص ينادى آخر
مع نعتـه بأنه ريفى Rusticum . وقد قدم فعلا للمحاكمة شخص يدعى
جون اوف بامـبـورو John of Bamborough لمناداته آخر يسمى آدم
اوف مارتون Adam of Marton بقوله « إنه مزور وكاذب فى عيـنه ،
وانه ريفى غليظ الطباع ، بقصد الإضرار بسمعة آدم المذكور : » ولكن
الغرامة التى وقعت فعلا كان مقدارها ٣ شلنات و ٤ بنسات فقط : ثم
اكتفى أخيرا بتغريم جون شلنا واحدا من باب الرأفة . كذلك حدث فى سنة
١٣٧٨ أن هدد المسأجرون فى وولفستون Wolveston بتوقيع غرامة قدرها
٢٠ شلنا على كل شخص « ينادى أى قن من أقنان السيد الاقطاعى بكلمة
ريفى » . ذلك أن كلمة ريفى باللاتينية وهى « rusticus » كانت مرادفة
لكلمة قن « Servus » أو فلاح « Villanus » .

وفى الصفحة التالية من الكتاب (١) أشرت الى الشكايات التى تتعلق
بالخفر التى نقرت فى الطريق العام . ولكن أهم تلك الخفر جميعا هى تلك التى
ذكرتها السيدة جـ : رـ . جرين J. R. Green فى كتابها المسمى « حياة المدينة فى
القرن الخامس عشر » (٢) : إذ كتبت تقول :

(١) Coulton, op. cit., 92 (كولتون) .

(٢) Green, Town Life in the Fifteenth Century, II, 31

(كولتون) .

وفي سنة ١٤٩٩ رحل تاجر قفازات من سوق ليتون Leighton حاملا بضاعته إلى ايلسبرى Aylesbury ليلحق بالسوق هناك قبيل عيد الميلاد .
وحدث أن صاحب طاحونة في ايلسبرى ويدعى زيتشارد بوز Richard Boose ، وجد أن طاحونته في حاجة إلى ترميم ، فأرسل خادمين إلى الطريق العام ليقوما له بالحفر فيه بحثا عن نوع من الصلصال معروف باسم « صلصال رامينج » دون أن يخشى نتيجة ما تسبب عن النقر في الطريق العام في سبيل الحصول على ذلك الصلصال ، من إحداث حفرة بالغة الاتساع في وسط الطريق بلغ طولها عشرة أقدام وعرضها ثمانية أقدام وعمقها ثمانية أقدام أيضا ، لم تلبث أن غمرتها فوراً مياه الامطار الشتوية . ولكن القفاز السيء الحظ ، وهو يغادر المدينة في الغسق وجواده محمل بسلال مليئة بالقفازات ، سقط توا في الحفرة حيث غرق هو وجواده . ولقد وجهت التهمة إلى الطحان لتسببه في وفاة القفاز : ولكن المحكمة حكمت ببراءته على أساس أنه لم يكن سيء النية ، وأنه لم يعمد الى الحفر الا لترميم طاحونته ، وأنه في الواقع لم يكن يعرف أى مـكان آخر يستطيع أن يحصل منه على نوع من الصلصال الذي كان في حاجة اليه سوى الطريق العام .

أما فيما يتعلق بالخاصات التي كانت تلتهم معظم الوقت المخصص للعمل في محاكم هذه القرية ، فقد كان مردها أحيانا إلى تعاطي الخمر أو إلى مباريات كرة القدم بين القرى وبعضها ، والتي كان يجري لعبها بما انصفت به القرون الوسطى من عنف تلازمه الفوضى والخروج على كل نظام : كذلك نتجت تلك الخاصات من العادات القديمة الخاصة بالأخذ بالثأر بين الأسر . ولكن يبدو ، كما تدل ظواهر الامور ، أنها كانت ترجع في أغلب الأحيان إلى

أسنة النساء . ومن أجل ذلك أصدرت محكمة بلنجهام Billingham في نورثمبرلاند Northumberland أو درهام Durham « أمرا باجماع الآراء الى كافة نساء المدينة بأن يحفظن أسننتهن ، وأن يتعففن عن القذف بأية صورة كانت . » كذلك صدر الأمر في هازلدين Hazeldean في سنة ١٣٧٥ « الى نساء المدينة قاطبة بأن يحفظن أسننتهن ، والا يوجهن أى لوم أو سباب الى أى رجل كان . » (١)

ولقد احتفظت محكمة القرية الإقطاعية بآثار كثيرة من الديمقراطية البدائية . فكان الحكم ، من حيث الشكل على الأقل ، يصدره المستأجرون أنفسهم بعد حلف اليمين وفقا للعادات المرعية في الإقطاعية . وكانت الإقطاعيات تختلف عن بعضها البعض تبعا لاختلاف العادات في كل منها . ويندر أن نجد إقطاعيتين تتفقان تماما في العادات . أما الاختلافات التفصيلية فغالبا ما كانت ذات أهمية . ومع ذلك فإنها جميعا شديدة الشبه من الناحية العالمية ، أى من حيث أنها تحمل طابع مجتمع يختلف اختلافا بينا عن مجتمعنا هذا . وعلى الرغم من الشكليات الديمقراطية ، فقد كانت الظروف كلها تميل بميزانها بقوة لصالح السيد الإقطاعي ، حتى ولو لم يكن كبير قضاة الإقطاعية هو رجله الثابت بقدر ما كان شأنه مع وكيله . لقد كان ذلك المجتمع مجتمعا بدائيا قبليا إذا ما قورن بمجتمع اليوم ؛ وكان معنى ذلك أن كل شيء أصبح يعتمد فيه اعتمادا كبيرا على سيد الأسرة أو القبيلة ، أو على كبير الملاك ، أو في أحوال كثيرة على موظفيه . وقد روى لنا بروميارد

(١) يمكن الاطلاع على هذه التفاصيل وما شابها في كتاب Coulton ،

Med. Village, 92 sqq. (كولتون) :

Bromyard الدومينيكانى ، (١) أن وكيل السيد اللورد كثيرا ما كان هو طاغية الحقول الصغير الذى كان بوسمه وضع يده على كل شيء ، وابتزاز أموال القرويين ، مستترا فى ذلك وراء سيد لين العريكة سهل القياد ، ابتغاء مرضاته عن طريق زيادة الايراد .

(١) درس بروميارد هذا بجامعة كامبريدج وقام بالتدريس فيها . وللمزيد

من المعلومات عنه أنظر : Coulton, Med. Panorama, 249 sq., 638, sq.; McKisack, Fourteenth Century, 503.

بعض المراجع للفصل الثاني

- Abdy, J. T., Feudalism: Its Rise, Progress and Consequences. London, 1890.
- Allard, P., Les esclaves chrétiens. Paris, 1914.
- Beaudoin, E., Etudes sur les origines du régime féodal: la recommandation et la justice seigneuriale. Annales de l'enseignement supérieur de Grenoble, 1889.
- Bernett, H., Life on the English Manor. 1960.
- Bernard, P., Etude sur les esclaves et les serfs d'église en France, du VI^e au XIII^e siècle. Paris, 1919.
- Bérr, A., Die Kirche gegenüber Gewalttaten von Laien. Berlin, 1913.
- Calmette, J., Le monde féodal. Paris, 1937.
- Coulborn, R. (ed.), Feudalism in History, Princeton, 1956.
- Coulton, G. G.,
- 1- The Medieval Village. Cambridge, 1925.
 - 2 - Medieval Village, Manor and Monastery. New York, 1960.
- Delisle, L., Etudes sur la condition de la classe agricole et sur l'état de l'agriculture en Normandie pendant le moyen âge. Paris, 1851.
- Duby, G., L'économie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval. 2 vols. 1962.
- Fangeron, H. P., Les bénéfices et la vassalité au IX^e siècle. Rennes, 1868.
- Lacroix, P., La Chevalerie et les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires. Paris, 1887.

Mielke, R., Das deutsche Dorf. Leipzig, 1913.

Painter, S., Feudalism and Liberty. 1961.

Roth, P., Feudalität und Unterthamenverband. Weimar, 1863.

Sée, H., Les classes rurales et le régime domanial en France au moyen âge. Paris, 1901.

Seeböhm, F., The English Village Community: An Essay on Economic History. London, 1890.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1912.

Thompson, J. W., Feudal Germany. 2 vols. New York, 1962.

Waitz, G., Über die Anfänge der Vassalität. Göttingen, 1856.

Wergeland, A. M., Slavery in Germanic Society During the Middle Ages. Chicago, 1916.

White, L., Medieval Technology and Social Change, 1961.

الفصل الثالث

الكنيسة والقرية

يمكن وصف أسلوب الحكم في القرية خلال العصور الوسطى ، بأنه حقا عبارة عن حزب السادة كبار الملاك . ولو أنه كان يحدث أحيانا أن يظهر حزب لأولئك الملاك يميل بطبعه الى الخير ، تماما على غرار حزب كبار الملاك في القرن الثامن عشر الذي كثيرا ما كان يتميز بحب الخير أيضا . فن ناحية الحكم المدني كانت القرية في العصر الوسيط تدار شئونها قطعا بروح من الرفق الأبوى . وقد ازداد هذا الرفق أيضا من جانب الكنيسة ، مما كان له في ذلك الوقت أهميته العظمى .

ويرجع الفضل الأكبر الى رجال الدين في الحضارة التي أحرزتها تلك الشعوب لقد كانت الكنيسة الرومانية ، في واقع الأمر ، الوارثة للامبراطورية الرومانية . وكان القساوسة منذ قرون مضت هم الذين يشتغلون بالتأليف أو قراءة الكتب دون سواهم تقريبا . وكانوا في كافة المناطق الواقعة شمال الألب ، هم المحتكرون شرعا للتعليم ، ابتداء من المدارس الأولية حتى الجامعة . ولم تكن ثمة ، في الواقع ، أية طريقة تربوية نظامية في العصور الوسطى ، وإن كان هناك من يؤكد خلاف ذلك خطأ في يومنا هذا . وقد وجد من الوجهة النظرية ، ما يجب أن نطلق عليه اسم المدرسة اللاهوتية في كل مدينة تقوم فيها كاتدرائية . وكان هذا الامر عادة حقيقة ماثلة ، ولو أن عدد للطلبة قلما كان كبيرا . وكثيرا ما نجد أساقفة ، أو

بجالس كنسية ، أو أجد البابوات ، وهم يقررون أنه يتعن على كل قس أن يقوم بالتدريس مجاناً في نطاق أبرشيته . بيد أن الشواهد عديدة على أن هذه الرغبة لم تخرج عن كونها مجرد أمنية مقدسة . وكثيراً ما رأينا في آخريات القرون الوسطى ، كاتب الأبرشية وهو يعلم بهض الأطفال مقابل أجر زهيد . وحتى بعد ذلك التاريخ ، ألزم كثير من القساوسة المنوط بهم أداء التراتيل ، والذي كان واجبهم الوحيد في بداية الأمر أن يرتلوا قداساً واحداً كل صباح - ألزموا بفتح مدارس في كنائسهم أيضاً ، بحيث أن القرية قاست لفترة ما في أثناء الإصلاح الديني نتيجة لإلغاء تلك المدارس للصغيرة . ولقد حدث مرتين خلال القرن الخامس عشر أن قامت لندن بمحاولات للاكتثار من المدارس ، ولكنها صادفت في ذلك نجاحاً ضئيلاً نظراً المناهضة المحتكرين من رجال الدين لهذا المشروع ، مما حدا بكبار العلماء من كافة المذاهب إلى نبذ ذلك الزعم القائل بأن الرهبان كانوا هم معلمى عامة الشعب . ويندر أن يقوم رجال الدين بتعليم أولاد خارجيين ، اللهم إلا في حالات التبشير : ومع ذلك قامت الراهبات أحياناً بتعليم عدد يسير من أغنى الفتيات لتدبير جهازهن المتواضع عند دخولهن في سلك الرهبنة : ولكن هذا التعليم لم يلق تشجيعاً في أغلب الأحوال ، بل كان محرماً أحياناً بناء على أوامر رؤسائهن من رجال الدين (١) : هذا ، ومن المستبعد أن يكون قد جـصـل عشر الأفراد الذين عاشوا في القرون الوسطى على أى قسط من التعليم المدرسي .

(١) تناول المؤلف هذا الموضوع برمته في الفصل العاشر من كتابه « دراسات في العصور الوسطى » Medieval Studies ، وعنوان هذا الفصل « المدارس الديرية في العصور الوسطى » (كولتون) .

وقد احتكرت الكنيسة بطبيعة الحال التعليم الدينى . غير أنه ، حتى فى هذه الحالة ، كان المحتكرون لهذا التعليم ، برجه عام ، أقل نشاطا مما ضروروا به : ولا شك أن رجال الدين الاتقياء قد بشروا بالانجيل بين أتباع أبرشياتهم ، لا بالأقوال فحسب ، بل بقدوتهم الحسنة أيضا . ويشهد على ذلك تشوهر فى كتابه الخالد « كاهن الأبرشية المسكين » « Poor Parson » . بيد أنه لا يوجد أى أثر يشبه ، ولو من بعيد ، مدارس الأحد الدينية . وفى نهاية القرن الثالث عشر ، أمر رئيس أساقفة كانتربرى - لآثر نهضة دينية عظيمة - بالزام كل قس من قساوسة الأبرشيات أن يعظ أربع مرات فى السنة على الأقل ، وأن يعمل فى هذه العظات على التوسع فى تفسير العقيدة ، والوصايا العشر ، وموعظة المسيح فوق الجبل (١) ، والخطايا السبع الممتهمة ، والفضائل الرئيسية السبع ، وأعمال الرحمة السبعة ، والاسرار السبعة المقدسة . ومع ذلك لم يكن الأمر الصادر من كبير الأساقفة بدعة جديدة ، إذ تدل السجلات الكنسية على مبلغ التهاون فى إطاعته وتنفيذه : وهنا يجدر بالقراء أن يكونوا على حذر من تواتر التأكيد بأن أسباب العجز التى ألمعنا إليها كانت كلها مشفوعة بالصور والنقوش الكنسية . فكانت جدران الكنيسة هى انجيل الرجل الفقير . ولكن أعظم قساوسة القرون الوسطى أنفسهم يعترفون بعجز أية صورة عن أن تسد النقص فى التعليم الجسمى . والواقع أنه يجب علينا أن ننعم فى النظر ، لمصلحتنا فحسب ، فى القطع الباقية فى كنائسنا حتى نقبين قلة عدد الصور المطابقة فعلا للانجيل :

لقد سبق ان استعملنا مرتين كلمة « الاحتكار » من حيث أنها تعبر عن

(١) وردت هذه العظة فى انجيل متى - الاصحاح ٥ - ٧ .

جانب ضروري واحد من الحقيقة ، وإن كانت هذه الحقيقة بعيدة عن الحقيقة الكاملة . كان ذلك الجانب ، لو شئت ، (١) هو الثغرة في عالمية الكنيسة . وكان كل طفل يعمد في هذه الكنيسة ، أما إذا أهمل العماد عن سوء نية ، فتلحق وصمة الهرطقة بوالديه . وكان الخروج على التعاليم الكنسية يعتبر هرطقة ، وكل مخالفة خطيرة يعاقب صاحبها إذا أصر على موقفه بتعليقه على عمود . (٢) ولقد امتدت ساطعة رجل الدين حتى تجاوزت بكثير ما تعارفنا على تسميته بأنه أمر روحي بحت ، أو حتى مجرد شئون ثقافية . وفضلا عن احتكار رجل الدين للتعليم الديني وغير الديني . وفضلا عن السلطة الهائلة الاجتماعية والسياسية التي استمدتها من شرعية الاعتراف ، فقد كان له حق إصدار الأحكام وتوقيع العقوبات في كافة الشئون الأخلاقية الهامة كالزنا وممارسة السحر والشعوذة وكل ما يمت إلى قوانين الزواج . فاذا حدث مثلا أن أحد أتباع الأبرشية لم يكتب وصيته - الأمر الذي لم يفعله واحد في المائة - وجب عليه أن يفضى بوصيته شفاهة إلى القس وهو على فراش الموت . وكان ذلك الأمر يدخل ضمننا مع تلك الطقوس الكنسية الدائمة التي يترتب على إهمالها

(١) يعني المؤلف هنا لو شاء الفرد انقاذ ما يمكن انقاذه واستكمال القصص في التعاليم والعناية بالصور والتماثيل المشار إليها ، وأن هذه الناحية تعتبر الثغرة في كونية الكنيسة .

(٢) أنظر الفصل التاسع عشر من كتاب المؤلف « دراسات في العصور الوسطى » ، وعنوان الفصل المذكور « عقوبة الموت بسبب الهرطقة » . وكذلك كتاب المؤلف « محاكم التفتيش » المنشور في مجموعة Benn's Sixpenny (كولينتون) .

حرمان الجثمان من أى حق فى دفنه فى المقبرة المدشنة ، مع حرمانه أيضا من صلوات الكنيسة عليه : وكان شخص رجل الدين موضع التقديس : ولم يكن للقس العادى الذى يستمع الى الاعتراف أن يحل شخصا يهاجم عن سوء قصد أى فرد حتى ولو كان هذا الفرد هو كاتب الأبرشية ، من خطيئته ، ومن باب أولى لو أنه هاجم قسا . وكانت أمتعة القس ومنقولاته تساهم الى حد بعيد فى القدسية الملائمة لشخصه : وكانت كل كنيسة يحرابا يمكن أن يلجأ اليه أى شقى هربا من وجه العدالة لمدة أربعين يوما على الأقل . وأخيرا ، فقد شكلت الواجبات الكنسية التى سوف نعود إليها فيما بعد ، ملامح شديدة الوضوح فى حياة كل إنسان .

وثمة الآن اتفاق عام بين المؤرخين مؤداه أن الأبرشية إنما نشأت بمعالها الرئيسية المميزة لها . ذلك ان النظام الأبرشى (١) لم ينشأ من أعلى ،

(١) يوضح هنرى بيرين هذه الفكرة فى كتابه « مدن العصور الوسطى » . يقول ان النظام الكنسى الأبرشى قام على انقراض المدن الرومانية القديمة عندما انهار الجرمان فى جوف الامبراطورية وقضوا عليها . ذلك أن الجرمان فى أسوأ غزواتهم ، لم يمسوا الكنيسة بأى سوء ، مما أدى الى استمرار نفوذها ، فأقامت أبرشياتها على أنقاض تلك المدن المنهارة . ويتحدث عن أحوال المدن الأبرشية الجديدة ، فيقول انها كانت - بصفة عامة - أكثر فقرا وأقل عمرانا من المدن القديمة ، وان كان نفوذ الأساقفة قد تزايد بشكل ملموس بسبب الظروف التى المت بالعالم الغربى وقتئذ . وقد أسهم هذا فى بقاء المدن الرومانية المتدهورة فى شكل مدن أبرشية يرعى كنائسها أساقفة . وكان يشرف على هذه الأبرشيات فى بداية الأمر السادة اللوردات ، ثم تحول الاشراف بمرور الزمن الى الاديرة . أنظر عن ذلك كتاب :
H. Pirénne, *Med. Cities*, 42 sqq .

أى من البابا ، أو نتيجة للنظام الطبقي ، وإنما نشأ فى الغالب من أدنى الطبقات عن طريق التطور الطبيعى قبل ظهور المسيحية نفسها . ففى الأزمنة الوثنية ، كان للسيد اللورد الحق فى بناء معبد ، وفى اقتضاء واجبات دينية معينة ، وفى تعيين الكاهن أيضا . وقد عمل بهذا النظام ، وكان نقله الى العصور المسيحية أمرا طبيعيا . ولم يكن السادة اللوردات يتصرفون دائما بنزاهة فيما يصل إلى أيديهم من الأموال التى ابتزوا قدرا كبيرا منها . وقد نال وليم الفاتح تقديرا خاصا من البابا جريجورى السابع (١) لحماسته فى الدفاع عن حقوق الكنيسة فى هذه الناحية . ويبدو أن العصور فى إنجلترا كانت تذهب برمتها تقريبا ، ان لم يكن الى القس ، فعلى الأقل الى الكنيسة نفسها . ونقول « إن لم يكن الى القس » لأننا إذا فحصنا حالة أية كنيسة أبرشية خاصة ، ولا سيما حوالى نهاية للعصور الوسطى ، لوجدنا القس لم تتغير حالته فى اغلب الأحيان . فكأنه لم يظفر بشيء ، بل نجد أنه خسر نسبة كبيرة من حصته فى العصور . ويحدونا هذا الى التمييز ، الذى حير الباحثين المحدثين كثيرا ، بين الكنائس الأبرشية والدخل الذى يحصل عليه قس الأبرشيات ، فلماذا مثلا يكون القس المخصص بأبرشية شلفورد الكبرى Great Shelford بمقاطعة كامبريدج مجرد قس عادى ، على حين أن القس المخصص بشلفورد الصغرى Little Shelford يكون رئيس أبرشية ، ويحصل على دخل خمسمائة نفس أكبر مما يحصل عليه جاره لألف وخمسمائة ؟ والجواب على ذلك باختصار هو أن شلفورد الكبرى قد حرمت مما يعرف باسم العصور الكبرى ،

(١) شغل البابا جريجورى السابع الكرسي الباباوى فى الفترة من ١٠٧٣

وبوجه خاص عشور الحبوب والمحاصيل المائلة لها ، بينما لم تحرم شلفورد الصغرى من هذه المزية .

والواقع أن ما أدركته القرية من توفر أسباب الرخاء وتقدم الحضارة ، كان من أثره أن العشور وغيرها من الواجبات المفروض أداؤها للكنيسة ، بلغت في كثير من الأبرشيات قدرا يفوق ما يحتاج إليه القس الأعزب كأجر للمعيشة ، حتى ولو استعملنا هذه العبارة في أصحى معانيها . ويعتبر هذا من الأسباب التي أغرت السادة اللوردات باختلاس نصيب لهم من تلك العشور . أما حيثما كانت الكنيسة قوية ، كما كان شأنها في إنجلترا أيام النورمان بفضل حصافة رجال الدين أنفسهم من جهة ، وحماية وليم الفاتح لها من جهة أخرى - كان من الميسور وضع حد للسراقات التي يقرّفها المدينون . وأما من يطرد من الأبرشية ، فلم تكفه له عودة إليها . بل على العكس من ذلك ، كان المطرود ومعه زملاء عديدون يلجأون إلى الأديرة أو إلى كاتدرائيات أو غيرها من المؤسسات الدينية الكبرى . وكان ذلك الوقت بالذات هو انسب فترة للحياة الرهبانية . وكان الرهبان ، بصفة عامة ، هم أفضل رجال الدين ، وأكثرهم في الحقيقة شعبية . ولذلك كان بعض اللوردات أثناء حياتهم ، وعند مماتهم أيضا ، عندما يدلون بوصاياهم وهم على فراش الموت ، يهبون الأديرة تلك الكنائس التي كانوا يمتلكونها ، لأن أسلافهم هم الذين أسسوها . ولم تكن هذه الهبة في بادئ الأمر ، ذات مزية كبرى من الناحية المالية ، وإنما كانت تعنى فقط أن القس أصبح يعين لا من قبل السيد الأصلي بل من قبل الدير ، وأن الرهبان بمساومتهم معه (أى القس) قد تمكنوا من الحصول على ما يروقههم من الإيرادات . وكان البائعات والأساقفة ،

حوالى الوقت الذى بدأت فيه فترتنا هذه قد أخذوا يأذنون للرهبان فى حالات خاصة متميزة ، فى الاستيلاء على الكنائس على سبيل الاستعمال الشخصي « in proprios usus » ، أى لئلا يملكها كما جرى التعبير بذلك . وكان الوضع القانونى فى مثل هذه الحالات كالاتى : كان الدير هو راعي الأبرشية ، أى المشرف عليها ، وله الحق فى كافة العصور وغيرها من الواجبات : ولكن الرهبان قلما كانوا يقومون بواجبات القساوسة فى الأبرشيات .

والواقع ان القرارات البابوية حرمت ذلك رسميا خلال الشطر الأكبر من العصر الوسيط . ومن ثم عين الرهبان رجلا يسمى خورى (١) Curate لأداء الواجبات الفعلية للأبرشية : وكان اسمه الأصلي باللاتينية فيكاريوس Vicarius ومعناه « وكيل أبرشية » . وقد تزايدت هذه الملكيات الموقوفة على الأديرة تدريجيا . ويمكن أن نتبع فى المستندات الى أى حد كانت الأديرة توافق على دفع مبالغ باهظة للحصول على ملكية ما لكراما لكل من أسقف الأبرشية والبابا : وهكذا نجد أنه قبل حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا ، تحول نحو ثلث الرزاق إلى معاشات لقساوسة الأبرشيات . وكان الكاهن صاحب المماش ، فى مثل هذه الحالات ، عبارة عن خورى دائم له من الدخل قدر ما يفلح فى الحصول عليه من الحصص . وحوالى تلك الأثناء ، تدخل البابوات والأساقفة فى شئون كهنة الأبرشيات ، وأصروا على الحصول ، كمطالب أدنى ، على

(١) الخورى هو مساعد أو نائب لراعى الأبرشية .

أجر لهم يتعيشون منه . وكانت النسبة القـانونية التي تؤول للمتملك — أى الدبر — هى ثلثى الدخل ، على أن يترك الباقي لمن يقوم بالعمل . ويشير البابا انوسنت الثالث (١) إلى حالات كان كاهن الأبرشية يحصل فيها على ٣٠ فقط من جملة دخل الأبرشية . وفى هذه الظروف ، كان الشخص الفقير هو الذى يتحمل معظم الأعباء . وطبقا للنظرية الكنسية كان يخصص ربع دخل الأبرشية للفقراء . وبذلت فى هذا السبيل بعض المحاولات تذكيرا للمتملكين بهذا المبدأ . ولكن لم يكن بوسع أى جهاز ارغام كهنة الأبرشيات على وضع المبدأ المذكور موضع التنفيذ . وعلى الرغم من تدخل البرلمان وكفاحه لإجبار المتملكين على تنفيذ ذلك المبدأ إلى حد ما ، فقد قال بروميارد Bromyard — ذلك الراهب الدومينيكانى الذى كان معاصرا لتشوسر — إن المبدأ المذكور قد أهمل تماما .

ومع ذلك ظلت الكنيسة ، حتى فى أسوأ ظروفها ، هى المركز الرئيسى للحياة فى القرية . وحوالى ذلك الوقت ، كان قد تقرر نهائيا فى أصول العقيدة الصحيحة ، أن عدم لياقة راعى الكنيسة لأداء فرائض العبادة وطقوسها لا يؤثر فى مفعول الأسرار المقدسة التى يباشرها . وكان الإصرار على تأثير عدم هذه الصلاحية يعتبر هرطقة لا شك فيها . وكان مبنى كنيسة القرية ، ومستلزمات العبادة فيها (٢) وكافة الأشياء التى وجدت أو أقيمت من أجل الكنيسة ، يجرى تقديسها فى حفل مهيب عظيم . وكان رجال الدين كهنة ، حتى فى أضعف مستوى لهم ، أرقى خالقـا وعلمـا من غيرهم ؛ كما كانت

(١) شغل انوسنت الثالث الكرسي البابوي فى الفترة من ١١٩٨ إلى ١٢١٦ .

(٢) كالأنية المقدسة ، وصينية المناولة والأرغن والأجراس .

أشخاصهم موضع احترام يفوق ما يلقاه عامة شعوب أبرشياتهم . وكانت الرعاية الروحية التي يحيطونهم بها ، ولو أنها أبعد ما تكون عن الكمال ، شأنها في ذلك شأن تلك الرعاية المادية التي كان كبير الملاك يحوط بها أصاغرهم — كانت هذه الرعاية على أية حال حقيقة ماثلة .

وفضلا عن الخدمات الكنسية والأسرار المقدسة ، كان ثمة تلاوة العزائم لصرف الأرواح الشريرة وأعمال السحر . وكانت أجراس الكنيسة تدق للحيلولة دون اقتراب العواصف التي كانت للساحرات تثيرها . وكان الكاهن أحيانا ينزل اللعنة رسميا برش الماء المقدس على آفات الديدان أو الجراد .

رسم رقم ٤



ساحران تغلان على إثارة عاصفة ثلجية

كما كان القرويون يشعرون ، وهم بين جدران الكنيسة الأربعة ، بأنهم في بيتهم . وكانت الصعوبة تكمن غالبا في محاولة الحيلولة دون قيام الالفة

الزائدة عن الحد فيما بينهم . لذلك تعين على المجالس الكنسية تحريم الحفلات المسرحية والحفلات الراقصة ، بما في ذلك تناول المشروبات الخفيفة كالجمعة سواء في داخل الكنيسة أو ملحقاتها . كذلك تعين على المجالس المذكورة تحريم إقامة الأسواق في فناء الكنيسة . وهنا أيضا ، كان رجال الدين أنفسهم يقدمون المثل على ذلك الامتياز الذي كانوا يتمتعون به ، في تكديس الحبوب أو صنع الجمعة في ممر الكنيسة (١) : وهالك على سبيل المثال التقرير الذى وضعه عن كنيسة العذراء بالقرب من تراقية ، الموظف الذى ندب للتفتيش على أرزاق نائب الاسقف والرهبان في سنة ١٣٠١ ، وقد جاء فيه :

« يقول أهالى الأبرشية إن الكاهن يضع ماشيته بكافة أنواعها في فناء الكنيسة الذى يداس بالأقدام ويلوث بأشنع صورة ويستولى الكاهن المذكور لنفسه على الأشجار التى تمتع فى فناء الكنيسة ، ويستعملها أيضا لمبانيه الخاصة كما يحضر شعيره لصنع جعته ، أو لتطيره ، أو لاستعمال خلاصته كمادة غذائية ، وذلك داخل الكنيسة نفسها . فضلا عما تقدم ، فهو يخزن فيها حبوبه وغيرها من مختلف الأشياء ، مما شجع الخدم على فتح الأبواب في ذهابهم وإيابهم . فإذا ما هبت العاصفة ، نفذت الرياح إلى الداخل ، وراحت تعرى الكنيسة ، إذ تقذف حولها بالقراميد ، وتطيح بسقفها وما عليه من قش وجريد . » (٢) .

(١) ممر الكنيسة هو الممشى الممتد من مدخل الكنيسة حتى الكورس بين صفي الأعمدة على الجانبين .

Bp Stapeldon's Register, ed. Hingeston—Randolph, 337 (٢)

(كولتون) .

وكانت الكنيسة والمقبرة الملحقة بها ، بلا شك ، أفضل الأمكنة زخرفة في
الآبرشية . فكانتا هداية للحى ، ورحمة للمتوفى . وإذا كان المجتمع قد كافح
فى سبيل التخلص من بربريته السابقة ، فاستطاع أن يسترد جانباً من حضارته
القديمة ، وأن يشق طريقه نحو أهدافه التقدمية ، بل وأن يحقق فى بعض النواحي
مستوى يفوق مستوى الأغريق والرومان القدماء — فانما يرجع الفضل
الأكبر فى ذلك إلى الكنيسة . ولكن خدمات الكنيسة الروحية التى لا تنكر ،
لا يصح تأكيد ما لم نأخذ فى الحسبان الحقيقة المقابلة التى لا سييل إلى
إنكارها أيضاً ، وهى أن الكنيسة ، فى غيرتها على تفردا دون سواها بأداء
الخدمات الروحية ، لم تعان من أية منافسة فى هذه الناحية : فعلىنا إذن أن
نقبل رجال الدين على ما كانوا عليه وقتذاك ، أو أن نترك من فورنا هذا
العالم . ولقد كان من الميسور قطعاً أن يكون رجال الدين فى وضعهم هذا
أفضل مما كانوا عليه لو أنهم كانوا أقل تمسكاً بسياسة الاحتكار . ولم يكن
دانتي هو المفكر الوحيد فى القرون الوسطى ، الذى أحس بأن الكنيسة كانت
لتقوى أكثر مما كانت عليه لو أن قسطنطين قلدها سلطة دنيوية أقل مما
تمتعت به . (١)

(١) يعنى المؤلف الهبة التى تعرف باسم « هبة قسطنطين » : وتتلخص فى
أن بعض المتحمسين للبابوية ذكروا أن الامبراطور قسطنطين الكبير قد
ابتلى بمرض عضال لم يشف منه إلا بصلوات البابا سيلفستر الأول : فكافأه
الامبراطور على نعمته بإصدار قانون يبيح للبابا لبس التاج واستعمال
الصولجان كالأباطرة تماماً . كما منحه الأساقفة وكنىار رجال الدين فى روما
نفس الامتيازات التى كان يتمتع بها شيوخ الإمبراطورية القديمة . =

لقد كانت الكنيسة موجودة في كل مكان ، وممثلة في خدامها العديدين . وبلى رجال الدين في الطبقات العليا أو الدرجات المقدسة ، القساوسة فالشماسة فمعاونوهم مع من يعلمهم من كبار الاُحبار أو المطارنة أو الأساقفة : وهؤلاء جميعا محظور عليهم الزواج قانونا . وبلى هؤلاء طائفة كبيرة من الكهنة في الطبقات الصغرى ، ولم تكن هذه الطائفة محرومة من الزواج . وكان أفرادها يعيشون من دخل وظائفهم الصغيرة كالترتيل في الخدمات

= وحتى لا تتأثر سلطة البابا بوجود شخص الامبراطور في روما ، فقد تركها قسطنطين للبابوات وشيد لنفسه عاصمة جديدة في الشرق هي القسطنطينية . ثم عهد للبابوات بحكم روما وايطاليا كلها . انظر عن ذلك :

LaMonte, The World of the Middle Ages, 177, 254, 740, 744; Cantor, The Medieval World, 125 sqq .

وقد تعرض لهذا الوضع الذي آلت اليه كنيسة العصور الوسطى كثير من الكتاب والمفكرين المتحررين مه اهل الغرب من رجال الدنيا والدين على السواء، من امثال الامبراطور الالماني فردريك الثاني والشاعر الفرنسي ولیم رتيف والكاهن الانجليزى متي الباريزى . ويتحدث الأخير في كتابه « تاريخ إنجلترا » في سخرية وتهكم عن الجهاز الكنسى البابوى الذى دب فيه الفساد : إذ يقول ان البابوات ورجال الدين قد اقتفوا خطى الامبراطور قسطنطين بدلا من أن ينهجوا نهج القديس بطرس ، الأمر الذى تسبب في احداث الكثير من القلق والاضطراب في العالم المسيحى الغربى . أنظر :

Matthew Paris, English History, II, 391, 400 sqq., 498; F.

Heer, The Medieval World, 110 : راجع أيضا هارتمان

وبارا كلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى - ص ٤٣ ، جوزيف

نسليم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى - ص ٧٩-٨٢ .

انظر ايضا الفصل التامع من هذه الترجمة .

الدينية الصغرى ، أو العمل ككتبة أبرشيات ، أو مسك الدفاتر الحسابية .
ومن بين هؤلاء الكتبة الصغار يتعين علينا البحث عن أغلبية الرجال الذين
دونوا الحجج الإقطاعية التي شهد ثورولد روجرز Theroald Rogers
لوكلاء أصحاب الإقطاعيات بصحتها . لقد جنى كثير من هؤلاء الرجال
أرباحا طيبة عن طريق التجارة ، على الرغم من المنشورات الكنسية المتعددة
الخاصة بتحريم هذا النوع من الكسب . فكان بعضهم يبيع المشروبات
الروحية ، وأثرى البعض الآخر من ممارسة الربا الذي كان يعتبر خطيئة
مميّنة حتى بالنسبة للمدنيين . ولا نحسب أن باستطاعتنا حصر عدد رجال
الدين بكافة درجاتهم بأقل من $\frac{1}{10}$ من جملة الأشخاص البالغين في الشعب ،
ويقدر البعض عددهم بأكثر من ذلك . فهم يشملون فعلا كافة الطبقات الحديثة
التي تختص مباشرة بشئون الدين والآداب والتعليم ، ويتفقون تقريبا مع
رجالنا الدينيين الحديثين ومعلمي مدارسنا ، كما يتفقون مع الأغلبية العظمى
من العلماء والمؤلفين والصحفيين . ومن ثم ، فإن المرء ليراهم في كل مكان
وهم في طريقهم إلى العمل . ولقد كانوا موجودين في كل مكان أيضا بوصفهم
ملاكاً للأراضي . ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الفصل التالي ، لأننا لم
نذكر بعد كل ما نحتّمه الضرورة لفهم نفوذ الكنيسة في مجتمع القرون
الوسطى .

بعض المراجع للفصل الثالث

- Cutts, E. L., *Parish Priests and their People in the Middle Ages in England*. London, 1891.
- Dobiache-Rojdestvensky, O., *La vie paroissiale en France au XIIIe siècle d'après les actes épiscopaux*. Paris, 1911.
- Gasquet, F. A., *Parish Life in Mediaeval England*. London, and New York, 1907.
- Jessopp, A., *Before the Great Pillage*. London, 1901.
- Lea, H. C., *Studies in Church History*. Philadelphia, 1883.
- Lyle, E. K., *The Office of an English Bishop in the First Half of the Fourteenth Century*. Philadelphia, 1903.
- Pöschl, A., *Bischofsgut und Mensa episcopalis*. 2 vols. Bonn, 1908-09.
- Prévost, G. A., *L'église et les campagnes au moyen âge*. Paris, 1892.
- Thompson, A. H.,
- 1- *The Historical Growth of the English Parish Church*. Cambridge, 1911.
 - 2- *Parish History and Records*. London, 1919.

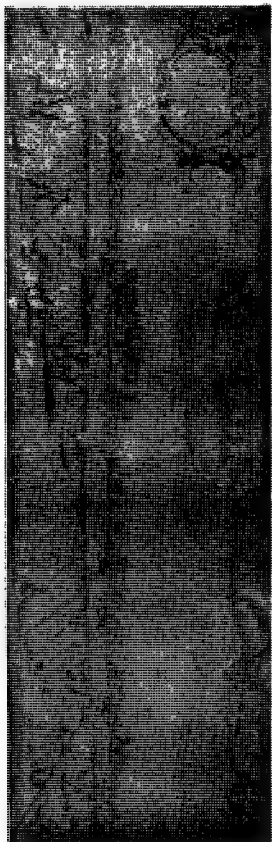
الفصل الرابع

المدن والحقول

لا تكاد مدينة العصور الوسطى (١) تختلف عن القرية . ومن ثم فليس هناك أى داع لمعالجة كل منهما على حدة ، بينما نحن نتناول موضوع النفوذ الكنسى البالغ الأهمية . لقد كان كل من المدينى والقروى ، يعرف عن رجل الدين أنه

(١) يقول بيرين فى كتابه « مدن العصور الوسطى » انه مما يثير الاهتمام هو ما اذا كانت المدن قد وجدت أم لا فى قلب تلك الحضارة التى كانت زراعية فى جوهرها ، والتى تطور اليها الغرب الاوروبى خلال القرن التاسع . ويتوقف الجواب على ذلك بالمقصود بكلمة «مدينة» . فاذا كانت تعنى موصفا أو مكانا يكرس أهله أنفسهم للنشاط التجارى ، بدلا من العيش على زراعة الأرض ، فإن الجواب يكون حينئذ بالنفى . وسيكون الجواب بالنفى أيضا اذا فهمنا ان لفظة « مدينة » تعنى جماعة من الناس تتمتع بكيان قانونى ولها أنظمتها الخاصة بها . ثم اننا اذا تصورنا المدينة باعتبارها مركزا اداريا أو قلعة ، فمن الواضح ان العصر الكارولنجى قد عرف الكثير من المدن من هذا القبيل ، مثلما عرفت القرون التى أعقبت ذلك العصر . وبكلمة أخرى ، فقد كان يشترط فى المدن التى وجدت وقتذاك خاصيتان تعتبران فى الواقع من أهم مميزاتها ، ليس فى العصر الوسيط فقط وانما فى العصر الحديث أيضا - ونعنى بهما سكان ينتمون الى الطبقة المتوسطة ، وتنظيم خاص بالكميونات أو القومونات . انظر H. Pirenne, Med. Cities, 39.

لوحة رقم ۳



حقول کابریه ج

نقلا عن إحدى نقوش لوجان Loggan سنة ۱۶۸۸

من كبار ملاك الارض : وقد قدرت ثروة الرهبان وحدهم تقديرا جديدا ، في بعض الأحيان ، بثالث ثروة الدولة . وايس بوسعنا أن نعبر عن هذه الثروة بالأرقام ، ولكن من المحقق أنها كانت ثروة هائلة ، وكان لهذا الوضع ، بطبيعة الحال ، أثره الكبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية : فقد كان الرهبان والاساقفة وغيرهم من رجال الدين يقتنون الأقنان اقتناءهم للأرض سواء بسواء . وكما كان يفعل ملاك الأرض العلمانيون ، كانوا هم أيضا يتصرفون في العبيد بالبيع والشراء ، أو يتبادلونهم ، أو يقتسمونهم فيما بينهم . وكانوا يقتسمون كذلك نسل من شاء . حظاه العاثر أن يصبح تابعا لأحد السادة اللوردات ، بينما غدت زوجته هي الأخرى أمة لسيد آخر . وليس لنا أن ننحى باللائمة على رجال الدين لقبولهم الأحوال الاقتصادية التي كانت قائمة في زمنهم ، وبخاصة إذا عرفنا أن الفلسفة المسيحية الصحيحة وقتذاك كانت تبرز صراحة تلك الأحوال .

ولقد كان القديس توما الأكويني ، وهو خير ممثل لتلك الفاسفة ، يشبه جميع إخوانه في تبعيته الوثيقة لفلسفة أرسطو ، تلك التبعية التي تكاد أن تكون منه مكان العبودية ، في معظم الشؤون السياسية والاجتماعية . فهو يتفق مع أرسطو في أن ما تحتاج اليه الدولة المثالية إنما هو جماعة من الفلاحين ذوى الأذرع القوية والفهم البليد ، على أن يكونوا منقسمين على أنفسهم بدافع من فقدان الثقة فيما بينهم . وفيما يختص بالعبودية والقنية ، نراه يدافع عنها ليس لأنهما جهازا اقتصاديا سليم فحسب ، بل لأنهما يستحقان الدفاع عنهما معنويا كذلك . لقد كان ويكلييف (١) Wyelif المهرطق ، فيما نعلم ، المعلم

(١) ولد يوحنا ويكلييف في يوركشير سنة ١٣٢٤ ، وتلقى تعليمه في أكسفورد ، ثم أصبح أستاذا بها وهو من كبار العلماء والوعاظ المشتغلين =

الوحيد الذى رفض تبرير العبودية نظريا . ولكنه لم يبد ، مع ذلك ، أية محاولة فعلية لمقاومتها . ومن ثم ، فاننا حينما نواجه الحقائق كما كانت عليها ، نجد أن ثروة الكنيسة الفاحشة لم يكن ينتظر منها أن تعوض مامنيث بها شعبيتها من تدهور حيال الأجير . ويبدو أن ملاك الأرض من الرهبان

== بعلم اللاهوت . ويمتاز بمتانة خلقه ، وعزيمته القوية ، وسيطرته المطلقة فى فن الجدل ضد معارضيه . وإليه يرجع الفضل فى قيام الحركة اللولارية الانجليزية ، ونشوب ثورة الفلاحين فى إنجلترا سنة ١٣٨١ ، الأمر الذى أدى إلى غضب الملكية عليه وطرده من جامعة أكسفورد سنة ١٣٨٢ . فعاد إلى بلده إلى أن توفي سنة ١٣٨٤ عن ٦٠ عاما . وكانت خطبه ومقالاته وعظاته تتميز بالسخط على الكنيسة وأوضاعها بسبب التدهور الذى وصلت إليه . ومن أهم الآراء التى نادى بها ، أن تكون العظات الدينية والكتب المقدسة بالانجليزية لا باللاتينية ، وأن تكون العظات مستمدة من الكتب المقدسة نفسها فحسب . كما اشتد فى نقد الديرية ، مطالبا بعودة الرهبان إلى حياة الفقر . وعارض فى كتابه « حقوق الملكية » النظرية العالمية التى قامت عليها كنيسة العصور الوسطى . وفى كتابه « أصول السلطات المدنية » ، نراه يهاجم رجال الدين هجوما عنيفا . وتطور فى آرائه وتعاليمه بعد موقف الكنيسة العدائى منه ، فانكر شرعية الاعتراف ، كما انكر معجزة التحول المادى فى العشاء الربانى ، وكذلك وساطة رجل الدين بين الله والناس . وكانت هذه التعاليم بالنسبة لمجتمع القرن الرابع عشر متطرفة للغاية ، واعتبرتها البابوية والكنيسة الانجليزية هرطقة . وبعد موت ويكليف سنة ١٣٨٤ ، انتشرت حركته فى إنجلترا ، ولاقى أتباعه اللولاريون الكثير من الاضطهاد من قبل السلطات الحاكمة ، وبخاصة أيام كل من هنرى الخامس وهنرى السابع . ولكن هذه الحركة تقاصت فى القرن الخامس عشر بعد أن فسدت ==

والأساقفة كانوا ، إلى حد ما ، أخف وطأة من كبار الملاك العلمانيين (١) .
ولكن لم يكن من بين ملاك الأرض كهنة أبرشيات ، عند ما سقط آدم
وراخت حواء تدرع الأرض إحيية وإيابا .

رسم رقم ٥



الملك هنري الأول يعلم

(من حويله جون أوف وركستر)

= تعاليمها ، واقتصرت على جماعة من الأميين دون الطبقة المثقفة . أنظر
فشر : أوربا في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٩ ، راجع أيضا :

McKisack, Fourteenth Century, 510 - 22 ; Myers, England in
the Middle Ages, 66 - 72.

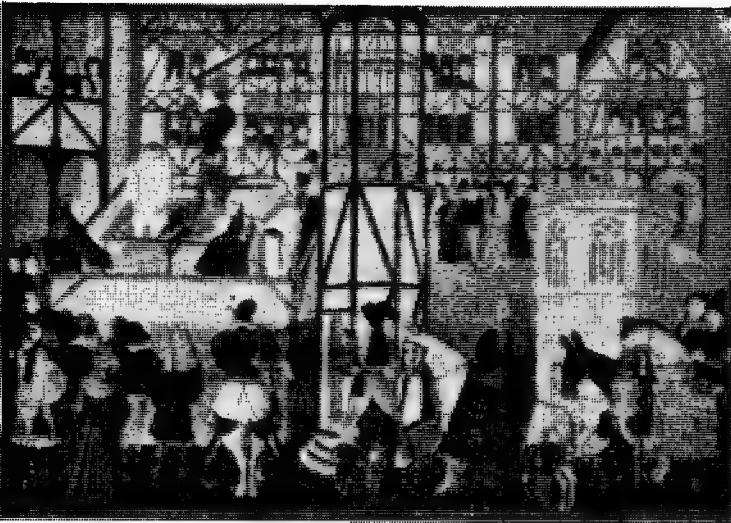
(١) يرجع ذلك لسبب بسيط وهو أن الكنائس كانت أكثر ضبطا لدفاترها
وسجلاتها من السادة العلمانيين ، مما سهل تدبير شئون العبيد . ومع ذلك فيجب =

لوحة رقم ٤ (أ)



منظر شارع في القرن الخامس عشر

لوحة رقم ٤ (ب)



المساكن الخشبية في باريس

والواقع أنه كان من الممكن أن يذهب جانب من عشور الأبرشية إلى فقراء الأبرشية نفسها ، وأكثر منه بقليل إلى المتسولين القابعين عند بوابة ذلك الدير النائي الذي كان يستولى على ثلثي ما كان يدفعه القسرويون . وكانت أمثال هذه الصدقات غير ثابتة وضئيلة ، حتى أنها لم تكن كافية لإرضاء العدالة بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان نظام الواجبات الكنسية في جملته سببا لإحداث قدر كبير من الاحتكاك . وفيما عدا العشور ، كانت كل هذه الهبات في الأصل اختيارية ، ثم تحولت بحكم العادة وحدها إلى هبات إجبارية . كذلك كانت العشور تشكل ضريبة ثقيلة للغاية . لقد كانت عمليا ، عبارة عن ضريبة دخل تسدد بواقع شلنين عن كل جنيه : وكانت تمتد إلى الطبقات الدنيا حتى تصل إلى خدم المنازل ، طالما كانت هذه الضريبة جديرة بقيام المحصل لجبايتها . وكانت تحسب على جملة الإيراد ، دون أى إذن مقابل ما كانوا يتكبدونه من النفقات المتصلة بالعمل . وأمامنا مثل طريف لذلك الصدام ، وقع في أبرشية أكسيتير Exeter Diocese في سنة ١٢٨٧ . ذلك أن كاهن الأبرشية طلب حصته العشرية من اللبن في شكل من الجبن المناسب . ولكن بعض المزارعين امتنعوا عن إعطائه له إلا في شكله الخام وجاءوا به إلى الكنيسة ، ولو لم يكن القس هذا ليتسلمه لكانوا — على حد شكوى الأسقف العلنية — قد صبوا اللبن على الأرض أمام الهيكل ، متهكين بذلك حرمة

== أن نعرف جيدا أنهم كانوا عبيدا سواء أكان أميادهم من رجال الدنيا أو الدين ، إذ كانوا يؤدّون لهم نفس الواجبات والالتزامات . انظر كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا ، ص ٣٨-٣٩ ،

الجلالة الإلهية والكنيسة المقدسة . ويتضح من ثانيا اكداًس سجلات القرون الوسطى كيف كان بعض الاشخاص يعودون ، مراراً وتكراراً ، الى مثل تلك المشاجنات المتعلقة بالعشور .

وأخيراً كان ثمة ما يعرف بالغرامة « heriot » المفروضة في شكل بهائم حية أو مواش مذبوحة ، أو أموال تؤول الى السيد صاحب الأرض عند وفاة المستأجر . كما كان هناك ما يعرف بضريبة الوفاة « mortuary » التي كانت فيما يبدو أشنع الالتزامات قاطبة . ذلك أنه عندما يموت أحد الفلاحين — أى في نفس اللحظة التي تكون فيها أسرته قد غدت في أشد الحاجة والعوز — كان للسيد اللورد أن يستولى من عبده على أجود ما تركه من حيوان باعتباره ملكاً غير موروث . وفي حالات كثيرة كان الكاهن يستولى على ما يليه جودة ، على شريطة ألا يقل ما تملكه الأسرة في الجلة عن ثلاث بهائم . ولذلك كان يحدث في الحالات الكثيرة التي يكون فيها الدبير هو صاحب الإقطاعية وراعى الأبرشية في نفس الوقت ، أن الأسرة التي كانت تملك ثلاث أبقار فقط ، يتعين عليها أن تتنازل عن بقرتين منها عند وفاة عائلها . وفي المدن ، كان أجل رداء يؤخذ على أنه ضريبة وفاة ، وكذلك القزان النحاسي والسريير الذي مات الرجل عليه :

ويبدو أن بعض المدن قد حافظت إلى حد ما ، على كيائها المدني حتى في أسوأ غزوات البرابرة . جفا إن الشواهد القليلة في بريطانيا الدالة على استمرار بقاء أمة مدينة فيها ، تكاد لا تذكر . ولكن هذه الشواهد أكثر من ذلك

في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وبخاصة في الجنوب . (١) ويبدو أن بغض تلك الأقطار قد حافظ على جميع أسواره ، بالرغم مما أصابها من تهديم وتخريب . وكان الكثير من تقاليد النظم البلدية القديمة لا يزال قائما فيها وراء تلك الأسوار ، مما يكشف بجلاء عن الفارق بين السكان الذين يعيشون داخلها وبين القرويين في خارجها . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه يجب علينا أن ننظر الى الحياة في مدينة القرون الوسطى ، على أنها غرس جديد ناهض

(١) لقد فقدت المدن الرومانية أهميتها ومكانتها نتيجة للظروف التي أحاطت بالمجتمع الغربي في فترة الانتقال من القديم الى الوسيط . وأصبحت هذه المدن مجرد مراكز دينية بعد أن انعدم نشاطها المرتبط بالتجارة والصناعة . ولم تعد الدولة الكارولنجية نفسها ، وهي التي قامت على أساس ريفي بحث ، تهتم بمصير تلك المدن . ومن الأمور الواضحة أن قصور الأباطرة الكارولنجيين لم تشيد داخل المدن ، ولكنها كانت ، وبدون استثناء ، مقامة في الريف ، أي في قلب أطيان الأسرة الحاكمة . اذ أقيمت في هريستال ، وفي جويل ، وفي ميرزن بوادي نهر الميوز ، وفي انجلهايم على نهر الراين ، وفي اتيجن على السين ، وهكذا . وأما عن الشهرة التي تمتعت بها مدينة اكس لا شابل (آخن) في عهد شارلمان ، فلا ترجع الى موقعها وانما الى حظها باعتبارها المقر المفضل للإمبراطور . وقد راحت بعد حكم لويس الثقي في عالم النسيان ، ولم تصبح مدينة بالمعنى المفهوم الا بعد أربعة قرون من ذلك التاريخ . كذلك كانت قصور حكام الولايات مقامة عادة في الريف مثل قصور الأباطرة تماما . ويقول بيرين إن هذا ينطبق بصفة خاصة على شمال أوروبا . أما في إيطاليا وجنوب فرنسا حيث لم يكن نظام المجالس البلدية الرومانية قد زال تماما ، كان الوضع خلاف ذلك . إذ أقام الكونتات والأمراء في المدن جريا على

أكثر منها امتداداً للحضارة الرومانية : فقد كانت ، في الواقع ، تعبر عن نمو جديد تمام الجدة في معظم المانيا واسكندينايا والأراضي الواطنة وبريطانيا وشمالى فرنسا ، وكانت المدينة في كافة هذه المناطق أقرب ما تكون دائماً الى قرية نامية : وكانت ، عادة ، تستمد كل رخائها من موقعها الممتاز ، فهى تقع الى جانب جسر مثل كامبريدج ، أو جدول ماء مثل اكسفورد وبدفورد ، أو مصب نهر كبير كمدينة كينجزلين ، أو عند بوابة إحدى الفلاع كقلعة رايزنج Castle Rising . وكان الفلاحون في مثل هذه الجهات السعيدة الحظ ينعمون بأكثر مما ينعم به القرويون المجاورون لهم . وبمرور الزمن ، استطاعوا أن يشتروا من سيدهم اللورد الامتيازات والحريات . فقد كان لهم بطبيعة الحال ، سيد شأنهم في ذلك شأن القرويين في انجلترا . وقد يكون هذا السيد ملكاً أو باروناً أو أحد النبلاء أو أسقفاً أو رئيس دير ، ولكنه كان في ذات الوقت سيدهم صاحب الأرض . ومن المحقق أنه كان ، الى حد ما ، ولى امرهم . وعندئذ أصبح في مكنة القرويين أن تتوفر لديهم الوسائل اللازمة لشراء الامتيازات . وكان السيد العاقل يقبل من جانبه على بيعهم هذه الحريات ، طالما وجد أنه يستحسن أن يكون لديه فى أرضيه مجموعة من الفلاحين الميسورين بدلاً من حفنة من الفلاحين الجياع . أما إذا لم تكن لديه الحكمة الكافية ، فقد يضطر الى بيعهم حرياتهم أيضاً بسبب ما يكون قد تراكم عليه من الديون ، وما تولاه من الذهول والدهشة ، وهو يجوب فاعراً فاه في استجداء أى مبلغ حاضر . وهكذا استطاع الفلاحون تدريجياً أن يشتروا قدماً بعض الحريات والامتيازات . ولذلك كانت اتحادات البلديات عند نهاية العصر الوسيط وبعده بفترة ما اتحادات زراعية إلى حد كبير . لقد كانت المدينة هبارة عن قرية نامية . وكتب ف . وميتلاند

F. W. Maitland يقول : « في القرن الثاني عشر ، عندما تغنى وليم فيترز ستيفن William Fitz Stephen بمفاتن لندن ، لم يذكر أنه في مكان ما بالقرب منها تمتد حقول صالحة للزراعة ، وإنما قال إن حقول مدينة لندن خصيبة » ، وفي كامبريدج عندما كانت المدينة كلها في سنة ١٢٧٩ تضم ٥٣٤ مسكنا فحسب ، كان ١٠٨ من مواطنيها يملكون أراضي زراعية . وكان لأحدهم ٨٥ فداناً ، ولآخر ٤ فداناً : هذا خلافاً عشرة أفدنة لكل من واحد وعشرين مواطناً . وكان يوجد داخل المدينة نفسها ١٢ مخزناً لحفظ الحبوب . وكانت هذه الأوضاع ، شأنها شأن غيرها من الأوضاع السائدة في العصور الوسطى ، لا تزال باقية في القارة الأوروبية أكثر من تواجدها في إنجلترا . فمدينة هايدلبرج Heidelberg ، مثلاً ، كانت تتألف من شارعين كبيرين يسيران متوازيين بين منحدر التل والنهر ، وهما الشارع الرئيسي وشارع بليك Plöck . وكان لا يزال يوجد في وسط هذا الشارع الأخير حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، أو بعد ذلك التاريخ ، بيت فسيح ملحق بمزرعة مع كافة مشتملاتها . من ممتلكات زراعية ومواش . فضلاً عن الخيل والثيران الموجودة في الحظائر ، وكومة سباد هائلة الحجم في وسط الفناء .

وكانت معظم البيوت في مدن العصور الوسطى ، كما هو الحال في القرى ، من الخشب ، اللهم إلا في المقاطعات التي كان فيها الحجر الجيد متوفراً بكثرة . بينما الخشب نادر الوجود : وبوسعنا أن نستدل على حالات من هذا القبيل حيث كان يطلق على أحد هذه البيوت مثلاً اسم « البيت الحجري » ، ولذلك كانت الحاجة ، بصفة عامة ، أشد مساساً إلى النجار منها إلى البناء في تشييد كافة المباني ، ما عدا الكنائس والحصون .

وتدين كامبزيدج بوجودها كبلدية معترف بها إلى مرسوم أصدره هنرى الأول فى مستهل القرن الثانى عشر . وقد نص الملك فى ذلك المرسوم - باعتباره حاكما على كامبزيدج وأكسفورد - على أن كامبزيدج كأكسفورد ، مدينة ملكية ذات بلدية ، تمت وترعرت فوق أراضى الملك الخاصة ؛ وأنه يمنح فلاحيه حق احتكار النقل النهري فى المقاطعة ؛ وقد جاء فى المرسوم المذكور أنه لا يجوز لاي إنسان فى كافة أنحاء المقاطعة ، فيما عدا رصيف كامبزيدج الملكى ، أن يقوم بعمليات شحن السفن أو تفريغها . ولسنا نعرف ما كان يدفعه أصحاب الشأن مقابل هذا الاحتكار الخاص . وإنما نجد قرية واحدة ميسورة الحال تشتري حريرتها من أسقف باريس نظير مبلغ يعادل فى وقتنا هذا من حيث قوته الشرائية نحو ١٢,٠٠٠ جنيه ، ولو أن هذه بذاتها حالة فريدة شاذة . وفيما يتعلق بكامبزيدج ، يجب أن نلاحظ أن الملك باع للقرويين ما لم يكلفه شيئا . إذا ظفرت كامبزيدج بهذا الاحتكار التجارى على حساب باقى المقاطعة ؛ هذا من جهة ، وقد حدث من جهة أخرى أن ظفر المواطنون فى نفس الوقت تقريبا فى لايكستر Leicester باحدى حرياتهم الرئيسية ، مما يجدر بنا أن نسميه فى أيامنا هذه « فرصة طارئة » ؛ وكانت هذه الفرصة هى التى دفعتهم إلى شراء حق الفصل فى قضاياهم عن طريق المحاكمة فى حضور المحلفين ، بدلا من الفصل فيها بالطرق البربرية للقديم (١)؛ وهى نفس الفرصة التى دفعت سيدهم الايرل على أن يبيعهم هذا

(١) وهى أساليب تيوتونية قديمة تقضى بالفصل فيما إذا كان الشخص المتهم بريئا أو مجرما ، بتعريض كل من أطراف الخصوم لتجارب جثمانية قاسية ، بأن يضع كل منهم يده فى ماء شديد الغليان ، فمن كان من أطراف الخصوم أقدر على احتمال غليانه ، اعتبر احتمال هذا دليلا لهيا على براءته ، وهكذا . ويبدو أن الكنيسة فى العصور الوسطى قد أخذت بهذه الوسائل =

الحق ، ويمكن الاستزادة من هذه التفاصيل بالرجوع إلى تقرير لإحدى اللجان الهامة صدر سنة ١٢٥٣ ، جاء فيه ما يلي :

« قال المحلفون بعد أن أقسموا اليمين ، إنه في أيام الإيرل روبرت (حوالي سنة ١١٢٠) رفع نيقولا بن آكو Nicholas son of Aco وجوفروا ابن نيقولا Geoffrey son of Nicholas ، وهما ابنا عم ، دعوى القتال عن أرض يدعيها كل منهما لنفسه . واستمر القتال بينهما منذ مشرق الشمس إلى ما بعد الظهر . وفيما هما يتقاتلان على هذا النحو ، جر أحدهما الآخر إلى حافة خندق صغير . وبينما هذا الأخير واقف على شفا الخندق معرضا للسقوط فيه ، ناداه ابن عمه قائلا : « احتس من الخندق الذي وراءك وإلا وقعت فيه . » وفي نفس هذه اللحظة ، انطلق صياح وضجيج شديدا من جمهرة الناس الذين كانوا جالسين أو واقفين حول مكان الحادث . وبلغ ضجيجهم أسماع السيد الإيرل حتى نفذ إلى داخل قلعته ، فتساءل عن مصدر ذلك المهرج . وأجابه بعضهم بأن ابن عم كانا يتقاتلان من أجل قطعة أرض ، فجر أحدهما الآخر إلى الخندق ، ثم حذره عندما

للتعرف على المذنب من البريء في حالة عدم إمكان المحاكم المدنية البت في الدعوى ، أو إخفاق المتهم في إثبات براءته . فكان يسمح للمتهم بتناول جرعة من الماء المقدس ، ثم يقذف به في ماء شديد البرودة بعد مناشدة الإله برعايته إن كان بريئا ولفظه إن كان مذنباً . فإذا اجتضه الماء اعتبر بريئا ، وإذا طاف على سطحه اعتبر مذنباً . وغير هذه من الوسائل التي قصد بها تبرئة البريء وتذويب المذنب ، مثل وسيلة الماء المغلي والحديد المعمي بالنار . أنظر : Whitelock, Beginnings of English Society, 142 .

وقف على حافته بحيث كان معرضا للسقوط فيه : وعند ذلك ، هب نواب المدينة لدى البرلمان ، بدافع من الشفقة ، لعقد اتفاق مع السيد الايرل تعهدوا فيه اعطائه ثلاثة بنسات كل عام عن كل بيت ذى جملون فى الشارع العمومى ، على شريطة أن يخولهم حق الفصل فى قضاياهم أمام هيئة محلفين مكونة من أربعة وعشرين مواطنا : وقد منحهم الايرل هذا الحق فعلا ، (١).

وبهذه الوسيلة تمكنت الطوائف المذكورة تدريجيا من شراء الحق فى دفع قيمة الضرائب على طريقته الخاصة ، ما دامت تدفع سنويا مبلغا إجماليا للسيد اللورد ، وهو ما أطلق عليه لفظ " Firma Burgi " ، ومعناه : ريع المدينة . ثم عادت فاشتريت حق دفع ما يستجد من الالتزامات مباشرة بدلا من دفعها عن طريق " الشريف " ، Sheriff (٢) . كما اشترت حق عقد محكمتها الخاصة ، طالما أن أحدا لم ينصب على الملك فيما يختص بأى كسب طارىء . أحرزه : ذلك أن أهم ما كان يشغل بال المحاكم فى القرون الوسطى ، هو توقيع غرامة على أحد المتقاضين أو على الطرف الآخر ، حتى جرت

(١) . M. Bateson, Records of the Borough of Leicester, 41 .

(كولتون) .

(٢) الشريف هو كبير ضباط التاج المختص فى كل مقاطعة أو محلة مركزية ، والمكلف بالإشراف على الأمن والعدالة وفقا لتوجيهات المحاكم . ومن مهامه أيضا تحرير الأوراق الرسمية ، والهيمنة على الانتخابات .

بذلك حكمة قانونية مستقرة مؤداها « أن العدالة وظيفة مدرة للارباح » -
" Magnum emolumentum est justitia " .

وهكذا كانت كل المدن الانجليزية قد حصلت على قدر كبير من الحكم الذاتي ، قبل أن تنتهي العصور الوسطى . وكانت المدن الأوفر عددا والأقوى سلطانا ، بصفة عامة ، هي المدن الداخلة ضمن الأراضي الملكية . ويرجع ذلك لسببين أولهما أن الملوك كانت لديهم مشروعات أضخم من مشروعات نبلائهم . ومن ثم كانوا أشد حاجة إلى المال ، لكنهم كانوا أبعد نظراً من النبلاء ، ولذا كانوا أكثر استعدادا لبيع الحريات مقابل مبالغ تدفع لهم . وكانت السلطة الملكية ، في حد ذاتها ضماناً أقوى للمواطنين ، وحماية لهم أوثق من تجاوز « الشريف » لحدود سلطانه واعتدائه على حقوق الغير ، أو من تعسف أى بارون مجاور ، أو من مجرد حماية أى بارون أو أسقف . لذلك كانت المدن الملكية هي أوفر المدن حظا أما أقلها حظا فكانت تلك التي يتولاها أسقف أو رئيس دير . ذلك أن هؤلاء كانوا محافظين بحكم الضرورة . ونبدأ بقولنا بأن ممتلكاتهم لم تكن في الواقع ملكا خاصا لهم ، وإنما كانوا هم حراسا عليها فحسب . ومن ثم كان محظورا عليهم بتاتا ، بحكم القانون ، التصرف في ممتلكاتهم . ويضاف إلى هذا التحفظ القانوني ، التحفظ الطبيعي لرجل دين كبير . ويلاحظ أن هذه الطوائف الكنسية ، وإن كانت في معظم الأحيان تنوء تحت عبء الديون ، فقلما تدهورت بالحالة البائسة على اليأس التي كان عليها البارون أو المالك . ولسوف ندرك لماذا كان موضوع أحد الفصول الأساسية في تاريخ النظام البرلماني في القرون الوسطى ، بوصفه حقيقة واقعة ، هو كفاح أهالي المدن ضد

سادتهم الدينيين ، وهؤلاء السادة هم : الأسقف في مدينة لين Lynn ،
لأن ما يعرف الآن بأنه مدينة « كينجزلين » كان يعرف وقتئذٍ بأنه
« مدينة الأسقف لين » . وكذلك رئيس الدير في كل من مدينة القديس البان
St. Albans ، وبيوري سانت ادموند Bury St. Edmunds ، وبيرتون
. Burton

بعض المراجع الفصل الرابع

Besant, W., Mediaeval London. 2 vols. London, 1906

Enlart, C., Villes mortes du moyen âge. Paris, 1920.

Freeman, E. A. & Hunt, W. (eds.), Historic Towns. 9 vols.
London, 1887-93.

Luchaire, A., Les communes françaises à l'époque des
Capétiens directs, Ed. by L. Halphen. Paris, 1911 .

Mumford, L., The City in History, Its Origins, Its
Transformations and Its Prospects. 2 vols. New York, 1961.

انظر ترجمته العربية :

مفورد (لويس) : المدينة على مر العصور « أصلها وتطورها ومستقبلها »
- اشراف ومراجعة وتقديم الدكتور ابراهيم نصحي - جزءان - القاهرة ١٩٦٤ .

Pirenne, H.,

1 - Medieval Cities : Their Origins and the Revival
of Trade. Princeton, 1925.

2 - Medieval Cities. Trans. from the French by F. D.
Halsey. Princeton, 1948

Tout, T. F., Mediaeval Town-planning. Manchester, 1917.

Vincent, J. M., Municipal Problems in Mediaeval
Switzerland. Baltimore, 1905.

الفصل الخامس

الفروسية (١)

كتب تاكيتوس (٢) Tacitus حوالى سنة ١١٠ م يصف الشعوب الجرمانية بأنها تقوم بكافة أعمالها الهامة وهي تحت السلاح . فعندما ينعقد مجلس القبيلة

(١) فيما يتعلق بالجانب العسكرى البحث للفروسية في القرون الوسطى ، أنظر الفصول الخامس عشر والثامن عشر والتاسع عشر من كتاب Coulton, Chaucer and his England (كولتون) .

(٢) ولد تاكيتوس سنة ٥٥ م وتوفي سنة ١٢٠ م ، وهو من أشهر مؤرخى الرومان . كان مولده فى انترامن Interamne بأمرى Ombrio بوسط ايطاليا . وله مؤلفات عديدة ، إذ وضع تاريخا لحياة حيه اجريكولا الوالى الرومانى على بريطانيا من قبل الامبراطور فاسبسيان . وكذلك تاريخا يتضمن أحداث الفترة الواقعة بين عامى ٦٩ و ٩٦ م . وهو صاحب الحوليات التى تبدأ بوفاة أغسطس سنة ١٤ م وتنتهى بوفاة نيرون سنة ٦٨ م . وله أيضا كتاب أمدنا فيه ببيانات هامة عن الجرمان وأصول معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم تحت اسم " de origine, situ, moribus at populis Germaniae " .

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الرئيسية عن العناصر الجرمانية : ويمتاز تاكيتوس بأنه مؤرخ لا ذع متشائم ، ولكنه ذو بصيرة ثاقبة وأصالة متناهية فى أسلوبه . راجع نظير حسان سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها ، ص ١٦

ح ٢ وص ٢٨ و ٢٣ ، Carcopino, The Romans, 119, 125, 128; Barrow, Daily Life in Ancient Rome, 128, 141; Fowler & Charlesworth, Rome, 10, 12, 52, 150 . ويعتبر تاكيتوس ، فضلا عما تقدم ، من أول المؤرخين الذين ظهوروا بعد المسيحية : ويؤخذ عنه عدم فهمه للدين الجديد حين رأى سره انتشاره بين طبقة العبيد ، وانفصال معتنقيه عن العادات المرحية للبلاد . أنظر هرنشو : علم التاريخ ، ص ٣٦ .

أى « محكمة الشعب » ، كان الأعضاء يعربون عن موافقتهم بقرعة أسلحتهم ، وعن عدم موافقتهم بدمدمة مكتومة . وعلى هذا الوجه كان التصويت النهائى يعتبر صادرا بالاجماع طالما أن الأقلية قد امتثلت تدريجيا لرأى الأغلبية (١) . لذلك كان العبد الذى يحمل السلاح لا مكان له فى محكمة الشعب . وكذلك كان وضع الصبي الذى لم ينضج بعد لخوض غمار الحرب . فاذا بلغ السن التى تؤهله لذلك ، قلد الاسلحة التى كانت فى انتظاره فى حفل رسمى عام . ويقول تاكيتوس إنه من هذه السن فصاعدا « ينسلخ الصبي عن أسرته التى لم يعد ملكا لها ، بل ملكا للدولة . ويقابل هذا الاحتفال بتقليد السلاح « arma sumere » عند الجرمان ، الاحتفال ببلوغ سن الرشيد « toga virilis » عندنا . وكان الشبان الطموحون يميلون أيضا الى الالتحاق بمحارب عظيم ، يأكلون على مائدته ويشاركونه فى معاركه . وكانوا يعتبرون أنفسهم ، إذا فروا أحياء من ميدان حرب سقط فيه سيدهم ، أنه قد لحق بهم الخزي والعار الى الأبد (٢)

وقد عزز هذه الأفكار عن الفروسية التشبه بالعرب فى اسبانيا الذين

(١) أخذت المجامع الكنسية أيضا بهذه النظرية عن اجماع الآراء أو الاصوات . ويعتبر مجلس الفاتيكان المنعقد سنة ١٨٧٠ هو الأول من نوعه فى التاريخ ، الذى تقرر فيه رسميا الاخذ برأى الأغلبية فحسب . وفى مجمع نيقية كانت الأقلية من الأساقفة تعاقب حتى تستسلم لرأى الأغلبية (كولتون) .

(٢) وللمزيد من التفاصيل عن هذه الأفكار ، أنظر :

Stephenson, op. cit., 22, 107.

اعتنقوا نفس المثل الأعلى . وبقدر ما أمكن معرفته ، كان العرب متفوقين عليهم بلا شك ، وكانت حضارتهم أرقى من حضارة الشعراء المتجولين جنوبي فرنسا : وبدافع من زهو النسب والشجاعة ، وبدافع من موسيقى الحب (١) والحرب ، بل وبدافع من حسر الاحتفاء بالسيدات - بدافع من كل هذا وذاك يبدو أن هؤلاء المغاربة قد أعطوا المجتمع الاسباني أو البروفنسالى أكثر مما أخذوا منها . كذلك اختصنت الكنيسة الفروسية بحكم مطالبها ببسط حمايتها على كافة وجوه النشاط الانسانى (٢) . وعلى الرغم من أن حفلات

(١) يقول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو سيدنى بينتر ، ان كتاب القس اندراوس Andrew the Chaplain المسمى « الحب » « De amore » يعتبر المصدر الرئيسى الذى يمكن ان نستقى منه معلوماتنا عن الأفكار والآراء المتعلقة بهذه العاطفة باعتبارها مظهرا من مظاهر الفروسية فى العصور الوسطى ، فضلا عن صلتها الوثيقة بها . وفى هذا الكتاب يعبر المؤلف فى صراحة ومع شئ من التحفظ عن آرائه فى الحب كعاطفة رقيقة سامية تعود إلى الخير ، وكعلاقة بين شخصين . أنظر عن ذلك كتاب :

Painter, French Chivalry, 119 sqq.

(٢) إن أقدم إشارة واضحة أمكن العثور عليها عن وجود فكرة ارتباط الفروسية بالدين ، والقائلة بأن الفارس كان ملزما بنوع خاص بإطاعة الكنيسة وخدمتها - تبدو فى التقارير المعاصرة لخطبة البابا اربان الثانى الشهيرة عام ١٠٩٥ والتى أثار بها فرسان أوروبا للاشتراك فى الحرب الصليبية الأولى . لقد أشارت كثير من تلك التقارير بصورة قاطعة إلى وجود هذه الفكرة المتعلقة بالفروسية . إذ وردت عبارة فى أحدها تؤكد ذلك ، وهذه العبارة هى : « ان أولئك الذين كانوا حتى ذلك الحين لصوصا ، بوسعهم أن يصبحوا الآن =

الفروسية العلمانية البهتة استمرت طيلة القرون الوسطى ، فقد كان هناك أيضا طقوس شبه دينية تشمل صلاة ليلة العيد أمام الهيكل ، فضلا عن التطهر الخاص بالاغتسال بالماء المقدس في الصباح . ومن ثم ابتدعنا ما نطلق عليه « فرسان الحمام » « Knights of the Bath » . وأكثر من ذلك ندرة هو إقامة قداس كنسى بحت باللغة اللاتينية يؤدي الأسقف مراسمه لمباركة الجنود الجدد ، وهو ما يعرف باللاتينية باسم « Benedictis Novi Militis » (١) .

واقد ظلت الفروسية حتى النهاية نظاما متماسكا . فالمفروض في الفارس أن يقلد رتبة الفروسية باختياره ، لا بحكم مولده . وكان الاثنان ، فيما سبق ، ينخرطون أحيانا في سلك الفروسية بشرط إثبات جدارتهم الشخصية المناسبة . ولكن القوانين اللاحقة منعت قبولهم رسميا كفرسان . هذا ، وكان الأمراء بصلة الدم يطالبون بتقلد رتبة الفروسية بحكم مولدهم . وكان هذا أيضا هو الاستثناء النادر الذى بقى ، على الأقل ، حتى نهاية العصور الوسطى . لقد كانت طبقة الفرسان ثمرة نظام اجتماعى قديم . كما كانت تتمتع

= فرسانا . أنظر كتاب « الفروسية الفرنسية » مؤلفه سيدنى بينتر :

S. Painter, French Chivalry : Chivalric Ideas and Practices in Mediaeval France, 67.

راجع أيضا ديفز (٥ : ٥٠) : أوربا في العصور الوسطى - ترجمة الدكتور

عبد الحميد حمدى محمود - ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(١) أشار فرواسار الى موضوع الاستحمام ، وممارسة الفروسية في الميدان .

(كولتون) .

بامتيازات عظيمة، وتوكل إليها مسئوليات خطيرة (١). فقد كان الفقراء ملزمين باحترام الفارس الذى كان بدوره ملزما بالدفاع عنهم ، بل وعن كل بائس مسكين . ومما يميز الأحوال الاجتماعية البدائية ، حتى في أيام تشوسر ، أن لانجلاند (٢) Langland يعتبر نشاط الفارس في مجال الصيد والقنص نشاطا مثاليا ، وذلك ضمن ما عدده من الخيرات التي تعود على المجتمع من مختلف أوجه النشاط . فهو من أجل ذلك ، قتل الوحوش الضارية التي فرت من الغابة لكي تفترس القرية . على أن لدينا ، من ناحية أخرى ، الدليل الواضح على إهمال الصيادين أحيانا نتيجة علوهم فوق المحاصيل وهم ممتطين صهوات خيولهم ، وعلى مناعب المستأجرين من جراء حجز السادة الملاك جانبها من الأرض لتخصيصها للعب (٣) .

(١) نجد في صفحة ٢٨١ وما بعدها من كتاب Coulton, Social Life in Britain ، فقرات لمؤلفين معاصرين لتلك الحقبة من الزمن ، تشير إلى جانبي المثل الأعلى المشار إليه ، مع المقارنة بين الجانبين العملي والنظري . (كولتون) .

(٢) ولیم لانجلاند شاعر انجليزي ولد في مقاطعة شروب Shropshire حوالى سنة ١٣٣٠ وتوفي حوالى سنة ١٤٠٠ . وقد كتب في المشاكل الاجتماعية ، وكشف عن عيوب المجتمع الانجليزي في عصره في قصيدة رمزية طويلة بعنوان « رؤيا بطرس الفلاح » The Vision of Piers Plowman ، وهي قصيدة تنم عن روح الشاعر الانجلو سكسونية . ويميل لانجلاند في أسلوبه الى التصوف والقوة . أنظر Myers, England in the Late Middle Ages, 83 - 85; Trevelyan, Hist. of England, 128.

(٣) E.g. Bishop of Chichester's rabbits in Medieval Village, 78 (٢) (كولتون) .

ويرجع اضمحلال الفروسية في انجلترا إلى ظهور طبقة سكان المدن ، وإلى حرب المائة عام وحرب الوردتين : وقد حدث فعلا في القرن الثالث عشر ، أن صدرت قوانين ترغم ملاك الأرض على أن يقبلوا بمحض اختيارهم إما الالتحاق بطبقة الفرسان ، وإما دفع غرامة اعترافا منهم بالواجبات التي تبرؤوا من القيام بها ، والمال الذي تنصلوا من أدائه ، بسبب بقائهم دون لقب . وفي القرن الرابع عشر آل شرف الفروسية للبارزين من أهالي لندن مثل « والويرث » Walworth . وفي حرب المائة عام كانت الجيوش البريطانية منظمة على أسس من مبادئ الأعمال الحقيقية تفوق بكثير مبادئ منافسيهم . ومن ثم كانوا يفوقونهم بمراحل من حيث القوة الحربية : ومن بين هؤلاء العصاميين نذكر « سير روبرت نولز » Sir Robert Knolles الذي كان يفاخر بأنه جدير بفسادية ملكية (١) ، و « سير جون هوكوود » Sir John Hawkwood الذي تزوج من أميرة إيطالية دفعت له بائنة جسيمة . وقد استنفد كثير من البارونات وأتباعهم خلال القرن التالي جهدهم في الجروب الأهلية ، حتى فقد النظام الإقطاعي صفته كقوة سياسية جديده ، ولم تكن العصور الوسطى قد انتهت بعد . وهذا ما يمكن أن يقال عن فرنسا ، ولو أن المكاسب هناك كانت تعود إلى الملوك دون أفراد الشعب . وكان النبلاء والفرسان في ألمانيا وحدها دون الدول العظمى ، يشكلون قوة سياسية هائلة حتى القرن السادس عشر .

وليس هناك مؤلفات يمكن أن تمدد القارئ غير المتخصص في لمحة عابرة ، بالكثير مما يتعلق بنظام الفروسية في العصور الوسطى مثل كتابات كل

(١) أى أنه كان شخصية لها خطرها واعتبارها .

من جوانفيل (١) Joinville في مذكراته (٢) عن القديس لويس (٣)، وفرواسار Froissart في حوليته . ويكشف لنا جوانفيل عن تقوى بطله الطبيعية غير المصطنعة ، وبهاء طلعه ، وشجاعته في القتال ، وثباته الملفت للانظار ، والذي لم يزايله عند ما كان أسيراً حتي أتلّف مرض الدوسنطاريا صحته إلى حد كاد معه ألا يقوى على الوقوف على قدميه . ونراه يرفض

(١) ينحدر جوانفيل من إحدى الأسر الغريقة بمقاطعة شامبانيا بفرنسا . ولد حوالي ١٢٢٤ ، وتوفي حوالي ١٣١٨ عن ٩٣ سنة . وهو صاحب كتاب « تاريخ القديس لويس » الذي وضعه بالفرنسية الوسيطة ، ومجّد فيه سيده الملك الفرنسي ، كما سجل أقواله وأفعاله تخليداً لذكراه . ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الرئيسية التي لا غني عنها فيما يتعلق بحملة لويس التاسع الصليبية على مصر (١٢٤٨ - ١٢٥٠) ، وكذلك نظام الفروسية في المجتمع الغربي الوسيط : أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣ - ٧ والحواشي ، وكذلك كتابي : Joinville (ed. Wailly) 2, 4. p. 4, n. 1 ; Joinville (Johnes' tr.), 343-7.

(٢) هناك طبعات عديدة لكتاب جوانفيل أهمها بلا شك طبعة "N. de Wailly" المتضمنة النص الأصلي باللغة الفرنسية الوسيطة وترجمته بالفرنسية الحديثة : Joinville, Histoire de Saint Louis. Texte original du XIV^e Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly. Paris, 1874.

وهناك أيضاً ترجمات انجليزية عديدة لمذكرات جوانفيل نذكر منها :

1) Memoirs of Louis IX, King of France. Tr. into English by Johnes of Hafod. Cf. Chronicles of the Crusades. Bohn's ed. London, 1848 (pp. 341-556).

2) Saint Louis, King of France. Tr. into English by James Hutton. London, 1868.

3) Joinville & Villehardouin. Chronicles of the Crusades. Trans. by M.R.B. Shaw. London, 1963 [Penguin Books].

وكذلك طبعات Evans ، و John Murray ، و Barker وغيرها .

(٣) تولى لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٢٦ ، وكان عمره آنذاك اثني =

نقل رجاله من السفن عند هياج البحر ، خشية أن يتخلى البحارة عن السفن
ويتركوا ركبها تحت رحمة الأمواج . ولقد تحدث جوانفيل بصراحة عن

عشر عاما . وحكم في فترة قصوره التي امتدت من ١٢٢٦ إلى ١٢٣٦
تحت وصاية أمه الملكة بلانش صاحبة قشتالة . وقد تمكنت في فترة وصايتها
من إخماد الثورات التي قام بها كبار رجال الإقطاع لتحقيق أطماعهم في البلاد .
وواجه لويس بنفسه في سنة ١٢٤٢ آخر ثورة إقطاعية كبيرة ، وأفلح في
الحاق الهزيمة بالثائرين . بعد ذلك عمل على إخماد صوت المراطقة المسيحيين
بالمملكة ، كما وضع حدا لأطماع رجال الدين : وهكذا كانت الظروف
مهيأة له عندما قام بحملته الصليبية الأولى ضد مصر (١٢٤٨ — ١٢٥٠) التي
انتهت بهزيمته على ضفاف النيل وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة ، ثم
خروجه مدحورا إلى الشام حيث أمضى أربع سنوات (١٢٥٠ — ١٢٥٤)
محاولا مواصلة العلوان دون جدوى . وفي ابريل ١٢٥٤ غادر لويس التاسع
الأراضي المقدسة عائدا إلى بلاده ، ووصل عاصمة ملكه في سبتمبر من نفس
العام بعد غيابة عنها زهاء ست سنوات . وفي عام ١٢٧٠ قام بحملة صليبية ثالثة
ضد تونس بشمال أفريقيا . ولكنه قضى نحبه في نفس العام وهو على أبواب
قرطاجنة دون أن يتأتى له تحقيق أطماعه في العالم العربي . أنظر عن ذلك :

Joinville, Hist. de Saint Louis. Paris, 1874; Bordeaux,
Vie, mort et survie de Saint Louis. Paris, 1949 ;
Bray, The Good St. Louis and His Times. London, 1870;
Knox, The Court of a Saint. London, 1909; Perry, St. Louis.
London 1901; Bailly, St. Louis. Paris, 1949; Boulenger, La
Vie de St. Louis. Paris, 1929; Walsh, St. Louis et son siècle,
Tours, 1876 . أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على
ضفاف النيل — القاهرة ١٩٦٠ ، ولويس التاسع في الشرق الأوسط -
القاهرة ١٩٥٩ .

تسرع الملك في بعض المناسبات . ولكن ذلك يؤكد ما كان يتحلى به الملك من وعى بالعدالة . فلقد اتخذ لنفسه مجلسا للقضاء تحت شجرة بلوط في حديقته بفرنسان Vincennes حيث كان يستمع عن طيب خاطر إلى شكاوى الأغنياء والفقراء ، حتى أنه وقع غرامة جسيمة على سير دى كومي Sire de Coucy ، وهو من أعظم باروناته ، لشنقه ثلاثة صبيحة مشردين اتضح له أنهم من بيت كريم المختد (١) ولم يخطر ببال الملك أن يستغل ما كان يعانيه هنرى الثالث (٢) من المتاعب الداخلية مثلما استغل هنرى متاعبه ،

(١) يجب أن نتناول أقوال كولتون عن التطور الدستوري المبكر في فرنسا أيام لويس التاسع بشيء من الحيطة والحذر . فعلى الرغم من توخى لويس العدالة ، وعقله مجالس من باروناته وكبار رجاله لعرض الموضوعات الشائكة عليهم والاستئثار بآرائهم — فقد كان يهمه - لآراء مستشاريه إذا ما تعارضت مع رأيه الخاص . وآية ذلك موقفه من مجالس عكا الذى عقد في الفترة من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ١٢٥٠ للتشاور في أمر البقاء في فلسطين لمواصلة العدوان أو العودة إلى فرنسا . وكان أغلبية أعضاء المجلس يرون ضرورة العودة ، مما لا يتفق مع الرأى الذى استقر عليه لويس وهو البقاء في الشرق فضرب بآرائهم عرض الحائط ، وأعلن قراره بالبقاء في الاراضى المقدسة ، متحديا بذلك قرار الأغلبية . أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٧٧-٨٧ . راجع أيضا مقالتي :

Joseph Nessim, The Crusade of Louis IX on Syria, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, XVII, 1963 (pp. 57 — 69), 58.

(٢) تولى هنرى الثالث حكم إنجلترا سنة ١٢١٦ وله من العمر تسع سنوات وقد استمرت فترة الوصاية عليه حتى سنة ١٢١٩ ، وامتد حكمه حتى سنة ١٢٧٢ . انظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٦ ، D. M. Stenton, English Society in the Early Middle Ages (1066—1307), 47—48.

حتى أنه عرض عليه شروطا للصالح لم يكن من المحتمل أن يعرضها أي فرنسي آخر . وبينما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، كان يتحدث إلى ولده قائلا له : « لقد كنت أؤثر فعلا لو أن اسكتلنديا جاء من اسكتلندا إلى هذه المملكة ليقم فيها حكما عادلا ، على أن تحكمها أنت وتسيء إليها . » (١)

أما فرواسار (٢) الذي يفوق جوانفيل في قلبه ، والذي لم يكن لديه بطل عالمي يتخذة مادة لكتابته وهو يدون ملاحظاته كالقديس لويس بالنسبة لجوانفيل — نراه يعطينا صورة كثيفة الظلال على نقيص أضوائها الساطعة .

(١) انظر التفاصيل في كتاب Joinville, op. cit., (ed de Wailly), 6—38, 114, 130.

(٢) تاريخ مولده غير معروف بالضبط ، ولم يذكر جونا فرواسار نفسه في مؤلفاته التي تركها لنا شيئا عن ذلك . وقد تضاربت الآراء في هذا الشأن ، فمن قائل إنه ولد سنة ١٢٢٣ : وهناك من يرى أنه ولد سنة ١٢٢٧ أو ١٢٣٨ . وكيفما كان الأمر ، فقد كان مولده من أسرة بورجوازية بمدينة فالنسين ، ولا نعرف سوى القليل عن سني حياته الأولى : وكل ما وصلنا أنه تعلم تعليما طيبا . وفي سنة ١٢٦١ ترك مسقط رأسه إلى إنجلترا حيث أقام هناك فترة من الزمن بجوار الأميرة فيليبين Philippine . وفي سنة ١٢٦٦ أو ١٢٦٧ غادر الجزيرة إلى بوردو حيث عاش في بلاط الأميرة الأسود . ولم يطل مقامه بها ، إذ تركها إلى إنجلترا ثانية ، ومنها توجه إلى ميلانو بإيطاليا حيث تزوج من يولاند فيسكونتي Yolande Visconti . وقام خلال إقامته في إيطاليا بزيارة مدن فيرارا وبولونيا وروما . وقبل بعد ذلك عائداً إلى بلده فالنسين ليستغل بالتجارة بعض الوقت . ثم انصرف ليشبع هوايته في الكتابة والتأليف . ونشر حوالي سنة ١٣٧٠ أو ١٣٧١ القسم الأول من حويلته التي تضمنت تاريخ الحروب بين إنجلترا وفرنسا . ويلاحظ من كتابته أنه كان =

وهو يتحدث بوضوح وبساطة عما أصاب حملة ادوارد الثالث (١) الاولى في نورمانديا ، تلك المقاطعة التي لم تشهد حربا جديده منذ مائة عام قبل ذلك

== حتى ذلك الحين منحازا الى جانب انجلترا . ولكنه تحول بعد ذلك الى صف الفرنسيين . ومن هنا يبدو الفارق واضحا في موقفه من الطرفين في القسمين الاول والثاني من مؤلفه . وفي سنة ١٣٧٢ واصل كتابة حوليته لمدة عشر سنوات : وبعد جولة طويلة قام بها في مختلف أرجاء فرنسا ، عاد مرة اخرى الى بلده ليواصل كتابة القسم الثالث من الحولية . هذا ، وتاريخ وفاته غير معروف تماما ، وإن كان يبدو أنه حدث بعد سنة ١٤٠٤ ، اذ يتضح من مؤلفه انه كان لا يزال على قيد الحياة حتى ذلك التاريخ . وتنقسم حوليته الى أربعة أقسام ، يشمل كل منها فترة من فترات حرب المائة عام . وتوجد نسخ خطية عديدة منها ، ولها ترجمة باللاتينية . كما نقلت الى جميع اللغات الاوروبية الحديثة . والى جانب هذه الحولية له عدد كبير من القصائد والمؤلفات أنظر عن ذلك Molinier, Sources de l'histoire de France, IV, 5-18.

(١) ولد ادوارد الثالث سنة ١٣١٢ ، وحكم من ١٣٢٧ الى ١٣٧٧ ، وكان عمره ١٥ سنة عند ارتقائه العرش . وتولى ادارة البلاد في فترة قصوره التي امتدت من ١٣٢٧ الى ١٣٣٠ مجلس للوصاية . وفي عهده بدأت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا والتي أحرز فيها الانجليز عدة انتصارات على الفرنسيين . كما تخللها سلسلة من المهادنات بين البلدين . وتوغلت آخر حملات ادوارد في فرنسا سنة ١٣٥٩ / ١٣٦٠ حتى بلغت أسوار مدينة باريس . واختتمت المرحلة الأولى من الحرب بين البلدين بمعاهدة برتينى سنة ١٣٦٠ . وفيما يتعلق بتاريخ ادوارد الثالث وعهده ، أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٧٢٠-٧٢٩ ، وكذلك Myers, England in the Late Middle Ages, 5-15.

التاريخ (١) . يقول فرواسار :

« فعندما وصل ملك إنجلترا إلى هوج سانت فاست - Hogue Saint Vaast غادر سفينته . وما أن مست قدمه الأرض حتى وقع بشدة ونزف الدم من فمه . فحملة الفرسان الذين كانوا حوله وقالوا له : « بالله عليك يامولانا ، عد إلى سفينتك ، ولا تطأ الأرض اليوم . فما ذلك إلا نذير سوء لنا . » فبادرهم الملك برده قائلا : « ولماذا ؟ إنما أرى في ذلك بشيرا بالخير لي ، لأن الأرض تريدني أن أكون لها . » وأمام هذه الإجابة سرت فرحة عظيمة في قلوب رجاله جميعا . ومن ثم ، راح الملك يفتش الرمال نهارا وليلا . وفي الوقت ذاته أدخل السفن مما كان عليها من خيل ومتاع ...

وهكذا عملوا وفقا لما أشار به الملك . أما الذين ركبوا البحر ، فقد استولوا على كل ما عثروا عليه في طريقهم من سفن . ومضوا قدما ، تارة بحرا وتارة برا ، حتى وصلوا إلى ميناء مناسب ومدينة جميلة تسمى بارفلور (٢)

(١) ان جميع اشارات المؤلف في حواشي الكتاب ، والخاصة بفرواسار ، مستمدة من مختارات . ج . س . ماكولي G. C. Macaulay عن ترجمة اللورد برنر Barner في سنة ١٥٢٣ . والكتاب زهيد الثمن وفي متناول اليد ، ويجب على كل من يعنيه معرفه القرون الوسطى على حقيقتها أن يطالع عليه في طبعة (Macmillan & Co., 1895) (كولتون) .

(٢) بارفلور ميناء على بحر المانش عند طرف شبه جزيرة كوتنتان Cotentin بمقاطعة نورمانديا : ومن هذه المقاطعة تحرك وليم الفاتح لغزو إنجلترا .

Barfleur : غير أنها كانت مدينة غلبت عليها الشهوات ، وقد استسلم أهلها خشية الموت . وبالرغم من ذلك كله نهبت المدينة ، وعثر فيها على الكثير من الذهب والفضة والجواهر الكريمة : كما عثر على ثروات بلغ من وفرتها أن دفعت الصبية والفلاحين الملحقين بالجيش إلى إهمال حراسة الأردية الثمينة المسكوفة بالفراء النفيس . وقد أجبروا كافة رجال المدينة على مغادرتها والذهاب إلى السفن حتى لا يعانون من وجودهم خلفهم ، وخشية أن يشقوا عليهم عصا للطاعة مرة أخرى . وبعد أن أخذت مدينة بارفلور ونهبت على هذا النحو دون إشعال النيران فيها ، انتشر الانجليز في انحاء البلاد واقتربوا فيها من القذائع ما حلالهم ، حيث لم تكن ثمة حيلة لمقاومتهم . وأخيرا وصلوا إلى مدينة عظيمة غنية تسمى شيربورج (١) Cherbourg ووضعوا يدهم عليها ، ثم نهبوا وأحرقوا جانبا منها ، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام الحصن لأنه كان شديد المناعة ومزودا بعدد كبير من رجال الحرب والقتال . ثم استأنفوا السير حتى بلغوا متبوج (٢) Montebourg واحتلوها ونهبوا ثم أحرقوها عن آخرها . وبنفس هذه الطريقة أحرقوا مدنا أخرى كثيرة في تلك البلاد ، وغنموا من الثروات ما يدعو حصره إلى العجب . ثم يعموا شطر مدينة عظيمة ، حصينة غباية الحصانة ، تسمى كارنتان (١) Carentan . هذا فضلا عن أنها معززة بقلعة (٢) قوية يقوم على حراستها جنود كثيرون . ثم غادر السادة اللوردات سفنهم وشنوا هجوما

(١) شيربورج ومتبوج و كارنتان مدن في شبه جزيرة كوتنتان مقاطعة نورمانديا .

(٢) يلاحظ أن كلمات مثل castle الانجليزية و château الفرنسية =

وحشبا على تلك المدينة ، وقد استولى على سكانها الرعب خوفا على حياتهم وحياة زوجاتهم وأبنائهم . لذا تحملوا دخول الانجليز في مدينتهم على الرغم من معارضة كل الجنود الذين كانوا فيها . ووضع الأهالى كافة بضائعهم تحت تصرف الانجليز وهواهم ، إعتقادا منهم أن في ذلك خير مصلحة لهم . ولما رأى الجنود داخل المدينة ذلك ، ذهبوا إلى الحصن ، بينما دخل الانجليز المدينة وشنوا عليها هجوما عنيفا طيلة يومين متوالين ، حتى أن الجنود الذين كانوا بداخلها عندما رأوا أنفسهم في عزلة عن أية نجدة ، رفعوا راية الاستسلام دون أن تمس حياتهم أو بضائعهم بسوء . وهكذا ذهبوا

Burg الألمانية ، مستقاة من اللفظ الفرنسي القديم castel ومن اللاتينية castellum وهي تصغير castra ، أى قلعة أو حصن . وكان الغزاة الجرمانيون يطلقون هذه الأسماء اللاتينية على أى موقع حصين حتى لو كان مدينة مسورة . وظل استخدام هذه المصطلحات في العصور التالية عندما أقام الحكام المحليون الجدد المعازل والاستحكامات الجديدة . ويوجد منها في المجتمع الغربى الوسيط نوعان متميزان : استحكامات بدائية عثر عليها في إنجلترا وفي القارة ، وهى تقليد جاف للقلاع الرومانية القديمة ومساحة القلعة حوالى ٣٠ فدان ، وكانت مأوى لاقامة النبيل ، كما كان يحتوى بها سكان الجهات المجاورة هربا من اغارات الفيكينج والهنغار على البلاد . والنوع الآخر هو تلك القلاع التى طورتها فرنسا بما أدخلته عليها من تحسينات فى القرن العاشر . وكانت القلعة صغيرة نسبيا وتشغل مساحة تقل عن ستة أفدنة ، وتنقسم من الداخل الى قسمين : احدهما عبارة عن رابية اصطناعية محاطة بأوتاد ويتوسطها برج خشبي كبير ويطلق عليها اسم "motte" ، والقسم الآخر ساحة فسيحة خفيضة تحيط بها الخنادق وسور من الأوتاد ويطلق عليه لفظ "bailey" .

إلى حال سيئهم . ولقد استمتع الانجليز بتلك المدينة الجميلة وبقلاعها . ولما تبين لهم عدم قدرتهم على الاستمرار في حمايتها ، أشعلوا النيران فيها وأحرقوها ، وحملوا سكانها على ركوب سفنهم كما فعلوا مع أهالي بارفلور وشيربورج ومنتهورج ، ومدن أخرى تطل على البحر كانوا قد استولوا عليها ... ولا غرابة في ذلك . ولو أن أهالي المدينة قد اعتبرهم الخوف لأنه لم يسبق لهم رؤية رجال حرب من قبل ، ولم يكونوا يعرفون معنى الحرب أو القتال . وقد ولوا الأدبار فور سماعهم الانجليز يتحشدون ، تاركين بيوتهم بكل ما حوته من زاد ورياش ، ومخازنهم المليئة بالحبوب ، لأنهم لم يعرفوا كيف ينقذون كل هذه الأشياء ويحتفظون بها سالمة . وكان تحت إمرة ملك انجلترا وولى عهده في حربهما هذه ثلاثة آلاف جندي وستة

== ويوجد داخل القلعة ثكنات العسكر ، واصطبلات الخيل ، ومخازن المأون والحبوب ، ومخازن السلاح ، فضلا عن مسكن السيد الإقطاعي . وكان يقيم في هذه القلاع جماعة من المحاربين المحترفين . وترجع أهمية هذه القلاع التي لا تزال آثار بعضها باقية إلى اليوم ، في أنها تلقى الضوء على الفروسية والإقطاع . وقد صاحب تقدم النورمان في الجزيرة البريطانية في أواسط القرن الحادي عشر إقامة ما لا يقل عن خمسمائة قلعة من النوع السالف الذكر . هذا مع ملاحظة أنه وجدت اختلافات طفيفة في النمط والأسلوب باختلاف المكان والزمان ، مع وجود تشابه عام في مظهر تلك القلاع في مختلف البلدان الإقطاعية في أوروبا وقتذاك . وأما عن القلاع المستديرة الشكل والحصون التي توجد الأبراج في جنباتها فهي تنسب إلى الفترة الواقعة بعد عام ١٢٠٠ . أنظر

عن ذلك . Stephenson, op. cit., 68-72.

آلاف من رماة السهام ، وعشرة آلاف من المشاة . إلى جانب الفرسان المرافقين لقادتهم .

وهكذا ، كما سمعتم ، انطلق الملك ممطيا جواده ، يعيش في البلاد فسادا ، وقد أشعل فيها النيران دون أن يعصى له أمر أو ترد له كلمة . ثم غادر مدينة كوتانس (١) Couances إلى مدينة أخرى عظيمة تسمى سانت لو (١) Saint — Lô ، وهي مدينة غنية بتجارة الجوخ وآهلة بالأثرياء . فقد كان يقيم فيها ١٦٠ أو ١٨٠ من رجال الحرف والتجارة . ولما ذهب الملك إليها ، اتخذ له مسكنا بعيدا عنها ، لأنه لم يرد قط أن يقيم فيها خشية حرقتها . ولكنه بعث برجاله على الفور واستولى عليها ونهبها عن آخرها . ولقد كان من الصعب التفكير فيما نهب من الثروات الهائلة ولا سيما الملابس . ولابد أن الأقمشة كانت تباع بأبخس الاسعار ، لو وجد من كان يقبل على شرائها .

ونعود الآن إلى أجد الأمثلة العديدة التي ذكرها فرواسار حول ما أصابه الجنود الظافرون من الفديات التي كان يدفعهم - لهم الأسرى : فهو يصف معركة الجوباروتا (٢) Aljubarrota في البرتغال (سنة ١٣٨٥) ، والتي ألحق

(١) كوتانس وسانت - لو مدينتان في شبه جزيرة كوتنتان بمقاطعة نورمانديا .

(٢) الجوباروتا ميناء على الساحل الأطلنطي في البرتغال (شبه الجزيرة الأيبيرية)

فيها الانجليز والبرتغاليون الهزيمة بنصوصهم الاسبان والفرنسيين . فبعد أول صدام ظافر ، شاهد الانجليز وحلفاؤهم إمدادات ضخمة تتجه نحوهم ، ويستمر المؤرخ قائلا :

« فأنهم فور إلحاقهم الهزيمة بجماعات المخربين والنهابين ، أخذوا أسراهم ، دون أن يلمحوا أثرا لأية قوات متجهة اليهم على مدى ابصارهم . غير أنهم ، مع ذلك ، لم يطمئنوا إلى انتصارهم الأول . ولذلك أوفدوا ستة من الأشخاص البارزين إلى المدينة لاستطلاع الحالة فيها ، حتى يتبين لهم إن كانت هناك حاجة إلى المزيد من العمل . وأما الذين انطلقوا ممتطين صهوات جيادهم ، فقد شاهدوا قوات ملك قشتالة الكبرى ، وهي تزحف بسرعة نحوهم ، وتقرب من الجرباروتا في جيش يربو عدده على عشرين ألف فارس . ثم عادوا بأقصى سرعة ، وقالوا جميعا بصوت مرتفع موجهين حديثهم إلى أفراد الشعب : « أيها السادة .. كونوا على حذر ، وانتبهوا جيدا ، فأننا حتي الآن لم نعمل شيئا .. انظروا ، فسوف يقبل ملك قشتالة مع جيشه العرمرم ، الذي يزيد عدده على عشرين ألف مقاتل لم يتخلف واحد منهم عن الصف . » فلما سمعوا هذه الأنباء عقدوا اجتماعا عاجلا للتشاور في الأمر ، وكانت الظروف تستدعي ذلك . ثم قرروا القيام بعمل من أعمال التقوى ، لأن الأوامر كانت قد صدرت إلى كل رجل في الجيش ، في ظل عقوبة الإعدام ، بأن يذبح أسراه دون رحمة ، لا فرق بين نبيل أو سيد محترم أو غني أو خالف ذلك . ومن ثم وجد الأسرى من اللوردات والفرسان والأتباع أنفسهم في مأزق حرج ، لأنه لم تكن ثمة صلاة تشفع لهم في النجاة من الموت . وهكذا ذبحوا بعضهم في مكان ما ، والبعض في مكان آخر فقد انتشروا في مختلف الأنحاء مجردين من السلاح ظنا منهم أنهم قد أنقذوا ، ولكن خاب فألهم وحقيقة الأمر أن

ما وقع من هذه الاحداث إنما كان مأساة فظيعة . فقد أعمل كل رجل الذبح في أسير . ومن لم يفعل ذلك تقدم آخرون للقيام عنه بهذه المهمة . وقال البرتغاليون والانجليز الذين أشاروا بذلك : « خير لنا أن نجهز عليهم قبل أن يجهزوا هم علينا ، لأننا إذا لم نقتلهم في المعركة فلسوف يهربون ويذهبوننا ، اذ لا سبيل الى الاطمئنان الى عدو . وهكذا قتل بأبشع صورة اللورد اوف لينيساك Lord of Lignac ، والسير بيتر اوف كموير Sir Peter of Quér ، واللورد اوف لسبريس Lord of L'Espre ، واللورد اوف برنك Lord of Bernecque ، واللورد اوف بوردز Lord of Bordes ، والسير برتراند اوف بارجز Sir Bertrand of Bareges ، واللورد اوف موريان Lord of Morianne ، والسير ريموند درزاك Sir Raymond d'Arzac ، والسير جون اوف اسوليحي Sir John of Assolegie ، والسير مانو اوف سارامين Sir Manaut ، والسير بيتر اوف سالبيري of Saramen ، والسير ستيفن فالنسان Sir Stephen Valencin ، والسير ستيفن كوراس Sir Stephen Corasse ، والسير بيتر هاففين Sir Peter Havefane ، ومن الفرنسيين قتل السير جون اوف راى Sir John of Rye ، والسير جوفرى ريشون Sir Geoffrey Richon ، والسير جوفرى بارتيني Sir Geoffrey Partenay ، وغيرهم . ألا فانظر ونأمل تلك المغامرة الكبرى البشعة التي وقعت في ذلك السبت حيث ذبحوا مع الأسرى عددا كبيرا قدر بما لا يقل عن أربعمائة ألف من الفرنجة .

هذا ، ويستعرض فرواسار الكثير من مظاهر الآهة والاحتفالات الرائعة .
وأعظم هذه المظاهر والاحتفالات رونقا نلمسها في وصفه سنة ١٣٨٩ بمناسبة
الترحيب بإيزابيل البافارية Isabel of Bavaria ملكة فرنسا الجديدة ،
والتي قيل عنها فيما بعد أنها مثلت دور حواء للسيدة مريم العذراء التي ظهرت
لجان دارك ، وأنها خربت فرنسا لأن جان دارك أنقذتها (١) .

يقول فرواسار (ص ٣٨٢) إنه وجد حشدا كبيرا من الناس في الشوارع
بحيث بدا أن العالم كله كان متجمعا هنالك . فقد أقيمت عند أول بوابة في
شارع القديس دنيس Saint Denis ، وهي المدخل إلى باريس ، سماء

(١) منحت الفروسية النساء مركزا أفضل مما كن يتمتعن به من قبل ،
واليها يرجع الفضل في خلق شخصيات نسائية بارزة في المجتمع الغربي الوسيط ،
مثل لورا بالنسبة لبيترارك وبياتريس عند دانتي وإذا أخذنا بياتريس نموذجا
لبطالات الفروسية في العصر الوسيط ، نجد أنها كانت بالنسبة لدانتي مصدر
وحيه وإلهامه . لقد أضفى عليها في مؤلفاته ، وبخاصة في الكوميديا الإلهية ،
بعض الصفات الرمزية والمعاني المجردة السامية . فهي ، في نظره ، تمثل
الحب الانساني والفضيلة والاخلاص ، وهي أشبه بملاك هبط من السماء ليقود
الناس إلى الخير . وبياتريس ماثلة في مواضع عديدة في الكوميديا ، وبصفة
خاصة في القصائد الأخيرة في المطهر وفي الفردوس ، وهي التي ستقود دانتي
في الفردوس إلى أن يصل معا إلى الله . انظر عن ذلك

Dante, The Divine Comedy, II: Purgatory, trans. by D L
Sayers, Edinburgh, 1929, Canto XXX, 308 sqq.

انظر ايضا دانتي اليجيرى : الكوميديا الإلهية - المطهر - ترجمة وتعليق
الدكتور حسن عثمان - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٢٨٢ وما بعدها .

لوحة رقم ٥



بطلات الفروسية الرومانسية
نقش بالآلوان المائية في قلعة مانتا في بدمونت

صناعية رصعت كلها بالنجوم ، وفي داخلها بدا أطفال صغار تدثروا بالكساء حتى كانوا أشبه بالملائكة ، وأخذوا يترنمون بحميل الألحان . وكانت بينهم صورة لمريم العذراء حاملة طفلها الصغير ، وهو يلهو بطاحونة صغيرة من خشب الجوز . وكانت تلك السماء عالية ، وقد زركشت بزيئة باذخة من شعاعات فرنسا ، وبعلم يمثل الشمس المشرقة وهي ترسل إشعاعات ذهبية . وقد تم إعداد ذلك بتوجيه من الملك ، استعدادا لحفلة المباراة الكبرى بين الفرسان . وقد سرت الملكة وغيرها من السيدات عند مرورهن تحت البوابة سرورا بالغاً عند مشاهدة مظاهر الحفل . وكان ذلك شأن كل من مرتجتها . وبعد أن انصرفت الملكة والسيدات صادفتن مرحلة ممهدة أمام نافورة في شارع القديس دنيس ، كانت ماسورها مغطاة بقماش مطبوع باللون الأزرق اللازوردى الجليل ، ومكلف كله بالذهب برسوم مذهبة تمثل أوراق الزنبق ، وقد ازدحت الأعمدة بشعاعات مختلف نبلاء فرنسا . وجرت من هذه النافورة أنهار من النبيذ المبهر ، ونبيذ بوردو . وحول النافورة تجمعت فتيات صغيرات ، وقد اتشدن بالملابس الفاخرة وزين رؤوسهن بأكاليل غالية من الزمور . وأذن يترنمن بحلو الأغاني ، مما حرك لدى السامعين الشعور بسرور عظيم . وقد أمسكن بأيديهن أقداحا وكؤسا من الذهب ، ودرن بها على الحاضرين وهن يقدمن لهم الشراب . وجاست الملكة هناك حيث أخذت تشاهدن ، وقد غمرها السرور من ذلك الاحتفال . وهكذا فعلت جميع السيدات والآنسات اللاتي شاهدن ذلك المنظر . . . وكان شارع القديس دنيس بأكماله مفروشا بأقمشة مصنوعة من الحرير ووبر الإبل . وبلغت هذه الأقمشة من الكثرة بحيث بدا وكأنها لم تكلف شيئا . وقد حضر الحفل أنا ، السير فرواسار ، مؤلف هذا التاريخ ، وشاهدت كل شيء فيه ، واعتزنى الدهشة لوجود كل تلك الكميات من الأقمشة الحريرية ، وكنت أسائل نفسي من أين جرى بها . فلقد كانت تلك الأقمشة من الوفرة

بحيث توحى بأنها واردة من الاسكندرية أو دمشق . وقد زينت جميع المباني على جانبي شارع القديس دنيس الكبير حتى جسر باريس بأقمشة مدينة أراس (١) Arras التي ترمز إلى مختلف العصور ، مما كان يبهر الانظار...

ثم مضوا قدما حتى بلغوا جسر باريس الذي كان مفروشا فبدت عليه مظاهر الآلهة : وكان الغطاء يتميز بلونيه الأخضر والقرمزي ، وقدر صرع كله بالنجوم . كما كانت الشوارع مزدانة بالاعلام والأضواء حتى كنيسة مريم العذراء . وكان الوقت متأخرا عندما جاوزت الملكة والسيدات الجسر واقتربن من الكنيسة ، لأنها ومن معها كن يتباطأن في سيرهن ، ولم يركبن إلا مسافة قصيرة : وعندما دخلن الكنيسة ، شاهدن في طريقهن مجموعة جديدة من الألعاب وأسباب اللهو والتسلية ، كان لها في نفوسهن بهجة عظيمة . وكان من بين الموجددين رجل وفد من جنوه ، وقد ربط طرف حبل في أعلى مبنى مطل على جسر القديس ميخائيل ، وكان هذا المبنى يعلو جميع المباني الأخرى ، بينما شد الطرف الآخر من الحبل بأعلى برج في كنيسة السيدة العذراء . ولما مرت الملكة أمام كنيسة العذراء ، وكانت تقع في الشارع الكبير المسمى باسمها ، ونظرا لأن الوقت كان متأخرا ، فقد خرج ذلك الرجل الجذوى ويديه شمعتان موقدتان ، من مسرح صغير كان قد أعده في أعلى البرج المذكور . ثم مشى على الحبل على طول الشارع الرئيسي وهو يغنى حتى أنه أدبش كل من شاهده يفعل ذلك . وظل حاملا في يديه الشمعتين الموقدتين ليتسنى للمشاهدين رؤيته فوق باريس كلها ، وما جاوزها إلى مسافة ميلين.

(١) أراس هي إحدى مدن شمال فرنسا .

لقد كان خفيفا في ألعابه بما استحق عليه أجزل الثناء . ، يده أن ذلك كله لم يكد يبلغ نصف مشاهد المهرجان المذكور ، والتي وصفها فرواسار في ذلك اليوم .
لقد استعرض فرواسار الكثير من المفارقات العجيبة الآخذة بالأسباب في مجتمع العصور الوسطى . وربما كان أعظمها براعة وإتقاننا مشهد الأمير الأسود (١) بعد الانتصارين اللذين أحرزهما في كل من بواتيه Poitiers وليموج Limoges . ففيما يتعلق بانتصاريه في بواتيه ، يقول فرواسار (ص ١٣٠) :

« وكان الوقت ليلا تقريبا عندما عاد الجميع من الصيد . ووردت الأنباء عن ذبح زهرة شباب فرنسا . وجاء في هذه الأنباء أنه أخذ مع الملك وابنه اللورد فيليب ، سبعة عشرة من الأيرلات ، فضلا عن البارونات والفرسان وأتباعهم . ويضاف إلى ذلك مقتل عدد من الطرفين بلغ خمسة أو ستة آلاف رجل . ولما عاد الجميع من الصيد ، كان لديهم من الأسرى ضعف ما كانوا

(١) الأمير الأسود (١٣٣٠-١٣٧٦) هو ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترا ويعتبر هذا الأمير نموذج الفروسية الإنجليزية في آخر يات العصور الوسطى . وقد انتصر في أثناء المرحلة الأولى من حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، على حنا آخر ملوك الفروسية في فرنسا عند بواتيه في ٩ سبتمبر ١٣٥٦ . ففي هذه الموقعة وقع الملك حنا وابنه فيليب وأخوه في الأسر مع مجموعة كبيرة من الأرستقراطية الفرنسية . وقد توفي الأمير الأسود سنة ١٣٧٦ . أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٣ ، ص ٧٤٩ ، فشر : أوربا في العصور الوسطى ج ٢ ، ص ٣٣٨ Myers, England in the Late Middle Ages ؛ (1307—1536), 12, 14, 15.

عليه عداً . ثم تداولوا فيما بينهم للبحث في كيفية التصرف في هذا العبد الثقيل . وقد ساورهم الشك في إمكان الاحتفاظ بكل أولئك الأسرى ، حتى تراءى لهم أن يطلقوا عدداً كبيراً منهم مقابل دفع الفدية ، وإلصاقهم في الحقل بخط عشواء . وهذا ما فعلوه . ورأى الأسرى أن الانجليز من أهالي مقاطعة جاسكونيا أصحاب مروءة وكرم . فقد دفع كثير من الأسرى فديتهم في ذلك اليوم وأفرج عنهم جميعاً ، ولكن على شريطة أن يقسموا اليمين وأن يعدوا بالصدق على أن يعود من أم يدفع الفدية منهم ثانية في الفترة الواقعة بين ذلك اليوم وعيد الميلاد ، إلى مدينة بوردهو Bordeaux ومعهم فدياتهم . وفي تلك الليلة لزموا الحقل فعلا حيث كانت المعركة ناشبة . وقد قام البعض بتجريدهم من السلاح ، ولم يفعل الكل ذلك . وحيا كل رجل أسيره تحية طيبة ... ولما رحل السير جيمس أودلى Sir James Audley إلى مسكنه ، أرسل إلى شقيقه السير بيتر أودلى Sir Peter Audley ، وإلى اللورد برثولميو أوف بيرجرش Lord Bartholomew of Burghersh ، وإلى اللورد ستيفن أوف كوزنجتون Lord Stephen of Cosington ، وإلى اللورد أوف ويللوبى Lord of Willoughby ، وإلى اللورد رالف فـيررز Lord Ralph Ferrers ، الذين كانوا جميعاً ينتمون إليه بصلة القرى . ثم استدعى أتباعه الأربعة حيث أدوا له في ذلك اليوم خدمات جليلة حقاً . ووجه حديثه إلى اللوردات سألنى الذكر قائلا : « سادتى ... لقد طاب لسيدى الأمير أن يهينى على سبيل الميراث ، إيراداً قدره خمسمائة مارك منـديا لم أقدم له فى مقابلها سوى خدمة يدوية صغيرة ... سادتى ... أنظروا ها هنا ، إلى هؤلاء الأتباع الأربعة الذين قاموا دوماً على خدمتى بصدق وأمانة ، وبخاصة فى يومنا هذا ... إن هذا الشرف الذى اتمتع به إنما وصلت

إليه بما لمسته فيهم من شهامة وشجاعة . وهذا ما سأكا فثهم عليه ، وذلك بأن أهبهم وأتنازل لهم عن منحة الخمسة مائة مارك السنوية التي وهبها لى سيدى الأمير ، لصالحهم ولصالح ورثتهم إلى الأبد ، وب نفس الطريقة التي أعطيت لى بها . وها أنا ذا أعلن بصراحة ووضوح أنني قد تنازلت عنها وأورثتها لى بهم دون الرجوع فى قرارى ودون أى قيد أو شرط . » وأخذ السادة اللوردات وغيرهم من الحاضرين ، ينظرون إلى بعضهم البعض قائلين فيما بينهم : « إن هذه الهبة لا تصدر إلا عن نفس غاية فى النبيل . » ثم ردوا جميعاً عليه بصوت واحد : « لتكن ياسيدنا مشيئة الله ... ولسوف نشهد بنبلك هذا حيثما ذهبنا . »

وفى ليلة المعركة بالذات ، أقام الأمير فى قصره وليمة للملك فرنساو لمعظم كبار اللوردات الذين كانوا فى الأمر ...

ولم يكف الأمير عن تقديم خدماته للملك بكل ما فى وسعه من تواضع ، متحاشيا الحضور فى مجلسه مهما كانت حاجة الملك إليه : فقد قال إنه ليس كفؤا لأن يجلس على مائدة ملك عظيم إلى هذا القدر . ثم قال للملك : « مولاي ... بالله عليك لا تفعل الشر ولا تغدق فى المجاملة . فإن الله لم يأذن لى اليوم أن ألبى دعوتك . ذلك ، يا مولاي ، لأنه من المؤكد أن والدى الملك سوف يغمرك قدر استطاعته بمعانى الشرف والصدقة . ولسوف ينسجم ويتفاهم معك ، بحيث انكما ستصبحان بعد ذلك صديقين إلى الأبد . ثم انى ، يا مولاي ، أظنك فى حاجة لى المرح . وعلى الرغم من أن الحملة لم تكن كما كنت تود أنت أن تكون ، إلا أنك أحرزت لليوم شهرتك العظيمة فى الشجاعة والمروءة ، وقد تفوقت فيهما على جميع رجالك . مولاي ... لاننى لم

أقل ذلك لاسخر منك . فان جميع من ينتمون اليانا ، والذين شاهدوا أعمال كل فرد منكم ، متفقون معى فى رأى . وانه لرأى شديد ، ذلك أن يقدموا لك الغنيمة ويتوجوا هامتك بأكليل الغار . » وعندئذ أخذ الفرنسيون يتهايمسون قائلين فيما بينهم : « كم كان حديث الأمير نبيلًا . ولأنه سوف يدلل على نبيله ، إذا ما أمد الله فى حياته بما يتفق مع ما يتمتع به من وقار ، وأن يحافظ على ما آتاه الله من نعمة . »

وفى مدينة نيموج أصيب الأمير بالمرض الذى أودى فيما بعد بحياته ، متأثرا بتسليم المدينة غدرا إلى الفرنسيين : ولما استعادها ، يقول فرواسار :
(ص ٢٠١)

« وعندئذ دخل المدينة الأمير دوق لانكستر Duke of Lancaster ، والإيرل أوف كامبريدج ، والإيرل أوف بمبروك Earl of Pembroke ، والسير جيشارد داجبل Sir Guichard d'Angle . كما دخلها الباقون جميعا مع فرقهم وكذلك جميع المشاة ، متخذين عدتهم ، مستعدين لاقتراف الشر والأذى ، ونهب المدينة وسلبها ، وقتل الأنفس ، رجالا ونساء وأطفالا ، لأن الأوامر كانت قد صدرت إليهم بذلك .

لقد كان مشهد الرجال والنساء والأطفال وهم جاثين على ركبهم فى حضرة الأمير يلتمسون منه الرحمة ، من المشاهد البساعة على الشفقة . ولكن الأمير كان ينتقد غضبا ويتميز غيظا ، حتى أنه لم يعر توسلاتهم أى اهتمام ، ولم تأخذه الشفقة نحوهم ، ولم يستمع إليهم ، بل قتلهم جميعا فى وقت واحد ، وكان جريمة لم تقترف . ولم يظفر الشعب المسكين الذى لم تصدر عنه أية خيانة ، ببارقة من الرحمة به . ومع ذلك فقد اشتروا هذه الرحمة بأعلى مما حصل

عليها كبار الشخصيات الذين اقترفوا الآثام والمعاصي . ولم يكن ثمة قلب أشد من ذلك في قسوته في مدينة ليموج : ولو كان هذا القلب ليتذكر الله ولو قليلا لبيكى تحسرا على ما لاقاه أولئك القوم ، وما حل بهم من الخطب الجلل أمام أعينهم ، حيث قطعت في ذلك اليوم رقاب أكثر من ثلاثة آلاف نفس من رجال ونساء وأطفال . رحمهم الله ، لأنني أومن بأنهم شهداء ... » .

ولنتحدث الآن عن الفرسان الذين كانوا داخل المدينة أمثال السير جون أوف فيلمور Sir John of Villemur ، والسير هيو - ورج دي لاروش Sir Hugh de la Roche ، وروجر بوفورت Roger Beaufort ابن الإيرل أوف بوفورت ، وهم عليّة القوم في المدينة . فما أن شاهدوا ما حل بأولئك القوم ومن معهم من أسباب العناء والمحن ، حتي قال كل منهم للآخر : « لسوف نموت جميعا ما لم ندافع عن أنفسنا . ألا فلنضحي إذن بحياتنا غالبا كما يليق بالفرسان البواسل أن يفعلوا » . ثم قال السير جون فيلمور لروجر بوفورت : « إنه ليجدر بك أن تكون فارسا ياروجر » . فأجاب روجر قائلا : « سيدي .. أننى حتي الآن لست أهلا لأن أكون فارسا . وشكرا لك ، باسيدي ، على حسن نيتك » . ثم توقف الحديث بينهما لأنه لم يكن لديهما من الفراغ ما يسمح لهما بمواصلة الحديث . ومع ذلك ، فقد التقيا في مكان مقابل لسور قديم . وهناك رفع الجميع أعلامهم ، وكان عددهم قد بلغ ثمانين شخصا ، وحضر إلى هذا المكان دوق لانكستر ، والإيرل حاكم كامبريدج وصحبهما ، وترجلوا عن جيادهم . ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الصمود طويلا أمام الانجليز ، إذ سرعان ما وقعوا في الأسر وذبحوا . ومع ذلك فقد تقابل دوق لانكستر لفترة طويلة يدا ليد مع السهم

جون فيلمور الذى كان فارساً قويا جسوراً ، بينما قاتل حاكم كامبريدج السير هيو دى لاروش . وقام الايرل أوف بمبروك بمبارزة روجر بوفورت ، ولم يكن آنشد إلا أحد الاتباع ولقد قام هؤلاء الفرنسيون الثلاثة بحركات بارعة بالسلاح . أما رجالهم فكانوا مشغولين فى غير ذلك من الأمور : وجاء اليهم الأمير راكبا عربته ، وشاهدهم مسرراً ، وأرضى نفسه بالنظر اليهم . وقد طال القتال بينهم حتى أن الفرنسيين الثلاثة ، وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أمر بالإجماع ، رفعوا سيوفهم قائلين : « أيها السادة .. أننا رجالكم .. لقد هزمتونا ، فلكم أن تفعلوا بنا حسبما يقضى به حق السلاح » وقال دوق لانكستر : « وهذا غاية ما نتمناه .. ومن ثم فانتنا سنستقبلكم بوصفكم أسرى لنا » . وهكذا أخذ الفرنسيون الثلاثة المشار اليهم حسبما باغى (١) .

(١) كانت الحرب هى الرياضة المفضلة عند الفرسان وغيرهم من أفراد الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الغربى الوسيط . ففيها يشبهون رغبتهم فى القتال التى ورثوها عن أجدادهم الجرمان . وكان يعلن عن القتال — عادة — جهاراً ، وذلك نجرياً على العرف السائد . وهناك تقاليد مرعية يجب اتباعها بدقة ، فضلاً عن إجراءات وشروط معينة يتفق عليها مقدماً بين الفريقين قبل النزال . فيتم تحديد يوم معين للنزال بين فريقين من الفرسان يمثلان فى معظم الأحيان صاحبتين متخاصمتين ، ويكون الحكم أحد الفرسان . وينتظم المتبارون بملابس الحرب صفوفا وهم على ظهور خيولهم على طول جانبي ساحة المعركة . وعند إعطاء إشارة معينة يبدأ القتال ، وإذا انكسرت السهام والرماح ، يواصل المحاربون المعركة بسيوفهم وجهاً لوجه ، إلى أن ينتصراً أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه . ولا داعى للقول أن هذه الهواية كانت لعبة خطيرة تراق فيها الدماء وتزهق الأرواح . ومع ذلك كان ينال الغالب شرفاً كبيراً ، فضلاً عن الأسلاب والغنيمة : إذ كان من حقه الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه ، ما لم يستردهم الأخير مقابل مبلغ معلوم . أنظر Stephenson, op. cit., 72-74 .

وسابت مدينة ليموج ونهبت عن آخرها ، ثم أحرقت حتى عم فيها الدمار .
وعندئذ رحل الانجليز بغنائمهم وأسراهم ، وانسحبوا الى مدينة كونيالك
Cognac حيث توجد سيدتى الاميرة . ثم منح الأمير كافة جنوده اجازة
ليرجلوا ، مكتفيا بما فعله في ذلك الموسم فقد شعر بتوعلك في صحته ، ثم
اشتد عليه المرض ، وحزن عليه اخبرته وشعبه حزنا شديدا . »

ولنستمع أخيرا إلى ما دبجه فرواسار على قبر فارس شريف وقائد عظيم ،
هو سير جون شاندوز Sir John Chandos ، الذى أنقذ بحسارته
وشجاعته مدينة جوين Guienne للتاج البريطانى . ففى سنة ١٣٦٩ نشب
صدام مفاجئ عند جسر لوساك Lussac حيث كان على الانجليز . وقد
زاد عددهم زيادة كبيرة . أن يبدأوا بمواجهة أسوأ الأمور . وسرعان
ما وافقهم الامدادات ، ومن ثم أحرزوا نصرا ساحقا نظرا لتفوقهم فى العدد
على خصومهم . وكان القائد الانجليزى هو أول من سقط فى هذا القتال
(ص ١٩٧) . يقول فرواسار :

« كان سير جون شاندوز حقا فارسا شجاعا مغوارا يتقدمه عليه وتلتف
حوله فرقته . وقد تدثر بذته الحربية التى بدا فيها عظيما مهيبا ، وهى تصطك
بسلاحه وقد زينت بأفخر أنواع الحرير الناعم الأبيض ، وبشارتين من الفراء
المصبوغ باللون الأحمر ، إحداهما من الأمام والاخرى من الخلف . وهكذا
بدا وكأنه فارس كفء على أهبة أن يقوم بحركة بارعة بسلاحه ، أو كأنه
واحد من كبار الرجال وأوائل المتقدمين ، وقد سار الى أعدائه حاملا سيفه
بيده . وفى صباح ذلك اليوم تساقط الندى بغزارة حتى باتت الأرض رطبة إلى
حد ما ، فانزلق وسقط عند اشتباكه مع أعدائه . وبينما هو يحاول النهوض

إذ لمع سيف في يد أحد الاتباع ، ويدعى جاك أوف سسان مارتان Jacques of St Martin ، فهوى به عليه . ونفذت الإصابة في جسمه أسفل عينيه في موضع بين الأنف والجبهة . ولم يلاحظ سير جون شاندوز الضربة وهي مصوبة في هذا الاتجاه ، لأنه كان بعين واحدة ، إذ فقد عينه الأخرى قبل هذا الحادث بخمس سنوات وهو يطارد غزالا في أراضي بوردو . ولم يكن لحذوته قناع حديدى لوقايته . وبلغ من شدة الضربة أن اخترقت مخه ، فتأثر لذلك تأثرا بالغا ، حتى أنه وقع على الأرض ودار حول نفسه مرتين من شدة الألم . لقد كان جرحه مميتا ، إذ انعقد لسانه إثر هذه الضربة حتى أنه لم ينبس ببنت شفة . ولما شاهد رجاله هذه المأساة فجعوا فيه فجميعا قاسية . ثم تقدم إليه عمه ادوارد كليفورد Edward Clifford وألقاه فوق جواده ، لأن الفرنسيين كانوا يريدون أخذه . ودافع عنه بشجاعة موزعا من الضربات ما يحول دون اقتراب أى شخص منه . واما سير جون كلانفورد Sir John Clanvowe ، وسير برترام أوف كاسيليس Sir Bertram of Casselis ، فقد بدا كل منهما وكأنه فقد عقله وطاش صوابه لدى رؤيتهما سيدهما ممددا على الأرض .

ويواصل فرواسار حديثه فيقول إنه بعد ان انتهى القتال تماما :

« كان بارونات وفرسان بواتييه Poitou قد اعتراهم قلق شديد عندما شاهدوا سير جون شاندوز ، وهو المشرف على قصر الأمير ، ممددا على الأرض فاقد النطق ، وأحسوا بالأسى والفجعة فيه . فكانوا يولولون بشدة ، وأخذوا يرثونه تاملين : « إيه ياسير جون شاندوز ... يامن كنت زهرة الفرسان جميعا .. إنه لمن سوء حظك أن هذا السيف قد صنع ليصيبك

بطعنته النجلاء ، وليلقى بك في خطر الموت . » وبكى الذين كانوا حوله بكاء
مرا . وسمعهم سير جون شاندوز ، وعرفهم جيدا ، ولكنه لم يكن قادرا
على الكلام . لقد كانوا يشوحن بأيديهم ، ويشدون شعورهم ، وينوحون
بصورة مؤثرة ، وكأنهم من أهل بيته فعلا . ثم قام خدامه بنزع سلاحه ،
وسرّوا جسمه في ترس ، ثم نقلوه في هدوء الى مورتيمر Mortimer حيث
توجد قلعتهم التالية . وعاد البارونات والفرسان الآخرون إلى بواتييه وهم
يقودون أسراهم . وقد علمت أن جاك مارتان نفسه ، وهو الذى أصاب
سير جون شاندوز على هذا الوجه ، لم يعبأ بجراحه ، ولم يلبث أن مات في
بواتييه ، كما توفي أيضا ذلك الفارس النبيل سير جون شاندوز بعد الطعنة
التي أصيب بها بيوم ليلة : وهكذا فاضت روحه . ليرحمه الله ، لأنه لم يظهر
رجل منذ مائة عام مضت اجتمعت فيه كل الفضائل والسجايا بين الانجليز
مثلا اجتمعت فيه ... لقد حزن لموته أصدقاؤه ، كما حزن عليه بعض
أعدائه حزنا شديدا . وكان الانجليز يحبونه لأنه كان يتحلى بكل الصفات
النبيلة . أما الفرنسيون فكانوا يكرهونه لأنهم كانوا يخشون بأسه . بيد أنه
ترامى إلى مسامعى أن النبلاء والشجعان من بين فرسان فرنسا قد تأثروا كثيرا
لموته ، معتربين أن موته خسارة كبيرة ، إذ قالوا : « كان خيرا لو أنه أخذ حيا ،
لأنه لو كان قد أخذ وهو على قيد الحياة ، لاهتدى بما اتصف به من حكمة
واسعة وعقل راجح ، إلى حل سديد يتحقق في اثره السلام بين مملكتي انجلترا
وفرنسا ، لا سيما وأن ملك انجلترا كان يحبه كثيرا ، حتى أنه كان يثق فيه

أكثر من أى شخص آخر فى الوجود . (١)٤

(١) تكشف قصة جون شاندوز عن خاصية من أهم خصائص الفروسية فى العصر الوسطى ، ونعنى بها فكرة التبعية الوثيقة التى كانت تربط بين التابع والمتبوع . ونجد مثالا حيا لذلك فى الملحمة الشعرية الغنائية المعروفة باسم « انشودة رولان » ، وهى من أهم الأناشيد فى الأدب الشعبى الوسيط . وقد خلد فيها الشراء حملة شارلمان تجاه الأندلس سنة ٧٧٨ ، وان لم يكن لها من الأهمية التاريخية والنتائج الحاسمة ما يبدو من شهرتها الفائقة فى التاريخ . والانشودة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : خيانة جانيولون ، وموت رولان ، والعقاب . وقد جاء فيها ان مؤخرة جيش شارلمان كانت معرضة لهجمات العرب فى اسبانيا بسبب خيانة أحد رجال الامبراطور الالماني ويدعى جانيولون . وكان فى هذه المؤخرة البطل رولان وصديقه اوليفيه . ورولان فى تلك الملحمة هو رمز الشجاعة والتبعية . فقد رفض طلب المساعدة من شارلمان بالنفخ فى نفيره حسب العادة المتبعة ، وأخذ يحث من معه من الفرسان على مواصلة القتال ، وأعلن لصديقه اوليفيه انه ليس هناك سوى طريق واحد وهو القتال الى النهاية وحتى الموت فى سبيل سيدهم الامبراطور . وفعلا أخذ يحارب الى أن أصبح بمفرده ، وأخذته السيوف من كل جانب حتى سقط صريعا فى ساحة القتال . ويهمنى هنا أن هذه القصيدة ، التى تمثل روح العصر الوسيط فى نظمه وأفكاره ، تدور حول فكرة التبعية والرباط الوثيق بين السيد والمسرد أو التابع والمتبوع ، فضلا عن انها تلقى ضوءا كافيا على الفروسية والاقطاع فى المجتمع الغربى الوسيط . انظر عن ذلك : Stephenson, Med. Feudalism, 21 - 22 ; Cantor, The Med. World, 235-237 - راجع ايضا جرزيف نسيم يوسف : « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - السنة ٦٢ / ١٩٦٣ - الاسكندرية ١٩٦٣ -

بعض المراجع للفصل الخامس

- Ashdown, C. H., *Armour and Weapons in the Middle Ages.*
London, 1925.
- Ashton, J., *Romances of Chivalry.* New York, 1887.
- Belloc, H., *Warfare in England.* London, 1912.
- Borodine, M., *La femme et l'amour au Xlle siècle.* Paris, 1909.
- Byles, A. T. B. (ed.), *The Book of the Ordre of Chyvalry.*
Trans. by W. Caxton. London, 1926.
- Cornish, F., *Chivalry.* New York, 1901.
- Cripps-Day, F. H., *The History of Tournament in England
and in France.* London, 1918,
- Ffoulkes, C., *Armour and Weapons.* Oxford, 1909.
- Gautier, L., *Chivalry.* Trans. by H. Frith. London, 1891.
- Jussérand, J. J., *Les sports et jeux d'exercise dans l'ancienne
France.* Paris, 1901.
- Lacroix, P.,
- 1 - *Vie militaire et religieuse au moyen âge et a l'époque
de la renaissance.* Paris, 1873.
 - 2 - *L'ancienne France : chevalerie et les croisades,
féodalité, blason, ordres militaires.* Paris, 1886.
- Morley, E. (ed.), *Hurd's Letters on Chivalry and Romance.*
London, 1911.

Oman, C. W. C.,

1 - A History of the Art of War in the Middle Ages.

2 vols. London, 1924.

2 - The Art of War in the Middle Ages (A. D 378-1515).

New York, 1960.

Painter, S., French Chivalry. New York, 1961.

Schultz, A , Das höfische Leben zur Zeit der Minnesinger.

2 vols. Leipzig, 1889.

Tenison, E., Chivalry and the Wounded. London, 1914.

Waeyf, B. C., La tradition chevaleresque des Arabes. Paris,

1919.

الفصل السادس

الرهينة والديرية

ولنتقل الآن من القلعة إلى الدير ، فنقول إن الرهينة نشأت ونمت بطريقة طبيعية ، كما نشأت أحيانا مستقلة في جهات مختلفة . والواقع أن الرهينة كانت ، إلى حد ما ، نظاما قائما فعلا سابقا لظهور المسيحية (١) . ذلك أن

(١) تكشف وثائق أوراق البردى التي عثر عليها في مدينة ممفيس حيث يوجد معبد السيرايوم نسبة إلى الإله سيرابيس ، أن فكرة الرهبانية كانت سابقة للمسيحية . وترجع هذه الوثائق إلى العصر البطلمي الأول . وهي تتعلق بأفراد وهبوا أنفسهم لخدمة الإله سيرابيس إذ دخلوا معبده وانقطعوا عن الحياة الخارجية . والرأى السائد أن هذا الانقطاع كان ذا صبغة دينية . إذ تصور أولئك الأفراد أن الإله ناداهم لتأدية فروض عبادته وخدمته . وربما يكونون قد ذهبوا إليه من تلقاء أنفسهم تكفيرا عن خطاياهم . وقد يستمر هذا الانقطاع عن الحياة الدنيا مدى الحياة ، وقد ينتهي في أي وقت متى رغب الفرد في ذلك . ويرى ادريس بل أنه لا يمكن الربط بين هذه الحركة وبين الرهبانية المسيحية . بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن الحركة المشار إليها تعتبر مثالا سابقا للرهبانية في العصر المسيحي وممهدة لها . انظر عن ذلك : Bell, *Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt*, 21-2; Bevan, *A Hist. of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, 41-3. وتعتبر مقدمة كتاب اولمان فيلكن عن « وثائق العصر البطلمي » العمدة في هذه الناحية ، وقد اعتمد عليها ورجع إليها المشتغلون في هذا الميدان . انظر : Wilcken, U., *Urkunden der Ptolemäerzeit*. Berlin, 1922

أبناء الكنيسة الشرقية قد بدأوا منذ أزمان واغلة في القدم يغادرون الاسكندرية وغيرها من المدن الكبرى إلى صحارى مصر وسورية ، وقد اشتدت هذه الحركة عندما اعترف قسطنطين بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة ، وجهـ ل كنيسةـها هى كنيسة الدولة . ويعبر عن ذلك رجال الدين المتحمسين مثل هارناك Harnack (١) بقولهم إنهم « هربوا من الدنيا ، ومن ثم من كنيسة كانت قد ضمت العالم إلى صدرها » : عل أن هذه الحركة لم تكن تعنى بحال من الأحوال أنها ضد الكنيسة . وإنما كانت تمنى فقط أن الناسك قد وجد نفسه مستقلاً لحد ما عن القس ، وأنه عكف على أن يعمل لخلاص نفسه . وبمرور الأيام ، كون اولئك النساء جماعات لحقت بها جماعات أكبر منها . ثم أصبحت الحاجة ماسة الى التشريع . فوضع أحد الزعماء قانوناً رسمياً تعهد الجميع باطاعته . ولكن أقدم قانون كان قانون باخوميوس (٢)

(١) من أهم مؤلفاته كتابه بالالمانية عن الرهبنة ، وهو A Harnack, Das Mönchtum: seine Ideale und seine Geschichte, Giessen, 1895.

وله ترجمة بالانجليزية تحت اسم A. Harnack, Monasticism : its Ideals and History, and the Confessions of St. Augustine, trans. by E. E. Kellett and F. H. Marseille, London, 1901.

(٢) ظهرت الرهبنة في بداية عصرها بمصر عندما قام كثير من المتوحدين الذين عاشوا في الصحراء الشرقية بصفة خاصة وبالقرب من مناطق قنسا وسوهاج والصعيد بوجه عام . وكان من اوائل المتوحدين القديس بولس (انبا يولا) (ت حوالى ٢٧٠ م) ، والقديس انطونيوس (ت ٣٥٦ م) . وانتقل نظام الرهبنة من هذه الحركة الانفرادية الى الحركة المـروفة بمحركة الحياة أو الشركة الاجتماعية ، وهى التى نمت على يد عدد من آباء الكنيسة =

Rule of Pachomius : وكان أعظم هذه النظم وأكثرها

= الأول وعلى رأسهم القديس باخوميوس (٢٩٠ - ٣٤٨ م) الذى نظم حياة الرهبان فى شكل اجتماعى بحيث يعيش الجميع داخل حيطان دير واحد ، يأكلون معا ويصلون معا ويدرسون معا ويشغلون لكسب الرزق . ومن مبادئهم أن يعيشوا فقراء متبتلين يخدمون الله ويطيعون رؤسائهم . وهكذا أصبح الرهبان يخضعون لقوانين معينة ، بعد أن يتركوا الحياة الدنيا ويتخلصوا من ماله و ثرائهم ليعيشوا جماعات شعارهم الفقر والتبتل والطهارة . وقد انتشر نظام القديس باخوميوس بتأسيس العديد من الأديرة فى مصر ، ومنها انتقل الى الغرب حيث قامت ديرية القديس بازيل فى بلاد اليونان . وللمزيد من التفاصيل ، انظر عزيز سوربال هطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس ، ص ٣ - ٣٧ ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، ص ٩٣ - ١٠٩ و ٢٧٧ - ٢٩٢ ، رسالة مارميناس عن الرهبنة القبطية ، ص ١ - ١٨٨ :

وجدير بالذكر انه يوجد بمكتبة دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء أربعة مخطوطات باللغة العربية ، لم تنشر بعد ، تناولت سيرة أنبا باخوميوس ، وهى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وبيانها :

١ - ميامر مقاريوس الطوباني وسيرتا انطونيوس وباخوميوس (رقم ٣٥٦) - عدد اوراقه ٢٩٦ - تاريخه ١٢٨٦ م .

٢ - سيرة أنبا باخوميوس ومواضيع اخرى (رقم ٤١١) - انظر ورقة ٩٤ - عدد اوراقه ٢٠٨ - تاريخه ١٢٨٧ م .

٣ - بستان الرهبان وسيرتا انطونيوس وباخوميوس (رقم ٥٣٦) - انظر ورقة ١٢٢ - ٤٠٢ - عدد اوراق المخطوط ٤٠٢ - تاريخه ١٢٧٧ م . =

شعبية هو نظام القديس بازيل (١) St. Basil الذى تدونى سنة
٣٧٩ .

وأما فى الغرب فقد كان أبعد هذه القوانين أثرا وأكثرها فاعلية

== ٤ - سيرة باخوميوس (رقم ٥٤١) - انظر ورقة ١ - ١٠٥ - عدد اوراق
المخطوط ١٠٧ - تاريخه القرن الثالث عشر :

(١) بدأت الحياة الديرية تأخذ شكلها النظامى فى شرق اوروبا على يد
القديس بازيل الذى عاش فى الدولة البيزنطية فى القرن الرابع الميلادى ،
وقد اعتزم ترك الحياة الدنيوية تحت تأثير اخته ماكرينا Macrina . وأدرك
أنه لا يكى يفهم الرهبنة على حقيقتها ويتعرف على أسرارها ، يجب عليه أن
يعيش فى نفس الأماكن التى ظهرت وترعرعت فيها . ولهذا الغرض قام
بزيارة مصر وفلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين . وعاد إلى بلاده
ولديه خبرة واسعة اكتسبها من رحلاته . وكذلك فكرة واضحة عن كل
من الحياة الديرية الانفرادية والحياة الاجتماعية للرهبان . وقد أثر بازيل
الحياة الديرية الاشتراكية ، ولكن بعد أن أدخل عدة اصلاحات على قوانين
باخوميوس ، منها تقليل عدد الرهبان بكل دير كى يصبح من السهل على
رئيسهم معرفتهم فردا فردا ، وتزويدهم بارشاداته وتوجيهاته . ومع أنه لم
يشجع حياة التنسك ، الا انه لم يمنحها . وقام بتنظيم حياة رهبانه تنظيما
دقيقا . فتم تحديد ساعات الصلاة والدراسة والعمل والأكل والنوم . كما
ذكر بالتفصيل الملابس التى كان على الرهبان ارتداؤها . وبالرغم من أن
القديس بازيل لم يترك لنا قانونا بالمعنى المفهوم متلما فعل غيره من مؤسسى
الرهبنة ، الا أن التقاليد التى أرسى بازيل أمسها والكتابات التى تنسب إليه ==

هو قانون القديس بندكت (١) St. Benedict الذي يحتمل أنه وضع سنة ٥٢٩. وكان المصلحون للديرية البندكتية هم أكثر الرهبان الغربيين شهرة وصيتا.

= كان لها أثرها الذي لا ينكر في هذا الشأن . وجدير بالذكر أنه لا يوجد في الكنيسة اليونانية جماعة باسم « جماعة القديس بازيل » ، وأن كلمة بازيليان Basilian — أى اتباع بازيل من رهبان الدولة البيزنطية — هى من ابتداع طلاب العلم الغربيين . وقد انتشر نظامه الديرى بسرعة من بنطش حتى كبادوكيا فأرمينية فأسيا الصغرى كلها ، حيث صادف نجاحا كبيرا . وكان من أثر ذلك زيادة عدد الأديرة فى تلك الجهات زيادة ملحوظة . أنظر : Baynes & Moss, Byzantium, 141-3 .

هذا ويوجد بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء مخطوط باللغة العربية يرجع إلى القرن الثالث عشر يحتوى على قوانين القديس بازيل ضمن مواضيع أخرى ، وعنوانه : « مختصر من القوانين — قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والمجامع والرسل » (رقم ٥٩٨) - أنظر ورقة ٤٦ ب - ١٥٣ - عدد أوراق المخطوط ١٠٨ - تاريخه للقرن الثالث عشر .

(١) بدأ القديس بندكت حياته راهبا متوحداً متقشفاً متبتلاً فى أحد الكهوف بمنطقة تقع فى وسط إيطاليا إسمها سوبياكا Subiaca . وأدرك ما كان يعانيه الرهبان المتوحدون من مصاعب نتيجة الحياة التى كانوا يحيونها . فقام بتأسيس دير الأول فى مونت كاسينو حيث التفت حوله عدد من الرهبان ، فوضع لهم قانونه المعروف باسمه حوالى سنة ٥٢٩ . ويقوم هذا القانون على أربع قواعد رئيسية هى التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء . وأساسه إنسانى وروحى فى آن واحد ، على خلاف الفكرة القديمة التى كانت سائدة قبلئذ : إذ نظر القديس بندكت للراهب كمخلوق بشرى يجب أن توفر له أسباب الراحة الإنسانية والحاجات الضرورية . ومما يذكر أنه =

مثال ذلك جماعة دير كلوني (١) Cluniacs ، وجماعة الإخـوان

== جعل حياة أتباعه في أديرته حياة اجتماعية . كما أدخل عليها نظام العمل اليدوى والذهنى فى النشاط اليومى للرهبان . واعتنى أيضا بالناحية العلمية ، فأوجد فى كل دير نواة لمكتبة ومكانا لنسخ الكتب ، تشجيعا لمن يجدون فى نفوسهم ميلا للكتابة والتأليف . لهذا كانت الأديرة البندكتية منبعا للعلم فى المجتمع الغربى الوسيط ، بينما كان عامة الناس ينغطون فى الجهل : ونتيجة لهذه المزايا التى تحلت بها الديرية البندكتية ، فقد تم انتشارها وحلت محل حياة التوحد والنقشف ولكنها كغيرها من الحركات العالمية لم تلبث أن تدهورت مع مرور الزمن نتيجة ازدياد الثروة الموقوفة على الأديرة التابعة لها . وأصبحت الحاجة ماسة إلى حركة إصلاح جديدة . وقد تم ذلك فى أوائل القرن العاشر الميلادى . أنظر : Coulton, Med. Panorama, 263 sqq. أنظر أيضا نص قانون القديس بندكت فى كتاب Cantor, The Medieval World, 97 sqq.

(١) ظهرت جماعة دير كلوني فى أوائل القرن العاشر الميلادى ويقع دير كلوني الرئيسى بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون . وقد بدأت الحركة الكلونية ضيقة فى أول الأمر ، ثم أخذت تتسع تدريجيا إلى أن أصبحت فى القرن العاشر مثالا يحتذى به من أمثلة الإصلاح . وكان أساس نظام كلوني هو الاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية ، والاتصال المباشر بالبابوية ، والقضاء على استقلال الأديرة عن بعضها ، وأخيرا المادة بإصلاح الكنيسة والبابوية من المفاصد والشرور التى تغلغت فيها . والواقع أن الكلونيين لم يكونوا مجددين تماما ، إذ اعتمدوا على المبادئ الباخومية فى مسألة الحياة الاجتماعية والاجتماعات الدورية . كما اعتنى رهبان كلوني بالعلوم والزراعة والأعمال الأدبية . ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها ==

السترشيان (١) Cistercians ، أو على الأقل مثل جماعة الاخـوان
الكارثوذيان (٢) Carthusians ، الذين اتخذوا من القديس بندكت قدوة
لهم . وخلال عدة أجيال شرعت قوانين لتنظيم العلاقات بين الرهبان فيما

=البالغة الأهمية ، فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا
نفسها . ومن أشهر رؤساء الأديرة الكلونية القدامى القديس اودو St. Odo
(٩٢٦ - ٩٤٢) والقديس اوديلو St. Odilo (٩٩٤ - ١٠٤٩) . ولها
دور معروف في تشجيع الحرب الغربية ضد العرب في أسبانيا ، وفي تشجيع
حركة الحج إلى الاراضي المقدسة أيضا . أنظر :

Coulton, Med. Village, 210; Baldwin, Med. Church, 34-6.41-2.

(١) مؤسس جماعة السترشيان راهب فرنسي يدعى روبرت . وقد أسس
جماعته حوالي سنة ٩٨١ ، وغرضها هو العودة إلى التعاليم البندكتية الأولى ،
مع إدخال نوع من التصوف فيها ، وتجنب الملابس الفاخرة ، والتمسك بالبساطة
في كل شيء . وقد انقطع اتباع هذه الجماعة عن العالم إلى الجهات المقفرة ،
واختصوا برعاية الأغنام وتعمير الصحارى . وانتشرت أديرتهم بسرعة في
الغرب ، وأخرجت لنا عددا من عباقرة ذلك العصر أمثال القديس برنارد
مؤسس دير المشهور في كليرفوس سنة ١١١٥ . ولذا يطلق على هذه الجماعة
أيضا اسم « البرنارديين » باعتبار أن راعيهم الرئيسي كان القديس برنارد .
أنظر : Baldwin, Med. Church, 42-4; Shorter Camb. Med. Hist., I, 502-4.

(٢) أسس جماعة الكارثوذيان قديس ألماني الأصل اسمه برونو St. Bruno
سنة ١٠٨٤ . وكان اتباعها ينزعون إلى الانفراد كل داخل صومعته ، وإن
كانوا يعيشون داخل حيطان دير واحد . وهدفهم السكون والتأمل في ذات
الله العلية . أنظر كتاب : Coulton, Med. Panorama, 266

يعرف بحركة الحياة الديرية المنظمة . وقد اتبع هؤلاء جميعا - فيما عدا اختلافات شكلية طفيفة - قاعدة للحياة يمتد أن واضعها القديس أوغسطين . ومن ثم جاءت التسمية المعروفة بالفوانين الأوغسطينية Augustinian Canons أو قوانين أوستين الكنسية Austin Canons ، نسبة إلى أوغسطين . وفي مقتبل القرن الثالث عشر ظهرت جماعات الاخوان الرهبان . فجاء الاخوان الفرنسيسكان (١) في شبه ثورة صريحة على بعض عادات وتقاليد البندكتان والدومينيكان (٢) ، وذلك بصفتهم نوعا من الجماعات الدينية الداعية إلى الإصلاح

وقد طالب اتباع جماعة الاخوان الكرمليين Carmelites والأوغسطينيين (٣) Austin Friars لأنفسهم بكيان أصيل مستقل . إلا أنهم ، في الحقيقة ، ساروا في تكوينهم على غرار سابقهم سالفى الذكر . وكانت كل جماعة من هذه الجماعات ، فيما عدا القليل منها ، تقابلها جماعة من الأخوات الراهبات . (٤) ومع أن كثيرين ممن نذروا أنفسهم للرهبنة لم يكونوا رجال

(١) فيما يتعلق بالفرنسيسكان أنظر الفصل الأول من هـ - هذا الكتاب ، ص ٦٤ - ح ٥٢

(٢) مؤسس الاخوان الدومينيكان هو القديس دومينيك St. Dominic وقد عرفوا أيضا باسم الاخوان المبشرين ، وهدفهم مكافحة تيار الهرطقة داخل الكنيسة الغربية وخارجها أنظر عن ذلك Baldwin, Med. Church, 60-1 (٣) فيما يتعلق بالاخوان الكرمليين والأوغسطينيين ، انظر

Coulton, Med. Panorama, 133, 198, 271, 280, 302; LaMonte, The World of the Middle Ages, 409-410; Painter, Hist. of the Middle Ages, 319.

(٤) فيما يتعلق بالراهبات في العصور الوسطى ، أنظر الفصل الثالث من كتاب ايلين بور: نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة محمد توفيق حسين - بيروت ١٩٥٧ ، ص ٩٩-١٣٨ . وعنوان الفصل المذكور « السيدة ايفانيتاين راهبة تشوسر على حقيقتها » .

دين بمعنى الكلمة ، إلا أنهم كانوا جميعا يتمتعون بحصانات كنسية كاملة .
وهؤلاء المتعبدون هم الذين كونوا هذه الجماعات الدينية المنظمة
” Regular Clergy “ ، على أن يرتبط كل منهم بالنظام ” Regula “
الذى ينتمى اليه - وذلك تمييزا لهم عن رجال الدين العلمانيين
” Secular Clergy “ الذين كانوا يعيشون عيشة دنيوية ” in Saeculo “ ،
كالأساقفة وقساوسة الكنائس الكبرى ، وقساوسة وكتبة الأبرشيات ، ورجال
الدين غير المرتبطين بأى نظام ، والذين قاموا بكافة الأعمال التى يقوم بها
ما يعرف فى أيامنا هذه باسم « الكاتب » ، ومنه النعت « كتابى » الكثير
الاستعمال .

ويمكن اتخاذ القانون البندكتى نموذجا لكافة الجماعات الديرية القديمة .
فقد نذر أتباع هذه الجماعة أن يؤدوا مدى الحياة الفرائض الأساسية الثلاث
وهى : الطاعة والفقر والعفة ، ولا يستطيع أحد ، حتى البابا نفسه ، أن
يحلهم من هذه العناصر الثلاثة . ولكن الواقع أن البابا قد استطاع فعلا أن
يلغى النذر كله ، حتى أنه حول الراهب إلى غير راهب ، علما بأن الأمثلة
على ذلك نادرة للغاية ، ولمكن لا يجوز لآى إعفاء بابوى أن يترتب عليه
إعفاء الراهب الذى قصر فى أى من العناصر الثلاثة الأساسية من عقوبة
الخطيئة المميتة . وترتكز هذه العناصر الثلاثة على أربع قواعد رئيسية .
إذ كان القانون يقضى بتجرد الراهب من أية ملكية شخصية ، والامتناع
التام عن تناول اللحوم إلا فى حالة المرض ، والعمل اليدوى المستمر ،

وملازمته التسامة المشددة للدير . وكان يخصص حوالى أربع ساعات ونصف ساعة يوميا لترتيل المزامير وأداء الصلاة علنا ، فضلا عن التعبد الخاص الاختيارى .

وقد نمت هذه الخدمات الدينية تدريجيا ، وازدادت العناية بأمرها . ففي سنة ١٥٠٠ كان الراهب المتشدد يقضى نحو ست ساعات يوميا فى الكنيسة . كذلك أوصى القديس بندكت بالعكوف نحو ثلاث أو أربع ساعات يوميا على قراءة كتب العبادة . ولكنه أعفى من ذلك نهائيا الرهبان الأميين . فقانون بندكت إنما هو نموذج يجمع بين الحكمة العمالية والروحية معا . وقد اعتبر هذا القانون أعظم وثيقة ظهرت فى القرون الوسطى على الإطلاق . وكان له أثر عظيم فى تطوير الحياة الديرية المنظمة التى كثيرا ما يميزها الكتاب المحدثون عن الرهبانية بشئ من الزهو العلمى المبالغ فيه ، ولو أن كلا الجماعتين كانتا أحيانا تنفصمان تحت مصطلح واحد فى العصور الوسطى . بل إن هذه الدقة المتناهية المزهوة ذاتها تسمح لنا بتطبيق كلمتي « دبرى » و « دير » على جماعات الاخوان الرهبان . وهم يتميزون عن جماعة القديس بندكت بتخفيف وطأة حظر تناول اللحوم ، وكذلك وطأة الاعتكاف داخل الدير . لقد اعتادوا فى الواقع أداء الخدمة الدينية بوصفهم قساوسة الابريشيات فى كنائسهم الخاصة المملوكة لهم .

أما جماعات الاخوان الرهبان فقد عارضوا عن سعة فهم ودقة وزن للأمر ، الجماعات الرهبانية القديمة حول بعض النقاط الهامة . فقد كان

للاهب ثروة ، ولو أنه في حقيقة الأمر كان يحق له شخصيا التنازل عن كل ملكية خاصة . وكانت الهبات توقف على ديره ، وغالبا ما يصاحبها ثروة ضخمة : هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان أى فرد من أتباع جماعة الاخوان الرهبان من الوجهة النظرية يلتزم الحياة على التسول بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى . فقد كان يعيش على الصدقة والإحسان ، ولو أن ذلك يعتبر في الواقع دخلا ضئيلا جدا بمقارنته مع ذوى اليسار من الرهبان . ونعود إلى الراهب لنقول إنه كان حبيسا بمعنى الكلمة . وينطبق هذا حتى على أولئك الرهبان الذين وجدت بينهم علاقات منظمة لحدا ما . أما بالنسبة للاخوان الرهبان ، فقد كان الدير مجرد قاعدة للعمل . لقد كانوا يغادرونه اثنين اثنين للسؤال وجمع الصدقات ، وللوعظ وسماع اعترافات الناس في الأبرشيات . وكان ذلك ينطوى بطبيعة الحال على قدر غير قليل من المنافسة مع قس الأبرشية ، مما أفضى أحيانا إلى احتكاك شديد بينهما . وقبلها استطاع الرهبان والراهبات أن يكونوا ديموقراطيين مخلصين لبعضهم بعضا في مشاعرهم وأحاسيسهم الودية : لقد جمعت نسبة ضئيلة جدا منهم من أفقر الطبقات . أما الراهبات فقد كن في الواقع يعانين الكثير من الحرج منذ أقيم دير لمن ليكون بمثابة المقر الأخير للفتيات المنتميات إلى بيوتات كريمة ، ولكن أهلهم عجزوا عن أن يقدموا لمن البائنة التي تتناسب مع طبيعتهم . ومن المحتمل جدا أن رئيسة دير تشوسر كانت من بيت أكرم محتدا منى فارمن تشوسر نفسه . وعلى النقيض من ذلك كان الاخوان الرهبان ، إذ سرعان ما انغمسوا في الانحجار بالقدا ديس بعد أن خمدت فورة حماسهم الأولى للحركة

الرهبانية . وتوسعوا في هذا المجال ، وزاد اختلاطهم بكافة الطبقات ، واعتمادهم على إعانة الشعب لهم . ولقد انهموا أحيانا ، كما انهم من جهة أخرى اللولارديون ، بالدعوة إلى مبادئ المساواة ، وبذلك ساهموا في قيام ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ .

كانت الرهبنة ، كما يتضح لنا ، عبارة عن نمط طبيعي كامل للعالم المضطرب غير المستقر في العصور المظلمة ، حيث بدا أنه من الصعوبة في معظم الحالات اتباع تعاليم المسيح بإيمان صادق ، وأن يعمل كل إنسان حقيقة على خلاص نفسه دون أن يعود إلى شريعة الغاب . وخلال العصور الوسطى الحقيقية التي كانت أكثر استقرارا من الفترة المتقدمة ، وإن استمرت حالة القلق في ذات الوقت — كانت لاتزال هنالك أعمال يندر القيام بها بصورة مغايرة في مثل ذلك المجتمع الذي كان يتعين على تلك العصور مواجهته . وحتى في عهد الإصلاح الديني ، كان حارس الدير يتمتع بمعيشة أكرم مما ينعم بها الفرد العادي الذي يعيش خارج الدير . ولكن هذا المستوى لم يعد كافيا لحماية ثروته والمحافظة على المزايا التي يتمتع بها بصورة ناجحة . ويرجع بعض ذلك ، دون شك ، إلى أنه كان يساهم بنفسه في رفع مستوى المجتمع الخارجي . وكانت الأسباب الرئيسية للانحلال تكمن في الفساد الذي لاسبيل إلى إنكاره . بل يمكن القول بأنها تكمن في التخلي المعترف به عن مثالية الرهبانية المبكرة . ويتضح ذلك لا من الاتهامات الموجهة إلى الرهبان من أعدائهم ، ولا من الاعترافات الصريحة الصادرة عن أصدقائهم فحسب ، وإنما من سجلات الأديرة الرسمية كالدفاتر الحسابية وتقارير الاساقفة الزائرين وتصرفات

البندكتان أو الأوغسطينيين أو أعضاء مجامع الرهبان الذين يعيشون على الصدقة والإحسان .

ولنتناول بالترتيب تلك الاعتبارات الأربعة التي أطلق عليها اسم الأعمدة الأربعة الرئيسية ، وهي :

(١) لقد انتهى تماما أمر تحريم الملكية الخاصة . فقبل عام ١٢٠٠ وبعده مباشرة ، أصدر البابوات مراسيم تقضى بأن الراهب الذى يثبت أنه حائز على ملكية خاصة عند وفاته ، يتعين دفنه فى القمامة رمزا إلى حلول اللعنة عليه . ومع ذلك فقد كان القائمون على قصرىف شترن الأديرة طيلة الأجيال الأخيرة من القرون الوسطى ، يتقاضون دون حق مصاريف لحسابهم الخاص تحت ستار من مختلف الحجج . ولم تلبث هذه الفوضى أن أصبحت أمرا واقعا معروفا ، إلى حد أنه كلما رفضها شحيح أو فقير من بين الرؤساء شكاه المعوزون فعلا إلى الزائر الرمى للدير (المراقب) الذى لم يصارحهم قط بأنهم إنما كانوا يطالبون بشيء غير مشروع .

(٢) كذلك أصبح تحريم اللحوم شيئا لا وجود له . إذ اعتاد الرهبان تدريجيا الذهاب إلى المستشفى حيث كان تناول اللحم مباحا ، وكانوا يأكلونه فعلا هنالك . ولقد أبدى البابوات ومحبو النظام سخطهم بطبيعة الحال على هذا السفه ، ولكن دون جدوى . واتخذت القصة القانونية حقا - فى حالات كثيرة - شكلا آخر . فقد بنيت حجرة فى منتصف المسافة بين غرفة الطعام بالدير والمستشفى الملحق به ، حيث كان يتسنى للرهبان أكل اللحم فى نفس الوقت الذى لم يكن يسمح به فى غرفة الطعام . وكان

يطلق عادة على مثل هذه الحجرة اسم « حجرة الرحمة » . وفي سنة ١٢٢٦ حرم البابا جريجورى التاسع (١) صديق القديس فرنسيس تلك العادة بما كان يتصف به من الاهتمام الشديد باصلاح الرهبنة . وقد باء تحريره لأكل اللحوم ، كتحريم غيره من محبي النظام ، بالفشل . وفي سنة ١٢٣٧ ، عندما عكف بندكت الثانى عشر (٢) باهتمام يفوق ما أبداه جريجورى التاسع على أمر لإصلاح الرهبنة ، وجد نفسه مضطرا الى اجراء تسوية مع الفساد الذى استشرى فيها . فقد سمح بنظام « حجرة الرحمة » بشرط ألا يستعمل الحجرة أكثر من نصف عدد الجماعة فى أى وقت معين . وهكذا غدا فى مكتبة الرهبان الآن أن يأكلوا اللحوم شرعا فى أيام معينة على التعاقب . الا أنهم ما أن ظفروا ببغيتهم حتى طالبوا بالمزيد : ثم اننا نجد بعد ذلك بقليل جماعة القديس بندكت فى انجلترا يشكون من أن النحرىم على التعاقب شديد الوطأة جدا على « الرهبان الحديثين » الذين لم يعد بوسـعهم إنكار الذات الذى تميز به أسلافهم :

(٢) وكان الرهبان قد تخلوا تماما عن العمل منذ أمد بعيد . وقد روى عن القديس مور Maur الذى كان تلميذا للقديس بندكت ، أنه قال بأن الأديرة ما دامت فى هذا الزمن تعيش فى رفاهية ملحوظة ، فليس ثمة ما يدعو الرهبان إلى العمل كفلاحين . وفعلا لم يلبث هذا القول أن غدا وجهة النظر العامة .

-
- (١) شغل جريجورى التاسع الكرسي البابوى من سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٤١ .
(٢) شغل بندكت الثانى عشر الكرسي البابوى من سنة ١٣٢٤ الى ١٣٤٢ .

وعلى الرغم من أن الداعين إلى إصلاح الرهبنة حاولوا إحياء النظام القديم للعمل اليدوى ، فان هذا الإحياء لم يكد يعيش لأكثر من جيل أو اثنين . ذلك أنه قبل سنة ١٣٠٠ ، أصبح أمراً استثنائياً للغاية أن يعمل الرهبان بأيديهم في الحقول أو في أى حرفة يدوية وحتى الخدمات التى كانوا يقدمونها للزراعة ، كانت تصدر عنهم فى الغالب بوصفهم ملاكا للأرض لا عاملين فيها . وفى أخباريات القرون الوسطي لم يكن هناك فارق يذكر بين الرهبان باعتبارهم ملاكا للأرض وبين العلمانيين . وتروى الدفاتر الحسابية عن الرهبان أنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة حلاقة ذقونهم ، أو غسل ملابستهم ، أو طبخ طعامهم ، أو تنظيف وترتيب منازلهم ، أو حتى القيام بتشذيب مزروعات ديرهم . إذ قام بكل ذلك خدام من الذكور أو الإناث . وكان الخدم فى الأديرة الكبيرة عادة بمعدل ثلاثة لكل راهبين .

(٤) هذا ، وقد أهمل أمر العكوف داخل الدير . ففي العصور الأولى من تاريخ الرهبنة كان تعدد الملكيات والمنازل والامتيازات يضطر الموظفين ورجال السكربتية (١) ، والكلارجية (٢) ، وموزعو الصدقات والصيادلة وغيرهم ، إلى أن يصبحوا رجال عمل نشطين ، يسعون دائماً خارج الدير . وبناء على ذلك رسموا لأنفسهم خطة أساسها أن يكونوا ، على أية حال ، رجال أعمال دنيويين . ولقد شكافيليب دى هارفنت Philippe de Harvengt ، الذى كان رئيساً لأحد الأديرة ، فى سنة ١٢٠٠ من أن الرهبان أصبحوا

-
- (١) رجال السكربتية هم المكلفون بالمحافظة على الأوراق المقدسة والملابس الكنسية وما إلى ذلك من تجهيز الشموع وخلافه .
(٢) الكلارجية هم الحفاظ على الصندرة الكنسية .

منتشرين في جميع الطرقات والمتاجر والأسواق . ويؤخذ من سجلات الزيارات الأخيرة أنه لم يتخذ أى إجراء للمطالبة بتطبيق نظام الاعتراف المشدد داخل الدير . وان قصة البحار التي وضعها تشوسر «Shipman's Tale» والتي ورد فيها أن راهب دير القديس دنيس كان يغادر الدير كلما عن له أن يزور أصدقاءه في باريس ، إنما هي صورة طبيعية كاملة لما كان يجري عادة وسارت الأمور في الواقع على هذا المنوال إلى حد بعيد ، بحيث طبقت القاعدة على هذه المسألة فحسب بوصفها عقوبة استثنائية للغاية . ولقد أصدر المجمع الكنسي الانجليزي العام سنة ١٤٤٤ قرارا يقضى بالحبس ثلاثة أسابيع داخل الدير لكل راهب ينادى أخاه بأنه كاذب «mentiris» ، ولمدة سنة كاملة لكل من يضرب زميلا له من الرهبان عمدا ، وسواء أكان ذلك بقبضة يده أم بسكين . ولنا أن نتصور في أيامنا هذه ما يقابل هذا الوضع في المرسوم الصادر في الولايات المتحدة الذي يقضى بفرض فترات مماثلة للامتناع الفعلي عن تعاطي الويسكى . فضلا عن مجازاة المواطنين المتهمين بمثل ذلك التلاعب أو التهميم .

ويمكن تتبع نفس الانحراف عن المثل العليا السابقة في كل ناحية كانت تمارس فيها الحياة الدينية . ولقد دلت دفاتر الحسابات على أن إيرادات الأديرة الفسحة لم يكد يصرف عشرين على الأغراض الخيرية . وغالبا ما كان الرهبان يضمنون على الفقراء ، فلا يعطونهم المال الذي قرر الواهبون تخصيصه لهم ، والذي لم يكن ملكا للأديرة التي كانه مجرد حارسه عليه . ومن الجلى أيضا أن الأديرة قد عزفت في كثير من الحالات عن استخدام اللغة اللاتينية في كتب الخدمة الدينية ، ومن أجل هذه النهضة العلمية التي أنتجت أفضل ثمارها بانشاء الجامعات منذ حوالي سنة ١١٧٥ وما

بعدها (١) . ولم تساهم الهيئات الدينية القديمة الا بالنزول اليسير في هذا المضمار .
وقلما كان يبرز راهب أو قس من أولئك الآلاف يتميز بعلمه كمدرس في
الجامعة ؛ وعلى الرغم من أن بندكت الثاني عشر حاول رفع مستوى التعليم
بإصداره مرسوما يقضي بإرسال نسبة معينة من الرهبان والقساوسة للدراسة
في الجامعات ، فإن هذه النسبة لم تتحقق فعلا . لقد ساهم الاخوان الرهبان
حقا مساهمة كبيرة في الحياة الجامعية ، وانتجوا لنا أعظم الفلاسفة المدرسين .
واكن نشاطهم في هذه الناحية إنما بذل قبل عهد الإصلاح الديني . ففى سنة
١٥٠٠ كانوا أساسا عبارة عن طاقة محافظة أو رجعية . وكان ثمة دليل
دامغ على وجود شعور عام بأن الجماعات الرهبانية قد أدخلت بما كان تحت يدها
من الهيئات العديدة والامتيازات الخاصة ، حتى أصبحت بمثابة دولة داخل
الدولة (٢) . وقد جاء النقد الشديد أحيانا من أقدر الكتاب وأعظمهم استقامة ،
أضف الى ذلك أنه عندما يكتب أحد المدافعين عن المسيحية بحماس ونشاط

(١) حول التحديد الزمني لبداية الجامعات ، وتطورها ، والبراءات
والمراسيم التي صدرت لصالحها من قبل الهيئات الدينية والعلمانية ، أنظر

C. H. Haskins, *The Rise of Universities*, 6 sqq.; C. G. Crump
& E. F. Jacob, *The Legacy of the Middle Ages*, 258 sqq.;
N. Downs (ed.), *Basic Documents in Medieval History*,
132 sqq.

(٢) لقد أثبت المؤلف في كتابه Coulton, *Five Centuries of Religion*
(ec. 26-28) الاستنتاجات التي توصل إليها ١٢٠ من شهود العيان المعاصرين
وقد اتضح أنها كلها تقريرا استنتاجات غير مقبولة ، بغض النظر عن المبالغة
والإغراق في استعمال اللغة في العصور الوسطى . (كولتون) .

زائدين ردا على هجمات اللولاردين وغيرهم من الهرطقة ، فانه ما أن يصل إلى موضوع الرهينة حتى يجد نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يعتمد قدر استطاعته إلى التخاص من هذا الموضوع ، واما أن يتخذ في كتابته لهجة تم عن التشكك وقصارى القول إن الحقائق في يومنا هذا قد تجمعت بفضل مؤرخ روماني كاثوليكي قوى الايمان من فرنسا ، في قوله المأثور : « إن ما كتب في العصور الوسطى ، سواء أكان صادرا عن عاطفة صادقة أم لا ، ينقد أخلاق الرهبان بعبارات فجعة وبدون تمييز . » ()

إن مجموعة المستندات الأصلية المتعلقة بالرهينة ، والتي تتميز بأهميتها الفائقة وسهولة تناوُلها بالنسبة للقارئ العادي ، إنما تتألف من زيارات الاساقفة لأبرشية لنكولون Lincoln في منتصف القرن الخامس عشر . وهي التي نشرها وترجمها الأستاذ هاملتون تومبسون A. Hamilton Thompson في ثلاثة مجلدات لجمعية لنكولون للمحفوظات Lincoln Record Society . ويعادل المستندات المذكورة من حيث الأهمية ، بالنسبة للطالب ، المجلدات الأربعة التي نشرت في مجموعة جمعية كامدن Camden Society Series ، تحت اسم «زيارات لأسقفية نورويش» Visitations of the Diocese of Norwich ، ولم يكن أحد بترجمة هذه المجلدات ونشرها نشرًا جيدًا ، وتتناول هذه المجلدات السبعة عمليا القرن السابق للإصلاح الديني في إنجلترا . وهي تشرح بوضوح لماذا ، عندما اتهم أحد الأصدقاء لنجارد Lingard الروماني الكاثوليكي صاحب

الفكر الحر بأنه تخلى بكل بساطة عن قضية الرهبان في كتابه « تاريخ إنجلترا » - لماذا كتب ذلك الخطاب المفتوح الذي لا يزال موجودا ضمن محفوظات معهد أوشاو Ushaw College ، ليدلل على أن أية محاولة جديدة لاصلاح الرهبنة كما كانت في عهد هنرى الثامن ، لا بد أن تنتهى إلى كارثة مع مرور الزمن . (١) ولئن كانت وسائل هنرى لاسييل الى الدفاع عنها ، ومهما قالت ثقتنا في التقارير التى وضعت فى مناسبة الزيارات السريعة للاديرة وقتذاك - تلك الوسائل والتقارير التى وضعها هنرى لخدمة أغراضه السياسية فحسب - فان الزيارات الجسادة التى قام بها الاساقفة فى القرن الأخير من العصور الوسطى إنما تحدثت مرارا وتكرارا عن نفس القصة : ولم يكن جميع الرهبان على شاكلة واحدة بطبيعة الحال .

(١) نشر المؤلف الموضوع كله فى كتابه :

Coulton, Five Centuries of Religion, II, 458.

اقرأ كلمات لينجارد فى صفحة ١٨٤ من الكتاب الذى تناول تاريخ حياته ، تأليف هيل Haile و بونى Bonney ، والتى وجهها الى زميل روماني كاثوليكي كان قد سأله لماذا قال إن جميع الرهبان قد خضعوا لسيادة هنرى الثامن . وهذه الكلمات هى : « إذا اضطررت الى الكشف عن السبب ، فلربما وافق الزميل على سكوتي عنه فى سجل التاريخ . ولسوف أجيب مع الكاردينال بول Pole بأن الرهبان فى تلك الفترة كانوا رجالا سيىء السمعة والسيرة . كما كانوا فى غاية الانحلال والانحراف عن روح مؤسستهم الاصلية ... لقد كانوا طبقة منحلة من الرجال الذين يؤدون خدماتهم لفترة زمنية مؤقتة . » (كولتون) .

ولكن نظام الرهبنة في مجموعه قد فقد مكانته المميزة له بوصفه قوة عالمية كبيرة في المجتمع . فثمة خمسة من أكبر الأديرة التي لدينا عنها معلومات وافية ، كانت كلها حتما في حالة سيئة . وهذه الأديرة هي : دير القديس البان St. Albans ، ودير نورويثش Norwich ، ودير بيتربورو Peterborough ، ودير رامزي Ramsey ، ودير ولسنجهام Walsingham . وهناك أيضا أديرة أخرى ، كدير وستمنستر Westminster ، كانت تدير هي الأخرى نحو الانهيار . وليس لهذه الشواهد أى علاقة بما سجل ضد كثير من البيوتات الصغرى . وربما كان دير القديس البان أسوأها حالا . ولدينا تفاصيل أوفى عن ديرى بيتربورو ورامزي . ويرجع الفضل في ذلك الى أساقفة لنكولن . ووصلنا تاريخ ما كان يجرى من الأحداث داخل دير بيتربورو خلال ثلاثين عاما متوالية . وهذا التاريخ عبارة عن سجل عمل للتبذير والفوضى والإهمال ، حتى فيما يتعلق بأقامة الخدمات الدينية بالكنيسة . (١) وفي آخر تقرير وردت مغامرات رئيس الدير باقترافه جريمة الزنا مع ثلاث نساء باعتبار ذلك أمرا عاديا مألوفا . وبالرغم من أن الأسقف الزائر قد برأه رسميا بذلك الإجراء الرخيص ، ألا وهو حله من الخطيئة (٢) ، فانه عاقب في ذات الوقت اثنتين من بين النسوة الثلاث ، وهذا أمر له مغزاه ودلالته . وكانت الخدمات الدينية في دير رامزي على غرار ما كانت عليه في دير بيتربورو من الإهمال المخزى المشين .

(١) لخص المؤلف ذلك بإيجاز في عدد يناير من سنة ١٩٣٠ من مجلة « التاريخ » "History" . (كولتون) .

(٢) أى بالتطهر منها .

وإذا نظرنا إلى مختلف الزيارات السبعين المسجلة في الأديرة في أبرشية لنكولن خلال القرن الخامس عشر (١) ، ألفينا الرهبان أو الراهبات في خمسة وأربعين حالة ، يخالفون بندا أساسيا هاما من البنود الواردة في الأنظمة الديرية ، وهو القائل بأن حسابات الدبر يتعين رصدها كتابة ومراجعتها وفقا للاصول المعمول بها : وثمة دليل في بعض الحالات على أن هذا الإهمال كان متفشيا منذ سنين ، وأن الدبر كان غارقا في الديون ، بينما كانت الأديرة آخذة في الانهيار : ثم صدر قانون صارم يقضى بمنع الجلوس للشراب بعد آخر قداس في اليوم . ومع ذلك سجلت في ستة وعشرين ديرا هذه العادة التي تقضى بمنع تعاطي المشروبات ، والتي كانت تشفع أحيانا بالشكوى من أن الرهبان قد فقدوا بسبب ذلك قدرتهم على القيام بالخدمة الليلية فكثيرا ما أهملت القداسات لإضرارها بالأرواح الصالحة . وانخفضت الصدقات في ثلاثة وعشرين ديرا ؛ فضلا عما كان يرافق ذلك من الاختلاسات الضخمة من الأموال المخصصة للأعمال الخيرية . كذلك أصبحت الأنظمة القاضية بالاعتكاف داخل الدبر والصيام عن الدسم ، كما مهملا . وكان بعض الرهبان لا يعرفون قراءة كتب الصلاة التي تتلى في القداس باللغة اللاتينية .

لذلك عندما قام هنرى الثامن بالتمرد ضد الأديرة ومهاجتها تحقيرا لمصالحه السياسية وحاجته إلى المال ، لم يلق صعوبة حقيقية في الغائها ، وعرف الناس ما اعترف به فيما بعد الكاردينال بول Pole ، وهو أن الرهبان

(١) نشرها باللاتينية والانجليزية الاستاذ ا. هاملتون تومبسون انظر:
Lincoln Record Society, 1914, 1918, 1929 (كولتون) .

قد انصرفوا عن روح أنظمتهم المبكرة . ولم يكن التمرد الكبير في الشمال أو الحج أمرا خالصا لصالح الرهبنة . ومع ذلك فقد كان الناس في الشمال حيث تدهورت الحضارة والمدنية ، أكثر اعتمادا على إعانة الأديرة لهم مما هو جار في الجنوب . وكان هذا الشمال هو الشطر الوحيد من إنجلترا الذي عانى من الاضطرابات الخطيرة . لقد كان بوسع الملك أن يجند مواطني الجنوب لقمع العصاة . وعلى الرغم من أن عملية تحويل الكثير من أملاك الأديرة إلى رجال الحاشية وإلى حديثي النعمة دون غيرهم ، قد زادت بلا شك من حدة الأزمة الاقتصادية في القرن السادس عشر ، فإن الزمن قد برر مبدأ هنري السياسي ، إن لم يكن في جميع وسائل تنفيذه . وكانت النتيجة مايلي : أولا - وجدت الملكة ماري نفسها مضطرة إلى قبول مبدأ التحلل من الخطيئة باعتباره أمرا واقعا . ثانيا - إن البلدان الأوروبية التي منعت يد الإصلاح من أن تمتد إلى أديرتها ، كانت كلها ، إن آجلا أو عاجلا ، تضغط على تلك الأديرة ، ولكنها كانت تسمح لها بالانهوض ثانية قدر استطاعتها عن طريق هبات جديدة توقف عليها كما حدث في إنجلترا مثلا . (١) ثالثا - ربما يكون الفقراء قد منوا بخسارة وقتية بسبب التحليل . وكثيرا ما كانت خسائرهم فادحة إلى حد لا يقبله العقل ، تحديا للدولة الواضحة المدعمة بالمسئدات . غير أن الفقراء الانجليز كانوا بوجه عام أفضل

(١) وتؤيد هذه النهضة بلا شك قيمة النموذج المثالي للرهبنة لعدد معين من أفراد الشعب . ولكنها لا تزال بعيدة عن أن تنهض مبررا للزيادة العددية والرجحان الاقتصادي للرهبان في القرن السادس عشر . (كولتون) .

حالا منذ حركة الاصلاح الدينى من زملائهم فى البلدان التى أبقت على أديرتها
مثل فرنسا وايطاليا واسبانيا . ومن المشكوك فيه أنهم لم يكونوا أوفر
حظا وهم فى أسوأ حالاتهم ، خلال ذلك الجيل المضطرب بالثورة الدينية
والاجتماعية . ومن المحقق أن الفلاحين البريطانيين والصناع الفقراء كانوا
أقل بؤسا من الطبقات المماثلة لهم فى فرنسا فى ظل النظام القديم .

بعض المراجع للفصل السادس

- Antony, C. M., *In St. Dominic's Country*. New York, 1912.
- Berlière, V.,
- 1 - *L'ordre monastique des origines au XIIe siècle*. Paris, 1921.
 - 2 - *Le recrutement dans les monastères bénédictins au XIIIe et au XIVe siècles*. Brussels, 1924.
- Budge, E. A., *The Paradise or Garden of the Fathers*. 2 vols. London, 1907.
- Butler, E. C.,
- 1 - "Basilian Monks," in *Encyc. Brit.*, 11th ed., 1910.
 - 2 - *Benedictine Monachism*. London, 1924.
- Chesterton, G. K., *St. Francis of Assisi*. New York, 1924.
- Clarke, W. K. L., *St. Basil The Great : A Study in Monasticism*. Cambridge, 1913.
- Cranage, D. H. S., *The Home of the Monk : English Monastic Life and Buildings in the Middle Ages*. Cambridge, 1926.
- Cuthbert, *Life of St. Francis of Assisi*. London & New York, 1913.
- Eckenstein, Lina, *Women under Monasticism*. Cambridge, 1896.

Formoy, B. E. K., *The Dominican Order in England before the Reformation*. London, 1925.

Gasquet, F. A.,

1 - *English Monastic Life*. London, 1905.

2 - *Rule of St. Benedict*. London, 1908.

Grützmacher, G. K., *Pachomius und das älteste Klosterleben*. Freiburg, 1896.

Hannah, I. C., *Christian Monasticism*. New York, 1925.

Hannay, J. O., *The Spirit and Origin of Christian Monasticism*. London, 1903.

Harnack, A.,

1 - *Das Mönchtum : seine Ideale und seine Geschichte*. Giessen, 1895.

2 - *Monasticism : its Ideals and History, and the Confessions of St. Augustine*. An English Trans. by E. E. Kellett and F. H. Marseille. London, 1901.

Jarrett, B., *Life of Saint Dominic*. London, 1924.

Kingsley, C., *The Hermits : Their Lives and Works*. London, 1885.

Leathem, W. H., *The Life of St. Francis of Assisi*. New York, 1926.

Luck, E. J., *The Life and Miracles of St. Benedict by St. Gregory the Great*. London, 1880.

- Luck, E. J., *The Little Flowers of St. Benedict*, gathered from the Dialogues of St. Gregory the Great. London, 1901.
- Mackean, W. H., *Christian Monasticism in Egypt to the Close of the Fourth Century*. London & New York, 1920.
- Montalembert, Comte de, *The Monks of the West*. Trans. into English with Introduction by F. A. Gasquet. 6 vols. London, 1896.
- Morison, E. F., *Basil and his Rule : a Study in Early Monasticism*. London, 1912.
- O'Connor, J. B., *Monasticism and Civilization*. New York, 1927.
- Power, E. E., *Medieval English Nunneries, c. 1275—1535*. Cambridge, 1922,
- Robinson, P., *The Writings of St. Francis of Assisi*. Philadelphia, 1906.
- Sabatier, P., *Life of St. Francis of Assisi*. English Trans. by L. S. Houghton. London, 1894.
- Sabatier, P. & others, *Franciscan Essays*. Aberdeen, 1912.

Salvatorelli, L., *The Life of St. Francis of Assisi*. Trans.
from the Italian by E. Sutton. New York & London, 1828.

Smith, L. M., *The Early History of the Monastery of Cluny*.
Oxford, 1920.

Thompson, A. H., *English Monasteries*. Cambridge, 1913.

Thompson, E. M., *A History of the Somerset Carthusians*.
London, 1895.

Wheeler, E. R., *Women of the Cell and Cloister*. London,
1913.

Workman, H. B., *The Evolution of the Monastic Ideal :*
from the Earliest Times down to the Coming of the
Friars. London, 1913.

Zöckler, D. O., *Askese und Mönchtum*. Frankfurt, 1897.

المختل الشايع

التجارة و الاسفار

كانت النقابة من أهم العوامل في حياة المدينة في العصور الوسطى. وترجع بعض هذه الاتحادات ، بنوع ما ، إلى ما قبل التاريخ . وهي تمثل غريزة التضامن للمحافظة على الذات ، وهي نفس الغريزة التي نجدناها حتى بين الحيوانات ، بيد أنها تمثل أيضا ، إلى حد بعيد ، جهدا بناء واعيا . فلم يقتصر الأمر على أن يقول المواطنون : « اننا سوف ننشئ نقابة » إذ كان للسيد اللورد أن يقول هو أيضا : « انكم سوف تنشئون نقابة » ، ويمكن تتبع هاتين القوتين بوضوح في أهم هذه النقابات ، ألا وهي نقابة التجار : ففي كثير من المدن كانت نقابة التجار تتألف من جميع الرجال الاحرار . وحيثما وجدت نقابة في أية مدينة من المدن ، كانت هذه النقابة تمثل القوة الاساسية للرجال الاحرار . وقد نمت نقابات الحرف مع تقدم الحياة في المدينة ، كما نما اتحاد حرفة الحياكة واتحاد السروجية ، وهكذا . وأخيرا كان اكثر الاتحادات عددا هي الاتحادات الدينية . ولقد كانت بعض هذه الاتحادات صغيرة جدا . إلا أنه كانت هناك أيضا اتحادات أخرى كبيرة ذات سلطان . وفيها كان الأعضاء يجتمعون ليوزعوا المكسب في صورة من المنافع الروحية ، وللمساعدة مرضاهم وفقرائهم . وهــ كذلك نشأت الجمعيات الخيرية الوسيطة . وكان الغاؤها أثناء حركة الاصلاح الديني ، بحجة أنها خرافة ، ظلما فادحا .

كان نظام النقابات نافعا في وقته وأعتقد أن الذين عرضوا هذه النقابات كنموذج لا يامنا ، لم يواجهوا الحقائق كاملة . وقد عزز اقتناعي طالب من كامبريدج ، انقطع عدة سنوات للدراسة والبحث عن دلائل يهديه إلى حقيقة عمل تلك النقابات ، بأنه من الضلال البين الخوض في موضوع نقابة العصور الوسطى منذ أن كانت نظرية حتي غدت حقيقة ماثلة . وحتى من الناحية النظرية ، كثيرا ما كانت النقابة متجردة من عنصر الرحمة حيال التنظيمات الأخرى المنافسة لها ، أو حيال المجتمع بوجه عام . ففي دربي Derby ، مثلا ، تأكد أمام لجنة ملكية سنة ١٢٣٠ أن نقابة التجار قد طغت على غيرها من أهالي المدينة . فقد روى أنه عندما كان الصوف أو الجلد المدبوغ أو الحام يورد للمدينة لبيعه ، فإنه إذا وضع أحد أعضاء النقابة قدمه على الصنف وعرض سعرا له ، لا يجزؤ أحد من خارج أعضاء النقابة على شرائه . كما أن صاحبه لا يجزؤ على بيعه إلا لرجل من أعضاء النقابة ، أو على بيعه له بأعلى من السعر الذي عرضه : ويضاف إلى ما تقدم « أن الربح الناتج من البيع لا يعود لصالح المدينة ، وإنما لصالح أولئك الذين ينتمون إلى النقابة سالفة الذكر فحسب . » ونقول مرة أخرى « إن مثل هذه الوسائل إنما كانت تسهم ، إلى حد كبير ، في إلحاق الضرر والظلم والفقير بالشعب . »

وهناك الجانب السيء الذي يتعارض مع ما كانت تقوم به النقابة أحيانا في سبيل الخير من أجل مساعدة المدينة في شراء شحنة من القلال أو الفحم بالجملة ، وتوزيعها على الأهالي بأسعار مغقولة ، على غرار نظام للتموين في انجلترا زمن الحرب . وحسنا فعلت النقابات ولا شك

بمحافظةها على مستوى العمل ومكافحتها الغش . ومع ذلك فإنها لم تحرز في
أى من هذه الاهداف ، نجاحا كاملا . وكان الناس يشكون أحيانا منذ
أيام الجسد الأكبر لشوسر ، من أنه لا يمكن الحصول على صنف أصلى
في الحوانيت ، تماما كما يشكون في أيامنا هذه من أنه لا يمكنك الحصول
على خادم أمين أو العثور على طفل استوفى تربيته بالعصا . وقد تناول
برتولد أوف ريجنسبورج (١) Berthold of Regensburg (حوالى سنة
١٢٥٠) هذا الموضوع أكثر من مرة في عظاته الشهيرة . واسمحوا لى أن
أسرد بعض العبارات التى وردت عن تلك الحيل التى يلجأ المثلثاءون إليها في
كل حرفة وتجارة . وقد قمت بترجمتها كاملة في كتابي « الحياة في العصور
الوسطى » (٢)

« إن الغشاشين الأوائل إنما هم انتم الذين تعملون في مهنة الملابس
والحرير ، أو في الصوف أو الفرو أو الأحذية أو القفازات أو الأحزمة .
إن الناس لا غنى لهم عنكم بحال من الأحوال . إنما هم حتما في حاجة إلى
الملابس لذا وجب عليكم أن تخدموهم ، وأن تقوموا بعملكم بدمه وأمانة ،
لا أن تسرقوا نصف القماش ، أو تلجأوا إلى ضرب آخر من ضروب
الغش ، أو تخلطوا الشعر مع صوفكم ، أو تشدوه بحيث يبدو طويل
الفتلة ، وبحيث يظن المرء أنه حصل على قماش جيد على حين أنكم مددتموه

(١) برتولد أوف ريجنسبورج مبشر فرنسيسكاني، توفي حوالى سنة ١٢٧٢ .

انظر : Shorter Camb. Med. Hist , II, 676.

(٢) Coulton, Life in the Middle Ages, III, 57 (كولتون).

حتى صارت فتلته أطول مما يجب ، و بذلك تكونون قد حولتم القماش الجيد الى قماش لا فائدة منه . إنه في وقتنا هذا ، لا يتسنى لأى أمرىء أن يجد قبعة جيدة بسبب تزييفكم : فان المطر إذا ما هطل على أطرافها لن يلبث أن يحوس فى داخلها . ومثل هذا الغش ملحوظ حتى فى الاحذية ، وفى أصناف الفرو ، وفى أعمال الدباغة . فثمة رجل يبيع جلدا قديما على أنه جديد . وكم بلغت أعمالكم التى يشوبها الغش : إن أحدا لا يعرف ذلك جيدا كما تعرفونه أنتم ، وكما يعرفه سيدكم الشيطان . أما أعضاء الفريق الثانى فيبدو أنهم يشتغلون فى الأدوات الحديدية ... وهؤلاء جميعا يجب أن يتصفوا بالصدق بحيث يمكن الاعتماد عليهم فى عملهم ، سواء أكانوا يعملون باليومية أم بالقطعة ، كما يفعل كثير من التجارين والبنائين . ويجب عليهم ، إذا عملوا باليومية ، ألا يستسلموا للبلادة والمأطلة ليضاعفوا عدد أيام عملهم . وإذا كنت أيتها البناء تعمل بالقطعة فعليك ألا تتعجل بانهاؤها تخلصاً من العمل فى أسرع وقت ممكن ، وبحيث يصبح المنزل الذى تعمل فى بنائه آيلا للسقوط خلال عام أو عامين ، وانما يجب عليك أن تقوم بعملك فيه بصدق وأمانة كما لو كان هذا المنزل ملكا لك . وأنت أيتها الحداد ، لقد ركبت للجواد حسنة لا تساوى شروى نقيير . ومن ثم فالجواد لا يكاد يقطع بها ميلا وإذا بها قد انكسرت فعلا ، وربما يجرى الجواد وقد غدا أعرج مما يتسبب لرجل أن يدخل السجن أو يفقد حياته . انك لشيطان ، وانك لكافر ، ولا بد لك من أن تزامن أترابك الذين كفروا من الملائكة . وأنت أيتها التاجر ، إنما عليك أن تثق بالله ليجعل لك مورد رزق تحصل من ورائه على الكسب الحلال ، لانه قد وعدك بذلك بفمه الالهى . ومع ذلك فانك تقسم الآن بصوت جهورى بأن بضاعتك آية فى الجودة ، وأنك بذلك قد أكرمت المشتري . ولقد أفسمت حائنا أكثر من عشر مرات أو من

ثلاثين مرة بأسماء جميع القديسين . كما أقسمت بالله وجميع قديسيه على بضاعة لا تكاد تساوى خمسة شلنات ... وإذا ما أردت أن تشتري شيئا من الشعب الساذج البسيط ، فانك تركز كل ذهنك في الطريقة التي تتمكنك من الحصول عليه دون مقابل ، وأنت تنسج في مواجهته فيضا من الأكاذيب ، وأنت تطلب من شريكك أن يذهب أيضا إلى السوق ، ثم تبتعد عنه لفترة ما لتسأله كم سيدفع للرجل في بضاعته . ثم تطلب اليه أن يحضر ليعرض ثمننا أقل ، وعند ذلك يفرغ القروى الساذج ، ولكنه لا يلبث أن يسر إذ يراك عائدا اليه . وهكذا تكون قد حصلت منه على البضاعة بغير حق ، وأنت تقسم له طول الوقت بقولك : « صدقي ، بحق جميع القديسين ، إن أحدا لن يعطيك قدر ما أعطيتك أنا مقابل هذه البضاعة ! » ولكن ربما كان هناك رجل آخر على استعداد لينقده أكثر من ذلك . ومن ثم ، إذا أردت أن تحرر نفسك من الخطيئة المميتة في مجال التجارة ، فاعمل على ألا تستخدم القسم في ذلك . وإنما يجب عليك أن تقول : « إذا لم يكن في نيتك أن تشتري البضاعة ، فلربما رغب فيها شخص آخر . » وهكذا يجب عليك أن تباع بأمانة بعيدا عن الكذب والتدليس . كما يجب على المرء أن يحافظ على حسن سمعته في التجارة . فثمة آلاف من الناس قد عانوا الكثير من أعمال التدليس والخداع والتجديف مما لا يجروا أمروا على وصفه .

أضف إلى ذلك أن القوانين الموضوعة لضمان وحيدة الشكل في العمل وأدواته ، لم تكن صالحة للابتكار ، وإنها الحقيقة أخاذا أن نعلم أنه بالرغم من أن ماركو بولو Marco Polo قد وصف أوراق البنكنوت الصينية المطبوعة قبل سنة ١٣٠٠ ، فلم يبدأ الناس في تقليدها بطريقة بدائية إلا بعد ذلك التاريخ بمائة وعشرين عاما على الأقل ، عندما طبعوا عليها صوراً مصغرة

للقديسين : ومن المشكوك فيه إن كان الحرير الصناعي مثلاً قد استطاع ، بصورة ما ، أن يشق طريقه من خلال نظم النقابات الوسيطة ، في مواجهة تجار الحرير الذين اجتنب لهم الأمر ، وكانت مصالحهم تتعارض مع هذه النظم . وقد شكلت الاتحادات الدينية بحيث تترتب عليها مزايا روحية ثابتة ، كالقداديس والصلوات لأجل الأحياء ، والصلاة على أرواح الأعضاء الذين في المظهر أو أرواح أقاربهم . وكانت معظم الاتحادات إلى حد ما ذلك طابع ديني . فقد كان أعضاؤها أحياناً يحضرون الخدمات الدينية جماعات ، بينما كانوا يدفعون أحياناً أخرى ما يعادل مرتب كاهن إحدى الكنائس الصغيرة الخاصة . وكانوا جميعاً مصممين على أن يكون هناك مستوى معين للسلوك . فقد كانت توقع على الفرد غرامة إذا حضر اجتماعاً بدون حذاء أو جورب ، أو إذا كان سيء السلوك . وإذا تشاجر عضوان كان الاتحاد يهب لمصالحتهما . وحدث أن اثنين من أعضاء نقابة تجار لايبستر Leicester تقاتلا علناً في سوق بوسطن Boston ، فغرمهما زملاؤهما برميلاً من الجعة يشربها أعضاء الاتحاد . وكانت هذه العقوبة مثيرة للإعجاب . بيد أن أهداف النقابات إذا لم تكن في الواقع بعيدة النظر دائماً ، وإذا لم تكن أنظمتها التأديبية فعالة دائماً ، فإننا يرجع ذلك أحياناً إلى أحوال المجتمع بوجه عام وقتذاك . مثال ذلك أنه يوجد لدينا دليل تافه ، خلاصته أنه حيثما شرعت غرامات قانونية حتمية لمختلف المخالفات التي ترتكب ضد نظم التجارة ، لم يهتم القضاء بمحاولة تنفيذ هذه العقوبات كاملة بأي شكل . وكالت الغرامات التي ينطق بها القضاء لا يكاد يؤخذ ربعها من المخالفين . واليسكم مثلاً ، تحليل السيد وهدسن W. Hudson لسجلات محكمة نورويتش الموسمية في سنة ١٢٨٩ . فقد كانت الغرامات نفسها أخف وطأة مما نص عليه القانون ، إذ كانت تراوح بين

ثلاثة بذسات وأربعة شلنات . وكانت جملة الغرامات السنوية اثنين وسبعين
جنيها وثمانية عشر شلنا وعشرة بذسات . وكان هذا المبلغ هو الذى قرره
المحكمة وإذا مضى على موعد استحقاق الغرامة عدة شهور ، لا يجوز
للمحصلين تحصيل ما يزيد على سبعة عشر جنيها وبذسين .

كتب المستر هدسن يقول : « من الواضح أنه مهما كان نظام منع
المخالفات من أن تمر دون اكتشافها فعلا ، فلم يكن قوى الأثر فى الضرب
على أيدى المخالفين لمنعهم من العودة الى ارتكاب المخالفة . هذا ، وقد كانت
العقوبة الموقعة على الأشخاص الذين يقتربون المخالفات الخاصة بالتسعيرة
الرسمية للجمعة ، أخصب مورد للبلدية . أما تسعيرة الخبز فلم يرد ذكرها
إلا قليلا ، وربما كانت تعالج بصورة أخرى . وكان سعر الجمعة محسدا
طبقا لسعر القمح . كما كانت كل ربة بيت تقريبا من بين الأسر القيادية تقوم
بتحضير الجمعة وبيعها لجيرانها . وكانت تبيعها دائما بأعلى من السعر المحدد لها .
ومن الواضح أن السلطات كانت تتوقع اتخاذ هذا السبيل ، لأن تلك السيدات
كن يقمن للمحاكمة بصورة منتظمة ، وتوقع عليهن الغرامات فى كل عام
لنفس المخالفة . وكن يدفعن الغرامات ، ثم يكررن نفس العملية فى المستقبل
كما كان الحال فى الماضى . وكثيرا ما كانت تمارس مثل هذه الوسيلة فى
مختلف أنواع التجارة والأعمال الأخرى . فشمة تجار الأسماك ، ودباغو
الجلود ، وتجار الدواجن ، والطباخون ، وغيرهم . وكانت الغرامة توقع
عليهم مرة واحدة ، سنة بعد أخرى ، لمخالفتهم القوانين التى تتعلق بعملهم ،
وبالاختصار بدلا من أن يحصل التاجر — كما هو الحال الآن — على رخصة
لمزاولة عمله بشروط معينة ينتظر منه أن ينفذها ، كان يرتبط هو بشروط

ينتظر منه أن يخالفها ، ثم توقع عليه الغرامة لمخالفتها . وكان يتم الوصول إلى نفس النتيجة المالية بطريقة أخرى . (١)

لقد قامت الحملة الصليبية الأولى في آخريات القرن الحادى عشر : وكان من نتائج الحملات الصليبية أن دفعت التجارة دفعة كبرى إلى الامام (٢) ولقد كان لنشاط الزورمان الدائب قيمته الكبرى ، وهم الذين تركوا القرصنة إلى مدنية نسبية ، إذ ألقوا بأنفسهم في مغامرة الحج الدينى ، كما كانوا يلقون بأنفسهم حتى ذلك الوقت في غمار الحروب . وفي تلك الأيام كان الحج والحرب صنوين لا يفترقان .. ولم يكن الحجاج دائما على جانب كبير من الصبر . كما أن الاراضي الواطئة لم تكن دائما مهددة ، فيما عدا الممرات الجبلية . لذلك كان السفر في قافلة كبيرة مسلحة أمرا عاديا . وكما يقول جييون « كان اللصوص الذين تستهويهم ملابس الحجاج يتعرضون للقتل بسلاح أحد المحاربين . ولكن انجلترا ، على الرغم من تقاليدها الملاحية الموروثة عن السكسون والدانين والنورمان ، لم تعتمد بوجه عام الى خوض المغامرات البحرية الكبيرة . ويصف تشوسر القبطان الذى ركب معه للحج الى كانتربرى بأنه رجل ذو خبرة واسعة » وأن ذقنه كانت تهتز تحت ضربات العواصف . » ويبدو أن أبعد الحدود التى وصل اليها في رحلاته كانت حدود جوتلاند (٣) Jutland في الشمال الشرقي ، ورأس فينيس-تر Cape Finisterre في اسبانيا.

(١) Records of the City of Norwich, I, cxxxviii (كولتون) .

(٢) انظر عن ذلك Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 162 sqq.

(٣) جوتلاند هى شبه جزيرة في بلاد الدانمارك .

وقد كانت السفن صغيرة الحجم ، وكانت عادة مكشوفة أو نصف مكشوفة . ولم تعرف البوصلة طريقها إلى أوروبا حتى عام ١١٥٠ تقريباً . وكان استخدامها حتى ذلك الحين يتقدم ببطء شديد ، حتى أن البحارة قلما غامروا بالبحار بعيداً عن الأرض بما يجاوز مدنى البصر . ولقد عرف كثير منهم أن الأرض كروية : وكان يعتقد أن نصف الكرة الجنوبي بحر كله فيما عدا جبلا واحداً في الوسط ، حيث كانت اللجنة الأرضية في مواجهة اورشليم تماماً في نصف الكرة التي نعيش فيها . ولكي نعرف إلى أى حد ظلت الأرض والبحر مجهولاً أمرها ، وأية أمور مفزعة كانت تصدق طبعا عن هذه الاصقاع الغامضة ، يتعين علينا أن نتعمق في دراسة قصة رحلات سير جون موندفيل (١) Sir John Maundeville . فالبراكين هي أفواه جهنم المختلفة ، وخرائب بابل والأهرام تعج بالثنانين والثعابين والحشرات السامة . وفي بعض الأرجاء مرده طول الواحد منها أربعون كيويث (٢) Cubit (٢) . ولم يشاهد سير جون هذه الأشياء بعينه ، إذ قال : « لأننى لا أميل إلى الذهاب إلى تلك الجهات ، فلم يصل انسان إلى هذه الجزيرة إلا وافترس في الحال » . وكانت إحدى ملاحظاته التي كررها مرارا عندما يصف قبيلة جديدة هي « انها قبيلة ذات طبيعة شريرة مفترسة » ، و « انها تأكل لحم البشر » . لقد كان سير جون فنانا عظيما ، وقد استغل هذه التجربة الممتعة الحافلة بالمخاطر إلى أقصى حد : إن مجرد التليخ يكون

(١) قام بترجمة رحلات موندفيل الى الانجليزية حنا بورجونى أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٣ ، ص ٧٢٨ .
(٢) الكيويث عبارة عن طول الذراع من المرفق حتى طرف الوسطى .

كافيا في بعض الأحيان ، كما هو الشأن في الرحلة إلى الاراضي المقدسة :
« ونحن في طريقنا إلى أرض السيد نمر بمدينة تدعى قبرص وبقلمنة
نيزبورو Neaseborough وبمدينة الشر Evil Town وموقعها عند أقصى
بلاد المجر تقريبا . ، وبعد ذلك الوقت بفترة طويلة لم يحذر قبطان في عهد
الزاييث إحدى السفن التي كان يتعين عليها أن تحتاز بحر البلطيق من
ريجا Riga إلى بينك Lübeck ركابه من خطر القراصنة فحسب ،
بل من « وحوش الاعماق أيضا . (١) وتوجد الآن في السجلات أسماء
بعض الانجليز بوصفهم ملاحين مغامرين في البحار المترامية . أما الامة
في مجموعها ، فقد أبدت نشاطا عظيما داخل حدودها الضيقة . وكثيرا
ما كانت القناة نفسها مجالا للمغامرة بتلك المراكب الصغيرة وفي تلك
الظروف الدولية التي كانت سائدة وقتذاك : ولقد قرأنا عن محارب نيبيل
استغرق زورقه خمسة عشر يوما في عبور القناة ، وقد أصيب هو نفسه
بمرض عضال حتي غدا وكأنه شخص آخر . (٢) وحدث أن حنا مالك
فرنسا أخذ ياف ويدور أحد عشر يوما بين بوردو وساندويتش Sandwich .
وقد بلغ من بشاعة إحدى رحلات ادوارد الثالث عبر القناة أن عزا
ذلك الى أعمال السحر الناجحة التي دبرت له من جانب فرنسا : أضف
إلى ذلك أن كل بحار في القناة تعود أن يقوم بدور القبطان زمن الحروب .
وكثيرا ما كان يقوم بدور القرصان عندما لا يجد مجالا

() نيا يتعلق بالفقرة كلها ، أنظر Coulton, Life in the Middle

Ages, III, 9 (كولتون) .

(٢) Macaulay's Froissart, 83, cf . 134, 359 (كولتون) .

للتعلل بحرب علنية . وقد عبر تشوسر صراحة عن ذلك عندما وصف بحاره
قائلا :

إذا ما انبرى المقاتل وفاز في الحرب على خصمه
دعا الطاقم اليه مسرعا كلا منهم إلى مينائه

أى أنه ألقى بالطاقم المنافس من فوق ظهر السفينة . وفي هذه المغامرة
وتلك الحرب اللتين وقعتا في القناة ، وقفت إنجلترا وقفة ثابتة . وعلى العموم
كان الانجليز ، عادة ، يتحكمون في البحار الضيقة . (١) أما فيما يتعلق
بالمغامرات الواسعة في العصور الوسطى ، فينبغى أن ننظر إلى الرحالة الإيطاليين
والبخارة البرتغاليين .

لقد أمدتنا جماعة الاخوان الفرنسيين بأقام سجل لهذه الرحلات
إلى الشرق الأقصى . (٢) ومن أشهرهم جون اوف بيبانو كارييني
John of Piano Carpini ، ووليم أوف روبروك William of Rubruk ،
وأودوريك أوف بردينون Odoric of Perdonone . وكان جون ، وهو رجل
من أصل كريم ، قد بدأ رحلته التبشيرية سنة ١٢٤٥ ، وهي السنة التي تم فيها
تأسيس الكنيسة الملحقة بدير وستمنستر . وكان جون في أدق تعبير رجل دين
وسياسة عنه مبشراً . وقد أرسله البابا (٣) إلى التتار آملاً أن يتمكن ليس من

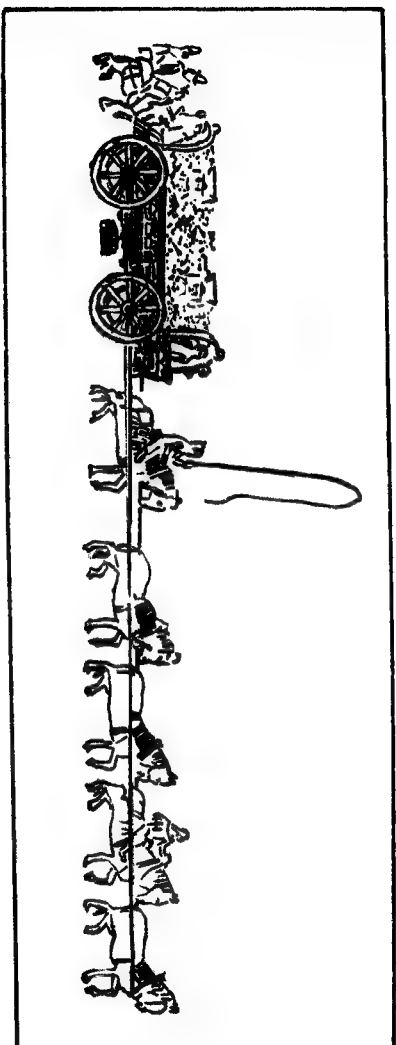
(١) المقصود بالبحار الضيقة مضائق إنجلترا وأيرلندا .

(٢) للزيد من المعلومات والتفاصيل عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نيسم
يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٢٣٦-٢٣٧ ، Atiya, Crusade
in the Later Middle Ages, 283—59.

(٣) المقصود البابا انوسنت الرابع الذي جلس على الكرسي البابوي في

الفترة من سنة ١٢٤٣ إلى سنة ١٢٥٤ .

رسم رقم ٦



عربة ارستقراطية في مستهل القرن الرابع عشر

ضمهم اليه حلفاء بدلا من أن يكونوا أعداء له في الحروب الكبرى التي استغر
أوارهما بين المسيحيين والمسلمين فحسب ، بل ومن حثهم أيضا على قبول
السيادة الدينية لكنيسة روما . وفي سبيل هذه القضية المقدسة ، يروى جـون
صادقا أنه هو وزميل له فرنسيسكاني ، قد تحديا الجوع والعطش والحر والبرد
والإرهاق البدني والسخرية والأسر والتعرض للموت ، والواقع انهما لم
لم يتحديا كل تلك المتاعب فحسب ، بل عانيا أيضا كل المصاعب فيما عدا
السجن والموت . ولم تكن الرحلات في العصور الوسطى أمرا هينا بحال من
الأحوال ، بل كانت أمرا غير يسير بالنسبة لمبشر مبعوث إلى الشرق ،
وحدث عندما كان جون في جنوب روسيا في بداية رحلته أن « خارت
قواه حتى أشرف على الموت » ، ولكنه واصل الرحلة متذعرا بقوة إيمانه
وليس بحكمته . وامتطى الأخوان الراهبان جواديهما بثبات ، وكانا يستبدلان
كل يوم خمسة جياد ، كما عانيا من شدة الجوع حتى أشرفا على الموت ، طالما
كان التناز يعيشون على أكل اللحوم . وكان مذان المبشران ملزمين بالصيام
عن اللحم في الفترة من أربعاء الرماد حتى ليلة عيد الفصح . (١) وكانا
يشقان طريقهما باذلين أقصى جهدهما خلال العواصف الثلجية التي تهب على
مرتفعات آسيا الوسطى . وأخيرا وصلا إلى قصر امبراطور (٢) التتار في ٢٢
يوليو بعد رحلة استغرقت حوالى عام ونصف عام . وهناك أخذتهما الدهشة
من جموع السفراء الذين جاءوا لتهنئة الامبراطور ومعهم ما يربو على خمسمائة

(١) أى من أربعاء أيوب حتى عيد القيامة .

(٢) يلاحظ أن كولتزن يطلق على حاكم التتار لفظ « امبراطور » ، في
حين أن المصادر والأصول العربية والأجنبية ، وكذلك المراجع الحديثة =

عربة محملة بالفضة والذهب والملابس الحريرية . « وأهداه أحد الحكام الاقليميين سربا من الجبال المغطاة جميعها بأثمن الديباج والحرير المقصب . ومرة أخرى عضهما الجوع بنابه في بلاط الامبراطور . وكثيرا ما استلقيا طوال الليل فوق الجليد ، وذلك خلال عودتهما إلى وطنهما . ومع أنها قد حصلا في عودتهما على خطابات موجهة من الامبراطور إلى البابا ، إلا أنها لم تكن ذات قيمة سياسية (١) .

ولسوف ندهش عندما نتيين أن جون لم يتعلم شيئا من لغة التتار ، سواء قبل الرحلة أو في أثنائها . وقد قام بنفس هذه الرحلة وليم أوف روبروك ، وهو الآخر من الفرنسيين ، وذلك في سنة ١٢٥٣ ، وهي السنة التي تمت فيها نوافذ مجمع رهبان دير وستمنستر . فقد ذهب بصفته مبعوثا من قبل القديس لويس ملك فرنسا . وعانى وليم روبروك ما عاناه جون من قبل ، فضلا عن بعض المضايقات . فهو يقر بأنه بدين جدا ، الأمر الذي كان يتعبه وهو على صهوة جواده . وفيما يلي نص مادونه هاكلويت Hakluyt في ترجمته القديمة لمذكرات روبروك التي تمتاز بدقتها .

= تطلق عليه لفظ « ايلخان التتار » أو « خاقان التتار » . وإذا كان هذا اللفظ مسبوqa باسم الحاكم نفسه ، يقال مثلا جنكيز خان أو كيوك خان ، وهكذا . أنظر عن ذلك الفصل السادس من كتابي « لويس التاسع في الشرق الأوسط » - ص ٢٣٥ وما بعدها .

(١) فيما يتعلق برحلة كاربيني وخط سيرها ونتائجها ، انظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ والحواشي . أنظر أيضا Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 238 sqq.

« من بين عشرين أو ثلاثين جراداً ، كنا نحصل دائماً على أسوئها لأننا
أجانب . فكان كل فرد يأخذ ما يقع عليه اختياره من أجود الخبيل
قبلنا . وكانوا دائماً يمدونني بجواد قوى لأنني كنت مفرط السمينة ثقيل
الوزن . ولم أنجاسر على السؤال إن كان الجواد زهواناً يتبختر بلطف أم لا .
كما لم أجزؤ على الشكوى بالرغم من أن الجواد كان في خطواته متعباً للغاية ،
ولأننا يتعين على كل إنسان أن يقنع بنصيبه كيفما هبط عليه ، وكنا عندئذ في
أشد حالات الاضطراب . ذلك أن جيادنا كثيراً ما كانت تنعب قبل أن نصل
إلى أية جهة مأهولة بالناس . واضطرونا أخيراً إلى ضرب جيادنا بالسياط ،
ووضع ملابسنا على ظهور جياد أخرى . وكنا في بعض الأحيان نركب سويوا
على ظهر جراد واحد . وأما عن الجوع والعطش والبرد والعناء ، فلم تكن
لهذه العوارض من نهاية . فكانوا لا يقدمون لنا زادا إلا في المساء ، أما في
الصباح ، فقد اعتادوا أن يقدموا لنا مشروباً خفيفاً ، أو بعض البليلة
المشبعة بسائل لارتشافها بالمعلقة . وفي المساء كانوا يقدمون لنا اللحم ،
وبالذات كتناً وصدر كبش من الضأن . كما كانوا يقدمون لكل شخص
منا كمة محدودة من المرق لشربها ... وأحياناً كنا نجد أنفسنا مضطربين تحت
ضغط الظروف إلى أكل اللحوم نصف مطبوخة أو نيئة تقريباً ، نظراً لعدم
وجود الوقود لطبخها ، وبخاصة عند ما كنا نستلقي في الحقول ، أو عند ما
كان الليل يداھنا قبل وصولنا إلى نهاية رحلتنا . ولم يكن من
المناسب أن نجتمع روث الجهاد أو الثيران ، إذ كان يتدر أن نحصل على
شيء من الوقود بخلاف ذلك ، فيما عدا القليل من الاشواك في بعض الأماكن
حيثما وجدت . » (١)

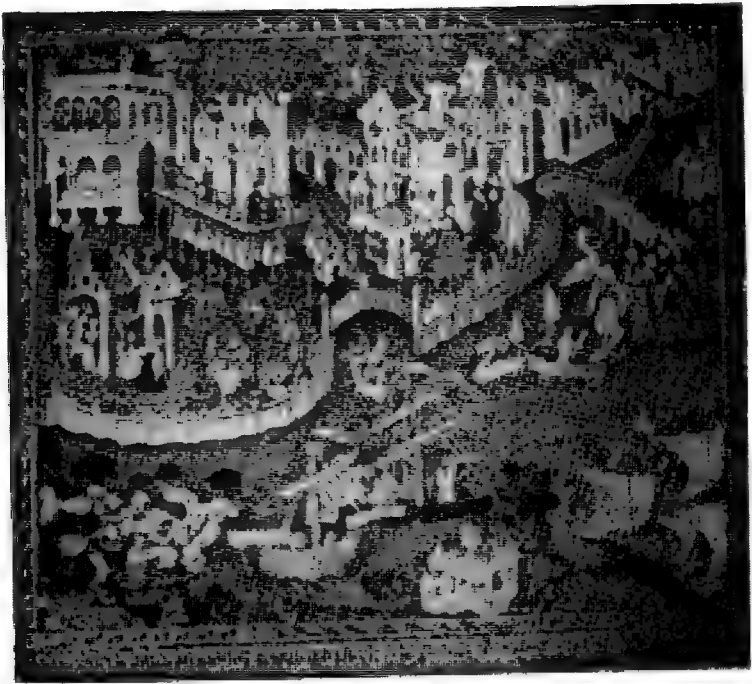
(١) وللمزيد من المعلومات عن سفارة روبروك ومذكراته التي سجل فيها
أخبار رحلته ومخاطراته في الشرق الأقصى ، انظر جوزيف نسيم يوسف :
نفس المرجع ، ص ٢٥٤ - ٢٦٩ والحواشي ، 243 - 264 ، Atiya, op. cit.,

وبعد ذلك بجيلين ذهب أودوريك أوف بردينون إلى أبعد مما ذهب إليه زميله : فقد ركب سفينته وزار الموانئ في بحار الشرق متقلا من ميناء إلى آخر حتى وصل إلى كانتون Canton ، ومن ثم يعم شطر آموى Amoy وفوشاو Fuchow وهانجشاو Hangchow ونانكينج Nanking وبكين Peking . وقد أمدنا بأوصاف حقيقية تثير الدهشة والغرابة ، عما شاهدته من عجائب الصين . على أنه لم يسرد إلا القليل عن شئون التبشير بأدق معانيها . ولكن عند عودته إلى الوطن عبده الشعب كما لو كان قديسا ، وصديق أنه عمده عشرين الفا من الوثنيين . ويحتمل أنه خدم في إحدى الكنائس العديدة الكبرى في الصين ، والتي أسسها حوالي سنة ١٢٩٢ جون أوف مونت كورفينو John of Monte Corvino ، وهو فرنسيسكاني أيضا .

ولقد درس جون أوف مونت كورفينو وزملاؤه من المبشرين لغة التتار بطبيعة الحال : وربما لاحظوا كيف أن بعض التجار قد نجحوا حيث فشل المبشرون الأسبقون . ومن هؤلاء التجار تعلموا أساليبهم : وكان أشهر هؤلاء التجار هو ماركو بولو (١) البندقي وكان أبوه نيقولا وعمه مافيو قد شرعا سنة ١٢٦٠ في الاتجار في بلاد الصين ، ثم عادا إلى وطنهما . وفي سنة ١٢٧١ أعادا الكرة وقد اصطحبا معهما ماركو وهو بعد صبي في نحو السادسة

(١) فيما يتعلق بتاريخ ماركو بولو ومغامراته وأسفاره في القرن الثالث عشر ، أنظر : Eileen Power, Med People, 34-70 . أنظر أيضا ترجمته العربية إيلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة محمد توفيق حسين - بيروت ١٩٥٧ ، ص ٤٩-٩٨ ، وكذلك جـوزيف نسيم يوسف : نفس المرجع ، ص ٢٧٠-٢٧١ والخواشي .

لوحة رقم ٦



آل بولو يبحرون من البندقية

عشرة من العمر . وأرسل البابا معهما أخوين من الرهبان الدومينيكان مبشرين . ولكن هذين الرجلين قتلوا راجعين من رحلتهم بعد أن تراءى اليهما أن جروبا قد اندلعت في منطقة أرمينية . ومع ذلك لم ييأس للتجار الثلاثة ، بل ساروا في طريقهم عبر آسيا الوسطى ، وواجهوا البرد القارس في أعلى هضبة في العالم : وبعد ثلاث سنوات ونصف وصلوا إلى بلاط الخانات . وفي سنة ١٢٩٥ عاد ماركو إلى موطنه في البندقية وقد أحاطه حظ أشبه ما يكون بالخيال ، بعد أربع وعشرين سنة من الترحال والاتجار . وقد روى أن أقاربه رفضوا التعرف عليه في شخص هذا الغريب الذي انهكته لفحات الجو وغيرت ملامحه كثرة الأسفار . وعند ذلك شق عباءته الملهلة ، فندفق أمامهم فيض من الجواهر الكريمة مما أقنع أولئك القوم من أهالي البندقية بحقيقة شخصيته على الفور . ولا شك أن آل بولو قد شقوا طريقهم بفضل الأسفار والتجارة ، واحتفظوا لأنفسهم بمخاين عمليئة بالجواهر . إلا أن أبداننا ترتعش رهبا إذا تأملنا في الأهوال التي تعرضوا لها ، ومنها المخاطرة بذبحهم في أية لحظة إن أحدا لا يستطيع إدراك الأسس التي قامت عليها تجارة المعصور الوسطى إلا إذا عرف هذه الحقيقة ، وهي أن تاجر (١) تلك الأيام كان بطبيعته تاجرا

(١) توجد وثيقة هامة كتبها أحد تجار مدينة نابولي سنة ١٤٥٨ وعنوانها «التاجر» . وهي تعاصر سقوط القسطنطينية في أيدي الاتراك العثمانيين ، وانتهاء حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا . إذ تغيرت أوضاع التجارة وتحسن مركزهم خلال اربعمئة عام (ق ١١-١٤) أكثر مما طرأ على أحوالهم من تغيير في القرون التالية . إذ أن من أهم مظاهر التاريخ الغربي الوسيط قيام طبقة التجار واحتلالها مركزا جعلها تسيطر على اللوردات الاقطاعيين ، وتشكل =

مغامرا . وعندما يشكو الناس من أننا نحن شعوب القرن العشرين نعيش في جيل مشوش قلق، يقولون « إن الرجل الفقير سيبدل قصارى جهده ليزيد من ثروته » : فإن صدق ذلك الآن ، فربما كان في الماضي أكثر صدقاً .

إن الدولار الكلى القدرة لم تكون له قيمة قط أعلى مما كانت له ، مثلاً ، أيام ماركو بولو . كما أنه لم يكن ثمة مزيد من الغش في التجارة . ذلك أن ما ذكره برنولد أوف ريجنسبورج Berthold of Regensburg في القرن الثالث عشر ، قد أبدته تماماً أثنان من معاصري تشوسر هما جوار (١)

= المجتمع الغربي في أخريات العصور الوسطى تشكيلاً يختلف تماماً عما كان مألوفاً في بداية تلك العصور . وفي القطعة المذكورة يتحدث الكاتب عن التاجر ومهنته وشرفه ، وصلة التجارة بالخير العام، والوسائل الشريفة التي يجب أن يتبعها التاجر في عمله ، وأهمية روح التعاون في مهنة التجارة ، وأخيراً ضرورة تمتع التاجر بحسن السمعة والسيرة والثقة الطيبة . بهذا يمكنه المحافظة على مركزه وشرف مهنته . أنظر الترجمة الإنجليزية للوثيقة المذكورة وتعليق نوريسون داونز عليها - N. Downs (ed.), Basic Documents in Medieval History, 184 — 186; cf. also R. S. Lopez and I. W. Raymond (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World, 416—418.

(١) ولد حنا جوار حوالى ١٣٣٠ وتوفى سنة ١٤٠٨ . وهو شاعر انجليزى واسع الثقافة والاطلاع . وكان لا يزال يدرك أهمية اللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة كوسيلة للتعبير : وكانت أول قصيدة هامة له هى *Mirrou de l'Omme* أو *Speculum Meditantis* وفيها يعهد العيوب =

Gower وبروميارد Bromyard . وفي الواقع يمكن القول بأن كل داعية إلى الاخلاق في العصور الوسطى قد أيده أيضا . (١)

والمساوى المتفشية في مختلف طبقات المجتمع الانجليزى . لقد كان جوار خطيبا بارعا وداعية إلى التمسك بأهداب الفضيلة والاخلاق ، ولو أنه لم يكن عطوفا على الفقراء والمعوزين . وفي أفضل قصائده المكتوبة باللاتينية والمسماء Vox Clamantis ، أبدى فرعه من ثورة الفلاحين التي قامت في انجلترا سنة ١٣٨١ . ويبدو في هذه القصيدة الحماس والإخلاص . هذا بينما نجد قصيدته المسماء Confessio Amantis ، التي ألفها بالانجليزية وفرغ منها حوالى سنة ١٣٩٠ مصطنعة متكلفة لا تتناسب بحال مع مقدرته الشعرية . أنظر : Myers, England in the Later Middle Ages, 85.

(١) نقل كولتون بايجاز ما قدمه جوار من دليل في صفحة ١٢٥ من كتابه Chaucer and his England (كولتون) .

بعض المراجع للفصل السابع

- Atiya, A. S., *Crusade, Commerce and Culture*. Bloomington, 1962.
- Benèdetto, L. F., (ed.), *Marco Polo, Il Milione: Prima edizione integrale*. Florence, 1928.
- Cahun, L., *Introduction a l'histoire de l'Asie, Turcs et Mongols, des origines à 1405*. Paris, 1896.
- Cave, R. C. and Coulson, H. H., *A Source Book for Medieval Economic History*. Milwaukee, 1936.
- Cheyney, E. P., *European Background to American History*. New York, 1904.
- Cordier, H. (ed.), *Sar Marco Polo, the Venetian*. London, 1903.
- Day, C., *A History of Commerce. Part II*. New York, 1907.
- d'Ohsson, C., *Histoire des Mongols, depuis Tchinguiz-khan Jusqu'à Timour Bèy ou Tamerlan*. 4 vols. Amsterdam, 1852.
- Dubeux, M. and Valmont, M., *Tartarie, Béloutchistan, Butan et Népal*. Paris, 1848.
- Firebaugh, W. C., *The Inns of the Middle Ages*. Chicago, 1924.
- Gross, C., *The Gild Merchant : A Contribution to British Municipal History*. 2 vols. Oxford, 1890.

- Heyd, W., *Histoire du commerce du Levant au moyen âge*.
Tr. into French by F. Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885-86.
- Howorth, H., *History of the Mongols from the 9th. to the 19th. century*. 4 parts in 5 vols. London, 1876-1927.
- Komroff, M. (ed.), *The Travels of Marco Polo*. New York, 1926.
- Lewis, A., *Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500-1100*. Princeton, 1951.
- وقد نقل الى العربية تحت اسم لويس (أرشيبالد): القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - ترجمة احمد محمد عيسى - القاهرة ١٩٦٠ .
- Lopez, R. S. & Raymond, I. W., *Medieval Trade in the Mediterranean World*. New York, 1955.
- Moule, A., *Christians in China before the year 1550*. London, 1930.
- Newton, A. (ed.), *Travel and Travellers of the Middle Ages*. London, 1930.
- Pelliot, P., *Les Mongols et la Papauté*. Three extracts from R. O. C. Paris, 1923-4.
- Pirenne, H., *Histoire économique de l'Occident médiéval*. Bruges, 1951.
- Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*. Tr. by I. E. Clegg. London, 1961.
- Postman, M. M., *The Cambridge Economic History of Europe*. 1961.

Renard, G., *Guilds in the Middle Ages*. Tr by G. H. D. Cole London, 1919.

Seligman, E. R. A., *Two Chapters on the Mediaeval Guilds of England*. Baltimore, 1887.

Thompson, J., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*. 1960.

Unwin, G., *The Gilds and Companies of London*. London, 1908.

الفصل الثامن

الفلسفة والفكر الحر

بعد هذه اللوحة الخاطفة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصور الوسطى، نعود قليلا إلى الوراء لنتتبع الفكر في نموه. لقد رأينا الكثير من الأفكار القديمة التي نبذها بطبيعة الحال المسيحيون الأول، كما استبعدت في فترة العصور المظلمة. ولنتمعن الآن كيف سارث الأمور في العصور الوسطى الحقيقية عندما استقر الغزاة البرابرة، وكانت الكنيسة تعمل تدريجيا على تحضرمهم، ولو أن ذلك لم يتم دون شيء من التساهل الذي ترك أثره على المدنية المرتبطة بالتاريخ الوسيط في كامل شوطها، وإن كان في الواقع لا يمكن تتبعه في المجتمع الحديث.

لقد ساد الاعتقاد خلال أمد طويل، واعتمادا إلى حد ما على ميشليه Micholet، وهو مؤرخ فرنسي عظيم ملهم ضلالتة فيما يتعلق بهذه المسألة عبارة بالغ فيها المؤرخ الكرونولوجي رالف جلابير Ralph Glaber، ساد الاعتقاد بأن البشرية كانت تتوقع نهاية العالم في سنة ١٠٠٠ ميلادية أو حواليها. وكان الناس وقتذاك يترقبون بشغف هذا الحدث. بيد أن ذلك الانتظار لم يكن في تقديره أكثر دقة مما شهد به القديس أوغسطين في حياته. ولذلك لما مضت السنين بعد سنة ١٠٠٠، لم يبق شيء سوى التوقع العام للعودة الثانية للمسيح (١)

(١) المقصود هنا عودة المسيح حسب اعتقاد المسيحية.

التي كان لها أثرها الفعال في أذهان الناس عامة ، بحيث أن الحياة الدنيا كانت في نظرهم أقل شأنا من الحياة الآخرة . وكانت هذه الفكرة ذات أثر منطقي في أذهان المفكرين أصحاب الرأي الراجح ، بينما انطبعت بصورة مبهمة في أذهان العامة ، وإن كانت آخذة في التلاشي البطيء مع مرور الزمن . وبعد تلك السنة الحاسمة لم يعد ثمة غزوات بربرية ذات أهمية . كانت أوروبا قد استقرت تماما ، وأصبح التجديد ميسورا . فما أن بدأ العمل حتى أخذ يسير بخطوات ثابتة : وكانت هذه الحركة التقدمية في سنة ١٠٠٠ ، وهي الحركة التي اندفعت بكل قوتها حوالي منتصف القرن التالي ، نهضة حقيقية لا شك فيها ، أشبه ما تكون بالنهضة المتأخرة التي نطلق عليها اسم « عصر النهضة » Renaissance . فقد هاجم الناس عن يقين المشكلات العظمى حول القدر والارادة الحرة وأصل الشر والتكفير عن الخطايا وحقيقة وجود المسيح في القربان المقدس (الافخارستية) : وقد أبدى ايبيلارد (١)

(١) ولد بطرس ايبيلارد سنة ١٠٧٩ وتوفي سنة ١١٤٢ : وهو من أشهر رجال زمانه في علم الجدل ، كما أنه صاحب فلسفة الشك والتشكك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح . عاش في باريس ، وكان أستاذا في جامعتها . ويعتبر بحق زعيم نهضة تحرير الفكر في القرن الثاني عشر . فقد دعا إلى استخدام العقل وتطبيقه على كل ما يقع تحت يد الانسان ، قائلا إن الانسان يجب ألا يؤمن في شيء قبل فهمه . وبص قولہ : Nothing is to be believed unless it is understood ونادى بتطبيق هذا المبدأ على الدين نفسه . ومن أهم آرائه أن الوساطة بين الخالق والمخلوق لا داعي لها ، وأن شعور الفرد بالندم على إثم اقترفه كفييل بأن يقربه إلى الله دون حاجة إلى الاعتراف على رجل دين . وهدفه من ذلك التقليل من سلطة الكنيسة =

Abailard ، كما أبدى جوه — انزسكوتوس أريوجينا (١) Johannes Scotus Eriugena في القرن التاسع ، استقلالا تاما عن التقاليد المتعلقة بدراسة كتابات آباء الكنيسة . (٢) بل إنه باعد بينه وبين التقاليد القانونية مبادعة تامة (٣) كما باعد بينه وبين مذهب خلاص النفس عن طريق المسيح . قال

= ورجال الدين . فكان ان اضطهدته الكنيسة وحكمت غايه بالهرطقة سنة ١١٢٢ . ولكن ابيلارد واصل تعاليمه والتف حوله الاتباع من جديد ، فاضطرت الكنيسة إلى المفو عنه . وأخذ خطر ابيلارد يشتد على الكنيسة بعد ذلك ، فحكم عليه البابا انوسنت الثاني بالهرطقة مرة أخرى . وانزوى بقية أيام حياته بدير كلوني الرئيسي بفرنسا عاكفا على الدراسة والتحصيل والتأليف إلى ان وافته منيته سنة ١١٤٢ : ولا جدال أن فلسفة ابيلارد كان لها أثرها في دفع عجلة التقدم إلى الأمام ، وتحرير الفكر الإنساني من القيود القديمة البالية ، مما هيأ الجو لظهور عصر النهضة فيما بعد : انظر يوسف كـرم : الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ، ص ٩٢ - ٩٤ ، عبد الرحمن بلوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٧٩ - ٨٤ ، Heer, Med. World, 79 sqq. Ker, The Dark Ages, 210.

(١) كانت غالة في جيل أحفاد شارلمان وأحفاد أحفاده مركزا مشعا مختلف أوجه النشاط الثقافي . وكان جوه انزسكوتوس اريوجينا من أبرز قادة الغرب في الناحية العلمية وقتذاك . وإلى جانبه اشتهر أشخاص مثل لوبوس اوف فريير ، وأجو بارد الليوني ، وسيلوليوس سكوتوس ، وهنكار الريمي . انظر LaMonte, op. cit., 160

(٢) هم الكتاب المسيحيون في القرون الخمسة الأولى .

(٣) المقصود بذلك التقاليد التي كانت تفضل الأخذ بأحكام القانون على الأخذ بأحكام الكنيسة .

ايلارد : « إن دم المخلص لم يكن ثمننا للشيطان دفع له من أجل خلاص الإنسان باعتباره تكفيراً مقابل خطيئة آدم ؛ وإنما كان تضحية ربط الله نفسه بنا عن طريقها أكثر مما كان مرتبطاً بنا من قبل عن طريق الحب » ولدينا هنا سابقة لوصف دانتي الرائع للحب الذي يجلب الحب بدوره ، أى « الحب الذى لا يترك محبا دون أن يكون له من يبادل هذا الحب . »

ويرى القديس برنارد (١) St. Bernard ان اعتقاد ايلارد باستخدام العقل في علم اللاهوت أمر لا يمكن قبوله . لقد كان هذا الرجل « قانعاً بالألا

(١) ولد القديس برنارد اوف كليرفو سنة ١٠٩١ ، وهو أكبر ممثل للتفكير الدينى الوسيط ، ومن الشخصيات البارزة التي أخرجتها جماعة الاخيران السترشيان . وكان من المتحمسين للنظام البندكتى بعد الاصلاحات التي أدخلت عليه . كما كان متصوفاً منكراً لذاته ، أسس ديره المعروف في كليرفو وأصبح رئيساً له . وكان يتمتع بنفوذ كبير ونشاط فائق . فهو الذى حسم النزاع البابوى سنة ١١٣٠ ، وقضى على الانقسام الكنسي بإعادة انوسنت الثانى إلى روما . وكان البابا ايوجين الثالث من تلامذته ، وإليه يرجع تأسيس جماعة الفرسان الداوية . وهو الذى ساعد في الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية . كذلك وجه عناية فائقة للدرس والكتابة والتأليف . وهو فى فلسفته وتفكيره يقوم بالدفاع عن تعاليم الكنيسة والقضاء على أى بادرة تنم عن المهرطقة أو الخروج على التعاليم المسيحية . وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع الفكرى بينه باعتباره ممثلاً للفكرة الدينية القديمة وبين ايلارد زعيم الفكر الحر فى القرن الثانى عشر . ولذلك يعتبر برنارد بحق أكبر معبر عن التفكير الدينى الوسيط . انظر: Heer, Med. World, 79—87 . راجع أيضاً LaMonte, The World of the Middle Ages, 404—406, 564—565; Painter, Hist. of the Middle Ages, 143, 147, 210, 212.

يرى شيئاً حالكا من خلال منظاره ، وإنما يجب عليه أن يواجه الأمور صراحة : « وكان برنارد على يقين من أن أبيلارد مدان بلا منازع : ولكن عقارب الساعة لا يمكن أن تعود إلى الوراء . ومن ثم انتصر مذهب أبيلارد في نهاية الأمر في عهد مفعم بالنشاط والتعطش إلى العلم : وكان أى بحث أو نقاش موضع ترحيب طالما أنه يتمشى صراحة في نطاق الحدود التي رسمها الكتاب المقدس وأقرتها المجامع الدينية الكبرى . ولقد رأينا كيف أن كنيسة العصور الوسطى حافظت بثبات على كل ما أوحى به الكتاب المقدس ، كما يجب أن تتمسك به أكبر الطوائف الدينية .

وكانت قرارات المجالس الدينية قلما تحترم . وقد بلغت الجرأة ببعض المفكرين أن يعارضوا صراحة كبار الآباء مثل القديس امبروز (١) St. Ambrose والقديس اوغسطين والقديس جيروم والقديس جريجورى

(١) القديس امبروز هو أسقف مدينة ميلان في عهد الامبراطور الشاب فالنتيان الثاني (٣٧٤ - ٣٩٧) ، ومن الأعمدة التي كان يرتكز عليها عرش هذا الامبراطور الغربي . ويقال انه وقف ضد رغبة الامبراطور عندما أمر ، تحت تأثير أمه الامبراطورة اوغستينا الأريوسية ، بالتنازل عن كنيستين في مهلان لأتباع المذهب الأريوسى هناك . وكانت المنطقة الأريوسية قد انتشرت في شمال أوروبا ، لاسيما بين القبائل الجرمانية المتبررة . انظر :

Ker, *The Dark Ages*, 205 sqq.; Shorter *Camb. Med. Hist.*, I, 68-70; Barrow, *The Romans*, 195. cf. also LaMonte, *The World of the Middle Ages*; 77, 84; Painter, *Hist. of the Middle Ages*, 15, 18.

الذين كانوا يتمتعون بمكانة اسمى من غيرهم . وكان الجدل والمناقشة يجدان في نطاق هذه الحدود تشجيعا قويا يتيح لنا أن نطلق عليه ما يعرف باسم « نهضة العصور الوسطى » . وقد اتبع مذهب ابيلارد باستخدام للنطق تلميذه بطرس اللباردى (١) Peter Lombard ، وهو أسقف باريس الذى يعتبره الجميع أول قادة الفكر الفلسفي التقدمي في القرون الوسطى . وقد تدرج مذهب ابيلارد الفلسفي أول ما تدرج في كتابه « نعم ولا » « Sic et Non » . ففي هذا الكتاب الشهير ، المقدم له بدياجة مأثورة عن تفسير الكتاب المقدس ، أخذ ابيلارد عن الكتاب المقدس أو عن الآباء ما بدا له من الآيات التى يبدو التناقض فيها لترتيبها بدقة بقصد المقارنة . وبذلك قدم موضوعات خصبة للمناقشة ، ومن هنا جاء العنوان المذكور للكتاب . وقد عكف بطرس اللباردى على إعداد هذا العمل فى كتابه « الجمل » « Liber Sentiae » ، وهو أوفى من سابقه : وقد حاول فيه التوفيق المعقول بين هذه الآيات ، الأمر الذى تجنبه ابيلارد : وسرعان ما غدا كتاب الجمل هو الكتاب المنهجى لعلماء اللاهوت وشكaroجرب يكون من أن هذا الكتاب كان فى أيامه قد أغنى بالمرّة عن دراسة الكتاب المقدس ، ومن أن الناس كانوا يبنون مناقشاتهم

(١) بطرس اللباردى هو أحد تلامذة ابيلارد ، وصل إلى مركز أسقفية باريس ، وقام بنشر تعاليم استاذة ومبادئه التى ضمنها فى كتابه المعروف باسم « كتاب الجمل » الذى غدا مصدرا رئيسيا فى دراسة علم اللاهوت فى الفترة الباقية من تاريخ القرون الوسطى . انظر عن ذلك : Shorter Camb. Med. Hist., I, 626, 629; Monroe, Hist. of Education, 323; cf. also LaMonte, The World of the Middle Ages, 564-565, 572.

على المصنوع غير الكاملة المقتبسة من الكتب المقدسة ، بدلا من أن يعودوا
أنفسهم على تفهم هذه النصوص كاملة .

وهذا يسوقنا الى الحديث عن الفلسفة المدرسية والفكر الحر الوسيط
Scholasticism . وأوضح تعريف لهذه الكلمة إنما يتضح من اشتقاقها
وتاريخها . فقد كانت تعنى تعليم الفلسفة واللاهوت في دور العلم ، وكانت
الجامعات تحتل المكانة الأولى في فن الحوار والمناقشة في العصر الوسيط ،
وكان العمل في دور الفكر هذه التي أحرزت تقدما في نهاية القرن
الثالث عشر ، يتم طبقا للوسائل التي كانت تعتبر طبيعية لعصر كاد أن
يكون محتويا من الكتب ، وإن كان متعطشا إليها . وكان للمدرس
وحده بطبيعة الحال كتابه المدرسي ، وكان يناقشه مع تلاميذه في الفصل
على طريقة سقراط ، أى بوسائل المنطق ، أو على طريقة السؤال والجواب ،
وقد احتفظ التعليم في العصر الوسيط حتى النهاية بآثار من طابعه المنطقي
الأصلي ، كما يبدو في أحسن صوره في كتاب « الكامل في اللاهوت »
Summa Theologiae لمؤلفه القديس توما الأكويني : ففي هذا الكتاب كان
كل موضوع مقسما إلى أربعة أجزاء : إذ يسرد المؤلف أولا المناقشات الهامة
التي تتعارض مع وجهة نظره المؤدية إلى النتائج الحقيقية ، ثم يتلو ذلك تلك
التي تؤيد وجهة نظره ، ثم يصدر هو بنفسه حكمه النهائي عليها . وأخيرا
يعمد إلى تفسير الاعتراضات الظاهرة التي سبق ذكرها واحدة بعد أخرى .
وبعبارة أخرى نراه يمثل أربعة أدوار هي : دور المدعى ، والمدعى عليه ،
والقاضى الابتدائي ، ثم قاضى الاستئناف : وكان لهذه الطريقة ذات الطابع
المميز أثرها في عدد من الموضوعات وهي : الكتاب المقدس ، وكتابات

الآباء، وفلسفة أرسطو التي كانت تتخللها بعض أفكار افلاطون وبخاصة عن طريق الافلاطونية الحديثة . ولقد ظل جانب كبير من تراث أرسطو باقيا ، حتى خلال العصور المظلمة ، في تراجم بيوثيوس (١) Boethius ؟ وفي نهاية القرن الثاني عشر كانت قد اكتملت فلسفة أرسطو ، أولا عن طريق التراجم عن النصوص العربية والتعليقات عليها، ثم عن طريق النصوص اليونانية مباشرة . ويرجع الفضل في ذلك إلى عدد من طلاب العلم مثل توما الأكويني،

ولنا أن نتخذ مثالا طيبا لأسلوب الفلسفة المدرسية في مناقشة القديس توما عن كيفية معاملة المهرطقة . ويجب أن نتذكر أنه لم يكن للاهوتى المؤمن فى ذلك العصر حرية الخيار فى بعض الأمور . فلم يكن مسموحا له أن يتشكك إطلاقا فى أى أمر يبدو أن السلطة الكنسية قد أقرته . لذلك اعتمد القديس توما ، بحكم الضرورة ، على المعلومات المعروفة فى العصور الوسطى عن النعيم والجحيم ، وعلى رأى القائل بأن الإنسان عندما يلفظ آخر أنفاسه يكون الأمر الوحيد فى الغرب الذى يحسم ما بين أبدية تفوق فيها السعادة كل حد

(١) بيوثيوس هو أحد المفكرين الذين تابعوا المنهج الاوغسطينى . حاول أن يرمى أسس الديانة المسيحية ويضع قواعدها ، كما فعل آباء الكنيسة الأول . كما عمل على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة ، تلك المحاولة التى تعد مرحلة انتقال بين الفلسفة القديمة التى كانت قد انتهت فى أوائل القرن السادس وبين فلسفة العصور الوسطى الواقعة بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر أو الخامس عشر . أنظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصور الوسيط ، ص ٦ - ٥٩ . وكذلك Ker, op. cit., 103—117 .

وبين عذاب لا يدركه الوصف ، هو معرفة ما إذا كان قد توفى في ظل إيمانه
بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية أم لا . ويعتبر عدم الإيمان ألن الخطايا
والآثام . ولو أن عدم إيمان الوثنيين أو اليهود يبعد عن الحقيقة أكثر من عدم
إيمان المراطقة ، إلا أن خطيئة المهرطق تكون أعظم من ذلك . وهذا الأمر
له أهميته من حيث مسألة الإلزام الديني . ذلك انه لا يجوز الزام أولئك
الذين لم يدخلوا قط في المسيحية على اعتناقها قسرا . إلا أنه يجب ارغام
المراطقة والمتردين على العودة إلى المسيحية ، ولو بالالتجاء إلى استخدام
القوة معهم لاداء ما وعدوا به ضمنا . ومن حق المؤمن أن يرتبط بمعاملات
مع الوثنيين واليهود ، ولكن لا يجوز له ذلك مع المراطقة . ثم أنه
لا يجوز السماح لأية فئة من غير المؤمنين بأن تتسلط على المسيحيين الكاثوليك .
ومن ثم لا يجوز لأى يهودى أن يستخدم مسيحيا . ولكن ذلك كان مباحا
لنوى العقائد الدينية من غير المؤمنين بقدر ما يظهرون من تأييد للعبادة
المسيحية الحققة ، مثل بعض الطوائف اليهودية التي سبق أن رمزت إلى تحليل الكنيسة
دون سواها من الطوائف : وليس من الجائز تعميم أطفال غير المؤمنين ضد
رغبة ذويهم . وعلى الرغم من أن المراطقة لا يستحقون أية رحمة ، إلا أنه يجب
تحذيرهم مرة ومرتين : فاذا ظلوا بعد ذلك متشبثين بهرطقهم ، وجب إذن
استئصال شأفتهم تماما من هذه الدنيا ، لأننا إذا كنا نعدم مزيفى العملة وغيرهم
من الأشرار ، فمن باب أولى قتل المراطقة المتمسكين بأفكارهم . ومع ذلك
فانه مهما تكررت عودة أى مهرطق إلى المراطقة ، فلا يجوز اطلاقا حرمانه
من الغفران السماوى إذا ندم على هرطقته وعاد إلى حظيرة الكنيسة . أما الغفران
الدنيوى فلا يناله إلا مرة واحدة ، فاذا عاد بعد ذلك إلى المراطقة حتى عليه

الموت ومصادرة متاعه . وعندئذ لا تشفع له أية عقوبة أخرى لانقاذه ، وإلا
وجب أن يكون كل ما يكتنه المجتمع من خير كفيلا بأن يراعى تماما كل
اعتبارات الرحمة بالنسبة لهذا الفرد . (١)

وقد تم استنتاج ذلك كله بواسطة المنطق المدقق السليم، من الآراء الأساسية
المتفق عايبها في المسيحية الأصيلة في القرون الوسطى . ولا يسعنا أن نتهرب
عما توصل إليه الأكويينى من نتائج إلا إذا أنكرنا منطقة أوتجاهلناه . والواقع
أن هذه الاستنتاجات إنما تنطوى ضمنا تحت ذلك المنطق .

وعندما يتحقق هذا الترابط بين المنهج والموضوع ، فهو لا يحسد معنى
كلمة الفلسفة المدرسية فحسب ، التى نعى بهسا تطبيق تلك الفلسفات المشار
إليها على أصول الدين ، وإنما يفسر أيضا الخصائص الرئيسية التى تميزت بها
فلسفة القرون الوسطى ، وتتفق الفلسفة الوسيطة مع الفلسفة القديمة فى اعتماد كل
منهما على المنطق ، ولكنها تختلف عنها من حيث أنها تعتمد أساسا على شكل
معين من الفكر التقليدى كان معظمه شديد الخطورة ، وكانت معارضته
محرمة تحريما باتا . وكان هذا القيد أضيق مما يبدو لنا . فقد تمتعت مدارس
القرون الوسطى بحرية أوسع من تلك التى تمتعت بها المدارس التابعة للبابوية

(١) كانت مثل هذه المناقشات حول الهرطقة وغيرها موضع جدل ونقاش
واهتمام زائد من الكنيسة والمفكرين فى المصور الوسطى ، وفيها وضعت الكثير
من البحوث والمؤلفات قبلها وحديثا .

منذ مجلس ترنت (١) Council of Trent . وقد أصر الكاردينال ليومان Newman على ذلك مشددا وبصورة مبالغ فيها . ومع ذلك فقد ظل هذا القيد حقيقة ماثلة وكان يباعد بين كل من الفلاسفة المدرسية الوسيطة والفلاسفة الحديثة ، بأشد مما يباعد بينها وبين الفلسفة القديمة . وقد اضطر أكثر اساتذة العصور الوسطى جراً وأعرقهم أزالة إلى الخضوع للتقاليد إلى حد كان يمجّه أتباع مذهب كل من أرسطو وأفلاطون ، وبصورة بلغ عنفها نفس ما بلغته بالنسبة للفلاسفة غير اللاهوتيين في العصور الحديثة . ولم يكن وليم أوف اوكهام (٢) William of Okham أعظم فلاسفة العصور الوسطى

(١) عقد مجلس ترنت فيما بين عامي ١٥٤٥ و ١٥٤٦ ، للنظر في مشروعات الإصلاح الكنسي والوضع البابوي بصفة عامة بعد أن أخفقت المجالس السابقة في اتخاذ اجراءات حاسمة في هذا الصدد . وقد أصدر المجلس المذكور عدة قوانين هدفها اصلاح الجهاز الكنسي البابوي . أنظر : Cragg, Church and Age of Reason, 21-2.

(٢) ولد وليم أوف اوكهام سنة ١٢٩٥ وتوفي سنة ١٣٤٩ . وهو من الاخوان الفرنسيسكان ، درس في اكسفورد وعلم في باريس . وقد اشتهر بتحرره من كل الفلسفات المدرسية المعروفة في القرون الوسطى . كما أثار حركة قوية تتصل بنقد الفلسفة والفصل بينها وبين الدين ، والفصل بين السلطتين الدينية والمدنية . ولذلك يعتبر اوكهام بحق مؤسس الفكر الحديث . ومن مؤلفاته « شرح على الأحكام » الذي يتضمن مذهبه الفلسفي ، و « الشرح الذهبي » في المنطق ، وكتاب « مائة قضية لاهوتية » ، وكتاب « المجموعة المنطقية » . أنظر يوسف كرم : الفلسفة الأوروبية ، ص ٢٠٠-٢٠٨ ، عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٨٢-١٩٠ ، Myers, England in the Late Middle Ages, 73-5.

المتأخرة شجاعا ومجددا فحسب ، وإنما كان ثائرا حقيقيا على البابوية خلال
سنى حياته (١٣٠٠-١٣٥٠) . ورغم إصراره المتكرر على الحرية ، فقد
كان مترددا إذا قورن بمعاصره الطبيب مارسيلوس أوف بادوا (١)
Marsilius of Padua . وظل الفكر ، ضمن الحدود المسموح بها ، نشطا
قوى التأثير إلى أقصى درجة طيلة أجيال عديدة . ولقد صدم أحد القساوسة
الاقليميين حين نما إليه أن نزاعا قام بين اخوانه الرهبان الفرنسيين-كان في
اكسفورد حول « ما إذا كان الله موجودا أو غير موجود » . وعندما تناول
القديس توما الاكوينى الأمثلة العشرة الأولى من كتابه « الكامل فى اللاهوت » ،
أحس بها تف يدعوه إلى المناقشة فيما إذا كان الله موجودا ، وهل هو كامل ،
وهل هو الخير الاعظم ، وهل هو أبدي لا نهائى . وسعى للوصول إلى جواب
عن كل اعتراض واجهه قبل أن يموت .

ومع ذلك لم يتسن للكثيرين الوصول إلى إجابة عن تلك المسائل
والاعتراضات . وعلى الرغم من الاحتجاجات الرجعية ، فقد كانت المسيحية
فى العصور الوسطى قوية جدا ، حتى أنها لم تتخل عن توجيه العقل الانسانى
الى المناقشة فى نطاق الدائرة المسموح بها . وهكذا كان لا ييلارد الغلبة على

(١) مارسيلوس أوف بادوا طبيب ومحامى وفيلسوف من اتباع مدرسة
ابن رشد . وكان من أشد المعارضين للبابوية بسبب الانحلال الذى دب فى
كيانها ، شأنه فى ذلك شأن كثير من مواطنيه الايطاليين ، حتى لقد وصفه
الباباء كامنك السادس بأنه « أكبر هراطقة ذلك العصر » . وفيما يتعلق بأفكاره
والآراء التى نادى بها لاصلاح الكنيسة ، أنظر : Hay, Italian Renaissance, 16-7, 50, 53; Heer, Med. World, 284 .

القديس برنارد وعلى مدرسة القديس فيكتور النصوفية (١) ، وقد أثار هذا التدريب العقلي الكثير من المنازعات بين العقل الباحث والحدود المقررة رسمياً . وفي ذلك كان القديس برنارد على حق تماماً . وسواء أكان ايلارد قد تكهن بهذه النتيجة أم لا ، وإذا جاز لنا أن نصدق أقواله الخاصة ، فهو لم يتمتع بـ أى خطر حقيقى على العقيدة : وقد ولدت هذه النهضة التى شملت العلم والبحث قدراً كبيراً من الهرطقة . ولم يكن من السهل أن تتفق آراء ارسطو وفلسفته مع المسيحية فى كثير من النواحي : وكان أقل من ذلك رغبة فى التفاهم اولئك الذين قاموا بترجمة تأليفه والتعليق عليها ، وأخصهم ابن رشد (٢) الذى كان أكثرهم شعبية فى باريس . ومن ثم حرم مجلس سينز Council of Sens دراسة أعمال ارسطو فى الجامعة ، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الطبيعية . وكرر المندوب البابوى هــذا التحريم سنة ١٢١٥ : وفى سنة ١٢٣١ جدد البابا التحريم مرة أخرى « إلى أن يتم فحص هذه الآراء

(١) تنتمى هذه المدرسة الى دير القديس فيكتور الاوغسطينى بباريس ، ومنها تخرج أكبر ممثلى التصوف العقلى فى العصر الوسيط ، وفى مقدمتهم هوج دى سان فيكتور (١٠٩٦-١١٤١) وتلميذه ريشارد دى سان فيكتور المتوفى سنة ١١٧٣ . أنظر يوسف كرم : الفلسفة الاوربية ، ص ١٠٠-١٠٢ .

(٢) ابن رشد هو الطبيب والفيلسوف العربى الشهير ، ولد فى قرطبة سنة ١١٢٦ وتوفى فى مراكش سنة ١١٩٨ . وهو المعقب على ارسطو وفلسفته . وكان مذهبه الفلسفى يميل الى المادية ووحدة الوجود ، أى المذهب القائل بأن الله هو الكون والكون هو الله أنظر Rosenthal, Political Thought in Med. Islam, 175-209, 291-9 . وفيما يتعلق بالرشدية اللاتينية ، أنظر

عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٦١-١٦٢ .

وتطهيرها ، ، وشكل لجنة خاصة لهذا الغرض ولكن هذه المحاولة بالذات كشفت عن قصور في فهم أرسطو حسبما قال الأب ماندونيه Father Mandonnet وجدد القرار في سنة ١٢٦٣ . ولكن عملية التطهير الرسمي لمؤلفات أرسطو لم تتم قط ، لأنه لم يكن في الواقع من السهل القيام بها ، نظرا لأن مؤلفاته تمتاز بعمقها ووضوح تعبيرها بحيث لا يحتمل أن تكون منقولة عن قصاصات منزعة من مؤلفات أخرى أو مقتبسة منها ، والواقع أن فلسفة أرسطو كانت طيلة هذه الفترة قد غزت مدارس باريس بقدر كبير أو قليل ، علي الرغم من أحكام القانون . وبعد ذلك أصبحت هذه الفلسفة ضمن مناهج التعليم (١) . وفي سنة ١٢٥٥ كانت جميع مؤلفات أرسطو في حكم المقررة في الجامعة ، وذلك بالنسبة لمناهجها التي تمنح عنها الدرجات الجامعية ، طالما كانت فلسفته ميسورة وفي متناول الفهم .

لذلك لم يكن مستغربا أن تكشف تلك السنوات عن تيار تحتي شديد يدهو إلى الفكر الحر بمعناه الحديث . ولقد أدبى امورى دى بين (٢) Amaury de Béno ، ويحتمل أنه أحرق حوالى سنة ١٢٠٧ بسبب آرائه

H. RaahdaH, Universities of Europe, 1st. ed., I, 68 sqq. (١)

(كوتون).

(٢) درس امورى دى بين في شارتر بفرنسا ، وكان بها وقتذاك مدرسة لها شهرتها العلمية والفلسفية . وكان مدرسا للفلسفة ، وقد أدانته الكنيسة واتهمته بالهرطقة للآراء التي نادى بها . وقامت بحرق جسده في سنة ١٢١٠ ، بعد أربع سنوات من موته . انظر : Heer. Med. World, 213-4 .

الداعية الى وحدة الوجود . وتم كذلك حرق كتابات داود دي دينانت (١)
David de Dinant . وفي نفس الوقت أدين جمع من الطلبة باعدامهم
بواسطة الخازوق ، أو بإيداعهم السجن المؤبد . وقد أدين في سنة ١٢٧٧ اثنان
أو ثلاثة من خيرة المدرسين الباريسيين الممتازين . ويحتمل أنه حكم عليهم بالسجن
مدى الحياة ، وأحد أولئك المدرسين هو سيجر دي برابانت Siger de Brabant
الذى وضعه دانتى جنبا الى جنب مع توما الاكوينى فى النعيم . ولو أنه هو
نفسه الذى كان يدرس بدون شك تعاليم ابن رشد وفلسفته . وفى ذلك الوقت
كانت محاكم التفتيش فى أوجها . وقد رفضت السلطات دفع سيجر القانونى ،
القائل إن أى اقتراح أو موضوع قد يكون صحيحا فى الفلسفة وإن كان غير
صحيح فى اللاهوت . وظل هذا الدفع هو الملاذ الأخير للمفكر الحر . ويمكن
أن نذكر مثلا مثيرا للغاية عن جامعة اكسفورد فى سنة ١٣٨٢ ، اذ كافح
مدرس جامعي لاثبات رأى ويكليف فى سر التحول المادى فى العشاء الربانى .
ولما اجتمع المدرسون أخيرا ، قال لهم « إنه لا توجد وثنية مثل سر القربان
المقدس » Quod non est idolatria nisi in Sacramento Altaris .
وعندئذ اكتفى كبير القضاة بأن قال له : « أنك الآن تتكلم كفيلسوف » ؛
يعنى هذا ، بعبارة أخرى ، أن آراءه تعتبر هرطقة من وجهة النظر

(١) وكذلك أدانت الكنيسة آراء وأفكار داود دي دينانت متهمة إياه
بهرطقة . وقد قامت نظرياته على أساس تحكيم العقل والمنطق على كل شئ ،
حتى على الدين نفسه . إذ قال إن الله هو المادة والمادة هى الله ، وأنه لا توجد
حقيقة بدون المادة . وكل ما نعرفه عنه أنه تمت مقابلة بينه وبين البابا انو سنك
الثالث فى روما . أنظر : Heer, op. cit., 214-5

اللاهوتية ، ولكننا سنحيلها إلى مناقشة فلسفية (١) : وعلى الرغم من ذلك ، بل وعلى الرغم من إدانة المفكرين المنشقين الخارجين على تعاليم المسيحية السليمة في مختلف الجامعات بصفة دورية ، يمكن أن نلس أن التيارات التحتية كانت لا تزال في اندفاعها . ومع ذلك لا يوجد مفكر في العصر الوسيط يستطيع أن يتجاوز الحدود المتفق عليها ما لم يسعفه ظرف ملائم لحمايته .

لقد فكر المقدس يواكيم الفيورى (٢) Joachim of Fiore فعلا في نظرية غير مدروسة بشأن الإصلاح الدينى . ومع كل ما يبدو على هذه النظرية من اضطراب ، فقد كان من الميسور أن تفعل الكثير للقضاء على سلطة رجال الدين والأسرار المقدسة . ولكن ما أن تضاعف عدد مريديه ، وقام مدرس باريسى باستخلاص النتائج المنطقية علنا ، حتى أثار

(١) Fasciculi Zizaniorum, R.S., 307 (كولتون) .

(٢) يواكيم هو أحد رجال الدين من بلدة فلوريا بجنوب إيطاليا . ويلاحظ أن البيئة التي نشأ فيها حيث وجدت ثقافات عديدة متنوعة الأصول والمصادر قد خلقت في الجنوب الايطالى عقلية متحررة من باقى أجراء إيطاليا ، تتميز بأنها أقل خضوعا لسلطان الكنيسة . وكان لهذا أثره في الأفكار التي نادى بها يواكيم ، والتي كانت تبدو فيها نفخة التشاؤم بسبب الحال السيئة التي وصلت إليها الكنيسة والمسيحية الغربية وقتذاك . انظر : Heer, op. cit., 233-5.

ذلك البابا فأدائه ، (١) وثمة أستاذ آخر من جامعة باريس يدعى نيقولا دى
او لزيكوريا Nicholas de Ultricuria ، بادر إلى إمالة اللثام عن شكوك
بركلى Berkeley وهيوم Hume الفلسفية . وقامت المحكمة البابوية بمراجعة
سريعة لاثنتين وثلاثين رأيا له ، وقضت بإدانتها رسميا أمام البسلاط البابوى
سنة ١٣٤٦ . وعندئذ تراجع نيقولا عن آرائه وكوفى بمنصب عميد
جامعة Metz لمدة سنتين : وكان هذا الحكم هو الوحيد الذى حظى
مصادفة بسجل دونت فيه الدروس التى كان يلقيها . وثمة أماننا مثل شديد
الوضوح مما يصادفنا فى كل مكان من إشارات أشد إبهاما وغموضا . وهكذا
دفن الفكر الحر تحت الثرى ، ولم يتسن له أن يشكل لنفسه مدرسة حيث أقامت
محكمة تفتيش قوية . ومع ذلك فلم يكن من الميسور استئصال الفكر الحر
بصفة نهائية . وبمرور الزمن وانتشار العلم وظهور طبقة سكان المدن ،
انطلق الفكر الحر مرة أخرى من عقالة بخطوات واسعة . وكانت
فلورنسا — وهى إحدى المدن التى تمتعت بمحضرة زاهرة — هى الأخرى
أقل إيمانا بالمسيحية الأصلية . ولقد حشد دانتي ضمن دائرة كاملة من جميعه
رجالا ماتوا وهم لا يؤمنون بخلود النفس : وفى الجيل التالى شكاً بترارك (٢)

(١) لقد سرد المؤلف القصة بإيجاز فى كتابه : Coulton, Five Centuries of Religion, II, c. vii (كولتون) .

(٢) هو فرنسيسكو بترارك ، ولد فى أرزو Arezzo قرب بادوا فى إيطاليا
سنة ١٣٠٤ وتوفى سنة ١٣٧٤ . وهو متضلّع فى الأدب والتسارىخ والآثار
والمخطوطات القديمة ، كما كان من المهتمين بإحياء التراث الرومانى القديم .
فقرأه يكتب رسائل باللاتينية الى شخصيات العالم القديم مثل شيشرون =

Petrarch من أن أصحاب المدرسة الفلسفية الحديثة في البندقية قد سحروا من المسيحيين المتزمتين وغيرهم قائلين إنهم مجانين من الطراز القديم ، وأنهم يخشون عقاب الناس لهم أكثر من خوفهم من انتقام الله . ومن ثم كانت لديهم الجرأة على مهاجمة ليس فلسفة أفلاطون عن الخليفة فحسب ، بل أيضا موسى وسفر التكوين والإيمان الكاثوليكي وتعاليم المسيح المقدسة . فما أن زایلهم هذا الخوف حتى لجأوا في مجالسهم السرية إلى السخرية من المسيح وإلى عبادة أرسطو الذي لا يفهمونه . (١) ولقد روى سكشتي Sacchetti الذي عاصر نشوء الشيء الكثير عن عدم الإيمان الذي ساد فلورنسا في أيامه ، فقد خصص عظمته رقم ٤٣ لهذا الموضوع . وأصبحت جامعة بادوا بؤرة المذهب ابن رشد . ومن ثم انتشر هذا المذهب في إيطاليا ، وفي أوائل القرن السادس عشر نوقش موضوع الخلود أمام المحكمة البابوية ، وكان البابا آنذا هو ليو العاشر ، وكانت النهضة قد أطلقت فيضانا من التشاوم .

وكانت الهرطقة لا تزال محرمة . ولكن هذا التحريم ، شأنه شأن غيره من القرارات المأثلة ، كان ينتهك علنا وبصورة مطردة ، ولم يعد ممكنا

= وفرجيل وغيرهما . وكان يرى أن أفضل ما انتجه هو ما كتبه باللاتينية ، وأن ما دونها باللغة الإيطالية لا أهمية له ، ولو أن العكس هو الصحيح . ويدرك القارئ لأشعار بترارك أنه كان من المهتمين بتمجيد شخصه . كما أنها كانت تمثل مرحلة من مراحل التطور التي مر بها الأدب في المجتمع الغربي الوسيط . إذ حاول بترارك كسر قيود العصر الوسيط . وكان مولعا بحمال الطبيعة ، وهو الأمر الذي حرّمته المسيحية وفلسفتها التي كانت تدعو إلى العالم الآخر .

أنظر Hay, Italian Renaissance, 75-88, 90-8; Mommeen, Med. and Renaissance Studies, 73-261.

(١) نقلا عن كتاب : E. Renan, Averroës, 335 (كولتون) :

آتخذ قيام عصيان منظم ضد السلطات الكنسية ، وكان الخارجون على معالم الكنيسة يقبض عليهم أحيانا ويعاقبون. وحتى الأقوياء من بينهم كان يلحقهم هم أيضا نفس المصير . ومع ذلك وجد نحد متزايد بين من هم أكثر قوة ، لما كانوا يتميزون به من حصافة تكفى لخلعهم على عهدهم معارضة الوضع القائم إلا بصورة مستترة ، وبما لهم من ثروة أو مكانة مما يجعلهم ذوي شأن . يضاف إلى ما تقدم ، أن الفكر الحر الذي ظهر آنثذ ، مثله مثل غيره من الأمور المهرمة ، لم يكن فى الغالب من العناصر الطيبة ، ويرجع تدهور الفلسفة المسلم به فى أخريات العصور الوسطى - على الرغم من الأسماء اللامعة المنتشرة هنا وهناك مثل نيقولا اوف كيوز Nicholas of Cues وجيراليد بيل Gabriel Biel - يرجع ذلك إلى حد بعيد إلى الحاجة إلى حرية حقيقية . لقد قتلت آراء ويكليف وتعاليمه الأصالة الأولى لجامعة أكسفورد : وأصبح فى حكم المستحيل بالنسبة لأى مدرس أن يضع الحد الوسط بين الشك الخالى من المسئولية وبين التمسك اللين بالأفكار القديمة البالية . وكانت هذه هى العقبات التى وقفت فى وجه التقدم فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية .

بعض المراجع للفصل الثامن

Alphandéry, P., Les idées morales chez les hétérodoxes latins au début du XIIIe siècle. Paris, 1903.

Artz, F. B., The Mind of the Middle Ages, A. D. 200-1500. New York, 1954.

Baeumker, C.,

1 - Die europäische Philosophie des Mittelalters. Berlin & Leipzig, 1909.

2 - Die christliche Philosophie des Mittelalters. Leipzig, 1913.

Baeumker, C. & Hertling, G. v. (eds.), Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters. Münster, 1891 ff.

Boethius, Consolatio Philosophiae. 1947.

Brampton, C. K. (ed.), The De imperatorum et pontificum potestate of William of Ockham, Oxford, 1927.

Brentano, F., Aristoteles und seine Weltanschauung. Leipzig, 1911.

Bruyne, E. de, Saint Thomas d'Aquin, le milieu, l'homme, la vision du monde. Paris, 1928.

Bury, J. B., A History of Freedom of Thought. New York, 1913.

Bussell, F. W., Religious Thought and Heresy in the Middle Ages. London, 1918.

Coker, F. W., Readings in Political Philosophy. New York, 1914.

Cooper, L., Concordance of Boethius. 1918.

Corbière, C., Le christianisme et la fin de la philosophie antique : essai sur la polémique du néoplatonisme avec le christianisme. Paris, 1921.

Coulton, G. G.,

1 - The Death Penalty for Heresy from 1184 to 1921. London, 1924.

2 - The Inquisition. London, 1929.

Deussen, P., Die Philosophie des Mittelalters. Leipzig, 1919.

Dilthey, W. & others (eds.), Weltanschauung: Philosophie und Religion in Darstellungen. Berlin, 1911.

Douais, C., L'inquisition : ses origines, sa procédure, Paris, 1906.

Drane, A. T., Christian Schools and Scholars. New York, 1909.

Duval, F., Les terreurs de l'an mille, Paris, 1908.

Eales, S. J., St. Bernard, Abbot of Clairvaux. London, 1890.

Eicken, H. v., Geschichte und System der mittelalterlichen Weltanschauung. Stuttgart, 1887.

Emerton, E., The «Defensor pacis» of Marsiglio of Padua, a Critical Study. Cambridge, 1920.

Éndres, J. A., Geschichte der mittelalterlichen Philosophie im Abendlande. Kempten, 1908.

Eucken, R., The Problem of Human Life as Viewed by the Great Thinkers. English trans. by W. S. Hough and W. R. Boyce-Gibson. London, 1909.

Fournier, P., Etudes sur Joachim de Flore et ses doctrines. Paris, 1909.

Gauthier, L., La théorie d'Abn Rochd (Averroès) sur les rapports de la religion et la philosophie. Paris, 1909.

Gewirth, A., Marsilius of Padua, the Defender of Peace. 2 vols. 1951—6.

Ghellinck, J. de,

1 — Le traité de Pierre Lombard sur les sept ordres ecclésiastiques. Louvain, 1910.

2 — Le mouvement théologique du XIII^e siècle Paris,
1914.

Gibson, E., History of Christian Philosophy in the Middle
Ages. New York, 1955.

Gilson, E.,

1 - Etudes de philosophie médiévale. Strassburg, 1921.

2 - La philosophie au moyen âge. 2 vols. Paris, 1922.

3 - Le Thomisme; introduction au système de Saint
Thomas d'Aquin. Paris, 1923.

4 - La philosophie de St. Bonaventura. Paris, 1924.

5 - Saint Thomas d'Aquin. Paris, 1925.

Grabmann, M.,

1 - Die Philosophia Pauperum und ihr Verfasser Albert
von Orlamünde. Münster, 1918.

2 - Die Philosophie des Mittelalters. Berlin, 1921.

3 - Thomas Aquinas : His Personality and Thought.
English trans. by Michel. New York, 1928.

Grundmann, H., Studien über Joachim von Flores. Leipzig,
1927.

Guiraud, J., The Mediaeval Inquisition. Trans. by E. C.
Messenger. London, 1929.

Hamelin, O., Le Système d'Aristote. Paris, 1920.

Haskins, C. H.,

1 — The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1927.

2 — Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929.

Hauréau, B., Histoire de philosophie scolastique. 3 vols. Paris, 1872—80.

Hausrath, A., Peter Abälard. Leipzig, 1895.

Hearnshaw, F. J. C. (ed.), Medieval Contributions to Modern Civilization. London, 1921.

Heim, K., Das Gewissheitsproblem in der systematischen Theologie bis zur Schleiermacher. Leipzig, 1911.

Heitz, T., Essai historique sur les rapports entre la philosophie et la foi de Bérenger à S. Thomas d'Aquin. Paris, 1909.

Hessen, J., Patristische und scholastische Philosophie. Breslau, 1922.

James, B., Saint Bernard of Clairvaux. 1957.

Jourdain, C., La philosophie de Saint Thomas d'Aquin. 2 vols. Paris, 1858.

Kaiser, E., Pierre Abélard critique. Fribourg, 1901.

Kennedy, D. J., St. Thomas Aquinas and Medieval Philosophy. New York, 1919.

Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought. 1962.

Kristeller, P., The Classics and Renaissance Thought. 1955.

Laistner, M., Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500—900. London, 1957.

- Lalo, A., *Aristote*. Paris, 1922.
- Martin, A., *Saint Bernard*. Paris, 1925.
- Maycock, A. L., *The Inquisition from its Establishment to the Great Schism*. London, 1926.
- Murphy, E., *St. Thomas's Political Doctrine and Democracy*
Catholic University of America, 1921.
- Olgiati, F., *The Key to the Study of St. Thomas*. Trans by
J. S. Zybura. St Louis and London, 1925.
- Peillaube, E., *Initiation à la philosophie de saint Thomas*.
Paris, 1926.
- Poole, R. L., *Illustrations of the History of Medieval
Thought and Learning*. London, 1920.
- Quadri, G., *La philosophie arabe dans l'Europe médiévale
des origines à Averroès*. 1960.
- Rand, E. K., *Founders of the Middle Ages*. Cambridge, 1928.
- Randall, J. H., *The Making of the Modern Mind*. Boston,
1927.
- Reinstadler, S., *Elementa philosophia scholastica*. 2 vols.
Freiburg, 1911.
- Rickaby, J., *Scholasticism*. London, 1908.
- Robert, *Les écoles et l'enseignement de la théologie pendant
la première moitié du XIIe siècle*. Paris, 1909.
- Rogers, Elizabeth F., *Peter Lombard and the Sacramental
System*. New York, 1917.

Roland-Gosselin, B., *La doctrine politique de Saint Thomas d'Aquin*. Paris, 1928.

Rolfes, E., *Die Philosophie von Thomas von Aquin*. Leipzig, 1920.

Ross, W. D., *Aristotle*. London, 1923.

Rougier, L., *La scolastique et le thomisme*. Paris, 1925.

Rousselot, P., *L'intellectualisme de Saint-Thomas*. Paris, 1924.

Salvayre, G., *Saint Bernard : maître de vie spirituelle*. Avignon, 1910.

Sartiaux, F., *Foi et science au moyen âge*. Paris, 1926.

Schneider, A., *Die Erkenntnislehre bei Beginn der Scholastik*. Fulda, 1921.

Sertillanges, A. D., *La philosophie morale de Saint Thomas d'Aquin*. Paris, 1922.

Shallo, M. W., *Lessons in Scholastic Philosophy*. Philadelphia, 1916.

Taylor, H. O.,

1 — *The Mediaeval Mind, and the Classical Heritage of the Middle Ages*. New York, 1911.

2 — *Freedom of the Mind in History*. London, 1923.

3 — *The Mediaeval Mind*. 2 vols. New York, 1929.

Truc, G., *Le retour à la scolastique*. Paris, 1919.

Turberville, A., *Mediaeval Heresy and the Inquisition*. London, 1920.

Vacandard, E.,

- 1 — Pierre Abélard et sa lutte avec saint Bernard, sa doctrine, sa méthode. Paris, 1881.
- 2 — The Inquisition. Trans. from the 2nd French ed. by B. L. Conway. New York, 1908.
- 3 — Vie de St. Bernard, abbé de Clairvaux. 2 vols. Paris, 1910.

Verwegen, J. M.,

- 1 — Philosophie und Theologie im Mittelalter. Bonn, 1911.
- 2 — Die Philosophie des Mittelalters. Berlin & Leipzig. 1926.

Webb, C. C. J., Studies in the History of Natural Theology. Oxford, 1915.

Wichmann, O., Die Scholastiker. Munich, 1921.

Wickstead, P. H., The Reactions between Dogma and Philosophy Illustrated from the Works of S. Thomas Aquinas. London, 1920.

Williams, W., Studies in Saint Bernard of Clairvaux. London, 1926.

Workman, H. B., Christian Thought to the Reformation. New York, 1911.

Wulf, M. de,

- 1 — Scholasticism Old and New. Trans. by P. Coffey. London, 1907.

- 2 — Mediaeval Philosophy, Illustrated from the System of Thoms Aquinas. Cambridge, 1922.
- 3 — Philosophy and Civilization in the Middle Ages. Princeton, 1922.
- 4 — History of Mediaeval Philosophy. Trans. by E. C. Messenger. 2 vols. London, 1925—26.

الفصل التاسع

القانون والحياسة

كان القانون منهجا هاما في كافة الجامعات تقريبا . فقد اشتهرت بولونيا لوجود رجال القانون بها مثلما اشتهرت باريس في علم اللاهوت . ويحتمل أن القانون الكنسي كان أعظم أثرا من غيره . ومن المحقق أيضا أنه كان أكثر تميزا بوصفه قانونا من قوانين القرون الوسطى : فمنذ أن جعل قسطنطين (١) المسيحية دين الدولة ، أصبح الأباطرة مطالبين بطبيعة الحال بأن يباشروا بين وقت وآخر تشريع القوانين بنزاهة لحماية طبقة رجال الدين أو لتنظيمها . وحدث فعلا في سنة ٤٣٨ أن صدر قانون ثيودوسيوس ضد الهرطقة . وحوالي نفس الوقت منح فالنتينيان الثالث (٢) البابا سلطة تشريعية على الكنيسة في الامبراطورية الرومانية الغربية . وقد صدرت عرضا مجموعات عديدة

(١) حكم الامبراطور قسطنطين الكبير من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧ . وقد اعترف بالمسيحية كدين رسمي للدولة في مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ . وكان هذا الانقلاب الخطير يعنى انتصار الدين الجديد على الوثنية وعلى عبادة الامبراطور ، وأن الكنيسة المسيحية أصبحت بأمر الامبراطور نفسه كنيسة الدولة ، وأصبح الامبراطور هو الرئيس الديني الأعلى لها . وقد ترتبت على ذلك آثار بالغة الأهمية في القرون التالية . انظر جوزيف نسيمن يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٩٣-٩٤ ؛ تشارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ١٧٣ وما يليها . انظر أيضا A. H. M. Jones, Constantine and the Conversion of Europe, London, 1961.

(٢) حكم الامبراطور فالنتينيان الثالث في الغرب من سنة ٤٢٥ إلى سنة ٤٥٥ .

متضمنة مراسيم امبراطورية ، أو صادرة عن المجالس الدينية أو البابوية تتعلق بالشئون الكنسية . وتنسب أفضل هذه المجموعات إلى راهب روماني يدعى ديونيسيوس اجزيجيوس Dionysius Exiguus حوالي سنة ٥٠٠ . وكان البابوات أنفسهم ينقلون عن هذه المجموعة الأخيرة التي أقيمت فيها هبة قسطنطين المزورة والمراسيم البابوية المزيفة :

وقد اختمرت عملية التزوير الأولى سنة ٧٥٠ : ودلت الهبة على أنها مرسوم صادر عن قسطنطين الذي روى خرافة جاء فيها أن البابا سيلفستر الأول (١) Sylvester I شفاه من مرض الجذام . وأنه اعترفاً منه بحمليه نحوه ، يمنح البابوات السيادة العلمانية على إيطاليا والغرب . ولكن جريجوري الكبير (٢) الذي ظهرت في عهده هذه الخرافة ، تجاهلها باحتقار . إلا أنه بعد ذلك بخمسة أجيال بات ممكناً أن يتقبل أشد رجال الدين علماً وخلقاً بسداجة تامة : أغرب عملية تزوير حدثت في القرون الوسطى ، وفي سنة ٨٩٠ ، أي بعد أكثر من قرن من تاريخ الهبة المزورة ، زورت المراسيم البابوية . وكانت تلك المجموعة التي نشرت تحت اسم ايزيدورس ميركاتور Isidorus Mercatur (٣) عبارة عن مجموعة شديدة الغرابة تتضمن

(١) جلس البابا سيلفستر الأول على الكرسي البابوي من سنة ٣١٤ إلى سنة

٢٣٥ .

(٢) جلس البابا جريجوري الكبير على الكرسي البابوي من سنة ٥٩٠ إلى

سنة ٦٠٤ .

(٣) للمزيد من التفاصيل عن ايزيدورس ميركاتور والمراسيم البابوية

المزورة ، أنظر : Shorter Camb. Med. Hist., I, 346—7

مستندات مزورة ، أو يدعى أنها كذلك . وقد أضفى عليها بصيص من الحقيقة يجعلها تبدو وكأنها محل ثقة . وعلى الرغم من أن أحدا لا يعرف شيئا عن هذا الرجل الشهير المسمى ايزيدورس ميركاتور ، فقد كان يوسع أى أسقف خلال الشهور القلائل الأولى ، عدم الاعتراف بهذه المجموعة . إلا أنها لم تلبث أن اكتسبت ثقة لا نزاع فيها ، وكأنها كتاب مقدس . ولقد قضى نيقولا الأول (١) على كل شك أثير حول مرسوم أدخل فيما بعد فى القانون الكنسى . ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا التزوير ، شأنه شأن الهبة ، فى مأمن من الطعن فيه حتى سنة ١٤٥٠ تقريبا ، عندما اجتراً العالم البشرى لورنتيوس فاللا (٢) وLaurentius Valla والفيلسوف نيقولا أوف كيز (٣) Nicholas of Cues ، على الإفصاح بصراحة تامة عن تشكك صارخ فى هذا الشأن . ولا خلاف أن هذه العمليات المزورة كانت قد طابقت بصورة وثيقة الأفكار التى نمت وترعرعت خلال القرون القلائل السابقة . وتمسك البابوات تدريجيا بهذه الأفكار أو سلموا بها بسهولة ، الواحد تلو

(١) جلس البابا نيقولا الأول على الكرسي البابوى من سنة ٨٥٨ إلى سنة

٨٦٧

(٢) توفى لورنتيوس فاللا سنة ١٤٥٧ . وهو من الذين طعنوا فى هبة قسطنطين المزورة . ومن أهم ما كتبه مؤلفه المسمى *Elegantiae* ، وكذلك « ملاحظات عن العهد الجديد » ، وكتاب عن « حياة فرديناند صاحب قشتالة » . انظر عن ذلك : Hay, Italian Renaissance, 165, 167, 175-6, 189;

Painter, Hist. of the Middle Ages, 416.

(٣) هو الكاردينال نيقولا أوف كيز ، ولد سنة ١٤٠١ وتوفى سنة ١٤٦٤ عن ٦٤ سنة . انظر : Heer, Med. World, 100, 251 للمزيد من التفاصيل

انظر - W. T. Waugh, A Hist. of Europe From 1378 to 1494, 475, 491, 503.

الآخر على مر الأجيال، إلى أن اعترفوا بمعظم أو بكل ما ورد —سراخنة في تلك المراسيم المزيفة . وكانت الخطوة من بداية الافتتاح الفعلي التدريجي على الحقوق حتى الاعتراف الرسمي المدعم بالمستندات، خطوة واسعة بالغة الأهمية . وغالبا ما اعترضت السلطات العلمانية على المطالب البابوية، شأنها شأن الاحتلال البريطاني لكل من الهند ومصر ، أو احتلال امريكا —كوبا . لقد وضعت المراسيم المزورة لصالح البابوات ، مثلما وضعت أمثالها لصالح بريطانيا ، لو أننا تمكنا من حل العالم على أن يصدق أن احتلال الانجليز لمصر إنما يركز على كونها هبة لهم من قبل الخليفة لارجوع فيها، وأن مجموعة من القوانين الاسلامية الصحيحة قد تركت للانجليز حرية العمل في كل مكان وزمان في هذا القطر . وعلى أية حال ، فان هذه القوانين الجريئة التي وضعها مجلس يشرف عليه أسقف من الفرنجة ، والتي فرضت على العالم فجأة ، وقبلها بابا مقتدر، وطبقت دون منازع طيلة سبعة قرون ، إنما تعبر عن واحدة من أهم النقاط المميزة في تاريخ الفكر في القرون الوسطى .

ومع نهضة القانون الروماني في بولونيا مبكرا في القرن الثاني عشر ، ظهر دافع مماثل يدهو الكنيسة الى النهوض بقوانينها. فقد أخذ راهب يدعى جراشيان Gratian على عاتقه مهمة إدخال نوع من النظام في هذا الشأن ، ويحتمل أن ذلك كان في سنة ١١٤٢ . وحتى ذلك الحين كانت كافة المراسيم الاصلية قد صدرت فعلا منذ ظهور هذين المستندين المزورين الكبيرين . وجرى محاولات لاصدار مجموعات أخرى موثوق بها إلى حد ما . وكان عنوان كتاب جراشيان ، وهو «التوفيق بين القوانين الكنسية المتعارضة» A Concordance of Discordant Canons ، ينم عن هدفه الاساسي . ولكن وجد من المناسب أن يحمل الكتاب دائما أقصر عنوان له وهو

« مرسوم جراسيان » " Gratian's Decretum " . ونلمس في هذا الكتاب محاولة ما في سبيل التصنيف العلمى للمراسيم البابوية . ففيه نجد المراسيم مرتبة حسب الموضوع ، على غرار القانون المدنى : كما أضاف جراسيان بعض التعليقات التى استهدف من ورائها التوفيق بين المواد العديدة المتناقضة أو المتعارضة . وعلى الرغم من أن البابوات لم ينشروا هذا الكتاب رسميا ، إلا أنه كان من أوائل الكتب التى أفادوا عنها بصفة علنية ، ولم ينكره أحد منهم على الإطلاق . وعندما أمر جريجورى التاسع (١) فى سنة ١٢٣٤ بإعداد مجموعة رسمية جديدة للمراسيم البابوية ، نشرت هذه المجموعة باعتبارها امتدادا لنشاط جراسيان . ثم أضيفت مجموعات أخرى مماثلة خلال القرن التالى . وكان آخر البابوات فى القرون الوسطى الذى أمر بذلك هو يوحنا الثانى والعشرون (٢) فى سنة ١٣١٧ .

وبات واضحا وقتذاك أن مثل هذه المجموعات كانت فى تناقض مطرد مع قوانين الدولة ومع نمو الوعى القومى . ومع ذلك أضيف فى سنة ١٤٩٠ ملحق شبه رسمى تحت عنوان « ما لا يقبله العقل » Extravagantes . وكان هذا الملحق مكملا لمجموعة القوانين الكنسية المعروفة باسم Corpus Juris Canonici وهو يتألف من مجموعة جراسيان ومن المراسيم البابوية الرسمية الملحقة بها ، ومن الملحق المعروف باسم « ما لا يقبله العقل » . وقد انعقدت لجنة من

(١) جلس البابا جريجورى التاسع على الكرسي البابوى من سنة ١٢٢٧ إلى

سنة ١٢٤١ .

(٢) جلس البابا يوحنا الثانى والعشرون على الكرسي البابوى من سنة ١٣١٦ إلى

سنة ١٣٣٤ .

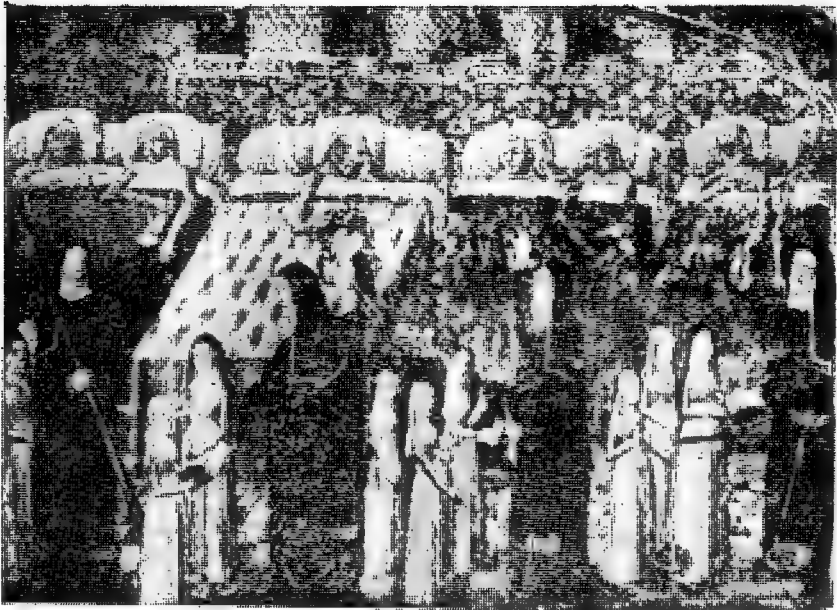
الكرادلة والعلماء تعاقب على رئاستها ثلاثة من البابوات وأصدرت نصا نموذجيا لهذه المجموعة ، أمر بنشره البابا جريجورى الثالث عشر (١) فى سنة ١٥٨٢ . وهكذا وجدت مرة أخرى حدود مرسومة كان الفكر الوسيط مقيدا فى نطاقها بحكم القانون : والواقع أنه عاش أسير هذه القيود .

وكانت النتيجة الطبيعية أن الفكر المكبوت كثيرا ما انزلق إلى مستوى اللغو الشفوى أو الأحاجى والألغاز : وكان البحث العلمى والفكر خاضعين للدراسة والبحث . يقول رشدال Rashdall «إن التعليم فى القرون الوسطى كان شديد التمسك بالمبادئ وبأثارة الجدل والمناقشات :» ولكن هذا التعليم كافح كثيرا فى سبيل إيجاد وسائل من أجل الفكر والكلام . فإن العديد من كلماتنا المجردة الشائعة التى لاغنى لنا عنها ، مثل كلمة «الكيف» و«الكم» ، إنما ابتدعها كلها أو بعضها رجال العلم والفلسفة فى العصور الوسطى لذلك ، بينما لا يزال كبار مفكرى الفترة المبكرة من تلك العصور يطالبون علماء ما وراء الطبيعة وعلماء اللاهوت بمزيد من العناية ، «نجد أن سرعة تعدد الجامعات خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كان مرده الحاجة المباشرة إلى محامين ومديرى أعمال ذوى مؤهلات عالية .» وفى هذه الجامعات اكتسب الرجال عادات الثبات والمثابرة والعكوف الشديد على أداء العمل المطلوب منهم . وكانوا يؤهلون هناك كي يتناولون بمهارة مثل هذه الحقائق كما يروق لهم أو لزملائهم تحقيقا لأغراضهم الخاصة .

(١) جريجورى الثالث عشر هو البابا الذى عدل التقويم اليولياني فى سنة ١٥٨٢ ، وعمل التقويم المعروف باسمه وهو التقويم الجريجوريانى .

ولكن لم يكن ثمة إلا التزير اليسير من الملاحظة المنزهة عن الغرض فيما يتعلق بالحقائق المتجمدة التي بدونها قد نتخذنا وتضللتنا أفضل المثل العليا . وكان تلقين الطب لأفراد الشعب محرما على الرهبان وجماعات الاخوة-وان الرهبان وانه لخطأ فاضح التوهم بأن رجال الدين المعتكفين داخل أديرتهم كانوا هم أطباء القرون الوسطى . وعندما نجد طبيبا من بين رجال الدين المعتكفين في الأديرة - ومثل هذه الحالة نادرة الوجود اذا أخذنا في الاعتبار تلك الأعداد الوفيرة من الوثائق والسجلات التي لا تزال باقية الى اليوم-فإنما يدل ذلك على أن هذا الشخص كان في الغالب طبيبا في «الدنيا» قبل أن يهب نفسه للرهبنة . وكان القديس فرنسيس ورفاقه الأوائل في الواقع يعنون أحيانا بمرضى الجذام . ولكن ليس ثمة دليل على أن الإخوان الرهبان كانوا يعملون في مستشفيات الجذام بصفة منتظمة : وفيما يتعلق بالمستشفيات الأخرى التي كانت في نفس الوقت دورا خيرية ، فقد كان مديروها في أخريات القرون الوسطى هم عادة من جماعات الرهبان الأوغسطينيين . وأما الممرضات فقد كن لساء نذرن أنفسهن للبتولة : ولكن كان ثمة بون شاسع بين كل دار وأخرى . وفي الحالات التي كان فيها رئيس الدير أو الإخوان الرهبان رجال دين معتكفين داخل أديرتهم ، نجد أنهم قلما عناواهم أنفسهم بالمرضى ، وإنما كانت هذه العناية الطبية موكولة للممرضات أو للاخوة العلمانيين . وكانت مثل هذه المعاهد بصفة هامة دورا خيرية بقدر ما هي مستشفيات بمعناها الحديث . ويمكن اعتبار معهد القديس جون في اكسفورد معهدا نموذجيا خالصا ، وتتألف الهيئة العاملة فيه من ثلاثة قساوسة اوغسطينيين أحدهم كان رئيسا ، ومعه ستة إخوان علمانيين ومث

لوحة رقم ٧



مستشفى في القرن الخامس عشر

أخوات ممرضات (١) . أما في إيطاليا فقد كانت المستشفيات منذ أزمنة بعيدة تخضع في أغلب الأحيان لإدارة مدنية ، كما كان الحال في ظل الامبراطورية القديمة . وكانت العناية بالمرضى في الدول الأخرى تشمل الغنى والفقير بصورة مطردة ، وكانت تتولاها السلطات العلمانية خلال الأجيال الأخيرة للتأليفة السابقة لحركة الإصلاح الديني . وفي شتراسبورج Strassburg رفض المديون حوالى سنة ١٥٠٠ قبول الكهنة كممرضين في مستشفيات المدينة : كما رفضت خدمات الراهبات كممرضات مساعدات : أما في إنجلترا ، فقد قرر مؤسس مدرسة في سفن أو كس Sevenoaks في عام ١٤٣٢ أن الناظر لا يجوز دخوله في سلك الكهنوت . وفي سنة ١٤٤٣ أسس أحد المواطنين في لندن مدرسة تديرها شركة أقمشة . وعندما جدد كولت Colet عميد معهد القديس بولس مدرسته الكاتدرائية لم ينهج هذا النهج فحسب ، بل أيده بكل ما أتيح له بيانه من الأسباب الداعية لذلك .

وكان الشعب بصفة عامة شديد الاهتمام بميدان آخر له اعتباره : ونظراً لأن السجلات المدونة كانت نادرة نسبياً ، فقد كانت الشهادة المعترف بها تعتمد أساساً على شهادة العيان والشهادة الشفوية : ومن ثم كان الاشهار المطلوب يستدعى أحياناً متاعب جمة : فمثلاً لم يكن ثمة سجلات أبرشية للزواج . ولذلك كان معظم حفل الزواج لا يتم داخل الكنيسة بل

(١) R.M. Clay, The Medieval Hospitals of England, 149-165

(كولتون) ،

خارجها عند الباب ليتسنى لأكبر عدد من للشهود أن يشاهدوه ، وكان من
دواعي سرور تشوسر أنه سجل في أحد كتبه ويسمى « امرأة باث »
Wife of Bath عدد الأزواج الذين شاهدتهم « عند باب الكنيسة » . وكان

رسم رقم ٧



زواج أمام باب الكنيسة

الشهود في مناسبات أخرى يختارون من بين الشبان قدر الاستطاعة حتى تدوم
شهادتهم أطول وقت ممكن ، ومن بين مظاهر الإتهاج والاحتفال أن يشتري
أصحاب العرس كمية كبيرة من الكرز ، ينثرونها بين الأطفال كتحية

رسمى أولى عن كنه هذه المناسبة السعيدة الهابطة عليهم من السماء . وكانت هناك أيضا عادة شعبية من وجهة النظر القانونية ، إن لم تكن من وجهة نظر الشهود ، تقضى باتخاذ إجراء يخالف ذلك تماما ؛ وخلاصته أن يضرب بالسوط طفل أو أكثر ضرباً احتفاليا مبرحاً في هذه المناسبة ، ليكون ذلك علامة مسلماتها على أن هؤلاء الأطفال لن ينسوا قط هذه الواقعة الدالة على شهودهم للزواج ؛ ومن قبل هذه العادة أن نبيلاً نورماندياً عظيم القدر نذر قطعة أرض قيمة للأحد الأديرة ؛ ورأى من باب تسجيل هذه المنحة أن ألبس بحمله الصغير سترة من القرو الفاخر ، ثم القى به في اليم .

ولإذا عدنا إلى الطب نقول ان جانباً كبيراً منه لم يخرج عن كونه طباً بدائياً جداً . ويحتمل أنه كان يوجد في كل دير واحد أو أكثر من الرهبان الذين يعرفون ما يكفي لإسعاف زملائهم في المستشفى بالأعشاب واللق ، أو باتباع نظام معقول للأكل . ومن المؤلف العثر على وصفات طبية من هذا النوع مكتوبة بخط ردىء على الأوراق المتطايرة من السكتب وكذلك كان شأن الراهبات ؛ وبالرغم من أنهم كن شكلياً داخل سياج محكم ، فقد كن يشاهدن وهن يؤدين تلك الخدمات الطبية التي كانت تعود عليهن ، دون شك بالعطايا من الأغنياء وبالشكر من الفقراء . وكانت المرأة القروية العاقلة تحتفظ بوسائل العلاج اللازمة ، كما كانت تحتفظ بملامحها الساحرة . وكانت ربة البيت العادية لديها هى أيضا الوصفات الطبية التقليدية . أما بالنسبة للطب القائم على أسس علمية ، فقد كانت العصور الوسطى تعتمد أساساً على الأغريق القدماء ، إما عن طريق الترجمة المباشرة لتأليفهم ، أو نتيجة لانتقال المعلومات عن طريق الكتاب اليهود أو العرب ، وقد أبدت الكنيسة سخطها على عمليات التشريح التى لم تمارس إلا قليلاً . على أنه من المعترف به عمومياً بن الطلبة

الحديث ، بل وبين أشد هؤلاء الطلبة تعاطفا مع الفكر الوسيط ، أن جامعات ذلك العصر بذلت الكثير من الوقت والجهد في سبيل دراسة علوم ما وراء الطبيعة ؛ بينما لم تبذل سوى النزر اليسير من الجهد على الملاحظة المباشرة للظواهر الطبيعية الملموسة ، أو على التسجيل الدقيق للحقائق أيا كان نوعها . وقد ترك لنا أصحاب الحوليات سجلات قيمة في هذا الشأن ومع ذلك لم يكن هناك مدارس للجغرافية أو التاريخ . أضف إلى ما تقدم أنه كان ثمة إهمال فاحش للغات والرياضيات والعلوم الطبيعية ؛ ولقد استند الفلاسفة يوما الأكويني في بيانه لإثبات حقيقة المسيحية في مواجهة الوثنية ، على حقيقتين قال عنهما إنهما مألوفتان للشخص المتعلم بقدر غموضهما بالنسبة لعامة الشعب . وبنص قوله : « انه يبدو عجيبا للشعب الجاهل أن يجذب المغناطيس الحديد ، أو أن سفينة تطفو على ظهر سمكة صغيرة . » وإن هذه « السمكة الصغيرة » ما هي إلا السمكة المصاصة الخرافية (١) التي يبلغ طولها قدم واحد ، ومع ذلك فإنها قادرة بطريق المص على حمل أضخم السفن . (٢) ويهدف أهم كتاب مختصر عن الفن في أخريات القرون الوسطى ، وهو الذي وضعه تشينو تشينيني (٣) Cennino Cennini الفلورنسي ، إلى تعليمنا النسب الحقيقية للجسم الإنساني ، وإلى إبراز جسم الرجل والمرأة من الحياة الواقعية . وهو يؤكد لنا أن « للرجل في جانبه الأيسر ضلع أقل مما للمرأة » .

(١) يقال إن هذه السمكة المصاصة توقف سير السفينة التي تعلق بها .

Summa contra Gentiles, lib. III. c. 102; cf. also (٢)

• Coulton, Social Life in Britain, 531 (كولتون)

(٣) عاش هذا الفنان الفلورنسي في أواسط القرن الرابع عشر : انظر عنه

• Coulton, Medieval Panorama, 311 كتاب

وكان هذا الإهمال المألوف مشجعاً على اقتراف عمليات التزوير المشار إليها .
وكتب الأستاذ توت Tout في مؤلفه « المزيّفون وعمليات التزييف في
العصور الوسطى » (١) يقول : « وكان أمثال أولئك الناس العظام وتلك
المجتمعات القوية ، شركاء في التزييف ، حتى لقد اقتضى الأمر من عامة الشعب
أن يساهموا مساهمة فعالة بتكليف خبير متواضع بعمل فحص خاطف لوسائلهم
في تداول المستندات . »

وتحتوى سجلات الأديرة على عدد وفير من المستندات المسلم الآن بأنها
قد فقدت نهائياً قيمتها كمصادر موثوق بها . وغالباً ما كانت الدعاوى
الكبرى في العصور الوسطى تقام بطريق الغش . ففي سنة ١٤٣٢ نجحت جامعة
كامبريدج في تأكيد استقلالها عن أسقف ايلي Ely في محاكمة بارنويل الكبرى
Barnwell Trial ؛ وذلك عن طريق مرسوم مزيف للبابا هونوريوس
الأول (٢) ، يزعم فيه أنه بدافع من الشكر وعرفان الجليل لجامعة كامبريدج
التي تعلم فيها ، يمنح تلك الجامعة هذا الامتياز في سنة ٦٢٤ ، أى قبل إنشاء
الجامعة فعلاً بنحو ستة قرون . وقد أشار ف. و. ميتلاند إلى ما روى عن
جامعتي أكسفورد وكامبريدج ، من أن كلا منهما حاولت أن تثبت
تفوق تاريخها القديم على تاريخ الأخرى . كتب يقول : « إن أقدم نزاع

(١) T. F. Tout, Medieval Forgers and Forgeries, Man-

chester, 1920. (كولتون) .

وتأوت له مؤلفات أخرى عديدة في حقل تخصصه وهو العصور الوسطى ،
نذكر منها « الامبراطورية والبابوية » و « العلاقات بين إنجلترا وفرنسا في
العصرين الوسيط والحديث » و « تخطيط المدن في العصور الوسطى » .

(٢) جلس البابا هونوريوس الأول على الكرسي البابوي من سنة ٦٢٥ الى

سنة ٦٣٨ .

دأخلى بين الجامعات قاطبة انما كان مباراة فى الكذب . والواقع أن الجهل بالتاريخ كان متفشيا حتى بين أصحاب المراتب العليا . وقد قال البابا جريجورى الثانى (١) فى كتابه الى الامبراطور اللايقونى ببساطة تامة ، ان الرسل كانوا عبادا للصور . (٢)

وهنا نغزى الجهالة التى عمت القرون الوسطى الى حد بعيد الى ندرة الكتب والذخى فى نشرها . وقد ألمع الأستاذ س . ه . هاسكينز C. H. Haskins الى هذا الأمر قائلا : « انه لأسباب عديدة متعددة لا قدرة للكتب على الحركة الاستقلالية التلقائية » . ويمتاز كتاب الحوليات الذى كان جانب منه منقولا والجانب الآخر كتبه متى الباريسى (٣) Matthew Paris ، بقيمته الفائقة . ومع ذلك فلم يبق سوى عدد قليل جدا من نسخ هذا الكتاب داخل دير القديس البان St. Albans . وأما الفكرة القائلة بأن الرهبان كانوا يعتمدون دائما على النقل ، فهى لا تقوى على الصمود أمام الحقائق . وكان السوق يبيع بالمأجورين من الكتبة . وعلى الرغم من وجود بعض الحالات الاستثنائية ، الا أن القرون الوسطى لم تأخذ قط بهذا النظام الذى

(١) شغل البابا جريجورى الثانى الكرسي البابوى من سنة ٧١٥ الى سنة

٧٣١ .

(٢) Migne, Pat. Lat., Vol. LXXXIX, col 514 c. (كولتون) . والمقصود به ليو الثالث الأيسورى امبراطور الدولة البيزنطية الذى حكم من سنة ٧١٧ الى سنة ٧٤٠ م .

(٣) يعتبر متى الباريسى من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى . ولستنا نعرف شيئا عن تاريخ ميلاده أو سنى حياته الأولى . وكل ما وصلنا عنه أنه انخرط سنة ١٢١٧ فى سلك الرهبنة حيث اشتهر بتدينه وتقواه . كما =

نعلم أنه كان سائدا أيام الرومان واليونان القدماء ، والقائم على الإكثار من الكتب عن طريق الإملاء على الطائفة في الفصول . وكانت الكتب دائما مرتفعة الثمن ، لأن الكاتب كان يتقاضى أجرا واحدا هو أجره كصاحب حرفة . فقد كان كتاب التوراة ، مثلا ، يكلف عادة ما يربو على دخل كاهن طيلة عام كامل . وفي الواقع يندر أن نجد نسخة منه عند كاهن الابريشية العادي . وكان كاتب تشوسر في اكسفورد Oxenforde يقتني عشرين كتابا فقط ، نظير ما أنفقه من جيبه الخاص وما حصل عليه من أصدقائه . وأما برنارد أوف شارتر Bernard of Chartres — وهو أفضل معلمي حركة احياء التراث الكلاسيكي القديم في القرن الثاني عشر — فقد ترك كل مكتبته للكاندراية . وكانت هذه المكتبة تحتوي على أربعة وعشرين مجلدا .

= كان من المقربين الى هنري الثالث ملك انجلترا . وعرف عنه الحكمة والعدالة ، حتى أن الناس كانوا ياجأون اليه لفض منازعاتهم وخلافاتهم . وترسل مرارا لدى ملوك الغرب ، ووضع كتابه المعروف باسم « تاريخ انجلترا » باللاتينية بناء على طلب هنري الثالث ، وهو يبدأ بسنة ١٢٣٥ وينتهي في ١٢٥٩ ، وهي السنة التي مات فيها المؤلف . وقد أتم راهب بدير القديس ألبان بانجلترا يدعى وليم ريشانجيه هذا التاريخ حتى سنة ١٢٧٣ . وجدير بالذكر أن متي البلريسي تحدث في كتابه في سخريه مريرة وتهكم لاذع عن الجهاز الكنسي البابوي في الغرب الذي تغلغل فيه الفساد مناديا بالإصلاح . أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الاوسط ، ص ١٠-١١ والحواشي ، والعرب والروم واللاتين ، ص ٧٩-٨٠ .

هذا ، وعلى الرغم من بعض المزايا الحقيقية للغة اللاتينية ، فقد عاد استعمالها كلغة عالمية بأضرار جسيمة . ومن المبالغة التحدث عن اللاتينية بأنها قد أصبحت في وقت ما لغة الوطن الثانية في أى بلد من البلدان ، اللهم إلا في إيطاليا وأسبانيا . وحتى المتعلمون ، كما يجوز لنا أن نسميهم نقلا عما صادفنا من إشارات مبثرة هنا وهناك ، فقد كانوا يصوغون أخص ما تنطوى عليه أفكارهم باللغة الأم ، أى لغة الوطن . وعلى الرغم من أن المحاضرات الجامعية كانت تاتى باللغة اللاتينية ، وعلى الرغم من أن المدارس والكلية كانت تدفع عادة مكافأة دراسية للطلاب الذين تنحصر مهمتهم في الإخطار عن جميع زملائهم الذين يرسبون في لغة الوطن — فقد كانت الجامعات تضطر إلى استخدام مدارس النحو وقواعد اللغة للطلبة الذين لم يتخرجوا بعد ، وكان حظهم من اللاتينية ضئيلا جدا بحيث لم يكن بوسعهم متابعة الدراسة النظامية ؛ ولم يكن من بين الكهنة خريجون من الجامعة ، فيما عدا نسبة ضئيلة منهم . وروى المعاصرون من ذوى الآراء الراجحة الصائبة ، من قصص الجهل باللاتينية ، حتى بين رجال الدين ، ما كان يصعب تصديقه ، لولا أن هذه الروايات قد أكدتها سجلات الامتحانات الرسمية الدورية . وقد دل التفثيش في سنة ١٢٢٢ على وجود خمسة من الكهنة من بين ١٧ رئيس كاتدرائية في ساروم Sarum عاجزين حتى عن تفسير الكلمات الافتتاحية للصلاة الأولى من القديس المتضمنة الجزء الأسامي المتعلق بخدمة الأفخارستية ، أى القربان المقدس . ويروى لنا إرازموس (١) Erasmus كيف أن واحدا من أعظم

(١) ولد دزيدرئوس ارازموس Desiderius Erasmus حوالى سنة =

أساقفة ذلك العصر حاول معالجة الجهالة بين الكهنة، ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه المحاولة عندما تبين له الأرجاء في نجاحها. ولذلك يتعين علينا أن نضع نصب أعيننا أنه وجد طيلة العصور الوسطى، كثير من صغار كهنة الأبرشيات الذين كانوا في الواقع أكثر علما من رؤسائهم. ولقد نشرت العديد من التقارير المتعلقة بهذه الامتحانات الخاصة برجال الدين في كتابي « الحياة في العصور الوسطى » (١)، وهي تقارير فيها من التسلية بقدر ما فيها من الثقافة.

ومن المشكوك فيه، حتى في الدوائر الجامعية العالية، إن كان هناك حشد من الناس يستطيعون الجلوس حول المدفأة ليناقشوا مشاكل الحياة والموت باللغة اللاتينية، بما يشبه إلى حد ما فريقا عمالهم وهم يتحدثون في أيامنا هذه بلغتهم الخاصة، مع ما يبدو أنه من حرية الرأي وتوقد الذهن وعمقه. ولا يوجد إلا عدد قليل جداً من الرجال ممن يملكون ناصية الكلام والاستماع لأدق ظلال التعبير؛ تلك الظلال التي تنم عند الرجل على سلامة تفكيره وسيطرته على لغة وطنه. ولا شك في هذه الحقيقة القائلة بأن أعرق أفكار الإنسان إنما تطفو إلى ذهنه بلغته الخاصة كما كان يعبر بها في

= ١٤٦٧ وتوفي سنة ١٥٣٦. وهو من علماء عصر النهضة. وقد عرف بنقده لنظام الرهبنة وحملته ضد مفاصد الكنيسة وغيوبها. وهو يعتبر مقدمة لما رتب لوتر وحركة الإصلاح الديني. أنظر: Huizinga, Waning of the Middle Ages, 312.

(١) Coulton, Life in the Middle Ages, II, 39-48 (كولتون).

المدرسة . وكان هذا أحد أسباب علم وجود مدارس قومية قائمة بذاتها
لفلسفة في العصور الوسطى : ونتج عن ذلك أن كل فكرة يظفر بها
على السطح ، تفقد في العمق والأصالة ولم تكن أفكار الفيلسوف دائما
متعارضة في إخصابها مع تجارب الحياة العادية وما يتصل بها من الأفكار .
وقال السيد شترسمان Herr Stresemann في أول حديث له أمام عصبة
الأمم : « ان اللغة الأم هي محراب النفس المقدس . » وقد فقد كثيرون
كل سيطرة لهم على لغتهم الوطنية دون كسب مقابل من أية لغة أخرى .
وليس ذلك مجرد ظن أو وهم ، وإنما هو أمر يمكن بالدليل الناصع إثبات
حدوثه المتكرر في العصور الوسطى ، بما يفوق تكرار وقوعه في يومنا
هذا : وكان للغة اللاتينية فائدتها كلغة عالمية . غير أنها من جهة أخرى
ساعدت على تشجيع الاصطلاحات الشعبية . وغالبا ما كانت الأفكار التي
أمدتها اللغة اللاتينية بأسهل تعبير وأوسع تداول ، تجري على نسق واحد . ويمدنا
جوهان بوش Johann Busch ، وهو قس الماني لامع عاش في القرن
الخامس عشر ، ضمن مجموعة أعماله اللاتينية بصلوة من تأليفه لاستخدامها أثناء
القداس ، أو عوضا عن القداس نفسه عندما يتعذر حضوره شخصيا : وكان
يؤدي هذه الصلوة بلغة وطنه الألمانية . وكانت تلك هي اللغة التي يتلوها في
سره ، والتي كانت تقربه الى الله . وهذا ما كان يفعله أيضا هنريش سوزر
Heinrich Suso ، ذلك المتصوف العظيم الذي توفي سنة ١٣٦٣ . فهو يمدنا
في كتابه الصغير المسمى « الحكمة الأبدية » بأنه يدون أفكاره التصوفية
بالألمانية ، لأن الله هو الذي أوحى اليه بهذه الأفكار باللغة الألمانية نفسها .

هذه من القانون ، أما الفكر السياسي فلم يكن معروف في العصور الوسطى كعلم اجتماعي قائم بذاته ، وإنما كان فرعاً من علم اللاهوت أو القانون . وكان واضع النظريات السياسية لاهوتيين أو قانونيين . والواقع أن الفقيه أو المشرع نفسه كان مضطراً لأن يكون إلى حد ما لاهوتياً ، طالما أن الكتاب المقدس كان الحجّة المعصومة من الخطأ ، وأن الآباء كانوا يعاملون عادة من حيث التبجيل والاحترام على قدم المساواة تقريباً . وقد أصبح كتاب القديس أوغسطين « مدينة الله » كلاسيكياً بالنسبة للنظرية السياسية التي سادت القرون الوسطى المبكرة بصفة عامة ، كما احتفظ بالكثير من نفوذه حتى النهاية . فإن لفظة « المدينة » و « الدولة » لم يكونا قد انفصلا بعد بصفة نهائية إلى اصطلاحين محددين . وظل الناس أمداً طويلاً يفكرون ويكتبون في ظل فكرتهم عن دولة المدينة القديمة (١) وكانت الامبراطورية الرومانية في رأى القديس أوغسطين عبارة عن مدينة Civitas ، وكذلك الكنيسة التي كانت لاتزال تطالب لنفسها بمزيد من السيادة العالمية مع الإقلال من الساطة المحلية . لقد ظهر هذا الكتاب عقب التخريب الذي أحدثه الأريك Alario في روما سنة ٤١٠ و تحت تأثير الصدمة التي أحدثتها هذه الكارثة ، كتب القديس جيروم إلى صديقه أجيروتشيا Ageruchia يقول : « لئن سقطت روما ، فما الذي يظل قائماً بعدها ؟ » وعلى أية حال ، فما لاشك فيه أن هذه الكلمة لم تكن كلمة جيروم الأخيرة . ولم يكن ذلك على حد قول أوغسطين هو فصل الخطاب : ذلك أنه إذا جاز أن المدينة الأرضية في وضعها المبني على القوة الطبيعية يمكن أن تتحطم تحت ضغط قوة أكبر منها ، فإن المدينة السماوية لاتزال بخير . إن بوسع البشر قتل الجسد ، أما

(١) فيما يتعلق بدولة المدينة ، انظر الكتاب التالي : هارتمان وبارا كلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى - ص ٣ - ٤ و ٦٣ وما بعدها .

الروح فلا قدرة لهم على المساس بها . وهذه المفارقة هي موضوع كتاب « مدينة الله » من بدايته إلى نهايته . ولظالما عزا المتزمتون كل هذه الآلام التي عانتها الامبراطورية الرومانية في أخريات أيامها إلى هذه البدعة الدينية الجديدة المعبرة عن الدين الذي اعتنقته الامبراطورية . (١) وقد أحيا سقوط روما نبوءة مؤداها أن المسيحية لن تعيش إلا عددا من السنين بمصدر ما نعهده من الأيام ، وأن السنة الـ ٣٦٥ ستحدد منذ بدايتها نهاية المسيحية المحتومة . ومن ثم كان النصف الأول من كتاب « مدينة الله » مخصصا برمته للنقد المرير . ويدلل أوغسطين عن ضآلة ما صنعه الآلهة الأقدمون في سبيل انقاذ روما في عصرها الجمهوري والامبراطوري ، وفي سبيل حقن الدماء سواء في الداخل أم في الخارج ، وانتشال الرومان من الفساد الخلقى الذي استشرى في كيانهم . بل إن أوغسطين يشرح كيف أن هذه الآلهة التي لاخلق لها ، وتلك الخرافات العالقة بطقوسها الدينية ، قد شجعت على انحلال الاخلاق ، ومن ثم جالبت على الناس نقمة الله (٢) . ثم يستطرد قائلا إن « العالم الأرضي » يشارك حتما في فساد الانسان الذي تردى في الخطيئة . وكان الواجب أن تكون جنة عدن خلوا من حرفة السياسة ومن الملكية ، لأن السياسة والملكية هما النتيجة المباشرة لسقوط آدم . ثم أليس قايين هو القاتل الأول ، الذي ورد عنه أيضا في التوراة أنه مؤسس أول مدينة . (٣) وفي آشور أسس نمروود Nimrod الذي رأى فيه العصر الوسيط عدوا لدودا لله ، أول امبراطورية عظيمة . (٤) ثم أن روما نفسها قد أسست فوق

(١) المقصود بذلك الديانة المسيحية .

(٢) أنظر عن ذلك : LaMonte, The World of the Middle Ages, 78

(٣) أنظر : العهد القديم - سفر التكوين - الاصحاح الرابع : ٩ و ١٦ .

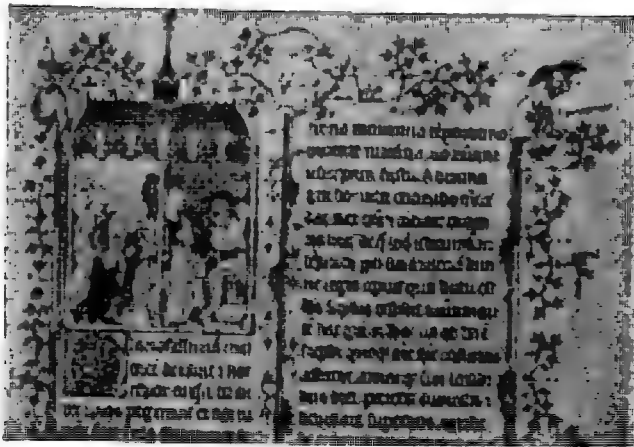
(٤) أنظر : العهد القديم - سفر التكوين - الاصحاح العاشر .

لوحة رقم ٨ (أ)



مرسوم جراثيان

لوحة رقم ٨ (ب)



مدينة الله للقدّيس أوغسطين

وهما نموذجان من مخطوطتين قبطيتين

أرض لطخت بالدم . (١) ومنذ ذلك الحين أخذت روما تلتطخ بدمائها
القديسين . لقد كان حكم روما الطويل جزءا من خطة الله ، وكانت
انتصاراتها على قرطاجنة وغيرها من المنافسين لها انتصارات الله بنوع ما ،
حيث أنه قد اختار هذه الامبراطورية العالمية باعتبارها تأسيسا ماديا
لامبراطوريته الخالدة . وقد كانت روما «المنخفضة» متدنية متمدينة ، هادئة
من وراء ذلك تقرب العالم الناهض الى المسيح . وقد تمت هذه المهمة . ولم
يكن لتخريب روما سالف الذكر في سنة ٤١٠ من أثر أكثر من كونه فقاعة
واحدة زبدت فوق مياه نهر الزمن . وإن المدينة الارضية تفنى كما يفنى جسم
الإنسان ، أما مدينة الله فانها تلوم مع الروح . ويختتم اوغسطين حديثه بذلك
النص المعبر عن العزاء الجليل نقلا عن الرسالة إلى العبرانيين ، وهو : « إذا
بقيت راحة لشعب الله » . (٢)

إن الكتاب المذكور جدير بما يتمتع به من شهرة ومن تأثير لا مثيل
لها . أما نقطة الضعف فيه فهي أنه بالنسبة لعصره ولعصور عديدة لاحقه ،
يعتبر كتاب شعوذة قوامه الزيغ والمهاترة ، حتى أن أقل القراء حساسية
يمكنهم أن يلسوا فيه أحيانا حرية مطلقة في تفسير الكتاب المقدس . ومن
قبيل ذلك ما لمسته في مثلي قايين ونمرود . ومع ذلك فالكتاب زاهر بالعلم
الأصيل . وإن كثيرا من الحقائق الهامة التي وردت عن تاريخ روما

(١) يقصد المؤلف بذلك حادثة قتل رومولوس Romulus شقيقه
ريموس Remos ليستأثر وحده بالحكم .

(٢) العهد الجديد - الرسالة إلى العبرانيين - الاصحاح الرابع : ٠٩

الاجتماعى لم تصل إلينا إلا عن طريق النصوص التي نقلها اوغسطين عن المؤلفين
الأقدمين .

وأهم من هذا وذاك أن الكتاب يمثل واحدا من أقدم الجهود ، إن لم
يكن أقدمها على الإطلاق ، التي بذلت لخلق فلسفة التاريخ ، ولوضع اليد على
خيوط نهتدى به في زحمة تقلبات الأحداث التي تمس الجنس البشرى . وحتى
أولئك الذين كانوا لا يميلون إلى قبول تفسيرات اوغسطين من حيث قيمتها
السطحية الظاهرة ، ربما يعترفون الآن بأنه كان صادقا ، وأن أهمية التاريخ
الحقيقية إنما تكمن في هذا النزاع الأبدي بين المثل العليا وبين الواقع الذي
نعيش فيه والذي نخضع له جميعا بإخلاص ، ذلك الواقع الذي لم يحقق قط
وقد لا يتحقق إطلاقا . بيد أنه قد ينادينا في أوج أزمة حادة طارئة ، لواجب
ربما نلتزم له بطاعة تفوق ما نلتزم به من طاعة لقوانين البشر . وقد مزج
القديس اوغسطين آرائه بالمذهب القائل بازدواج الألوهية الذي دل عليه
الفكر المسيحي المتقدم ، وهو أن قوى الخير في هذا العالم تتوازن مع قوى
الشر تماما . لقد بدأ القديس اوغسطين حياته كمانوى . (١) والمانوية مذهب
شديد التمسك بمبدأ الثنائية القائل بوجود الهين مستقلين في السكون الواحد
للخير والآخر للشر . ومن ثم فإن خبرته الشخصية ذاتها قد أغرته بدورها
على المبالغة في عنصر ازدواج في المسيحية . وبوسع أى قارئ أن يدرك
ذلك بالرجوع إلى اعترافاته « Confessions » التي تعتبر أول ترجمة يبلونها
شخص عن نفسه في تاريخ الأدب قاطبة . ولكن أحداث الحياة العادية تفرص

(١) نسبة إلى المذهب المانوى الفارسي القائل بوجود مبدئين في الكون :
النور أو الله والظلمة أو الشيطان .

علينا جميعا قدرا من الازدواج : هذا وسيعمل الفهم السليم على ترديد ملاحظة اوغسطين القائلة بأنه حيثما اجتمع رجلان من الأشرار ، فلا بد من أن يختلفا وأن يتعاركا ، وأنه حيثما اجتمع رجل طيب وآخر شرير فلا بد لهما من أن يتنازعا أيضا . ومن ثم فلا وسيلة الى تفادى الصراع الا في مجتمع جميع أفراداه على شاكلة واحدة من الخلق الطيب الكريم . وهكذا كانت الحياة صراعا بين الجسد والروح وبين الظلام والنور ، وستظل هذه الحقيقة ماثلة حتى لو نهذنا كل مبالغات القديس اوغسطين ، وفعلنا كل ما يستطيع الحق أن يفعله في صبيل تخفيف الفوارق في هذا العالم :

وسوف تتكشف بوضوح تلك الاستنتاجات السياسية التي تتعلق « بمدينة الله » بعد انهيار السلطة الامبراطورية المركزية : وقد كان للكنيسة في ذلك الوقت مطالب سياسية مشروعة لها أهميتها . ولما كان نظامها قد شكل بصفة نهائية وفقا لنظام الدولة ، فقد أصبح هذا النظام أكثر مرونة نظرا لأنه كان أكثر روحانية . وقد ألقى انهيار السلطة المدنية على غائق الكنيسة كافة المسئوليات المتعلقة بالشؤون الاجتماعية . كما ألقى على كاهلها في بعض الحالات عبء صيانة الطرق والكبارى . ولقد اضطلعت بهذه الواجبات وجنت مكافأتها الطبيعية ، تلك المكافأة التي كانت تتشئ بصفة خاصة مع نسبة الأهمية المتزايدة لاسقف روما الذي كان له الفضل في اتساع نفوذها وفي نظامها المحكم ، وذلك بصورة تكاد أن تكون نهائية ، مثلما اتسع نفوذ البيروقراطية المدنية المحكمة التنظيم في شخص الامبراطور . ولذلك عندما تم احياء الامبراطورية في الغرب سنة ٨٠٠ في عهد شارل العظيم ، كان قد ظهر لها منافس سياسي خطير الا وهو البابوية . وبناء على هذه المنافسة تركز كل الفكر السياسي اللاحق في العصور الوسطى بصورة

شبه نهائية (١) وكانت الخطوط الرئيسية لهذه المنافسة قد تحدت طبيعيا في كتاب « مدينة الله ». وكان من المسلم به أن الكنيسة والدولة لا انفصام بينهما ، شأنهما في ذلك شأن الروح والجسد . بيد أنهما لا تزالان في حاجة الى إعادة تنظيمهما والى العناية الدائمة بهما ، مما لا يقل عما كانتا عليه من قبل . وعلى الرغم من أن أوغسطين لم يسلم بذلك على طول الخط ، إلا أنه يعترف إجمالا بضرورة إعطاء ما لقيصر لقيصر . ولكننا نجد في هذا الكتاب الشيء الكثير الذى يكشف فى سهولة عن تأييد المطالب البابوية . وبعد أقل من قرن من الزمان (حوالى سنة ٤٩٥) القى البابا جـلازىوس (٢) Gelasius نصريحا يستحق الذكر ، قال فيه إنه فيما يتعلق بالشئون الدنيوية يكون للامبراطور حق إصدار القوانين وعل رجل الدين الطاعة . أما فيما يتعلق بالشئون المتصلة بالقيادة الدينية والطقوس المرعية . يكون البابا هو المرجع فيما يصدر عن ذلك من قرارات . فهذه المعاهدة التى أصدرها جلازىوس ، كما أطلق عليها ، قد نفذها القديس جريجورى الكبير (٥٩٠-٦٠٤) الذى حول الشعوب الانجلوسكسونية الى المسيحية . لقد اقتنع البابا جلازىوس بأن واجب الامبراطور بوصفه أحد الرعايا يقتضيه أن يصدر القوانين لصالح الامبراطورية ، حتى عندما كان يحتج عليها بأنها اعتداء خطير على امتيازات الكنيسة . ولقد كانت كلماته من قوة البيان بحيث يتعين نقلها برمتها . قال موجها الحديث الى الامبراطور وأعضاء مجلسه : « اعترف لسادق

(١) فيما يتعلق بالكفاح بين الامبراطورية والبابوية فى العصور الوسطى والنظريات السياسية التى قامت حوله ، انظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ص ٣١-٣٢ و ٣٨-٤٠ و ٤٩ والخواشى و ٢٣٩-٢٤١ .

(٢) شغل البابا جلازىوس الاول الكرسي البابوى من سنة ٤٩٢ الى سنة ٤٩٦ .

بأنني كنت شديد الخوف من هذا القانون ، لأنه يمسد الطريق إلى السماء في وجوه الكنديين من بني البشر ... ماذا أكون أنا ؟ ... ما أنا إلا تراب ودودة . بيد أنني ، وأنا أشعر بما أشعر به الآن من أن هذا القانون موجه ضد الله الذي خلق كل شيء ، لا يمكنني السكوت عليه أمام سادتي : : ولما كنت رجلا أخضع لسلطة أعلى ، فقد عملت على أن يباغ القانون المذكور إلى مختلف أرجاء المعمورة : : وهكذا أكون قد قدمت بواجبي نحو كلا الفريقين . فمن ناحية ، قد أدبت فريضة الطاعة للامبراطور ، كما تحدثت من ناحية أخرى بصراحة بما أشعر به نحو الله تعالى .

وقد كان رجال الدين في الغرب هم وحدهم ، في الغالب ، الحفاظ على السجلات المكتوبة . فهم الذين كانوا ، عادة ، يعرفون دون غيرهم القراءة والكتابة . ومن ثم ، إذا كانت مواهبهم الحقيقية قد عادت عليهم بنفع سياسي امتثلوه أحيانا إلى أقصى حدود الاستغلال ، فانما كان ذلك ضعفا انسانيًا يمكن التجاوز عنه . ولكن نيقولا الأول (٨٥٨-٨٦٧) خالف الانتماء الجلازاني ، معتمدا على فقرة من كتاب « مدينة الله » ، وهي « انما الناس يتجمعون في شكل دولة من أجل السلام . » ومن ثم ، إذا عجز الحاكم العلماني عن المحافظة على السلام لسوء ادارته ، كان من واجب الكنيسة أن تتدخل في الأمر وأن تتولى الحكم حيث أخفق الحاكم في أداء واجبه . وربما كان المفهوم الصريح لمطالبته من هذا النوع هو تبرير أشد المبادئ البسيابية تطرفا . وإذا كان جريجوري السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) قد عاد مع مرور الزمن إلى

المقالة في تفسير ما ورد في كتاب « مدينة الله » ، فقد طالب كحقيقة واضحة تعلن عن نفسها ، بأن تكون الدولة التي أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التي أسسها قايين . وهكذا يكون باستطاعة البابا تعيين الأمر وعزله . وفي عهد انوسنت الثالث (٩٨ - ١٢١٦) الذي كان محاميا كنسيا عظيما ، أخذت هذه المبادئ تسير قدما نحو الكمال . أما بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) فقد كانت له كذلك مطالب يحتمل أنها أهم من تلك التي أشرنا إليها . إلا أن اللغة التي صيغت بها هذه المطالب كانت أشد سقما من تلك التي استخدمها أسلافه . فهو يذكر أن كافة القوانين مودعة في الخزانة في الصدر البابوي . ويستطرد قائلا : « ومرة أخرى تؤكد رسميا أن الخضوع للحبر الأعظم الروماني (أي البابا) شرط ضروري لا بد منه لخلاص جميع البشر . » وقد ورد هذا الرأي في المنشور المقدس رقم « ١ » (١)

Unam Sanctam ، الذي يعتبر باجماع الآراء تقريرا من المنشورات القلائل الصادرة عن البابوية . ومن ثم كانت أمثال هذه المنشورات نفثات معصومة من الخطأ . (٢) وهناك ما قاله بونيفاس حرقيا : « وفضلا عن ذلك ، فانا نعلن أن البشر جميعا خاضعون لحبر روما الأعظم . ونؤكد قائلين بأن هذا المبدأ ضروري للخلاص . » ولكننا نواجه هنا ظاهرة غريبة شائعة ، ذلك أن أشد

(١) صدر هذا المنشور سنة ١٣٠٢ ، والمزيد من المعلومات عنه أنظر :

Hay, Italian Renaissance, 16; Downs, Basic Doc., 163 — 5.

(٢) انظر مثلا كتاب : L. Choupin, La Valeur des Décisions,

etc., 12 (كولتون) :

الادعاءات الشفوية تطرأ إنما تظهر عندما تكون الحقيقة قد بدأت تتدوار
فعلا : وفي ذلك الوقت كانت البابوية قد أقبلت عن معاداة الأباطرة الذين
أصبحوا حكاما بالاسم فقط على دولة تضم المانيا والنمسا ومعظم إيطاليا
والأراضي الواطئة وبعض أجزاء من فرنسا ، تلك الدولة التي كان من الميسور
بذر بذور الشقاق بين رعاياها . وأخيرا قام البابوات في وجه ملوك كان
يساندونهم نوع من الشعور القومي البدائي ، وهو شعور كان مهيباً لأن ينمو
بقدر ما يلحق سلطان البابوية السياسي من انحلال .

وقد نما هذا الوعي القومي ، جسماً كان متوقفاً ، جنباً إلى جنب مع نمو
الحقيقة الكبرى المتجهة نحو التمسك بالقومية نفسها . وكان الطلبة في
الجامعات الكبرى يكونون منذ أقدم مراحل تطورها ما يعرف بالامم .
وكانت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا إلى حد معقول حرباً قومية .
ولم تنفع عالمية الكنيسة ، ولا الاستعمال العالمي للغة اللاتينية بين
الشعوب المتنقفة — وهما العاملان اللذان كانا في الغالب موضع تقدير
يسانده نفوذ يفوق بكثير ما تحقق منهما بالفعل — لم ينفعوا في العمل
على إنهاء ذلك الصراع القومي ، بل ساعدوا على تأجيج ناره : وفي سنة
١٣٠٠ وجهه بطرس دييوا (١) Pierre Dubois نداء صريحاً

(١) ولد بطرس دييوا في نورمانديا فيمما بين عامي ١٢٥٠ و ١٢٦٠ .
درس في جامعة باريس واستمع إلى محاضرات في اللاهوت والسياسة . وفي
سنة ٣٠٠ عالج عدة قضايا لكل من فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول
ملك إنجلترا : ويعتدل أنه توفي سنة ١٣٢١ . وكتب في أوقات =

ناشد فيه الشعور الوطني الفرنسي ، ويعنى به ذلك الشعور السائد بين البارونات طالما كان عدد باقى المواطنين وعامة الشعب ضئيلا جدا حتى ذلك الوقت : وبطرس ديبوا هو الذى أيد فيليب الرابع ملك فرنسا فى النزاع الذى نشب بينه وبين البابا بونيفاس الثامن . وقد استهل ديبوا ندائه بالفرض المسلم به والقائل : « لأنها لهبة يتميز بها الفرنسى أن يكون حكمه أضمن فى فرنسا عما هو الحال فى غيرها من الأمم . » ومن ثم فلما سلام العالم يكون فى أمان أكثر باخضاع البابا للحكم الفرنسى . وقال ديبوا بأن البابوات كثيرا ما أشعلوا نيران الحرب بدلا من أن يعملوا على إخمادها . فدعوا البابوية تستبدل بمطالبة سيادة ملك فرنسا على العالم مقابل تعويض مادى مناسب وهكذا يمكن تأمين السلام فى العالم ، ويكون نيقولا الأول بانتهاكه الاتفاق الجللازيانى قد نفذ بلا شك انتقامه ، لأنه إذا حدث أن تخطى البابا مرة واحدة حدوده المرسومة ، وتدخل فى حكم الأمراء الزمانيين بدعوى العمل على تحقيق السلام ، فإن الحاكم

= فراغه عدة مذكرات رفع معظمها الى فيليب الجميل ، وكانت تتناول اصلاحات فى النواحي الاجتماعية والحربية والمالية والكنسية . وكان من المقربين الى الملك الفرنسى ، ومن المؤيدين للملكية الفرنسية . وكان يأمل كذلك فى أن ينتخب ملك فرنسا امبراطورا ، وأن يؤسس سلطته العالمية ليس على الغرب فحسب ولكن على الشرق أيضا : وكان من المتحمسين لفكرة إحياء الحرب الصليبية فى القرن الرابع عشر ، تلك الفكرة التى كانت قد لقيت مصرعها فى أخريات القرن الثالث عشر . ولديبوا فى ذلك أكثر من مؤلف . أنظر :

Atiya, *Crusade in the Later Middle Ages*, 47—52; idem, *Crusade, Commerce and Culture*, 97—98.

الدينوى يستطيع مرة أخرى أن يتعمل بنفس السبب لخالفه الاتفاق لصالحه . هذا ، وقد أصبحت البابوية منذ حوالى سنة ١٢٥٠ فصاعدا ، قوة سياسية راسخة الدعائم تتدخل فى كافة أشكال الصراع التى تنشعب من أجل السيادة العلمانية ، وتوجهها بالوسائل السياسية والعسكرية العادية ، حتى لقد أثار رددىبوا المفهم الإحساس بأنه كان فريداً فى فاعليته : وحوالى ذلك الوقت بالذات ، بنى مارسيلـيوس أوف بادوا اعترافاته ضد البابوية إلى حد بعيد على نفس السبب ، وهو أن المعروف عن البابوات أنهم أثاروا فى أوروبا الحروب أكثر مما عملوا على منعها . وقد أشار مكيافيللى (١) ، قبل ظهور حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا بسنوات قلائل ، إلى ذلك الأمر مرة أخرى باعتباره حقيقة معروفة . والواقع أن الأحداث التى وقعت خلال هذين القرنين ، أى فى الفترة الممتدة بين مكيافيللى وديبوا ، كان لها أكبر الأثر فى تبرير الاتهام ضد البابوية « Discorsi sopra la Prima Deca di Tito Livio » . وإن الأهمية التى يتمتع بها مارسيلـيوس تستوجب تخصيص كلمة عنه . فقد تلقى علومه فى البداية فى جامعة بادوا موطن رأسه ، وقام بالتدريس فيها ، حيث كانت المناقشة فى الشؤون السياسية وفى فلسفة التشاؤم أكثر ازدهارا عنها فى معظم أنحاء أوروبا . وقد اتخذ الطب مهنة له ، وعين رئيسا للجامعة فى باريس ، وهو منصب يعادل تقريبا منصب وكيل الجامعة فى وقتنا هذا . وهناك وضع بالاشتراك مع زميل

(١) ولد نيقولا مكيافيللى الفلورنسى سنة ١٤٦٩ وتوفى سنة ١٥٢٧ . وفيما يتعلق بحججه وآرائه السياسية وكتابه « الأمير » أنظر D. E. Muir. Machiavelli and His Times, 138 sqq. — أنظر أيضا جوزيبي بريتزولفى : حياة نيكولو ماكيافيللى الفلورنسى — ترجمة طه فوزى - مراجعة حسن محمود القاهرة ١٩٦٤ -

فرنسي سنة ١٣٢٥ أو ١٣٢٦ مؤلفه المشهور « المدافع عن السلم » Defensor Pacis . وهو كتاب مثير للغرابة في قالب من الفكر الحديث . ويكاد المؤلف ينسلخ كلية عن تقاليد القرون الوسطى . ومع ذلك يمدنا الكتاب ببيان واضح من بين المعلومات المبعثرة الدالة على أنه تحث الرأي الظاهري المتفق عليه في كل المسائل الجوهرية ينطوى تمرد شامل حتى بين أساتذة الجامعة وفي محادثاتهم الخاصة . فمارسيلوس هو أحد الكتاب القلائل في العصور الوسطى الذي يرتفع بقلعه الى مستوى يشبه ما يدون عن التاريخ بالطرق الحديثة . إنه يرى بوضوح كيف أن الكثير من التقاليد الجديرة بالاحترام لا يتفق بالمرّة مع الأدلة الصحيحة المدعمة بالمستندات . على أنه بصفة عامة لم يغامر بالتلميح عن الغش في المراسيم المزيفة ، شأنه في ذلك شأن غيره من المعاصرين له . ومع ذلك نراه يكشف عن عدم الأصالة في إحدى الوثائق الأصلية التي يطاق عليها اسم « رسالة البابا كليمنت (١) الى يعقوب تلميذ المسيح . » إذ وضع الوثيقة المذكورة تحت فحص علمي دقيق لم يجرؤ - للأسف - إلا القلائل من مفكرى القرون الوسطى على تطبيقه على وثائقهم التاريخية . ذلك أنه يلاحظ (٢) في الجزء المعنون « بشأن الملابس والأواني المقدسة ، الى يعقوب تلميذ السيد » ، والجزء المعنون « حياة الرسل العادية » ، أنهما مكتوبان بطريقة يستشف منها كأن كليمنت كان يصف ليعقوب ما صنعه المسيح مع رسله : غير أن ذلك لو صح ، لكشف عن جهل كليمنت الفاضح ، إن لم يكن عن غطرسة بغية أن يبلغ ما سمع هو عنه من الأمور في شيء من المبالغة والتحويل الى الشخص الذى كان حاضرا بين الرسل ، والذى كان هو نفسه أحدهم ورأى المسيح رأى العين . وإلا فمن الذى بوسعه تعليم الجوارين

(١) المقصود كليمنت الخامس أول بابوات أفينيون :

(٢) Defensor, ed. Previté - Orton, 434 (كولتون) .

في بيت المقدس حياة المسيح ورساله ؟ وبناء على ذلك ، هل يخامر أحد الشك فيما إذا كان من الأفضل أن يقوم بهذه المهمة أحد رسل المسيح ، أم أن يقوم بها مجرد خليفة للرسل ؟ ولهذا يتعين اعتبار الأجزاء المذكورة من الرسالة غير موثوق بصحتها ، حتي لو سلمنا بأن كليمنت هو الذي كتبها كما بصر البعض ، معتمدين في ذلك على روايات خرافية . وليس هذا فحسب ، بل إنهم يذهبون الى أبعد من ذلك ليقولوا إن كليمنت عند ما كان أسقفا على روما حيث توجد كنيسة الله ، كان أرفع مرتبة من يعقوب الرسول . فمن ثم يجب علينا أن نقسم : لماذا لم تدرج رسائل كليمنت في الكتب المقدسة المعتمدة من الكنيسة ، كما اعتمدت رسالة يعقوب ؟ أما فيما يتعلق بالأمور الواردة في هذه الرسائل والتي يبدو أنها تتعارض مع حكم المسيح ورساله ، فسوف نعالجها عند تناولنا لنصوص الكتاب المقدس التي يبدو أن أولئك الناس قد اعتمدوا عليها .

ويعالج [أي بادوا] بعد ذلك نصوص العهد الجديد قائلا إنها لا تتضمن أي تأكيد في صالح السيادة البطرسية في العصور الوسطى . وهو ، على العكس من ذلك ، يظهر لنا أن كلا من القديس بولس والقديس يعقوب ، كان يقوم بالدور الذي طالب اللاهوتيون في العصور الوسطى بأن يقوم به القديس بطرس دون سواه . ثم يستطرد قائلا إن القديس بولس كان المؤسس الحقيقي الأول لكنيسة روما المحلية . وكانت المجالس الكنسية العامة قد دعيّت منذ البداية للانعقاد تحت رئاسة الأباطرة وليس البابوات . وإن الكسب الذي أجزره البابا سنة ١٣٢٥ إنما كان عن طريق الاعتداءات التوازية على السلطات العلمانية : فقد ألغى تدريجيا نظام الانتخابات الشعبية ، وانهاكت عليه الهبات بوفرة ، تصاحبها عوامل الاغراء بالدينيات . ولا يعتبر تدخل البابا ورجال الدين في الشؤون المدنية اعتداء فحسب ، وإنما هو عبث

سوء المغيبة . وإن أعلى صاطة في المسيحية بعد المسيح هي الكتاب المقدس ، وأعلى محكمة هي عبارة عن مجاس عام يجب تمثيل رجال الدنيا والدين فيه على السواء ، وللامبراطور وحده الحق في دعوته للانعقاد . وحتى البابا ليس له أية ضرورة في المسيحية . وغير خاف أنه يؤدي بعض الواجبات التي يصعب تنظيمها بطرق أخرى ، ولكن الاستغناء عنه كلية لن يترتب عليه تعذر القيام بأى نشاط مطلوب . وليس لنظريات مارسيلوس الثورية من هدف سوى مصادعة الامبراطور الذي انحاز إلى جانبه في الصراع بين الامبراطورية والبابوية . ومن ثم كان مارسيلوس يدين بحياته لحماية الامبراطورية . وهو ، على العكس من ذلك ، لا يشك فقط فيما إذا كان من المرغوب فيه إقامة حكم عالمي ، بل أيضا فيما إذا كانت أى حكومة تعتبر أفضل من النظام الجمهوري ، حتى أنه عندما أصدر هنري الثامن أمره بترجمة كتاب « المدافع عن السلم » لتعزيز قضيته ضد البابا ، كان على المترجم أن يحذف منه الكثير من العبارات حتى يتفادى الاساءة إلى الملك .

وثمة هزة أخرى أصابت السلطة البابوية عندما غادر كليمنت الخامس وخلفاؤه روما إلى أفنيون (١٣٠٥ - ١٣٧٨) . فضلا عن صدمة أشد عنفا عندما تسببت القطيعة الدينية الكبرى في الغرب (١٣٧٨ - ١٤١٨) في استحالة الهم في النزاع بين البابويين المتنافسين لعدة سنوات . وكانت القديسة كاترين السينية (١) . St. Catherine of Siena على ثقة من

(١) كان لها دور معروف في سبيل عودة البابوية من منفاهما في أفنيون إلى مقرها القديم في روما ، عندما قامت باقناع جريجورى الحادى عشر آخر بابوات أفنيون بالعودة الى روما ، في وقت كان فيه رأى العام الكاثوليكي ضد إقامة البابوية في أفنيون . أنظر عن ذلك : LaMonte, The World of the Middle Ages, 638.

أن البابا الايطالى هو النائب الرسول الحقيقى للمسيح . أما القديس فسان فيرر St. Vincent Ferrer فلم يكتف بالانحياز إلى جانب الفرنسيين ، بل أخذ أيضا على عاتقه أن يثبت بمنطق قوى الحجة أن كل من تعلق بالبابا الايطالى حقت عليه اللعنة ، فيما عدا البعض الذين يمكن التماس العذر لهم بسبب جهلهم الفاضح . وعلى أثر ذلك لجأ مجلس كونستانس (١٤١٤-١٤١٨) إلى تأكيد تفوق سلطة المجالس العامة على البابوات ، وهكذا أجال بصفة مؤقتة حكما مطلقا دام عدة قرون إلى حكومة دستورية . بيد أنه حدث فى مجلس بازيل (١٤٣١-١٤٤٣) أن اشتد ضغط الديمقراطية ، فأسفر عن رد فعل كان من أثره أن شهدت السنوات الأخيرة من القرون الوسطى أوتوقراطية نامية فى كلا المجالين الدينى والدنيوى .

ولم يكن المجتمع قد نضج بعد بحيث يفهم شيئا من قبيل الديمقراطية الحديثة . هذا ، وكان ينطوى تحت الفكر السياسى الوسيط منذ بداية ظهوره الضغط على فكرة الوحدة التى كان يتمناها جميع المتحمسين ، لأن المجتمع كان فى الواقع ممزقا خلال قرون عدة نتيجة الجروب المستمرة فى الداخل أو الخارج ، والنسب لم تكن تعرف الهدوء . لقد كانت فوضى العصور المظلمة هى التى أمدت الاقطاعية بالقوة والثبات . ومن أجل نفس الأسباب التى قبلت لصالح التطور من الفوضى الى الاقطاع ، رحب الناس تدريجيا بتطور الاقطاع من نظام شبه جماعى إلى آخر جماعى كامل يسوده حكم مطلق سواء فى الكنيسة أم فى الدولة . ويقول جيركى Gierko :

« وفي ثنايا كافة مؤلفات كتاب القرون الوسطى كان يسرى تيار قوى ملحوظ نحو الحكم الفردى . وهنا نجد تناقضا شديدا بين كل من الفكر القديم والفكر الوسيط . » ويقول الأستاذ ه . و . س . ديفيز H. W. S. Davis : « إن الحكومة الصالحة فى القرون الوسطى لم تكن إلا إسما آخر لدولة قوية ذات طابع شعبى » .

بعض المراجع للفصل التاسع

١ - القانون

Brunot, F. E , Histoire de la langue française des origines à 1900. Vol. I : moyen âge. Paris, 1905.

Buckland, W. W.,

1 — Textbook of Roman Law, Augustus to Justinian. Cambridge, 1921.

2 — A Manual of Roman Private Law. Cambridge, 1925.

Davenport, E. H , The False Decretals. Oxford, 1916.

Delisle, L., Littérature latine et histoire du moyen âge. Paris, 1890.

Dodd, J., History of Canon law. London, 1884.

Flach, J , Etudes critiques sur l'histoire du droit romain au moyen âge, avec textes inédits Paris, 1890.

Français, E. A , Studies in Medieval French. 1961.

Haskins, C H., The Rise of Universities. New York, 1960.

Hove, A. van, Prolegomena ad codicem iuris canonici. Mechlin, 1928.

Huchon, R , Histoire de la langue anglaise. 2 vols. Paris, 1923, 1930.

Hunter, W. A., Roman Law. London. 1903.

- Jenks, E., *Law and Politics in the Middle Ages*. London, 1913.
- Koffmane, G., *Geschichte des Kirchenlateins*. Breslau, 1879-81.
- Laurin, F., *Introduction in Corpus juris canonici*. Freiburg, 1889.
- Leage, R. W., *Roman Private Law*. New York, 1906.
- Nunn, H. P. V., *An Introduction to Ecclesiastical Latin*. Cambridge, 1922.
- Pometti, F., *Il Decretum di Graziano nei suoi Precedenti storici e nelle sue consequence storico-ecclesiastiche*. Corigliano Calabro, 1910.
- Rashdall, H., *The Universities of Europe in the Middle Ages*. 3 vols. Oxford, 1895.
- Rumpf, P., *L'étude de la latinité médiévale*. Geneva, 1925.
- Souter, A., *Hints on the Study of Latin (A. D. 125-750)*. London, 1920.
- Thorndike, L., *University Records and Life in the Middle Ages*. New York, 1944.
- Vinogradoff, P., *Roman Law in Medieval Europe*. Oxford, 1929.
- Vising, J., *Anglo-Norman Language and Literature*. Oxford, 1923.
- Waywood, S., *A Practical Commentary on the Code of Canon Law*. New York, 1926.
- Wyld, H. C., *A Short History of English*. New York, 1927.

ب - السياسة

- Augustine (St.), City of God. English trans. by J. Healey.
2 vols. Edinburgh, 1909.
- Bertrand, L., Saint Augustin. Paris, 1913.
- Bowsky, W. M., Henry VII in Italy: The Conflict of Empire
and City-state. 1310-1313. 1961.
- Carlyle, R. W. & Carlyle, A. J., A History of Medieval
Political Theory in the West. 5 vols. Edinburgh &
London, 1903-28.
- Cutts, E. L., Saint Augustine. London, 1909.
- Dopffel, H., Kaisertum und Papstwahlen unter den Karolin-
gern. Freiburg, 1889.
- Dunning, W. A., A History of Political Theories, Ancient
and Mediaeval. New York, 1902.
- Eichmann, E., Kirche und Staat. Vols. I-II (750-1350 A. D.).
Paderborn, 1912-14.
- Figgis, J.,
1- The Political Aspects of St. Augustine's City of God.
2- Political Thought from Gerson to Grotius: 1414-1625.
New York, 1960.
- Fournier, P., Etudes sur les fausses Décrétales. Louvain, 1907.
- Gierke, O., Political Theories of the Middle Age. Trans.
by F. W. Maitland. Cambridge, 1900.
- Greenwood, A. D., The Empire and the Papacy in the Middle
Ages. London, 1901.

- Humphrey, E. F., *Politics and Religion in the Days of Augustine*. New York, 1912.
- Janet, P., *Histoire de la science politique dans ses rapports avec la morale*. 2 vols. Paris, 1887.
- Jarrett, B., *Social Theories of the Middle Ages, 1200-1500*. London, 1926.
- Lea, H. C., *Superstition and Force*. Philadelphia, 1892.
- Lewis, E., *Medieval Ideas*. 2 vols. London, 1954.
- Mathew, A. H., *The Beginnings of the Temporal Sovereignty of the Popes*. London, 1908.
- Pelugk-Harttung, *Die Papstwahlen und Kaisertum, 1046-1328*. Gotha, 1908.
- Pirano, S., *Stato e chiesa, 888-1015*. Turin, 1908.
- Sägmüller, J. B., *Lehrbuch des katholischen Kirchenrechts*. Freiburg, 1925.
- Salin, E., *Civitas Dei*. Tübingen, 1926.
- Savigny, F. C. v., *Geschichte des römischen Rechts im Mittelalter*. 7 vols. Heidelberg, 1834-51.
- Schilling, O., *Naturrecht und Staat nach der Lehre der alten Kirche*. Paderborn, 1914.
- Seidel, B., *Die Lehre des heiligen Augustinus vom Staate*. Breslau, 1909.
- Sokolwski, P. v., *Der heilige Augustin und die christliche Civilisation*. Halle, 1927.

Tout, T., The Empire and the Papacy. European History, 918-1273. London, 1909.

Ullmann, W., Principles of Government and Politics in the Middle Ages. London, 1961.

Waley, D. P., The Papal State in the 13th. Century. 1961.

الفصل العاشر

الكنيسة وعالم الاقتصاد

كان جـل اهتمامنا موجهاً حتى الآن الى دراسة الفكر الوسيط من ناحيته الأكاديمية والرسمية دون سواهما . ولكن الواجب يقتضى ألا نقف عند هذا الحد . فان من أشد الأخطاء فيما يتعلق بما تترقعه من الأحداث التاريخية البعيدة ، الحكم على عصر ما بعظماء رجاله فحسب ، ولو أنه يتعين علينا بطبيعة الحال أن نبدأ أولاً بعظماء الرجال . وقد غالى المؤرخون كثيراً في فاعلية النظم في العصور الوسطى ، وتبعاً لذلك في تجانس المبادئ التي قامت عليها تلك العصور . وبوسعنا ملاحظة ذلك في مبدأ من أهم المبادئ الوسيطة ، ألا وهو مبدأ السعر العادى في التجارة ، مع ما يباحق به من تهميم الربا .

ففى ظل ذلك النظام المحكم الذى قرره القانون المدنى ، والذى نما ونسق فى الامبراطورية الرومانية — كان المبدأ الاقتصادى السائد هو أن يهتم كل امرئ بنفسه . وكان الشعار المعمول به هو : « دع المشتري أن يكون على حذر : » (١) ولكن قانون الكنيسة الوسيطة ، وكذلك الدولة بقدر ما سمحت به لنفسها بأن تتأثر بهذا القانون ، قد حاولا تأكيد الآية الواردة فى الكتاب المقدس ونصها : « فكل ما

(١) بمعنى ان يفحص المشتري بضاعته بنفسه دفعا لمسئولية التاجر فيما إذا حاول المشتري الرجوع عليه إذا ما اكتشف عيباً فى مشترياته بعد استلامها .

يريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم ، (١) . ولقد كان المسيحيون الأوائل جميعا على جانب كبير من الاشتراكية (٢) ، بحيث لم يكن بينهم إلا القليل من المعاملات التجارية ، إن لم تكن التجارة

(١) هي جزء من موعظة المسيح على الجبل : أنظر : انجيل متى -
الاصحاح ٧ : ١٢ .

(٢) ذكر كولتدون أن المسيحيين الأول كانوا على جانب كبير من الاشتراكية ، والواقع أنه ، فضلا عن القيم الروحية في دعوة المسيح ، فالكتاب المقدس مليء بالآيات الدالة على الاتجاهات الاشتراكية . فالمسيحية تحرم الربا . وقد جاء في انجيل لوقا - اصحاح ٦ : ٣٥ « ... أقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا » . وهي تدعو إلى عدم تكديس المال واكتنازه باعتبار أن المال وظيفة اجتماعية . جاء في موعظة المسيح إلى تلاميذه على الجبل - انجيل متى ٥ : ٤٢ « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض » : وفي رسالة المسيح تقديس لقيمة العمل ، وأن لكل حسب عمله . جاء في رسالة القديس بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي اصحاح ٣ : ٨ « ولا أكلنا خبزا مجانا من أحد بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلا ونهارا لكي لا نتقل على أحد منكم » ، وفي نفس الرسالة - اصحاح ٣ : ١٠ « يزداد هذا الأمر وضوحا ، إذ جاء وإن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا لأننا نسمع أن قوما يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون شيئا بل هم فضوليون ... » . وهذا يعني تقييم الفرد في المجتمع بعمله ومجهوده ، بمعنى أن يأخذ كل فرد نتيجة عمله : فمن يغيب ويكد ينال ثمرة تعبهم وكده ، والعكس بالنسبة لمن لا يتعب ولا يعمل . وهذا يتضمن العدالة والمساواة في الفرص المتكافئة أمام كل فرد في المجتمع . والدعوة تنادي كذلك إلى لبس الطبقة حتى لا تستغل طبقة ببقية المجتمع الذي يتألف من الجماهير للعامة ، مع العمل في نفس الوقت على إشباع كافة مطالب الناس . ونجد مثلا واضحا لذلك في أعمال الرسل - اصحاح ٢ : ٤٣ - ٤٥ . =

في حكم الممدومة . وكان الكتاب المسيحيون في القرون الأربعة الأولى شديدي التمسك بالمذهب الطهرى في موقفهم من التجارة : وجاء في فقرة منسوبة إلى القديس حنا فم الذهب (١) St. Chrysostom المتوفى سنة ٤٠٧ :

= ولكن الذى حدث أن الغرب الأوروبى ، بعد قرون قليلة من ظهور المسيحية ، أخذ ينحرف عن جوهر الرسالة . فأصبحت الطبقة والاقطاع من السمات المميزة للعالم الغربى لقرون طويلة . وانزلت البابوية في روما والكنيسة اللاتينية نفسها إلى الاقطاعية نتيجة لظروف عديدة تتعلق بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط . ثم أخذ الفساد يدب في الجهاز الكنسى البابوى . فن رشوة ، إلى صكوك غفران ، إلى محاكم تفتيش ، إلى احتكار للشئون الدينية والديوية على السواء ، إلى أن غدا رجل الدين هو الواسطة بين الخالق والمخلوق وحتى عندما حل الاقتصاد النقدى في أخريات العصر الوسيط محل الاقتصاد الاقطاعى ، وقامت المدن بسكانها من أفراد الطبقة المتوسطة المشتغلين بالتجارة والصناعة ، والذين كانوا يعرفون وقتها باسم البرجوازية ، انبثقت من بينهم طبقة أخرى هى طبقة كبار التجار التى سيطرت على المدن وعلى السلطات العليا فهـا من سياسية وإدارية ومالية وقضائية . وكانت هذه هى النواة الأولى للرأسمالية التجارية في الغرب في عصر النهضة . وبظهور الثورة الصناعية واستخدام الآلة الحديثة في القرن الثامن عشر ، تحول الغرب إلى الشكل الرأسمالى بمدلوله الحديث ، ونعنى به رأسمالية الصناعة ، وأصبحت البرجوازية تعنى حاليا الطبقة الرأسمالية . ويكشف هذا العرض السريع كيف بعد الغرب عن التعاليم الأصيلة للمسيحية وما نادى به المسيح ، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه الآن ،

(١) ولد يوحنا فم الذهب في أنطاكية سنة ٣٤٧ . وأصبح أسقفا على القسطنطينية سنة ٣٩٧ . وكانت حملته العنيفة ضد الفساد والتهور في العاصمة البيزنطية سببا في كراهية الكثيرين له ، وبخاصة أفراد الطبقة العليا ، مما أدى في النهاية إلى نفيه خارج البلاد سنة ٤٠٣ بتهمة انحيازه إلى آراء أوريجين =

ما يلي : « اذا اشترى أى فرد شيئا لا ليبيمه كما اشتراه ، دون أن يحدث تغييرا فيه ، ولكن ليكون مادة يصنع منها شيئا جديدا ، فهذا الشخص لا يعتبر تاجرا : ولكن الرجل الذى يشتري شيئا بقصد الكسب من بيعه ثانية

= السكندرى . ولكنه استدعى خوفا من ثورة الشعب ، نظراً لأنه كان محبوباً جداً من العامة . ثم نفى مرة أخرى لمواقفه المتشددة ، وتوفى فى منطقة البحر الأسود سنة ٤٠٧ . وقد ترك كتابات كثيرة تضمنت آراءه وأفكاره . أنظر عن ذلك : Blakeney, Everyman's Smaller Classical Dict., 144.

ويوجد بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء عدة مخطوطات باللغتين العربية واليونانية القديمة ، تتناول سيرة يوحنا فم الذهب وأخباره وقصصه وميامره ، يرجع تاريخها فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر . ومن أهم المخطوطات العربية نذكر :

- ١ - « برلام ويواصف وميامر لانسطاسيوس وثوذلس وذهي الفم للصوم الكبير وبستان الرهبان » (رقم ٥٠٦) أنظر ورقة ٣٣ أ - ٥٣ أ - عدد أوراق المخطوط ١٧٥ - تاريخه القرن ١٣ .
- ٢ - « ميمر لذهي الفم وقصة مريم المغنية العبرالية وخبر يوحنا فم الذهب وشهادات بقطر وآخرين » (رقم ٥٢٠) أنظر ورقة ١٩ - ١٢٥ ب - ١٥٤ ب - عدد أوراق المخطوط ٢٧٦ - تاريخه القرن ١٠ .
- ٣ - « سيرة اييفانوس وسيرة يوحنا فم الذهب واستشهاد بطرس بطريك الاسكندرية » (رقم ٥٢١) أنظر ورقة ١٢٥ - ١٣٥ أ - عدد أوراق المخطوط ١٤٥ - تاريخه القرن ١١ :

- ٤ - « قصص يوحنا ذهي الفم وايربني القديسة » (رقم ٥٢٩) أنظر ورقة ٩ ب - ٢٧٩ ب - عدد أوراق المخطوط ٣٢٣ - تاريخه القرن ١٣ :

دون أن يحدث تغييرا فيه بل كما اشتراه ، فهذا الشخص يكون أحد المشتريين أو البائعين المنبوذين من معبد الله ، وبعبارة أخرى ، يمكنك أن تشتري خامات لعملك الخاص ، أما أن تشتري البضاعة المصنوعة بقصد الاتجار بها فذلك خطيئة . ولا تفضل هذه الخطيئة الربا إلا بقدر درجة واحدة . وعلى أية حال ، فإن ذلك يطابق منطقيا ما قاله القديس بولس من أنه إذا لم يكن ممكنا أن يقاضى مسيحي زميلا له ، فمعنى ذلك أنه لن تقوم تجارة واسعة بين مسيحي وآخر . ومن المحتمل أن يكون هذا الكلام قد نسب خطأ الى القديس حنا فم الذهب ، وأن يكون قد صدر في الحقيقة عن كاتب آخر متأخر .

== ٥ - ٥ - برلام ويواصف ونياحة العذراء وسيرة تادرس من دير سابا ومرقس الترمقاني وميامر ذهبي الفم وسير مكسيموس ودماديوس ونفريوس وغيرهم من القديسين ، (رقم ٥٣٨) أنظر ورقة ١٦٨ - ١ - ١٧٣
 و ١٧٨ - ١ - ١٨٠ ب - عدد أوراق المخطوط ٢٧٦ - تاريخه سنة ١٢١٩ م
 هذا فضلا عن العديد من المخطوطات المرجودة بمكتبة الدير للذهبي الفم منها « قداس يوحنا فم الذهب » (رقم ٢٢٢) ، و « تفسير التكوين » (أرقام ٢٨٠ - ٢٨٣ و ٤٤٩) ، و « خدمة القداس الالهي مع الصلوات » (رقم ٦٢٤) ، و « تفسير انجيل متى » (أرقام ٢٨٤ - ٢٩٠) ، و « تفسير انجيل يوحنا » (أرقام ٢٩١ - ٢٩٦ و ٤٧٢) ، و « تفسير رسالة رومية » (أرقام ٢٩٧ - ٢٩٨ و ٣٠٠) ، و « تفسير رسالة افسس » (رقم ٢٩٩) ، و « تفسير رسالة العبرانيين » (أرقام ٣٠١ - ٣٠٣ و ٥٩٢ و ٦٢٦) ، و « مقالات وعظات عن تفسير رسالة رومية » (رقم ٦٢١) ، و « تفسير على بعض رسائل بولس » (رقم ٤٧٨) . يضاف إلى ذلك عشرات المخطوطات التي تضمنت مواعظ ومقالات وميامر وتعاليم ومحاورات ورسائل للذهبي الفم محفوظة بدير سانت كاترين .

ولكن ذلك ربما يجعل لهذا الكلام أهمية أعظم من وجهة نظرنا في هذا الزمن ،
لأنه من الممكن لإثبات أن هذا الضرر البالغ بالتجارة كان شائعا حتي بعد
وفاة حنا فم الذهب . فضلا عن أن القول المذكور قد أدمج في مجموعة القوانين
الكنسية Corpus Juris Canonici التي جمعت حوالي سنة ١١٥٠ (١) ،
والتي كانت موضع ثقة كبيرة طيلة القرون الوسطى وبعد انتهائها . ولم يكن
هذا النص الذي فسر حرفيا غير متمش مع التجارة على أى نطاق واسع فحسب ،
بل كان قليل المرونة بحيث لم يسمح حتى بإفساح المجال لاحد بأن يقيم حانوتا
في قرية ، الأمر الذي حدا بالكنيسة إلى التراجع عن هذا الموقف الهزيل . غير
أن تراجعها ثم تدريجيا ، وكان في معظمه بصورة غير رسمية وغير معترف بها .

وفي سنة ١٢٥٠ واجه القديس توما الاكوييني ، وهو لاهوتي معروف
باعتداله ، بعض الصعاب في تفسير كلمات القديس حنا فم الذهب ، وهو ينظر
إلى التجارة على أنها في ذاتها عمل مرذول بكل ما في هذه الكلمة من معنى ،
وذلك بوصفها نتيجة لطبيعة الإنسان المعرض للسقوط في الخطيئة . ولا بد
أن اللجنة لم تقم فيها أية تجارة . وكان القديس انطونينو St. Antonino
الذي كتب بعد عصر تشوسر بجيل واحد ، يؤيد هذا الرأي . أنه لا يعارض
فعلا القديس حنا فم الذهب ، ولكنه يحاول كثيرا أن يخفف من حكمه عليه
بقوله : « إن التجارة في ذاتها شيئا محمودا ، إذ يمكن ان نحمد إذا اقتنع
التاجر لنفسه بكسب شريف يضمن له السكفاف من الغيش ، بحيث اذا

زاد كسبه من ذلك وجب عليه توزيع فائض دخله على الفقراء ، وهكذا
برز مبدأ السعر العادل ذى الطابع الوسيط . (١) وإن من حق الإنسان أن يعدل
ربحه بحيث يكفيه وأسرته ليعيشوا في نعمة معقولة تنفق مع مركزه في الحياة ،
أيا كان هذا المركز . ولكن لا حق له في أية زيادة على ذلك .

ويمكننا جميعا تقبل هذا الوضع بارتياح باعتباره أمرا مثاليا . ولكن تبقى
بعد ذلك الصعوبة الكبرى في ترجمة هذا المعنى عمليا . وحقيقة الأمر أن هذا
التطبيق يحبل الافة تصايدات إلى مسألة ضمير ، فهي تبدأ بالمبدأ القائل بأن
الجيد أو الردى إنما يرجع الى نوايا التاجر . فاذا كان يقصد مصلحة الشعب
مكتفيا بكسب معتدل مقابل ما يقدمه من خدمات فذلك أمر حسن . اما اذا
كان يهدف الى الحصول على مزيد من الربح ، فان عمله يكون مجردا من
الاخلاق . وكان من الميسور تنفيذ هذه النظرية في العصور الوسطى بنجاح
في بعض الحالات المعقولة نسبيا . وفي تلك الأيام فعلت الحكومات الوطنية
والحلية ما فعلناه نحن على نطاق واسع اثناء الحرب (٢) ، إذ ثابروا على العمل
منذ إلقاء السلاح . وقد حددت هذه الحكومات أسعارا لا لمعظم ضروريات
الحياة فحسب ، بل للاشجار أيضا . فالحبز مثلا كان يباع طبقا لقائمة
الأسعار اليومية التى تتغير تبعا لتغير سعر القمح في السوق . وكانت الجمعة
تعتبر ضرورية ، وبلغ سعرها مرة بتسا ونصف بنس للجبـالون من الصنف
المتناز ، وبنسا واحدا للجالون المتوسط الصنف ، ونصف بنس للعيار الصغير .
ولا شك أن تسعيرة انتاج الجمعة هذه قد نجحت في تحديد مستوى الأسعار الى
حد ما ، ولكن دون أن يتم هذا التحديد بصورة كاملة . وكان كل رجل أو

(١) المقصود بذلك مبدأ السعر العادل فى العصور الوسطى .

(٢) المقصود انجلترا .

امراة يقوم بتحضير الجمعة يعتبر من الناحية العمالية مخالفا لتسييرة الانتاج في حالة بيعها مخفضة جدا أو باهظة السعر : وكان يتم تحصيل الغرامات عن هذه المخالفات كما لو كان التجار قد راعوا القانون . ولكن يتعين عليهم الحصول على رخصة مقابل رسم يدفعونه عن المشروب ، كما يفعلون في أيامنا هذه .

ومع سرعة التقدم المهني والتجاري منذ حوالي سنة ١١٠٠ فصاعدا ، والذي يرجع بعضه الى الحروب الصليبية ، بدأت مشكلات جديدة في الظهور ، وأخصها مشكلة الربا ، أى إقراض النقود مقابل فوائد . والربا حسبما عرفته الكنيسة والقانونيون كان في بادىء الأمر مجرد فكرة ميسور تعريفها بوضوح في بعض كلمات : فاقراض النقود وقبول ربح بنس زيادة عن المبلغ المقرض هو ما يعرف بالربا : وكان الربا خطيئة مميتة ، لأنه محرم صراحة في الكتاب المقدس . (١) وقد رأينا كيف أنه بالنسبة

(١) الكتاب المقدس زاخر بالآيات الخاصة بتحريم الربا صراحة في المهدين القديم والجديد . ففي العهد القديم جاء في سفر الخروج (الاصحاح ٢٢ : ٢٥) « ان اقرضت فضة لشعبي الفقير فلا تكن له كالمرابي . لا تضعوا عليه ربا . » وجاء في سفر اللاويين (الاصحاح ٢٥ : ٣٥ - ٣٧) « وإذا افتقر اخوك وقصرت يده عندك فأعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك . لا تأخذ منه ربا ولا مراوحة ، بل اخش الهك فيعيش اخوك معك . فضحك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعطه بالمراوحة . » وفي سفر التثنية (الاصحاح ٢٣ : ١٩) جاء ، « لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا . » وفي مزامير (مزبور ١٥ : ٥) جاء : « فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البرى . » وجاء في امثال (الاصحاح ٢٨ : ٨) =

للاهوتيين في العصور الوسطى ، كما هي الحال بالنسبة لمعظم اللاهوتيين حتى
الأزمة الحديثة تقريبا ، لم يكن من الميسور المجادلة في أى موضوع وارد
صراحة في الكتاب المقدس . فلما كانت سنة ١١٥٠ بدأت المشكلة تتخذ
صورة جديدة : ثم لم تلبث أن أخذت في النمو حتى صارت مسألة حياة
أو موت بالنسبة للتجارة ، لأنه إذا لم يحصل الناس على فائدة مقابل النقود
المقرضة ، كان ذلك يعنى بوضوح أن يعجز المجتمع كلية عن النهوض بأحوال
القرية البدائية . إن حرية التجارة الحقيقية تعنى حتما حرية الحصول على
الفائدة . ولا تنال هذه الحرية بمواجهة المشكلة بطريقة مباشرة وإعلان
تعديلات صريحة في القانون ، وإنما يتم الحصول عليها بصورة غير مباشرة ،
وذلك بتعديل التعريف الأصلي للربا . وكان هذا التقدم شديد الشبه بما هو
جار الآن في أمريكا بموجب مرسوم فولستيد « Volstead Act » . وقد قيل
إنه لا أمل عمليا في العودة الى تغيير الدستور الأمريكى . فالمشروبات الروحية
ستظل دائما محظورة اسما . ولكن يبدو من جهة أخرى ، أن طائفة كبيرة

= « المكثرون ماله بالربا والمرا بة فلمن يرحم الفقراء يجمعه . » وجاء في حزقيال
الاصحاح ١٨ : ٨ « ولم يعط بالربا ولم يأخذ مرا بة : » أنظر أيضا حزقيال
(الاصحاح ١٨ : ١٣ و ١٧ والاصحاح ٢٢ : ١٢) . ونجد في نحميا
(الاصحاح ٥ : ١ - ١٣) إشارة واضحة الى تحريم الربا . هذا في أسفار
العهد القديم ، وفي العهد الجديد نجد الكثير من الآيات التى تنص صراحة على
تحريم الربا . فجاء في انجيل لوقا (الاصحاح ٦ : ٣٥) « بل أحبوا اعداءكم
واحسنوا واقترضوا وانتم لا ترجون شيئا ... » أنظر أيضا المثل الوارد في
الاصحاح ١٩ : ١٣ - ٢٧ من انجيل لوقا . وكذلك المثل الوارد في الاصحاح
٢٥ : ١٤ - ٣٠ من انجيل متى . راجع كذلك ص ٢٨٨ ح ٢ من هذه الترجمة .

من الناس لا تزال شديدة الأمل في أن تقوم السلطات التنفيذية في عدد كبير من الولايات المتحدة الأمريكية بتفسير القانون بأى شكل بحيث تفتح الباب لبيع المشروبات الروحية بصورة معتدلة . وإذا كانت مثل هذه المقارنة التي اقترحها بين أحوال أوروبا منذ سبعمئة سنة مضت وبين أجسن الأحوال في أحدث الولايات في العالم ، تبدو لأول وهلة جريئة جدا ، فإني أرجو أن أن تنبهوا في صبر وأناة الحقائق التي يتعين على عرضها بإيجاز ، فقد قدمت عن تلك الحقائق مستندات مستوفاة في عدد يوليو من سنة ١٩٢١ من مجلة « التاريخ » History ، الدورية .

ففيما يتعلق بالربا ، كما هو الحال في التجارة ، بنت الكنيسة كل شيء على أساس أن يسائل الإنسان ضميره . فإذا أنت اقترضت نقوداً بقصد الربح من وراء هذا القرض ، كان ذلك ربا وخطيئة مميتة . أما إذا كانت نيتك أن تساعد جارك دون أن تنقاضي منه إلا ما يكفيك لتغطية أى خسارة تكون قد تكبدتها في سبيل هذه المساعدة ، فلا ضرر عندئذ من قبول الفائدة . مثال ذلك ، أننى إذا اقترضت من أجل الحصول على المال الذى أقرضه لجارى ، كان طبيعيا أن أتوقع من جارى هذا أن يرد لى تلك الفائدة التي دفعتها أنا للطرف الثالث . وهكذا في كافة الحالات الأخرى حيث تقتضى مروتى نحو جارى تجعل خسارة أكيدة يجب عليه أن يردها إلى . ولم يكن هذا بطبيعة الحال إلا نوعا من تخفيف للتحريم المسيحى الأصلى للربا ، ولكنه كان على أى حال تخفيفا طبعيا . وعلى الرغم من أن الكنيسة سمحت بهذا التعويض مقابل الخسارة الفعلية المتحملة ، فقد رفضت السماح بأى تعويض لما كان معروفا باسم « الكف عن الربح » .

فهى لم تقبل قط الدفع بأنه كان من حقى أن أحصل على التعويض فى مقابل أن كل مبلغ أقرضه لجارى كان يرد الى دون فائدة ، بينما لو لم أقرضه هذا المبلغ لأمكننى أن أتاخر به وأزيد من دخلى . وإن الأخذ بهذا الدفع طبقا لفلسفة ذلك الزمن ، كان معناه أن يطلب الإنسان المستحيل . (١) ذلك أننى اذا أقرضت جارى بقرة فانى أتكبد خسارة فعلية ، لأنى إن أقرضتها له لمدة عام مثلا ، فلا أخسر لبن عام فقط بل ربما خسرت عجلين أيضا . ولكنى لو أقرضته مائة جنيه ، فلا أخسر اللبن ولا العجول . ذلك أن الذهب والفضة لا يلدان كالحيوانات . وإن شيلوك المرابى (٢) هو وحده الذى يقبل « نتاجا للذهب المصاب بالعقم » . لذلك أدانت قوانين الكنيسة صراحة كل فائدة تؤخذ لمجرد التعويض عن ضياع ربح من النقود التى تقرض على هذا النحو . (٣) وعلى أساس كل هذه النقاط الهامة علينا أن نتذكر بأن الدولة قبلت قانون الكنيسة من الوجهة النظرية على الأقل . وإن هذا التمييز بين أحقية التعويض عن الخسارة الفعلية المحتملة وبين بشاعة التعويض للإبقاء على المعدن المصاب بالعقم معطلا ، إنما هو أمر منطقى من الوجهة النظرية سواء سلمنا به أم لا . وقد غدا هذا المنطق من الوجهة العملية أمرا يصعب الأخذ به ، كما هو الحال بالنسبة لذلك التمييز الآخر بين النوايا الحسنة والنوايا السيئة .

-
- (١) فى الأصل الانجليزى « أن يخلق الإنسان دائما على وجه الطبيعة . »
 (٢) شيلوك المرابى هو شخصية ظهرت فى مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » ، ويضرب بها المثل فى البخل الشديد وأقراض المال بالربا الفاحش .
 (٣) عالج المؤرخ البلجيكي هنرى بيرين مسألة الربا والقروض بفائدة ، فقال =

وربما كانت أول حالة هامة من الحالات التي يتعين أن تطبق عليها المبادئ المستجدة عن الربا ، هي التي نطلق عليها الآن اسم « شركة توصية نائمة » ، وكانت تعرف في القرون الوسطى باسم Commenda . ومن قبيل ذلك أن تاجرا ، مثلا ذهب في رحلة طويلة باهظة التكاليف . فمن الواضح أن من

==إنهما كانا يعتبران خطيئة مميتة في نظر الكنيسة التي حرمتها ونجحت فعلا في إبطاءها منذ القرن التاسع . وكانت تقدم كل من يترف الربا الى المحاكم الكنسية وتوقع عليه أشد العقاب . أما التجارة فكانت في نظرها أقل إثما من الربا لصلتها بالحياة المادية دون الحياة الروحية : ويذكر بيرين أن الكنيسة أفنت بذلك تحقيقا لمصالحها فحسب ، ورغبة منها في تقوية سلطانها الروحي والديني بين أتباعها . ثم يتساءل : هل هناك أشد تحكما من الكنيسة بعد تحريمها للربا والقروض والتجارة بصفة عامة ، في مثل هذه القرون التي كان يسودها الاكتفاء الذاتي لكل اقطاعية من الاقطاعيات التي كانت الطابع المميز للقرون الوسطى ؟ وهل يكون الوضع أكثر نفعا لو فتحت الكنيسة الباب أمام المضاربات والربا والاحتكار في وقت كانت فيه المجاعة تجبر الأفراد على الاقتراض غير الشرعي من جيرانهم ، فتجعلهم أكثر عرضة للوقوع في براثن السخرة والعبودية ؟ ومع ذلك فإن الظروف الاقتصادية القائمة التي مر بها الغرب دفعت الأفراد الى عصيان أوامر الكنيسة في هذا الشأن . كما دفعت الأديرة نفسها الى التمرد والعصيان على تعاليم الكنيسة ونواهيها ، والى قبول المكاسب والفوائد التجارية التي كانت تحصل عليها نتيجة استغلال الأديرة لرؤوس أموالها باقراضها للمعوزين بالربا ، حتى يتسنى لها تثبيت كياناتها الدينية والقيام بواجباتها .

مصالحته أن يعاونه شخص آخر لينحى له رأسماله ، على أن تكون له حصة نسبية في الأرباح بعد خصم الأجور ومصاريف التشغيل ولكن ، ألم يكن المقرض يمثل هذا الاتفاق يحصل على ربا . لأنه طبقا للتعريف الكنسية المبكرة يحصل حتما على ربا . ذلك أن قبول أى شيء يجاوز المبلغ المقرض فعلا ، كان يدان طيلة قرون عديدة بوصفه خطيئة مميتة . وحتى بموجب النفس-ير الأخير الأكثر تسامحا ، لنا أن نتساءل : « ألم يكن واضحا أنه يحصل على نتاج من المعدن المصاب بالعقم ؟ » ذلك أن صاحب المال الذى أقرض مائة جنيه كان قابعا في بيته في هدوء ! وكان البحار وطاؤه هم الذين انتجوا بجهدهم كل ما وصل إلى أيديهم زيادة عن رأس المال البحت . ومن ثم فأى حق للمقرض البليد في المطالبة بحصة أيا كانت في نتاج عقيم ؟

كانت هذه هي المشكلة . وهنا ، كما يحدث كثيرا في التاريخ ، جاءت الحقائق ففتحت بعنف الطريق الذى كانت النظرية تبذل جهدها لسده ذلك أنه قبل الغزو النورماندى بجيلين على الأقل ، كان التجار في موانئ البحر الأبيض المتوسط التى امتازت بتفوقها حضاريا على غيرها ، يمارسون نظام شركة التوصية الناعمة المعروف باسم Commenda : وقد أصبح أمرا عاديا خلال القرنين اللاحقين أن نجد بابا مثل أنوسنت الثالث يفتى في سنة ١٢٠٦ بأن بائنة الزوجة يجب استثمارها بهذه الطريقة باعتبارها نوعا من القيم الكلية الضمان : ومع ذلك ، فثمة رسالة في علم اللاهوت المبسط كتبت حوالى نفس الوقت ، وفيها نجد العالم الأخلاقى يصم هذه الممارسة صراحة بوصفها خطيئة شائعة . ويفسر أمر انتشارها بأن الناس « في تلك الأيام ، أى في القرن الثالث عشر المنحل ، كانوا على استعداد للقيام بأى عمل في سبيل الحصول على المال ، وإلا أم مكتنز المال الناجع ، دون اعتبار للناحية

الخلقية فيما يلجأ اليه من وسائل لتحقيق هذا الغرض». وفي مثل هذه الظروف لن ندهش حين نعلم أن البابا جريجورى التاسع قد هاجم هذه المسألة على الفور، وعالجها في مرسوم أطلق عليه اسم «الملاحه» *Naviganti*. وفيه يتناول البابا قضية المقرض الذى يحصل إلى جانب مبلغه الاصلى على حصة فى أرباح الرحلة التجارية، ويقرر بنحشونة فى كلمتين أن هذا هو الربا بعينه *usura est*. وكان ذلك فى الواقع هو العودة إلى ما كانت عليه الحال من قبل. وهكذا ناصر جريجورى التقليد المسيحى الذى دام ألف عام فى تحد صريح للتجارة النامية. فهو يرى أنه يجب ألا تكون ثمة تجارة إلا بقدر ما يستطيع رجل أن يفعله فى قاربه الخاص الصغير وبرأسماله الخاص الصغير. ومن وجهة النظر هذه، يشبه مرسوم الملاحه المشار اليه مرسوم فولستيد الامريكى، من حيث عدم التساهل فى تأكيد هذا المبدأ. ولنا أن ندهش من الجرأة التى تجدى بها جريجورى التاسع عالم التجارة الكبرى، وهو العالم الذى احترمه دون مناقشة سلفه انوسنت الثالث، ذلك المحامى الكنسى العظيم والحاكم الشجاع. وكانت هناك مفاجأة أعظم من ذلك كامنة وراء الستار. ذلك أن جريجورى التاسع صاحب هذا التحريم الشامل، كلف القديس ريموند أوف بنافورت *St. Raymund of Penaforte*، وهو اسباني دومينيكانى، بجمع المراسيم البابوية فى كتاب جديد يكون مكملًا للمجلد الاول من القانون الكنسى. وكان طبيعيا أن يدرج ريموند مرسوم الملاحه الذى أصدره جريجورى بنفسه فى تلك المجموعة. وعندئذ حظى الكتاب كله بتصديق البابا الرسمى عليه. وهكذا أصبح مرسوم الملاحه قانونا معترفا به للمسيحية قاطبة. واعتقد أن هذا القانون لم يبلغ رسميا إلا بعد أن تم استبدال كافة المجموعات القديمة

بمجموعة جديدة للقانون الكنسى فى سنة ١٩١٧ ، أى منذ ثلاثين عاما مضت (١) ومن ثم ظلت هاتان الكلمتان المشثومتان « هوذا الربا » *Usura est* ماثلتين فى القانون . ومع أن ريموند كان قد وضع كتابا عن القانون الكنسى ، وأدجج المرسوم المذكور فى القانون بعد ذلك بسنوات قلائل ، فقد اعترف بأن بعض اللاهوتيين لم يزالوا على رأيهم الخاص بمعارضة حكم البابا على طول الخط وبعد ذلك بسنوات قلائل تناول القديس توما الأكوينى المسألة فى فصل من مؤلفه العظيم « الكامل فى اللاهوت » ، الذى أصبح أساس التعليم الكنسى فى هذه الناحية حتى يومنا هذا . وقد قرر القديس توما أن مجازفة المقرض تعتبر فى الحقيقة عملا من جانبه . وهكذا يتاح له أن يتجنب تلك المحاولة المنافية للدين فى سبيل الحصول على نتاج من المعدن المصاب بالعقم . فإذا حرر المقرض عقدا يلزم للتاجر البحار بأن يرد له المبلغ المقرض أيا كانت نتيجة رحلته ، فانه بذلك يقترف الربا على حد قول القديس توما ، لأنه إنما يجنى فائدة لم يحصل عليها بجهد . أما إذا كان يساهم مع البحار حفظه فى الخسارة بدلا من أن يساهم معه فى الربح ، جاز اعتباره مجازفته عملا ، ويكون استثماره حلالا . وهذا حل معقول وجدير بمثل هذا الفيلسوف الكبير . فضلا عن دلالة على جرأة عظيمة فى مخالفة تقليد الكنيسة الأسبق . بيد أن القانون الكنسى تضمن القرار للصادر بالممارسة التامة فى هذا الشأن . وكان للقانون الكنسى ، نظريا ، من قوة الإلزام ما يعتبر كل من يعارض فيه هرطيقا .

وفى تلك الأثناء ، عندما كان القديس توما وكبار الفلاسفة الذين جاءوا بعده يتجاهلون كلام البابا رغم وضوحه وصراحته ، كان طبيعيا أن يتجاهل رجال الدين المحافظون من جهة والسلطات المدنية من جهة أخرى ، آراء

(١) ذلك لأن الطبعة الأولى من كتاب كولتون صدرت سنة ١٩٣٠ .

القديس ثوما . وهكذا نجد واعظين حتى حركة الاصلاح الديني ما زالوا يعرفون
الربا لشعوبهم طبقا للاسس الفجة القديمة ، وهو أن كل ما يقبل زيادة عن رأس
المال البحث يعتبر ربا . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تخلت السلطات المدنية
كلية عن موضوع حسن النية أو خيبتها ، كما تخلت عن كل التعديلات التي
أدخلت على المنطق المدرسي في العصور الوسطى . وحاولت تلك السلطات أن
تبت عمليا في هذا الموضوع الصعب الذى قاد واضع النظرية الى تلك
المناهات . ولقد سمح ملوك فرنسا صراحة منذ حوالى سنة ١٣٠٠ فصاعدا
بممارسة أى ربا بموجب رخصة ملكية ، وبشروط معينة فيما يتعلق بسعر الفائدة .
وسار على هذا النهج أمراء وباباوات آخرون .

وعندئذ انتهت القرون الوسطى فى غمرة هذه الآراء المتشعبة المتباينة من
الوجهة النظرية ، بل وما هو أعمق من ذلك من خلافات من الوجهة العملية ،
فمن ناحية يتعين علينا أن نصدق الناس لشجاعتهم فى إعلان مبدأ خلقى صارم
فى مواجهة المبدأ المتسامح القائل : « دع الأمور تأخذ مجراها » ، فالمناقشة
تصل بالامور دائما الى المستوى الصحيح . ومن أجل هذه الشجاعة يجب علينا أن ننحي
باللائمة على القرن التاسع عشر ، اذ فاته الى حد بعيد أن يتنبه الى ذلك المثل
الأعلى القديم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن مغالاة القانون الوسيط
فى التشدد قد أدت الى احتقار القانون نفسه . لقد أصبحت صناعة الاحذية
مثلا تجارة مربحة : وثمة شواهد عديدة على زيادة الربا ، لا على نقصانه ،
خلال الفترة الأخيرة من الحقبة الوسيطة . ان بنفونوتو دا ايمولا
Benvenuto da Imola الاستاذ البولونى الذى كتب فى عهد تشوسر تعليقا
ضايفا عن دانتي ، يعبر فى سداجة عما كان يقوله الناس فى ايطاليا الغارقة
حتى أذنيها فى التجارة . فبعد أن وصف الصورة النعسة التى حفرها هؤلاء

الخطاة تحت سيل منهمر من النار المتقدة التي حكم بها دانتي عليهم ، يضيف قائلا : « ان من يتقاضى الربا فى أيامنا هذه مصيره الى الجحيم ، ومن لا يتقاضاه مصيره الى الفقر » وحتى حملة القديس فرنسيس الصليبية ضد السهمي وراء المال ، لم تفلح فى مقاومة هذا المد. وشكا نيقولا بوزو Nicole Bozou الفرنسيون ، بعد وفاة القديس فرنسيس بنحو مائة عام قائلا : « لقد تغيرت الاوضاع فى أيامنا هذه ، لأن أولئك الذين تجنبوا مرة واحدة أن يطعموا على خدود أولئك الناس قبلة السلام ، هم الآن على استعداد لأن يقبلوا أرجلهم . أما أولئك الذين جرت العادة أن يدفنوا فى الحقل أو فى الحديقة ، فانهم يدفنون الآن داخل الكنائس أمام المذبح العالى » .

بعض المراجع للفصل العاشر

Avenel, G. d', Histoire économique de la propriété, des salaires, des denrées, et de tous les prix en général, depuis l'an 1200 jusqu'en l'an 1800. 6 vols. Paris, 1894-1912.

Brants, V., Les théories économiques aux XIIIe et XIVe siècles. Louvain, 1895.

Knight, M. M., Economic History of Europe to the End of the Middle Ages. Boston, 1926.

Lipson, E., The Economic History of England, Vol. I : The Middle Ages. New York, 1915:

Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe. Trans. from the French by I. E. Clegg. London, 1961.

Postman, M. M., The Cambridge Economic History of Europe. Vol. III : Economic Organization and Politics in the Middle Ages. 1961.

Rogers, J. E. T., A History of Agriculture and Prices in England, 1259—1793. 7 vols. Oxford, 1866—1902.

Strieder, J., Studien zur Geschichte kapitalistischer Organisationsformen : Monopole, Kartelle und Aktien-

gesellschaften im Mittelalter und zu Beginn der Neuzeit.
Munich, 1925.

Thompson, J. W.,

- 1- Economic and Social History of the Middle Ages
(300-1300). New York, 1928.
- 2- Economic and Social History of Europe in the
Later Middle Ages. 1960.

الفصل الحادى عشر

ديانة الشعب

كان جديرا بأن نوجه المزيد من العناية إلى الموضوع الخاص بمبدأ السعر العادل والربا ، لا لأهميته الجوهرية فحسب ، بل لأن زاوية الحياة الاجتماعية فى القرون الوسطى ليست إلا إحدى زوايا عديدة نتوه فيها بعيداً عن الحقيقة التاريخية ، إذا تصورنا أن السلطة الدينية والجامعات وحتى هيئة رجال الدين قاطبة فى العصور الوسطى ، يستطيعون هم أنفسهم أن يعطونا فكرة سديدة عن آراء الرجل المادى . ذلك أن الرجل العادى كان ، دون وعى منه ، وفى صدق لامراء فيه ، ينقل فى الواقع أحاسيسه إلى أقرب الناس إليه ، حتى فى تلك الجهات التى كان يعنى فيها برأى سطحي ، لمجرد أن هذا الرأى يفرض عليه نقل إحساسه إلى الغير . إن كثيراً من أشد العقائد الوسيطة تأثيراً ، ومن قبيل ذلك مثلاً النبوات المختصة بنهاية العالم ، قد نبعت من بين الطبقات الدنيا . وقد دافع رجال العلم فى الواقع عن هذه العقائد مع تدعيمها بالوسائل المنطقية المعقولة . أما فيما يتعلق بالعقائد ذاتها ، فلم يكن هناك مجال للاختيار الفعلى . ومع ما للقدس توما من أصالة فى نواح عديدة ، فقد وجد نفسه مضطراً فى مجالات أخرى إلى الأخذ عن أجيال سابقة له ، تبنت فيها السلطة الكهنوتية تدريجياً العقائد الشعبية وقدستها . ويصدق هذا القول حتى على عدد من أهم الاحتفالات الكنسية والأعياد المقدسة ، ويحتمل أن ثلاثة أرباع قدسى التقويم الرومانى

على الأقل، كانوا يدينون بمراكزهم للاختيار الشعبي ، ولم يكن هذا فقط قبل أن يقتصر اسكندر الثالث (١) (المتوفى سنة ١١٨١) تطويب الأبرار وإدراج أسمائهم في تقويم القديسين على البابوات وحدهم ، بل أيضا قبل المرحلة السابقة التي زود فيها أسقف الأبرشية بسلطات مماثلة . ثم إن ما يعتبر الآن واحدا من أهم الأعياد المثبتة في تقويم الكنيسة الرومانية باللون الأحمر ، وهو عيد الجسد (٢) « Corpus Christi » ، يرجع الفضل في الاحتفال به لفتاة متحمسة وقس شاب أمي . وقد أخذ باقتراحهما رئيس شمامسة لييج Liège ، الذي أصبح فيما بعد البابا أربان الرابع (٣) . وفي سنة ١٢٤٦ أمر أسقف لييج بأن يكون الاحتفال بهذا العيد في أبرشيته . وفي سنة ١٢٦٤ أذاع أربان ، بوصفه البابا ، منشورا لصالح العيد المذكور : بيد أنه حتى حوالي سنة ١٣٠٠ لم يكن العيد قد اعترف به علنيا ، وإنما تم هذا الاعتراف بفضل البابا كليمنت الخامس (٤) (المتوفى سنة ١٣١٤) ، والبابا يوحنا الثاني والعشرين (المتوفى سنة ١٣٣٤) ، وذلك بموجب المراسيم التي أصدرها ، والتي كان لها أعظم الأثر في هذا الشأن : ولكن المعروف أن كل سؤال يستلزم جوابا عليه . ومن ثم طلب البسطاء حلولا مبسطة لأعقد

(١) شغل اسكندر الثالث الكرسي البابوي من سنة ١١٥٩ إلى

سنة ١١٨١ .

(٢) هو عيد صعود المسيح في يوم الخميس التالي لأحد الثالوث الذي يلي بدوره الأحد السابع بعد عيد القيامة ، الموافق عيد العنصرة .

(٣) شغل أربان الرابع الكرسي البابوي من سنة ١٢٦١ إلى سنة ١٢٦٤ .

(٤) شغل كليمنت الخامس الكرسي البابوي من سنة ١٣٠٥ إلى سنة ١٣١٤ .

وللمزيد من المعلومات عنه ، انظر ص ٢٧٧ - ٢٧٩ من هذه الترجمة .

مشاكل الحياة : وبناء على ذلك صيغت الإجابات الرسمية الصحيحة إلى حد ما ، في حدود مدارك أصحاب الأسئلة والاستفسارات من عامة الشعب : أما المعنويات العليا المستمدة من كتابات القديس بولس أو القديس يوحنا ، فإن العفاء كاد أن يتركها خلال العصور المظلمة لولا خليط مركز من هذا القبيل . وفي سبيل فكرة الوحدة بين الكنيسة والدولة ، اضطر رجال التعليم الكنسيين أن يكونوا كل شيء بالنسبة لسلك الناس (١) ، ولو استلزم الأمر أخذ نماذج بشرية منهم ومن مختلف الأرجاء حسبما يتواضعون عليه . وقد جاوزت هذه الفكرة عن الوحدة العصور المظلمة . ويمكن القول بأنها لم تبلغ منتهاها وأقصى وضوحها إلا بعد فوات تلك العصور ، واستقرار العالم استقرارا نسبيا في القرن الثالث عشر . وحوالى ذلك الوقت جاهد جيلان من كبار المفكرين في سبيل تنسيق العقائد المقبولة في زمانهم بحيث تصبح كلا واحدا متجانسا فلسفيا . واستتبع ذلك الإغراء بالركون إلى إرضاء الذات بالراحة التامة . وان بوسع أى مدرس حديث للفلسفة أن يفخر دون مغالاة قائلا : « أعتقد أن القرن الثالث عشر قد حقق حالة من التوازن الثابت ، وأن تضاؤل الناس الخارق للعادة قد جعلهم يصدقون بأنهم وصلوا إلى مرتبة قريبة من الكمال . » (٢) لهذا إذا أردنا حتى ذلك الحين تعريف الفكر الوسيط مع تقريبه إلى الحقيقة بأى صورة في عبارة واجدة ، فربما أمكن تعريفه بأنه صراع في سبيل الوحدة وهبائها ، إلى حد

(١) هذه ترجمة حرفية، والمقصود بها « أن يتفانوا في خدمة جميع الناس » .

M. de Wulf, *Philosophy and Civilisation in the Mid.* (٢)

Ages, 208 cf. 18 (كولتون) .

كادت ترقى معه إلى مرتبة الوثنية . ويمكن أن نطبق على القرون الوسطى هذه العبارة نصف الحقيقية التي تعكس جانباً واحداً من جوانب الثورة الفرنسية ألا وهي : « كن أخالى وإلا قتلنك ! » وبنفس هذه الحقيقة النصفية يمكن القول بلسان المفكر الوسيط : « انجند معى وإلا أحرقتك . » وربما كنا على استعداد أكثر من اللازم لأخذ الأمور المختلفة قضية مسلم بها ، أو حتى لنجعل لها قيمة أيا كانت : ولكن التلهف على الوحدة الخارجية كان أحد القوى الرئيسية في عملية التجديد وإعادة البناء في العصور الوسطى . وكان هذا التلهف أوضح حلقة في الاتحاد بين الكنيسة والدولة . ولقد أبدع الدكتور ماك تاجارت Dr. Mc Taggart في تعريف المنصوف بأنه الشخص الذى يشعر باتحاد فى الكون أعظم من الوحدة المعترف بها فى الحياة العادية ، والذى يعتقد أن بوسعه إدراك هذه الوحدة من طريق مباشر يزيد قلبه عن إدراكها فى الفكر العادى المشتت . لذلك يلوح أن كل الأفكار البناءة يتعين عليها أن تركز على عنصر تصوفى قوى ، وهذا ما يبرر الدعوة الحديثة للاهتمام بالقرون الوسطى . ولنا أن نفهم أن المجتمع الحديث يتميز بوحدة حقيقية كامنة وراء الخلافات الخارجية . ومع ذلك يمكن أن ندرك بأن أماننا حقيقة نتملها من أوائلك الذين كافحوا أشد مما نكافح نحن فى سبيل الوحدة الخارجية . وعلى أية حال ، فقد كان ذلك بالنسبة لهم أحد الضروريات التى يستلزمها وضعهم ، حيث كان يبدو لعدة قرون أنه المخرج الوحيد من تلك الفوضى التى حلت بالدولة أو بالكنيسة .

وأمامنا هنا الدليل الدامغ على ظاهرة شائعة في فترة أخرى من التاريخ .
وما لاشك فيه أن الناس سوف يتشبثون بأية فرصة للهرب من الفوضى . وإذا
كان النظام القديم « ancien régime » قد عمر الى هذا الحد ، فانما يرجع
ذلك الى تعاقب أمرين هما استبداد ملاك الأراضي وطغيانهم من ناحية ،
والفوضى المبتوس منها التي كان يعيش فيها عامة الشعب الذي كانت تنقصه
القيادة السليمة والحكمة السياسية من ناحية أخرى . ولقد لقي نابليون ترحيبا
حقيقيا بوصفه البديل الذي جاء عقب حكم الغوغاء ، هذا الحكم الذي كان
لا يزال يعوزه الكثير من الوعي السياسي ليتعلم ويستفيد قبل ان يحرز النجاح .
وكما كان الفلاحون في العصور المظلمة يفرحون بوجه عام بتجمعهم حول
أقرب محارب ، بل ويستودعونه حرياتهم ، كذلك كانوا يفرحون بتجمعهم
حول الكاهن . ومن ثم عمدت الكنيسة بما تتجمل به من وعى قومى قوى
بالتضامن الاجتماعى إلى إحاطتهم بعناية كبيرة من حسن الجوار والحفاصة
الدينية دون كثير عناء أو سؤال . وقد دل تعليمها وقدرتها ، حتى بعد استخلاص
كل النتائج الضرورية ، على المحبة والاخاء بصفة قاطعة . حقا لقد كانت
أسمى الآمال التي تطلعت اليها الكنيسة فوق مستوى إدراك الرجل العادى
في أغلب الاحيان . ومع ذلك يوجد هنا بعض الرشح الحقيقى . فالأمثلة على
الحفاصة التصوفية الرفيعة بين غير المتعلمين لم تكن قليلة . أما عن طقوس
الكنيسة العادية وكثير من معتقداتها ، فقد قابلها المجموع بارتياح واطمئنان
 طالما كانت نابعة من عامة الشعب . وجدير بالذكر أن المهرطقة في العصور
المظلمة كانت فيما يبدو ممقوتة من الشعب ، فكثيرا ما كان المهرطقة يعدمون
دون سلطة القانون ، وأحيانا كما يبدو دون لقاء الكاهن قبل الاعدام . وكان
الشعار السائد هو « أى شيء ما عدا الفوضى » . وكان الرجل العادى ، بغض

النظر تماماً عن كرهه دون فهم منه - لكل ما هو غريب ومجرب ، يدرك أن هذه الخلافات لم تكن من القوة بحيث تكفى سواء من الناحية العددية أو الفردية ، لإعادة بناء الكنيسة أو الدولة إذا ما حل الدمار باحدهما أو بالأخرى .

ومع تقدم الحضارة ، وازدياد المعرفة واتساع لمناطق التفكير عند الرجل العاجز ، أصبح هذا الرجل أشد حساسية في نقده ، لهيئة لم يكن لها من المبررة ما يسمح لها بمسيرة ركب المجتمع في خضمه الشاملة . ومن أصباب القوة في المذهب المسمى الوسيط هو أنه يرتكز ، في الغالب ، على أسس من العقيدة الشعبية . ولكنه في تمام اكتماله وكما هو عدم قابلية بنائه للسقوط كما كان مقدراً له ، كان عرضة لأن يحد نفسه أخيراً في نزاع مع الشعور الشعبي ، ذلك الشعور الذي هو في جوهر طبيعته متقلب وبطيء في تقدمه . هذا ، وليس هناك أخطر من أن تصدق أننا قد وصلنا إلى حالة قريبة من الكمال . إن ثمة إدراكاً سليماً في أعماق الإجابة الساخرة التي نطق بها اللورد بلفور Balfour رداً على صديقه الذي دله على مبنى ولورث Woolworth Building في نيويورك ، وامتدحه في ذات الوقت على أنه غير قابل للحريق من القمة إلى القاع . وكانت الصعوبة الكبرى في اختبار الحقيقة النصية تكمن دائماً في ضرورة أن يتبناها فيلسوف حتى يصل بها إلى نتائجها المنطقية . وقد كان توما الأكويني فيما وصل إليه من استنتاجات قبلتها للسلطة الدينية كما قبلها العلمانيون ، منطقياً معصوماً من الخطأ في إثباته أنه من واجب المسيحي أن يستأصل شأفة المنشقين عن الكنيسة بأي ثمن ، ولو أدى الأمر إلى تعليقهم على المخازوق ولكن الإعدام دون محاكمة قانونية في فورة الحماس شيء ، والقتل بمنطق العنف شيء آخر . ولم تتمتع محاكم التفتيش بأي شعبية ، حتى بين أولئك الناس الذين

ألقى أسلافهم بأيديهم جماعات الهرطقة في أتون من النار . وازدادت عدم شعبيتها عندما انضخ مبالغ ما امتلأت به خزائنها من الغرامات والمصادرات التي وقعت على الأغنياء من الهرطقة . كما تبين كيف أنها ، كما حدث في حالتى جماعة الفرسان الداوية وجان دارك ، قد أقبلت طواعية على التخصيص في الشؤون السياسية البحتة . فضلا عن أن معظم المثقفين المتمسكين بالدين تمسكا لا تشوبه شائبة ، قد اعترفوا أحيانا بأن أحد المبادئ الأساسية للهرطقة ، وهو اعتراضهم على حلف اليمين ، لم يكن يصادف وجهها للادانة أمام كلمات المسيح الصريحة . لذلك كانت أعمال القسوة والمظالم الكبرى الصادرة عن محاكم التفتيش شديدة الوطأة . وحتى بعد أن نفطنا عن التاريخ كل عوامل المبالغة ، كانت محاكم التفتيش لا تزال تتجاوز حدودها كما هو الحال بالنسبة للحكم الذى وجدناه مسجلا ضد أحد الهرطقة في تولوز سنة ١٣٤٧ ، وهاك نصه : « لقد قال هذا الرجل المسمى بطرس إنه إذا كان يوسع به أن يتصور أن الله قد أنقذ واحدا ولعن الباقيين من بين ألف من الرجال الذين خلقهم ، فانه سوف يمزقه شر ممزق بسن ومسمار باعتباره خائنا ، ويصمه بأنه كاذب ومخادع ، وأنه سوف يبصق في وجهه . » ولئن موجة التصوف الشعبي التى يبدو أنها بدأت في الدوائر الدومينيكية في الراين الأعلى في نهاية القرن الثالث عشر ، وانتقلت عن طريق التجارة إلى الراين الأدنى وانجلترا ، قد كشفت ضمن مشاهدات أخرى عن اتجاه قوى للهروب من علم اللاهوت المتزمت . وقد وضع هذا العلم كما هو مدرّس ومفهوم عنه دون أى مبالغة في كلمات هذا الرجل المدعو بطرس . ويمكن ملاحظة هذا الجهد الانسانى في ثلاثة من معاصرى تشوسر هم : رولمان مرسوين أوف شتراسبورج Rulman Merswin of Strassburg ، وجوليانا

الراهبة النرويجية Juliana the anchoress of Norwich ، ومؤلف أو
مؤلفو قصيدة بطرس الفلاح Piers Plowman .

وتفوق القصيدة المذكورة في قيمتها أى مستند آخر في العصور الوسطى ،
باعتبارها نصا يتناول بحثا في أفكار الناس العاديين في أخريات تلك
العصور . حقا ان أحدا لا يستطيع تفهم الحياة في القرون الوسطى ما لم يكن
قد قرأ كتاب الكوميديا الإلهية لدانتى . ومع ذلك فان قصيدة بطرس
الفلاح تعتبر دليلا يفضل الكوميديا الإلهية في الكشف عن أفكار العامة
ومداركهم . ففي هذه القصيدة نجد صورة لكافة الطبقات بما فيها أشدها
عوزا وفقرا ، كما انعمست في الأفكار اليومية لأهالى لندن المثقفين في
القرن الرابع عشر وهم في أحسن أحوالهم . وإن ما تتسم به القصيدة من
افتقار إلى التناقض والتماثل ، إنما هو في حد ذاته ، فيما نحن بصدده ،
أحد مزاياها . فالمؤلف يفكر دائما بصوت عال ، وهو يكشف عن خواطره
وأحواله النفسية والعقلية دون أن يعتربه الخوف من أن يناقض نفسه .
ويصور بأمانة ما يطرأ من تشويش في الفكر العادى للإنسان . ثم نراه
يلقى الضوء على خاصية مميزة كانت متفشية طيلة القرون الوسطى ، وظلت
سارية بعد ذلك ، مع عوامل عديدة أخرى وسيطة في مجتمعات مماثلة للنظام
القديم . كان ذلك هو الإصرار على الحقوق والامتيازات في ظل القانون ،
بل يمكن القول الإصرار على هذه الحقوق والامتيازات باعتبارها في الغالب
فوق القانون نفسه . وهو إصرار لم يصادف أى اعتراض جدى عليه ، بل كان
يتم تدعيمه وتعزيزه على أيدي أولئك الذين يريدون تذكيرنا بأن الامتيازات
في العصر الوسيط كانت جزءا من القانون وقتذاك . ولما كان مؤلف
القصيدة رجلا متطرفا في الشئون الدينية والسياسية ، فقد قبل التمييز بين

الطبقات كما قضت بذلك مشيئة الله . ولم يكن ذلك لأن الطبقات العليا كانت في مأمن تام من الطبقات الدنيا ، ولكن لعدم توقع حدوث أى تغيير فى ظل الأوضاع السائدة وفى الظروف العادية . ويعتبر المؤلف أن تعيين أبناء العبيد أساقفة ، وأن يصبح بائعو الصابون أو أبناءهم فرسانا فضيحة اجتماعية . ولكن حقيقة الأمر أن الحالات التى من هذا القبيل ، والتى سجلها تاريخ القرون الوسطى قاطبة قليلة جدا . ومن هنا كانت تعتبر بلا شك أكبر فضيحة تؤذى المفكر العادى فى شعوره . وإلى جانب ذلك ، كان ثمة أمور كثيرة يتمين تدريب عقلية اللندنى عليها فى هذا القرن الرابع عشر . ويرى المؤلف أن حرب المائة عام (١) والموت الأسود (٢) قد هزا المجتمع الغربى الوسيط بعنف فمن ناحية نجد جنودا قدماء وفلاحين انتهزوا فرصة

(١) للمزيد من المعلومات عن حرب المائة عام أنظر فشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٣١٤ - ٣٤٣ : وكذلك Kitchin, Hist. of France I, 414 sqq.

(٢) هو طاعون دملى شاهدهته أوروبا سنة ١٣٤٧ ، بعد أن انتقل من موطنه الاصلى بالشرق الاقصى الى القارة الاوروبية عبر طرق التجارة الدولية وقتذاك . وقد حصد الآلاف المؤلفة من الأرواح ، وأوجد فوضى أخلاقية واضطرابات اجتماعية خطيرة . واعتقد الأوروبيون أن هذا الطاعون مكسيدة مدبرة من الجنس السامى للقضاء على الكاثوليكية . وكان من أثر ذلك قيام كثير من المدن الأوروبية وبخاصة ألمانيا باضطهاد اليهود بعد اتهامهم بتدبير هذه الكارثة . ولكن بابا أفنيون كليمنت السادس أصدر إعلانا بابويا فى ذلك الوقت لحماية اليهود مما قد يتزل بهم من الأذى . أنظر فشر : نفس المرجع والجزء ،

ص ٢٢٠-٣٢١ Lodge, E. G., The End of the Middle Ages: ٣٢١-٢٢٠ (1273-1453), 94, 144.

انتشار الطاعون للمطالبة بمزيد من الأجور مع الاقلال من أيام العمل ، على الرغم مما قاله القديس بولس « ان كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا . » (١) ومن ناحية أخرى نجد ملكا صغيرا منقادا لمستشارين أشرار ، هم عبارة عن نبلاء وكبار ملاك الأرض ، مما حدا إلى مقاومة مظالمهم بموجب التماسات رفعها بيس Peace رسميا إلى البرلمان باسم الفقراء والعامّة الذين أبدوا رغبتهم في أن يضعوا أيديهم على الحكومة ، هذا لو أنهم اجتروا على ربط الجرس في رقبة القط . (٢)

وفي غمرة هذا الاضطراب الاجتماعي لم ينل المؤلف سوى القليل من العطف ، على الرغم من أنه فقير لا يسكاد يجد ما يقم أوده ، وأخذ الناس يصفونه بالجنون لأنه لا يقبل الخضوع لكبار القوم من ذوي المناصب العالية أو غيرهم ممن يتدنّون بالحرير والفرو . وكان من أحد مبادئه الرئيسية الاعتراف بالفقر والعمل المتجملين بالنزاهة والأمانة . وهو يقول إن بطرس الفلاح يستطيع أن يقودنا في طريق مباشر إلى السماء ، كما لو فعل ذلك كاهن الأبرشية نفسه . ولكن هذا الأمر إنما يتم على أية حال

(١) أنظر العهد الجديد — رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل تسالونيكي — الاصحاح ٣ : ١٠ انظر أيضا ص ٢٨٨ ح ٢ من هذه الترجمة .

(٢) يشير إلى استحالة وضع أعضاء مجلس العموم أيديهم على الحكومة وقتذاك ، متمثلا بقصة الفأر الذي اقترح على زملائه أن يضع أحدهم جرسا في رقبة القط ، حتى إذا دنا منهم رن الجرس لإبذانا لهم بالحرب . فرد عليه فأر حكيم قائلا : « ومن الذي سيعلق الجرس في رقبة القط ؟ » .

عبر الطريق الضيق القديم ، ومؤداه : « فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة : » (١) والى أن يحين ذلك فلنعلم أن العالم الذى يجب علينا أن نلتمس فيه طريقنا من المهد الى اللحد ، إنما هو عالم ملتو لا تناسق فيه . إن المال يتحكم فى كل شئ ، والرجل الذى يستطيع أن يقدم الرشوة هو الرجل الذى يصل الى أعلى المراتب . أما العدالة فانها تشتري وتباع . وأما البيوت الكبرى فى المدن فيبنيها ويسكنها تجار الجملة الذين يتجرون فى الفضلات والمواد البالية التى « تسم فى الغالب وبطريقة غير ملحوظة ذلك الشعب المسكين الذى يقبل على شرائها . » ان الحياة الدنيا سباق عنيف فى سبيل النجاح فيها ؛ « ولم يسمع غالبية الناس الذين يسرون فوق هذه الأرض أى حديث عن وجود جنة أخرى سواها . »

ومع ذلك لم يتزعزع إيمان مؤلفنا . فهو لم يزل قوى الثقة فى الأمل الأكبر : وليس ذلك لأنه يرى طريقه واضحا سهلا ، وإنما نجده القصيدة كلها زاخرة بالمشكلات اللاهوتية التى يهاجمها ، ولا يستطيع مع ذلك أن يجد لها حلا . وحتى كاهن الأبرشية لا يسمعه هو الآخر أن يحلها له . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا عن الراهب ، مع كل ما فى وجهه من شحم وحرارة ، ومع طلاقة لسانه وجرائته : إذ تركه هو الآخر فى حيرة

(١) انظر العهد الجديد - انجيل يوحنا - الاصحاح ٥ : ٢٩ - وجاء فى انجيل متى (الاصحاح ٢٥ : ٤٦) « فيمضى هـ - ولاء الى عذاب أبدي والابرار الى حياة أبديّة . »

بادية . ويرى مؤلف القصيدة كذلك انه يجب على المسيحيين جميعا بوصفهم رعايا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، أن يؤمنوا بالغفران البابوى . ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الايمان وبين القيم العليا للأعمال الطيبة ؟ وكيف يمكن التوفيق بين القدر المحتوم وبين الارادة الحرة ؟ ولماذا يفرض على الذرية أن تتحمل العناء من أجل خطيئة آدم ؟ إن شاعرنا نفسه يعالج في كفاح وقور هذه القضايا . ولكنه يتحدثنا عن شعب عظيم تدور مناقشات ابنائه حول المائدة بعد فقرة الغذاء فيها لا يخرج قط عن دائرة الورع والاحترام .

يقول الشاعر : « كان الناس عند الغذاء في أوقات مرحهم ومع وجود المغنين يروون عن الثالث قصة أو اثنتين . ويبدون لذلك سببا قويا ، ويتخذون برنارد شاهدا . وهكذا يتخبطون في سبيل معرفة الله في أحاديث قوامها اللغو وناغلة القول . وانهم ليعضون في الله بحلقهم في حين أن بطونهم مليئة بالطعام ... »

ولقد سمعت عن رجال عظام يتناولون الطعام على المائدة وسط ضجيج من الخصاص والمشاجرة . ويتحدثون كذلك عن المسيح ومعجزاته ، وينسبون أخطاء الى الله الذى خلقنا جميعا ... فهم يقولون : « لماذا وجب على مخلصنا أن يعاني مثل هذا العذاب في جسده الطاهر ؟ إن ذلك قد خدع المرأة والرجل من بعدها . فكان من أثر هذا الخداع وهذا الكلام أن ذهبا (أى الرجل والمرأة) الى الجحيم ! ... ولماذا يتعين علينا ، نحن الذين نعيش الآن على الأرض ، أن نعانى من الانحلال أو أن نتحمل العذاب بسبب ما صنعه آدم ؟ إن العقل لا يرضى بذلك ، ولا يمكن أن يسلم به .

وإن مثل هذه الدوافع إنما يثيرها هؤلاء السادة وهم في أوج مجدهم ،
ويحملون الناس على نبذ الإيمان بكل ما يدعو إلى التأمل العميق في
كلامهم . .

ولكن كل هذه الشكوك التي لا مفر منها لأي إنسان مفكر في أى عصر
من العصور ، قد اجتذبت شاعرنا شيئا فشيئا إلى داخل المحراب الكامن في
ذاته . فهو نفسه على ثقة من بعض المسائل الأساسية . إن الصدق عظيم ، وإن
الصدق هو الله القادر على كل شيء . ولكن الصدق لا يكمن فقط في القوة
المدركة . فإن تتعلم معناه أن « تعمل جيدا » ، وأن تعلم معناه أن « تعمل
أحسن » ، أما « أن تمتاز في عملك » فذلك معناه الحب . إن السماء ليست من أجل
الحكيم كما يفهم الناس الحكمة ، ولكنها من أجل ذوى النيات الحسنة الطيبة .
وربما كان سليمان الحكيم الآن نزيل جهنم . ولكن ثمة أناسا بسطاء يعانون
من الفقر يمكنهم بالصلاة غزو الجنة بأسرها . وأهم من هذا وذاك أننا إذا لم
يكن لنا مكان آخر ، فلتأمل حياة المسيح وأعماله . انه مات ... انه يحكم . .
وإذا نحن كافحننا كفاحا طيبا فسندعده . هذه هي الفكرة الأساسية في
جميع الأبيات الأخيرة من القصيدة . ومع ذلك فإن كلمة « ثابر على الكفاح »
لا تزال هي الشعار . حقا إن المسيح في السماء ، وحقا أيضا أننا هنا على
الأرض . وحقا كذلك أن عندنا البابا خليفة المسيح الممثل في شخص بطرس .
ومع كل ذلك فإن تاريخ الكنيسة كان قصة محزنة ، لأن الشيطان سرعان ما
زحف إليه بعد الصعود على الجبل ، وقد « لون له الأشياء بصورة بلغت من
التنميق » منذ ذلك الحين ، ما جعل أفاضل الناس يرتج عليهم ، حتى أنهم
حاروا فيما يفكرون : ففى العجلا كان جمهرة المسيحيين الذين يحضرون

القداس في الكنيسة في عهد تشوسر يوصفون بأنهم قطع من الغنم لا راعي لهم؛ لقد كانوا « يهيمون كحيوانات هاربة إلى الشواطئ والتلال ، لمسافات طويلة ولأوقات متأخرة . » وقد دل محترف الحج على خيبة أمله الكاملة ، عندما كانت تلك الجماهير التي أدركها العناء من ذلك الانحلال الذي أصاب هيئة رجال الدين ، قد أخذت تسأل عن الطريق إلى قديس جديد . أما اسم هذا القديس المنشود فهو « الصديق » وكل ما استطاع أن يرد به على هذا النداء هو أنه هز رأسه : كان ذلك القديس قديسا مجهولا بالنسبة لهم : والآن والمسيح الدجال يستعد لمجوم آخر أشد عنفا يشنه على المسيحيين الذبيح كانوا يحفرون بأنفسهم في الماضي المغاور والكهوف جهدا طاقاتهم . قد أصبحوا تحت سلطان الكنيسة ورحمتها . وأصبح رجال الدين هم أنفسهم أسوأ الخونة . وكان أولهم في الخيانة هم القساوسة ، يليهم الإخوان الرهبان . ثم ها هو ذا العدو ينقض على المسيحيين بمزيد من القسوة . فأين هو الضمير الذي وجد في الإنسان ليحرس بوابة الكنيسة المقدسة ؟ ويقول بيس : « ان الضمير يكذب ويحلم : وهكذا يفعل الكثيرون . أما الراهب بما لديه من وسائل العلاج الروحي ، سرهان ما اجتذبهم اليه منتزعا من قلوبهم عوازل الشر ، بحيث أنهم لن ينخشوا من أية خطيئة . » (١)

(١) يصف مؤلف قصيدة بطرس الفلاح الحالة السيئة التي وصلت إليها الكنيسة والبابوية في ذلك الحين ، وكيف استشرى الفساد في كل شيء بما في ذلك الجهاز الكنسي البابوي ، وأصبح الشعب مغلوبا على أمره ، وباتت الأمور في أمس الحاجة إلى الإصلاح قبل أن يفلك الزمام ويحرف تمار التدهور =

ويبدو من الآيات السبعة الأخيرة من القصيدة أنه لا مجال للوصول إلى النتيجة المرجوة . ومع ذلك فإن عقيدة المؤلف نفسه هي الدليل ضد كل الصدمات التي تسببها خيبة الأمل . انه « أحد أولئك المفكرين الأفذاذ الذين كافحوا كفاحا عنيدا في سبيل الأفكار المعتدلة . وهو يستخدم كل الوسائل للوصول إلى روح توافقة متقدمة الحواس يساندها الإدراك السليم ، على حد قول جوسيران Jusserand . فإذا كانت العاصفة قد اقتلعت سلطان الكنيسة على هذا النحو ، فلننفض إذن عن أقدامنا ما خلفته العاصفة من رماد ، ولنشد الرحال قديما كحجاج فرادى بحثا عن الله في طول الأرض وعرضها ، طالما كان للدنيا وجود . وهو ما يعبر عنه الشاعر بما يلي :

باسم المسيح (ويقول الضمير عندئذ) مهأصبح حاجا ،

وسوف أذرع الأرض طولا وعرضا طالما الدنيا باقية ،

لأبحث عن بطرس الفلاح . (١)

إن هذا الفخر قد يتحطم ،

=والانتهيار في طريقه كل شيء : ومع ذلك يلاحظ أن مؤلف القصيدة كان قوى الإيمان في أن تحدث المعجزة ويتم الإصلاح . انظر أيضا ص ٢٨ - ٣٠ و ١٣٧ ح ٢ من هذه الترجمة .

(١) أى طبيعة الناشوت في المسيح . وقد عانى بطرس الفلاح في هذه القصيدة نفس التحول الروحي الذي عانته بياتريس في الكوميديا الإلهية لدانتي . فهو يبدأ كفلاح قديس ، ثم يصبح تدريجيا النموذج الإنساني في ذروة كماله ، ونعني بذلك طبيعة الإنسان في المسيح : ولتجنب المزيد من التفسيرات والإيضاحات ، فقد حاولنا قدر الامتناع تبسيط الأسلوب في هذه للقطعة (كولتون) .

أما الإخوة الرهبان فانهم يتملقون خصوصى صمها وراء الكسب والجزاء .
ويقول الضمير : الآن سنتنقم لى الطبيعة ،

وسنبحث إلى بتمنياتها بالسعادة والصحة ، إلى أن أعر على بطرس الفلاح !
وعندئذ أخذ الضمير يئن بعد أن كان مرخا . ثم صحوت من غفرتى .

وتبين القصيدة المـعمة ببيانات دسمة مستنقاة من مصادر أخرى ، نشأة
دين تصوفى بسيط بين الناس . وكان هذا يسير جنباً إلى جنب مع النهضة
العلمية المعروفة بين طلاب العلم والنبلاء والتجار ، والتي كان يصاحبها انلهف
شديد عام للقضاء على المساوىء الخلقية ؛ فضلا عن العوامل الاقتصادية التى
ساعدت على تغيير الفكر الرسيط إلى فكر حديث ؛ ولقد نبهه كبار رجال
الكنيسة صراحة ، منذ أجيال سابقة ، إلى أنه لو لم توجد الوسائل اللازمة
لإصلاح الكنيسة من الرأس إلى القدم ، أى ابتداء من المحكمة الرومانية حتى
القس العادى ورؤسائه الإبرشين — لاذ أصبحت الدعوة الى الإصلاح الدينى
شاملة رأس الكنيسة وأعضاءها هى الصيحة العامة — لولا ذلك كله لما أمكن
تعجنب الثورة . فقد كانت هذه الثورة متوقعة منذ زمن بعيد، تماماً كما كانت
الثورة الفرنسية متوقعة سنة ١٧٨٩ . وأخيراً وقع ما لم يمكن منه بد . إذ
أحدثت هذه الثورة — شأنها شأن كل الثورات — موجة من التخريب والافلاق
وعدم الاستقرار ؛ الا أنها بخيرها وشرها قد صنعت أوروبا الحديثة . وكان
التعصب الدينى لا يزال هو القاعدة لأجيال عديدة لاحقة ؛ ويمكن القول
مع شىء من صدق الدلالة بأن ذلك التعصب كان أيضاً عنيفاً بين أطراف
الخصوم جميعاً . بيد أنه بمرور الزمن نجحت تلك الجماعات المتخاصمة فى
أن تثبت روح التسامح حتى فى أشد الأذهان كرها لها ؛ وقد اثبتت
الحقائق ما سبق أن دل عليه العقل فى تودة وبصورة مناسبة ، من أنه

لا رجاء لأى طرف من أن يستأصل شأفة الطرف الآخر . ومن ثم تعين على الجميع أن ينظموا أنفسهم بحيث يعيشون معا متفاهمين في هذا العالم الذى تتضارب فيه الأذواق والأفكار المختلفة المتنوعة . أما فيما يتعلق بوضوع التسامح ، وهو من أهم الموضوعات التى تهتم تقدم البشرية ، فيمكن القول بأن العالم قد تحول إلى الأبد عن ذلك الفكر الذى كان يعتبر أمرا طبيعيا فى أوروبا فى العصور الوسطى .

بعض المراجع للفصل الحادى عشر

Bulfinch, T., *Mythology*. New York, 1913.

Chadwick, D., *Social Life in the Days of Piers Plowman*.
Cambridge, 1922.

Ferres-Howell, A., *S. Bernardino of Siena*. London,
1913.

Fleming, W. K., *Mysticism in Christianity*. London,
1913.

Grimm, J., *Deutsche Mythologie*. 1876.

Inge, W. R., *Christian Mysticism*. London, 1912.

Jones, R. M., *Studies in Mystical Religion*. New York,
1909.

Ker, W. P., *Essays on Medieval Literature*. London,
1905.

Lawrence, W. W., *Mediaeval Story*. New York, 1912.

Ludlow, J. M., *Popular Epics of the Middle Ages of the
Norse-German and Carlovingian Cycles*. 2 vols.
London, 1865.

Manning, B., *The People's Faith in the Time of Wyclif*.
Cambridge, 1919.

McLaughlin, E. T., *Studies in Mediaeval Life and
Literature*. New York, 1894.

Owst, G., *Preaching in Medieval England*. London, 1909.

Spence, L., *A Dictionary of Medieval Romance and Romance Writers*. London, 1913.

Underhill, E.,

1- *Mysticism : a Study in the Nature and Development of Man's Spiritual Consciousness*. New York, 1912.

2 - *The Mystics of the Church*. New York, 1926.

المراجع التي اعتمد عليها المترجم
والوارد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا - المخطوطات (١)

« بولام ويواصف ، ومهامر لانسطاسيوس وثوذلس وذهي الفم للصوم
الكبير ، وبستان الرهبان . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٠٦ - ١٧٥
ورقة - القرن الثالث عشر - مقاس ٢١٥ × ١٣٥ سم :

(١) المخطوطات المذكورة أعلاه توجد بمكتبة دير سانت كاترين في شبه
جزيرة سيناء : فقد أتيت إلى فرصة زيارة الدير المذكور مرتين عند ما قامت
كلية الآداب بجامعة الاسكندرية في أخريات عام ١٩٦٣ بالاشتراك مع بعثتي
جامعتي متشيجان وبرنستون بأمريكا ببعض الدراسات التاريخية والفنية في الدير
المذكور . وكانت الزيارة الأولى في الفترة من ٣ إلى ١٤ أكتوبر والثانية من
٢١ إلى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٣ : وقد أمضيت الجانب الأكبر من هاتين
الزيارتين بين جدران مكتبة الدير التي تحوى الآلاف من المخطوطات والوثائق
العربية التي لم تنشر بعد ، والتي يرجع تاريخ كثير منها إلى عدة قرون مضت .
هذا فضلا عن آلاف المخطوطات باللغات الأخرى كاللغتين القديمتين
والجورجانية والسلافونية والسرانية والحبشية والتركية : والمكتبة غنية
بالمخطوطات التي تتعلق بسير الآباء والرسل والقديسين الأول ، والتي أوردنا
بعضها هنا لما تتضمنه من معلومات قيمة تتصل بصفة خاصة بموضوع
الرهينة والديرية في العصور الوسطى .

« بلام ويواصف ، ونياحة العذراء ، وسيرة تادرس من دير سابا ،
ومرقس الترمقاني ، وميامر ذهبي القم ، ومسيح مكسيموس ودماديوس
ونفريوس وغيرهم من القديسين . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٣٨ - ٣٧٦ ورقة -
بتاريخ ١٢١١ م - مقاس ٢٦ × ١٧ سم .

« بستان الرهبان ، وسيرتا انطونيوس وباخوميوس . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٢٦ - ٤٠٢
ورقة - بتاريخ ١٢٧٧ م - مقاس ٢١ × ١٣ سم .

« سيرة ابيفانوس ، وسيرة يوحنا قم الذهب ، واستشهاد بطرس بطربك
الاسكندرية . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٢١ - ١٤٦ ورقة -
القرن الحادي عشر - مقاس ١٩ × ١٤ سم .

« سيرة أنبا باخوميوس ومواضيع أخرى . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٤١١ - ٢٠٨ ورقة -
بتاريخ ١٢٨٧ م - مقاس ١٨ × ١٤ سم .

« سيرة باخوميوس . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٤١ - ١٠٧ ورقة -
القرن الثالث عشر - مقاس ٢١ × ١٤ سم .

« قصص يوحنا ذهبي القم وايريني القديسة . »
مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٢٩ - ٣٢٣ ورقة -
القرن الثالث عشر - مقاس ٢١ × ١٤ سم .

« مختصر من القوانين - قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والمجامع والرسل . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٩٨ - ١٠٨ ورقة -
القرن الثالث عشر - مقاس ٢٤ر٥ × ١٧ سم .

« ميامر مقاريوس الطوباني ، وسيرتا انطونيوس وباخوميوس . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٣٥٦ - ٢١٦ ورقة -
بتاريخ ١١٨٦ - مقاس ٢٥ر٥ × ١٧ر٥ سم .

« ميمر لذهبي الفم ، وقصة مريم المغنية ، وخبر يوحنا فم الذهب ،
وشهادات بقطر وآخرين . »

مخطوط بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء تحت رقم ٥٢٠ - ٢٧٦ ورقة -
القرن العاشر - مقاس ١٧ر٥ × ١٤ر٥ سم .

ثانيا - الكتب العربية والمعربة

ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية - القاهرة ١٩٦٣ .

بتشر (ا.ل.) : كتاب تاريخ الأمة القبطية - ترجمة تادرس شنوده
المنقبادى - ٤ أجزاء - القاهرة ١٩٠٠ - ١٩١٠ .

بور (ايلين) : نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة محمد توفيق
حسين - بيروت ١٩٥٧ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ - لويس التاسع في الشرق الأوسط - قضية فلسطين في عصر الحروب

الصليبية - القاهرة ١٩٥٩ .

- ٢ — هزيمة لويس التاسع على صفاف النيل — القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣ — العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى - الاسكندرية ١٩٦٣ .
- ٤ — الدافع للشخصى في قيام الحركة الصليبية ، - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - السنة ٦٢ - ١٩٦٣ - الاسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ - ٢١١) .
- داني اليجيرى : الكوميديا الإلهية - المطهر - ترجمة وتعليق الدكتور حسن عثمان - القاهرة ١٩٦٤ .
- ديفز (ه . و) : اوربا في العصور الوسطى - ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود - الاسكندرية ١٩٥٨ .
- راغب عبد النور (الدكتور) وآخرون : صورة من تاريخ القبط - رسالة مار ميخا الرابعة - الاسكندرية ١٩٥٠ .
- عبد الرحمن بدوى (الدكتور) : فلسفة العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٢ .
- عزيز سوربال عطية (الدكتور) :
- ١ — نشأة الرهبنة المسيحية في مصر وقوانين القديس باخومبوس — مستخرج من رسالة مار ميخا عن الرهبنة القبطية - الاسكندرية ١٩٤٨ .
- ٢ - رساله مار ميخا عن الرهبنة القبطية - الرسالة الثالثة - الاسكندرية ١٩٤٨ .
- فشر (ه . ا . ل .) : تاريخ اوربا في العصور الوسطى — جزءان — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الهاز العريني والدكتور ابراهيم احمد العدوى - القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

كوبلاند (ج : و .) وفينو جرادوف (ب) : الاقطاع والعصور
الوسطى في غرب اوربا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة -
القاهرة ١٩٥٨ .

لانجر (وليم) : موسوعة تاريخ العالم - أشرف على الترجمة الدكتور
محمد مصطفى زيادة - ٣ ج - القاهرة ١٩٥٩ و ١٩٦٢ .

نجيب ميخائيل ابراهيم (الدكتور) : مصر والشرق الأدنى القديم -
الجزء الثالث : سورية - القاهرة ١٩٥٩ .

نظير حسان سعادوي (الدكتور) : تاريخ انجلترا وحضارتها في
العصور القديمة والوسطى - القاهرة ١٩٥٨ .

هارتمان (ل : م .) و باراكلاف (ج) : الدولة والامبراطورية في
العصور الوسطى - ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف -
الاسكندرية ١٩٦٦ .

هرنشو (ف : ج - س .) : علم التاريخ - ترجمة الاساذ عبد الحميد العبادي -
القاهرة ١٩٣٧ .

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط -
القاهرة ١٩٥٧ .

ثالثا - الكتب الأجنبية

Atiya, A. S.,

1 - The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2 - Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Barrow, R. H., The Romans. London, 1945.

Baynes, N. & Moss, H. (eds.), Byzantium. An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1953.

Bell, H. L., Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt. Liverpool, 1953.

Bevan, E., A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1927.

Blakeney, E. H. (ed.), Smaller Classical Dictionary. London, 1949.

Bloch, M., Feudal Society. Trans. from the French by L. A. Manyon. London, 1961.

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance. Trans. by S. G. C. Middlemore. London, 1944.

Burgh, W. G. de, *The Legacy of the Ancient World*.
2 vols. London, 1955.

Calmette, J., *Atlas historique, T. II : Le moyen âge*. Paris,
1941.

Cantor, N. F. (ed.), *The Medieval World : 300 — 1300*.
New York, 1963.

Carcopino, J., *Daily Life in Ancient Rome*. Ed. by H. T.
Rowell. Trans. from the French by E. O. Lorimer.
Aylesbery, 1956.

Cerny, J., *Ancient Egyptian Religion*. London, 1957.

Coulton, G. G.,

1 - *Medieval Panorama*. New York, 1955.

2 - *Medieval Village, Manor, and Monastery*. New York,
1960.

Cragg, G. R., *The Church and the Age of Reason*,
(1648 - 1789). Vol. IV. Bristol, 1960.

Crombie, A. C., *Augustine to Galileo*. Vol. 1 : *Science in
the Middle Ages (V—XIII Centuries)*. London, 1961.

Crump, C. G., & Jacob, E. F. (eds.), *The Legacy of the
Middle Ages*. Oxford, 1951.

Dante, The Devine Comedy - II : Purgatory. Trans. by
D. L. Sayers, Edinburgh, 1959.

Dill, S., Roman Society in the Last Century of the
Western Empire. New York, 1960.

Downs, N. (ed), Basic Documents in Medieval History.
New York, 1959.

Eyre, E. (ed.), European Civilisation — Its Origin and
Development. Vol III : The Middle Ages. London,
1935.

Fowler, W. & Charlesworth, M., Rome. London, 1957.

French, R. M., The Eastern Orthodox Church. London,
1951.

Haskins, C. H., The Rise of Universities. New York,
1960.

Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Back-
ground. Cambridge, 1961.

Heer, F., The Medieval World (Europe 1100-1350). Trans.
from the German by J. Sondheimer. London, 1962.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London,
1955.

Joinville, J. de,

1 - Memoirs of Louis XI, King of France. An English trans. by Colonel Johnes of Hafod Cf. Chronicles of the Crusades. Bohn's ed. pp. 346—556. London, 1848.

2 - Histoire de Saint Louis. Texte original du XIV^e siècle, accompagné d'une traduction en français moderne par Natalis de Wailly. Paris, 1874.

Jones, A. H. M., Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

Kitchin, G. W., A History of France. Vol. I (B. C. 58 - A. D. 1453). Oxford, 1899.

LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lodge, E. C., The End of the Middle Ages. (1273-1453). London, 1924.

Lopez, R. S. and Raymond, I. W. (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World. New York, 1955.

McKisack, M., *The Fourteenth Century (1307 — 1399)*.
Oxford, 1959.

Molinier, A., *Les sources de l'histoire de France des
origines aux guerres d'Italie (1494)*. IV : *Les Valois*,
1328—1461. Paris, 1904.

Mommsen, T. E., *Medieval and Renaissance Studies*. Ed.
by E. F. Rice. Ithaca, 1959.

Monroe, P., *A Text-Book in the History of Education*.
New York, 1914.

Myers, A. R., *England in the Late Middle Ages (1307-1536)*.
London, 1953.

Painter, S., *French Chivalry : Chivalric Ideas and Practices
in Mediaeval France*. New York, 1961.

Paris, M., *English History From the year 1235 to 1273*.
Trans. From the Latin by J. A. Giles. 2 vols. London,
1852—3.

Pirenne, H.,

1 - *Economic and Social History of Medieval Europe*.
Trans. from the French by I. E. Clegg. London, 1961.

2 - *Medieval Cities*. Trans. From the French by F. D.
Halsey. New York, 1948.

Plumb, J. H., *England in the Eighteenth Century (1714-1815)*.
London, 1953.

Power, E , Medieval People. London, 1954.

Previté-Orton, C. W., The Shorter Cambridge Medieval History. 2 vols. Cambridge, 1952.

Rose, H. J.,

1- Ancient Greek Religion. London, 1946.

2- Ancient Roman Religion London, 1948.

Rosenthal, E. I. J., Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Seyffert, O., A Dictionary of Classical Antiquities (Mythology, Religion, Literature & Art). Eds. H. Nettleship & J. E. Sandys. London, 1901.

Stenton, D. M., English Society in the Early Middle Ages (1066—1307). Middlesex, 1952.

Stephenson, C., Medieval Feudalism. New York, 1942.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Tollington, R. B., Clement of Alexandria. 2 vols London, 1914.

Trevelyan, G. M., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Whitelock, D., *The Beginnings of English Society (The Anglo-Saxon Period)*. London, 1954.

Woodward, E. L., *History of England*. London, 1957.

Youssef, J. N.,

1- *The Crusade of Louis IX on Syria (1250-1254 A.D.)*.

Cf. *Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University*, Vol. XVII—1963. Alexandria, 1964.
(pp. 57 — 69).

2- *Prophetologion — An Arabic Manuscript in the Library of the Monastery of St. Catherine in Sinai*, no. 588 — *A Survey and Critical Study*, *Cahiers d'Alexandrie, Série 4*, no. 4, 1966.
(pp. 1—10).

اللوحات والرسوم

اللوحات

صفحة

٥٩

١ - سلم الخلاص

عن صورة حائط بكنيسة شالدون Chaldon في سيري Surrey
Surrey Archaeological Society and the Rev. :
G. E. Belcher.

٩٠

٢ - موكب كنسي في قرية

نقلا عن : Coulton, The Medieval Village

١١٦

٣ - حقول كامبريدج

نقلا عن : Loggan, Cantabrigia Illustrata

١٢٠

٤ - منظر شارع في القرن الخامس عشر

نقلا عن : Elliot, Britain in the Middle Ages

١٢٠

ب - المساكن الخشبية في باريس

نقلا عن : Hartley & Elliot, Life and Work of the
People of England.

باذن من : Messrs Batsford and the Studio

صفحة

١٥٢ ٥ - بطلات الفروسية الرومانتيكية

نقش بالألوان المائية في قلعة مانتا Manta في بيلمونت Piedmont

تقلا عن : Touring Club Italiano, Attraverso l'Italia, Vol I

باذن من : Curator, Il Museo Civico, Turin

٢١١ ٦ - آل بولو يبحرون من البندقية

تقلا عن : Eileen Power, Medieval Travel

باذن من : Messrs Methuen, and the Bodleian Library

٢٥٤ ٧ - مستشفى في القرن الخامس عشر

تقلا عن : Hartley & Elliot, Life and Work of the

People of England.

باذن من : Messrs Batsford

٢٦٧ ٨ - نموذجان من مخطوطتين قديمين

تقلا عن : Harmsworth Universal History

باذن من : Amalgamated Press, Ltd.

الرسوم

٧٩ ٩ - إحدى مقاطعات القرن الثاني عشر

تقلا عن : Fordham, A Short History of English

Rural Life.

باذن من : Messrs Allen and Unwin

صفحة

٨٨

٢ - عصا مقدم الفلاحين

نقلا عن : Coulton, The Medieval Village

٩١

٣ - كوخ في القرن الثالث عشر

نقلا عن : Coulton, The Medieval Village

١٠٨

٤ - ساحرتان تعملان على إثارة عاصفة ثلجية

نقلا عن : Coulton, The Medieval Village

١١٩

٥ - الملك هنري الأول يحلم

نقلا عن : Coulton, The Medieval Village

٢٠٦

٦ - هربة سيدة

نقلا عن : Louterell Psalter

٢٥٦

٧ - زواج أمام باب كنيسة

نقلا عن : Reinach, Grandes Chroniques de France

بإذن من : M. M. Ernest Leroux

فهرس عام

(أ)

١٠٦ ، ١٢١ - كنيسة ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ - كنيسة
وقساوسة ٢٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٤ - ١٠٧ ، ١٠٩ ،
١١٩ ، ١٢١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ -
المدن ١٠٣ ، ١٠٣ ح ١ - موظفو
١٠٠ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٧٥ -
والتعليم ١٠٠ - وكيل ١٠٦ ،
١٠٦ ح ١

ابرشية اكسيترا (بانجلترا) ١٢١
ابرشية شلفورد الصغرى (بانجلترا)
١٠٥ ، ١٠٤

ابرشية شلفورد الكبرى (بانجلترا)
١٠٤
ابرشية لنكولن (بانجلترا) ١٨٤
١٨٧

ابن رشد ٣١ ، ٥٨ ح ١ ، ٢٣١ ،
٢٣١ ح ٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ -

الله ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ،
٥٢ ، ٦٠ ، ٦١ ح ٢ ، ٦٤ ح ٢ ،
٦٦ ، ١١٧ ح ١ ، ١٥١ ح ١ ،
١٥٧ - ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ح ٢ ،
١٧٣ ح ٢ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٢٠ ح ١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ح ٢ ، ٢٣٣ ح ١ ، ٢٣٦ ،
٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ح ١ ،
٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٣١٣ ،
٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١

ابراهيم احمد المدوى (دكتور)
٤ ، ٣

الابرشية (في العصور الوسطى)
١٠٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣ - ١٠٦ ،
١١٠ ، ١٢٢ ، ١٧٧ ، ٣٠٨ - أتباع
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ -
أسقف ١٠٦ ، ٣٠٨ - دخل ٩ ،
١٠٧ - سجلات ٢٥٥ - ١٠٤ -

١ ح	مدرسة ٢٣٠ خ ١
ادوارد الثالث (ملك انجلترا)	ابن سينا ٣١ ، ٥٦ ح ١ ، ٥٨ ح ١
١٤٣ ، ١٤٣ ح ١ ، ١٥٥ ح ١	ايبيلارد ١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٠
٢٠٤ - أنظر حرب المائة عام	ح ١ ، ٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٣٠ ،
الأديرة ١١ - ١٤ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٥٣ ،	٢٣١ - كتاب نعم ولا ٢٢٤
٦٧ ح ٣ ، ١٠٣ ح ١ ، ١٠٥ ،	الاتحادات (في المصور الوسطى) ١٦١ ،
١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ح ١ ،	١٩٥ - اتحاد حرفة الحياكة
١٧٢ ح ١ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ،	١٩٥ - اتحاد السروجية ١٩٥ -
١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٥٣ ،	أنظر التجارة ، والمدن ، والنقابات .
٢٥٧ ، ٢٩٧ ح ٣ - أملاك ١٨٨ -	اتحادات البلديات ١٢٤ ، ٢٠١
ايرادات ١٨٢ - ثروة ١٠٧ ،	الاتحادات الدينية ١٩٥ ، ٢٠٠
١١٧ - حسابات ١٨٧ - رؤساء	الأتراك المغانيون ٢١٢ ح ١
ومقدمو ٢٥ ، ٤٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،	اتيجنى ١٢٣ ح ١
١٣٠ ، ١٧٩ - سجلات ١٧٨ ،	اجريكولا ١٣٣ ح ٢
١٨٢ ، ٢٥٩ - وعاظ ١٢ - أنظر	اجزيحيوس (ديونيسيوس) ٢٤٨
الديرية ، والرهبة ، والكنيسة	اجوبارد الليوني ٢٢١ ح ١
الرومانية	اجيروتشيا ٢٦٥ - أنظر جيروم
ارازموس (دزيديريوس) ٢٦٢ ،	احمد محمد عيسى ٣
٢٦٢ ح ١	الآداب ٤٧
أراس (مدينة) ١٥٤ ، ١٥٤ ح ١	آدم ١١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٦٦ ، ٣١٨
الأراضي المقدسة ١٣٩ ح ٣ ، ١٤١	ادوارد الأول (ملك انجلترا) ٢٧٤
١ ح ١ ، ١٧٢ ح ١ ، ٢٠٤ - أنظر	

١٦، ٥، ٢٠٢ - ٢١٤ - انظر
 التمار، والتجارة، والشرق
 الاقصى
 اسكتلندا ١٤٢
 اسكندر الثالث (البابا) ٢٠، ٣٠٨،
 ٣٠٨ ح
 الاسكندرية ٥١ ح ١، ١٥٤، ١٦٨ -
 مدرسة ٥١ ح ١
 اسكندينا فيا ١٢٤
 الاسلام ٣١
 الاسواق (في المصور الوسطى) ٨٣،
 ٨٩، ٩٤، ١٨٢، ١٩٩، ٢٠٠ -
 انظر التجارة، والمدن
 اسوليحي (جون اوف) ١٥٠
 آسيا الصغرى ١٧٠ ح ١
 آسيا الوسطى ٢٠٢، ٢١٢
 آشور ٢٦٦
 الاصلاح الديني (حركة) ٣٥، ٥
 ٥٨، ٦٣ ح ٣، ١٠٠، ١٠٦،
 ١٧٨، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٥
 ٢٥٥، ٢٦٢ ح ١، ٣٠٢ - انظر

فلسطين
 الأراضي الواطئة ١٢٤، ٢٠٢، ٢٧٤
 اربان الثاني (البابا) ١٣٥ ح ٢ -
 انظر المدوان الصليبي
 اربان الرابع (البابا) ٣٠٨، ٣٠٨
 ح ٣
 أرسطو ٥٦ ح ١، ١١٧، ٢٢٦،
 ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣١ ح ٢، ٢٣٢،
 ٢٣٦ - الارستطالية ١٨
 ارمينية ١٧٠ ح ١، ٢١٢
 ارنولد (توماس) ٤
 اريوجينا (جوهانس سكو توس)
 ٢٢١، ٢٢١ ح ١
 الاساطير (في المصور الوسطى) ٢١٩ -
 ٢٢٠ - انظر النبوات الدينية
 الاسبان ٣١، ١٤٩
 اسبانيا ١٢٣، ١٣٤، ١٦٤ ح ١،
 ١٧٢ ح ١، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٦٢
 اسرائيل ٥٠، ٦١ - انظر اليهود،
 واليهودية، ويهو
 الاسفار والرحلات (في المصور الوسطى)

٨٦ - الاقطاعية ٧٨ - ٧٩ ، ٨٤ ،
 ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٥ - الاقنان ورقيق
 الأرض ، ٨ ، ٣٩ ، ٤١ ح ٤١ ، ٤٣ ، ٧٨ ،
 ٨٠ ، ٨٠ ح ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١١٧ ،
 ١٣٦ - البارون ٨ ، ٤٣ ، ١٢٤ -
 تجريد الأحرار من ممتلكاتهم ٦٦ ،
 ٦٧ - الجيش الاقطاعي ٣٨ ح ١ -
 الحقول ٨٣ - ٨٧ - الدومين
 ٣٩ ح ١ ، ٤١ ح ١ - الرياضة ٨٧ -
 الزراعة ٨ ، ٧٨ ، ٨٣ - ٨٦ ،
 ٨٩ ، ١٨١ - السخرة ٧٨ ، ٨٣ -
 الطبقة ٨ ، ٤٨ ، ١٠٤ ، ٢٨٨ ح
 ٢ ، ٣١٥ - العبودية ٧٤ ح ١ ،
 ٨٠ ح ١ ، ١١٧ ، ١١٨ - العبيد
 ٤٣ ، ٧٦ ، ١١٧ ، ١١٩ خ ١ ،
 ٣١٥ - الغابات والمراعي والمروج
 ٨ ، ٨٦ ، ٨٧ - القلاح ١٢ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ ،
 ٨٣ - ٨٥ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١٢٢ ،
 ١٢٤ ، ٣١١ - القنية والرق ٣٩
 ح ١ ، ٧٤ ح ١ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٠ ،
 ح ١ ، ٨٣ ، ١١٧ - كبار ملاك
 الأرض ٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٨ ، ٩٥ ،
 ٩٩ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

لوثر
 الاصلاح النيابي في انجلترا ٣٥
 الاطلنطي ١٨٤ ح ٢
 الاغريق القدماء (اليونانيون) ٤٥ ح ٢ ،
 ٤٩ ، ١١٠ ، ٢٥٧
 اغسطس (الامبراطور) ٨٩ ، ١٣٣
 ح ٢
 الافغارستية (القربان المقدس) ٢٢٠
 افريقية (شمال) ١٣٩ ح ٣
 أفلاطون ٥١ ح ١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٦
 الافلاطونية الحديثة ١٨ ، ٢٢٦
 افنيون (مدينة) ٢٧٧ ح ١ ، ٢٧٩ ،
 ٣١٥ ح ٢
 افنيون (بابوية) ٢٧٩ ، ٢٧٩ ح ١
 الاقطاع ٤ - ٦ ، ٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٩
 ح ١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
 ١٤٥ ح ٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ح ٢ ،
 ٢٩٧ ح ٣ - الارستقراطية
 الاقطاعية ١٣ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٧٧ ،
 ح ١ ، ٧٨ ، ٨٠ ح ١ ، ٨٣ ، ٩٣ ،
 ٩٥ ، ١٤٥ ح ٢ ، ١٦٠ ح ١ -
 الأرض المشاع ٧٩ رسم ١ ، ٨٤

- ١٨١، ٣١١ - السكوت ٤٣ -
 اللورد ٤١ ح ١، ٧٦، ٧٨، ٨٠،
 ٩٦، ١٠٣ ح ١، ١٠٤، ١٠٥،
 ١١٧، ١٢٢، ١٢٤، ٢١٢ ح ١ -
 المانور ٣٩ ح ١ - محكمة الاقطاعي
 ٨، ٤٣، ٩٢، ٩٤، ٩٥ - محكمة
 الملك ٤٣ - الملك ٤٣ - موظفو
 الاقطاعية ٨٧ - ٨٩، نظام الأجر
 النقدي ٧٨ - نظام الحقلين ٨٣،
 ٨٤ - نظام الحقول الثلاثة ٨٣،
 ٨٤ - واجبات التبعية ٨١، ٨٣،
 ١١٩ ح ١، ١٢٢، ١٦٤ ح ١ -
 وسائل الخلاص من القنية ٨٠،
 ٨٠ ح ١ - يمين التبعية والولاء
 ٨٠ ح ١ - أنظر قرية المصور
 الوسطى .
 اقطانيا ٨٠ ح ١
 اكس لا شابل (آخن) ١٢٣ ح ١
 اكسفورد (مدينة) ٥٦ ح ١، ١١٧
 ح ١، ١٢٤، ١٢٦، ٢٣٠
 اكسفورد (معهد القديس جون)
 ٢٥٣
- اكسفورد ٢٦١
 آكو (نيقولا بن) ١٢٧
 الأكويني (توما) ١٩، ٢٢، ٢٣،
 ٣١، ٥٦ ح ٢، ٥٨، ٥٨ ح ج
 ١، ٦٣، ٦٦، ١١٧، ٢٢٦،
 ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٥٨، ٢٩٢،
 ٣٠١، ٣٠٧، ٣١٢ - الكامل في
 اللاهوت ١٩، ٥٨ ح ١، ٢٢٥،
 ٢٣٠، ٣٠١
 الاريك الجرمانى ٢٦٥ - انظر
 البرابرة ، والجرمان
 الالب (جبال) ٩٩
 البان (مدينة القديس) ١٣٠
 البرت الكاونى ٥٨ ح ١
 السيد الباز العربى (دكتور) ٤
 المانيا ١٦، ٢٥، ٣٥، ٦٦ ح ١،
 ١٢٤، ١٣٨، ٢٧٤، ٣١٥ ح ٢
 الالمانية (اللغة) ٢٦٤
 الامبراطور (فى المصور الوسطى)
 ٢١، ٢٦ - انظر الامبراطورية
 البيزنطية ، والامبراطورية
 الرومانية الغربية ، والبابوية
 الامبراطورية البيزنطية (الامبراطورية

٧٣ - ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ح ١ ، ٨٠ ،
٨٥ - ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ح ٢ ، ١٣٨ ،
١٤١ ح ٢ ، ١٤٢ ح ٢ ، ١٤٣ ،
ح ١ ، ١٤٤ ، ١٤٤ ح ٢ ، ١٤٥ ،
ح ٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ح ١ ، ١٦٣ ،
١٨٠ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ،
٢٠٥ ح ١ ، ٢١٢ ح ١ ، ٢١٣ ح ١ ،
٢٥٠ ، ٢٧٤ ، ٣١٣ ، ٣١٩

اجلبايم ١٢٣ ح ١

الانجلوسكسون ٧٧ ح ١ ، ٨٦ ح ٢ ،
٢٠٢ - انظر البرابرة ، والجرمان
الانجليز ١٤٣ ح ١ ، ١٤٥ - ١٤٧ ،
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ،
١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٥٠

الانجليزية (اللغة) ١١٧ ح ١

اندرأوس (القس) ١٣٥ ح ١

الاندلس ١٦٤ ح ١

انطاكية ٢٨٩ ح ١

انطونيوس (القديس) ١٦٨ ح ٢

انطونينو (القديس) ٢٢ ، ٢٩٢

الرومانية الشرقية (٤٨ ح ١ ،

٨٢ ح ٣ ، ١٧٠ ح ١ ، ٢٦٠ ح ٢

الامبراطورية الرومانية الغربية
٢٤٧ ، ٣٧

الامبراطورية الرومانية القديمة ،

٤٧ ، ٩٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ -

٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٩٩ ، ١٠٣ ح

١ ، ١١٠ ح ١ ، ٢٦٦ - بيروقراطية

٣٨ ، ٣٨ ح ٢ - حضارة ٤٨ -

الضرائب - ٤٧ ، ٤٠ - عبادة

الاباطرة ٢٤٧ ح ١

امبروز (القديس) ٢٢٣ ، ٢٢٣

ح ١

امبري ١٣٣ ح ٢

امريكا ٧٦ ح ٢ ، ١٨٢ ، ٢٥٠ ، ٢٩٥

آموى (مدينة) ٢١٠

الامير الأسود ١٤٢ ح ٢ ، ١٥٥ ،

١٥٥ ح ١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ - انظر

حرب المائة عام

انترامن ١٣٣ ح ٢

انجلسترا ١ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٠ ،

٣٥ ، ٤٢ ، ٤٥ ح ٢ ، ٦٧ ح ٣ ،

١٤٥ ح ٢ ، ١٧٠ ح ١ ، ٢٠٣ ،

٢٢٠ ، ٢٢٣ ح ١ ، ٢٧٦ ، ٢٩٦ ،

٣١٥ ح ٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ - تاريخ

٤ - حضارة ٤ - انظر الغرب

اوريجين السكندري ٥١ ، ٥١ ح ١ ،

٢٨٩ ح ١

اوستفاليا ٦٦ ح ١

اوغسطين (اسقف كانتربري) ٤٥ ح ٢ ،

٦٧ ح ٣ ، ٢١٩

اوغسطين اوف هيبو (القديس) ٢١ ،

٤٥ ، ٤٥ ح ٢ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٨٢ ،

١٧٤ ، ٢٢٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ - ٢٧١

اعترافات ٢٦٩ - قوانين ١٧٤ -

مدينة الله ٢١ ، ٤٥ ، ٤٥ ح ٢ ،

٢٦٥ - ٢٧٣

الأوغسطينيون (الاخوان) ١٢ ،

١٧٤ ، ١٧٤ ح ٣ ، ١٧٩ - انظر

الديرية ، والرهينة

اوفيد ٧٧ ح ١

اوكمهام (وليم) ١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ح ٢

اولتريكوربا (نيقولادى) ٢٣٥

اير (١) ٢

انوسنت الثانى (البابا) ٢٢٠ ح ١ ،

٢٢٢ ح ١

انوسنت الثالث (البابا) ٢١ ، ٢٢ ،

٦١ ، ٦١ ح ٢ ، ٦٢ ، ١٠٧ ،

١٠٧ ح ١ ، ٢٣٣ ح ١ ، ٢٧٣ ،

٢٩٩ ، ٣٠٠

انوسنت الرابع (البابا) ٢٠٥ ح ٣

الاهرام ٢٠٣

الاوتوقراطية (فى المصور الوسطى)

٢٨٠

اوجستينا الاريوسية ٢٢٣ ح ١

اودلى (سير بيتر) ١٥٦

اودلى (سير جيمس) ١٥٦

اودو (القديس) ١٧٢ ح ١ - انظر

كلونى

اوديلو (القديس) ١٧٢ ح ١ - انظر

كلونى

اورشليم - انظر فلسطين

اورسيوس ٥٦ ح ٢

اوروبا ١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٩ ،

٣٥ ، ٣٨ ح ١ ، ٤٢ ، ٤٥ ح ٢ ،

٦٧ ح ٣ ، ١٢٣ ح ١ ، ١٣٥ ح ٢ ،

٢٧٩ - أنظر البابوية ، والكنيسة

الرومانية

بابل ٢٠٣ ، ٥٥

البابوية ١٦ ، ٢١ ، ٦١ ح ٢ ، ٦٧

ح ٣ ، ١١٠ ح ١ ، ١١٧ ح ١ ،

١٧٢ ح ١ ، ٢٣٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،

٢٧٣ - ٢٧٦ ، ٢٨٨ ح ٢ -

تدهور وانحلال ٢١ ، ٦١ ح ٢ ،

٢٣٠ ح ١ - ٢٧٨ - القرارات ١٠٦ -

المحكمة ٢٣٥ ، ٢٣٦ - المراسيم

٢٠ ، ٢٥١ ، ٣٠٠ ، ٣٠٨ -

المراسيم المزينة ١٩ ، ٢٤٨ -

٢٥٠ ، ٢٧٧ - والامبراطورية

٢٠ ، ٢١ ، ٦١ ح ٢ ، ٢٧١ ح ١ ،

٢٧٣ - ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ -

والتتار ١٦ ، ٢٠٥ - ٢٠٨ - وتجارة

الرقيق ٧٥ ، ٧٦ - أنظر البابوية ،

والديرية ، والرهينة ، والكنيسة

الرومانية

بأتموس (جزيرة) ٥٥ ح ٢

باخوميوس ١٦٨ ، ١٦٨ ح ٢ ،

ايزابيل البافارية ١٥١

ايزيس (عبادة) ٤٩ ، ٤٩ ح ١

ايسلندا ٦٧

ايطاليا ١٦ ، ٢٠ ، ٢٧ ح ١ ، ٤٥ ،

ح ٢ ، ٥٨ ح ١ ، ٧٧ ح ١ ،

٨٩ ح ١ ، ١١٠ ح ١ ، ١٢٣ ،

١٢٣ ح ١ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ح ٢ ،

١٧١ ح ١ ، ١٨٩ ، ٢٣٤ ح ٢ ،

٢٣٥ ح ٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ،

٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٣٠٢

الايطالية (اللغة) ٥٦ ح ٢ ، ٢٣٥

ح ٢

ايلسبري (مدينة) ٩٤

ايمز (نهر) ٦٦ ح ١

ايمولا (نيقولا دا) ٣٠٢

ايوجين الثالث (البابا) ٢٢٢ ح ١

(ب)

البابا الروماني ١١ - ١٤ ، ٢١ ، ٢٣ ،

٦١ ح ٢ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،

ح ١ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ،

البحار الضيقة ٢٠٥ ، ٢٠٥ ح ١
 البحر الأبيض المتوسط ١٥ ، ١٧ ،
 ٢٩٩
 البحر الاحمر ٦١
 البحر الاسود ٢٨٩ ح ١
 بحر الشمال ٧٦ ح ٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥
 بدفورد (مدينة) ١٢٤
 برابان (سيجر دي) ٢٣٣
 البرابرة ٦ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٢ ،
 ٦٧ ح ٢ ، ٢١٩ - البربرية ٧ ،
 ٦٧ ح ٢ ، ١١٠ - فزوات ٧ ،
 ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٧ ح ٢ -
 ٣ ، ١٢٢ ، ٢٢٠ - انظر التوتون ،
 والجرمان
 البرتغال ١٤٨ ، ١٤٨ ح ٢
 البرتغاليون ١٤٩ ، ١٥٠
 برتيني (مهاجرة) ١٤٣ ح ١
 يردينون (اودوريك اوف) ٢٠٥ ،
 ٢١٠ - أنظر التتار ، والمنغول
 بركلي ٢٣٥

١٧٠ ح ١٧٢ ، ١ - أنظر -
 الديرية ، والرهينة
 بادوا (مدينة) ٢٣٥ ح ٢
 بادوا (مارسيلوس اوف) ١٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٠ ح ١ ، ٢٧٦ - ٢٧٩ -
 المدافع عن السلم ٢٧٧ ، ٢٧٩
 باراكلاف (ج) ٤
 بارتولد (ف) ٤
 بارتيني (سيرجوفري) ١٥٠
 بارجز (برتراند اوف) ١٥٠
 بارفلور (مدينة) ١٤٤ ، ١٤٤ ح
 ٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧
 باريس (مدينة) ١٤٣ ح ١٥١ ،
 ١٥٤ ، ١٨٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ،
 ٢٣١ ، ٢٣١ ح ١ ، ٢٣٢
 باريس (جسر) ١٥٤
 بازيل (القديس) ١١ ، ١٦٨ ح ٢ ،
 ١٧٠ ، ١٧٠ ح ١
 بامبورو (جون اوف) ٩٣
 بستارك ٧٧ ح ١ ، ١٥١ ح ١ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٥ ح ٢ - أنظر لورا

برنارد أوف شارتر ٢٦١
 برنارد أوف كليرفو ١٨ ١٧٣٣ ح ١
 ٢٢٢، ٢٢٣ ح ١ ٢٢٣، ٢٣١ -
 انظر السسترشيان
 برنديزي (مدينة) ٨٩ ح ١
 برنك (الورد أوف) ١٥٠
 بروميارد الدومينيكانى ٩٥، ٩٦
 ٩٦ ح ١، ١٠٧، ٢١٤
 برونو (القديس) ١٧٣ ح ٢
 بزولد (ف فون) ٢
 بريتاني (مقاطعة) ٢٣
 بريطانيا - انظر انجلترا
 بطرس (القديس) ٦١ - ٦٣، ١١٠
 ح ١، ٢٧٨، ٣١٩ - نظرية
 السيادة البطرسية ٦٢ ح ٢، ٢٧٨
 بطرس الفلاح ٢٨، ١٣٧ ح ٢، ٣١٤ -
 ٣٢٢ - قصيدة ٢٨-٣١، ٣١٤ -
 ٣٢٢ - انظر لانجلاند
 بطرس المباردى ١٩، ٢٢٤، ٢٢٤
 ح ١ - كتاب الجمل ١٩، ٢٢٤،
 ٢٢٤ ح ١
 بكين ٢١٠

بلانش (صاحبة قشتالة) ١٣٩ ح ٣
 البلطيق (بحر) ٦٧ ح ١، ٢٠٤
 بلقور (لورد) ٣١٢
 بلنجهام (محكمة) ٩٥
 بمبروك (الايرل أوف) ١٥٨، ١٦٠
 بنافورت (القديس ريموند أوف)
 ٣٠٠، ٣٠١
 بنتر (سيدنى) ١٠، ١٣٥ ح ١
 البندقية ١٧، ٢١٢، ٢٣٦
 بندكت (القديس) ١١، ١٧١ ح ١
 ١٧٣، ١٧٣ ح ١، ١٧٦، ١٨٠ -
 ديرية ١١، ١٦، ١٧١ ح ١
 ٢٢٢ ح ١ - قانون ١٠، ١٧١،
 ١٧١ ح ١، ١٧٥، ١٧٦ -
 والتعليم ١١، ١٧١ ح ١ - انظر
 الديرية، والرهبة
 البندكتان ١٧٤، ١٧٩
 بندكت الثانى عشر (البابا) ١٨٠،
 ١٨٠ ح ٢، ١٨٣
 بنطش ١٧٠ ح ١
 بواتيه (مدينة) ١٥٥، ١٥٥ ح ١
 ١٦٢، ١٦٣

برنارد أوف شارتر ٢٦١
 برنارد أوف كليرفو ١٨ ١٧٣٣ ح ١
 ٢٢٢، ٢٢٣ ح ١ ٢٢٣، ٢٣١ -
 انظر السسترشيان
 برنديزي (مدينة) ٨٩ ح ١
 برنك (الورد أوف) ١٥٠
 بروميارد الدومينيكانى ٩٥، ٩٦
 ٩٦ ح ١، ١٠٧، ٢١٤
 برونو (القديس) ١٧٣ ح ٢
 بزولد (ف فون) ٢
 بريتاني (مقاطعة) ٢٣
 بريطانيا - انظر انجلترا
 بطرس (القديس) ٦١ - ٦٣، ١١٠
 ح ١، ٢٧٨، ٣١٩ - نظرية
 السيادة البطرسية ٦٢ ح ٢، ٢٧٨
 بطرس الفلاح ٢٨، ١٣٧ ح ٢، ٣١٤ -
 ٣٢٢ - قصيدة ٢٨-٣١، ٣١٤ -
 ٣٢٢ - انظر لانجلاند
 بطرس المباردى ١٩، ٢٢٤، ٢٢٤
 ح ١ - كتاب الجمل ١٩، ٢٢٤،
 ٢٢٤ ح ١
 بكين ٢١٠

بولونيا (مدينة) ۱۴۲ ح ۲	بوٹ (جنرال) ۶۴
بونيفاس الثامن (البابا) ۲۷۵، ۲۷۳ -	البوذية ۴۴
المنشور المقدس ۲۷۳، ۲۷۳ ح ۱	بور (ايلهن) ۳
بياتريس ۵۶ ح ۲، ۱۵۱ ح ۱ - انظر	بورخز (لورد اوف) ۱۵۰
داني	بورهو (مدينة) ۱۴۲ ح ۲، ۱۵۳،
بيت المقدس - انظر فلسطين	۱۵۶، ۱۶۲، ۲۰۴
بيرتون (مدينة) ۱۳۰	بوز (رينكلود) ۹۴
برجهرش (لورد بارثوليميو اوف)	بوزو (نيقولا) ۳۰۳
۱۵۶	بوسطن (سوق) ۲۰۰
بيرن (سير) ۱۵۰	بوش (جوهان) ۲۶۴
بيرين (هنري) ۱۶، ۱۷، ۱۰۳	بوفورت (روجر) ۱۵۹، ۱۶۰
ح ۱، ۱۱۵، ح ۱، ۱۲۳ ح ۱،	بوكاشيو ۷۷ ج ۱
۲۹۷ ح ۳	بول (كاردينال) ۱۸۵ ح ۱، ۱۸۷،
بيزا (مدينة) ۱۷	بولس (أنا بولا) ۱۶۸ ح ۲ - أنظر
بيس ۳۱۶	الديرية، والرهينة
بيكون (روجر) ۵۶، ۵۶ ح ۵	بولس (القديس) ۲۷۸، ۲۸۸ ح ۲،
۲۲۴، ۶۵، ۱	۲۹۱، ۳۰۹، ۳۱۶
بين (اموري دي) ۲۳۲، ۲۳۲ ح ۲	بولو (آل) ۱۶، ۲۱۰، ۲۱۲
بيونثيوس ۷۷ ح ۱، ۲۲۶، ۲۲۶ ح ۱	بولو (ماركو) ۱۹۹، ۲۱۰،
بيوري سانت ادموند ۱۳۰	۲۱۰ ح ۱، ۲۱۲، ۲۱۳

بييل (جبرائيل) ٢٣٧

(ت)

التاريخ الوسيط - علم ٥٧ ، ٢٥٨ ،

٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ - فلسفة ٢٦٩

تاكيتوس ١٣٣ ، ١٣٣ ح ١٣٤ ، ٢

تاوت (ت ف) ٢٥٩ ، ٢٥٩ ح ١

التبشير في المصور الوسطى (بعثات)

١٥ ، ٢١٠ - انظر البابوية ،

والتتار ، والمغول

التتار ١٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٧ ح ٢٠٨ ، ٢

٢١٠ - انظر الشرق الأقصى ،

والمغول

التجارة (في المصور الوسطى) ١٦٥ ،

١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣١٠ ، ١١٢ ،

١٤٢ ح ٢ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٩٥ - ٢١٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٣ ، ٣١٥

ح ٢ - تجارة الرق ٧٥ - ٧٦ -

التلاعب ووسائل الغش في ٣١ ،

١٩٧ - ١٩٩ - الفرامات والمخالفات

٩٢ ، ٩٣ ، ١٣٨ ، ٢٠٠ - ٢٠٢ ،

٢٩٤ - رأسمالية ٢٨٨ ح ٢ ، ٢٩٩ ،

٣٠٢ - مبدأ السعر العادل في ٢٢ ،

٢٩٣ ، ٢٩٣ ح ١ ، ٣٠٧ -

والاحتكار ٢٩٧ ح ٣ - والربا

٢٢ ، ٢٣ ، ٣١ ، ١٠٢ ، ١١٢ ،

٢٨٨ ، ٢٨٧ ح ٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ -

٣٠٣ ، ٣٠٧ - والربح ٢٢ ، ٢٩٣ ،

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ -

والمدون الصليبي ١٦ ، ٢٠٢ -

والكنيسة ١١٢ ، ٢٨٧ - ٣٠٣ -

انظر الديرية ، والرهينة ،

والكنيسة الرومانية

التراث الكلاسيكي القديم ١٦ - ١٨ ،

٢٣ ، ٣٧ ح ١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٣٥ ،

ح ٢ ، ٢٦١

ترقية ١٠٩

ترتوليان (الأب) ٤٧ ، ٤٧ ح ١ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٦٤

ترت (مجلس) ٢٢٩ ، ٢٢٩ ح ١

تشنينو تشيني ٢٥٨ ، ٢٥٨ ح ٣

تهوسر (جوفري) ٧٧ ، ٧٧ ح ١ ،

٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٧ ،

١٣٧ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ،

٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ،

٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٠

جاكوب (أ. ف) ٣٠٢
 جاليليو ٦٣ - نظرية ٦٣ ح ١
 الجامعات الأوروبية الوسيطة ١٥ ،
 ١٨٣ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ٩٩ ، ٢٠
 ح ١ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٧ ، ٣٠٧
 جامعة أكسفورد ١١٧ ح ١ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٧ ، ٢٥٩
 جامعة بادوا ٢٣٦ ، ٢٧٦
 جامعة باريس ٥٨ ح ١ ، ٦١ ح ٢ ،
 ٢٢٠ ح ١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ،
 ٢٧٦
 جامعة بولونيا ٦١ ح ٢ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٠
 جامعة روما ٦١ ح ٢
 جامعة كامبريدج ٢٥٩
 جامعة مَنز ٢٣٥
 جان دارك ١٥١ ، ٣١٣
 جـ-راشيان (الراهب) ٢٠ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥١ - مرسوم ٢٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 ٢٦٧ لوحة ٨ (أ) - انظر
 القانون الكنسي

التصوف (في العصور الوسطى) ٣١٠ ،
 ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٢٢
 التعليم (في العصور الوسطى) ٢٢٥ ،
 ٢٥٢ - انظر الجامعات، والمدارس،
 والكنيسة الرومانية
 التوراه - انظر الكتاب المقدس
 تولوز (مدينة) ٣١٣
 تومبسون (أ. هاملتون) ١٨٤ ،
 ١٨٧ ح ١
 تونس ١٣٩ ح ٣
 التية - وتون ٤١ ، ٧٣ - ديانة ٦٦ -
 قانون ٧٣ - مجتمع ٤١ - انظر
 البرابرة، والجرمان
 (ث)
 الثورة الفرنسية ٣٩ ح ١ ، ٣١٠ ،
 ٣٢٢
 ثورة الفلاحين في إنجلترا ١٧٨ -
 انظر ويكليف
 ثيودوريك القوطي ٣٧ ح ١ - انظر
 القوط
 (ج)
 جاسكونيا (مقاطعة) ١٥٦

جريجورى الثالث عشر (البابا)

٢٥٢، ٢٥٢ ح ١

جرين (ج. ر.) ٩٣

الجغرافية (علم) فى العصور الوسطى

٢٥٨

جلاير (رالف) ٢١٩

جلازبوس (البابا) ٢٧١ ، ٢٧١

ح ٢ - اتفاق ٢٧٢، ٢٧٥

جاعات الاخوان الرهبان ١٤ - ١٦ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ،

٢٥٣ ، ٣٢٠ - انظر الديرة ،

والرهبنة، والكنيسة للرومانية

الجماعات الدينية للمنظمة ١٧٥

الجماعات الخيرية الوسيطة ٣٠٥

جمال الدين الشيال (دكتور) ٣

جنكيز خان ٢٠٧ ح ٢

جنوه ١٧ ، ١٥٤

جوار (حنا) ٢١٣ ، ٢١٣ ح ١

جوانفيل (جان دى) ١٠ ، ١٣٩ ،

١٣٩ ح ١ - ١٤٠ ، ١٤٠ ، ١٤٢ -

انظر لويس التاسع

الجرمان ١٠٠ ، ١٠٠ ، ٣٧ ح ١ ،

٤١ ح ١ ، ١٠٣ ، ١٣٣ ،

١٣٣ ح ٢ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ح ٢ ،

١٦٠ ح ١ ، ٢٢٣ ح ١ - تقاليد

وعادات ٢٧ ، ٤١ ح ١ ، ١٣٣ -

١٣٤ - غزوات ١١ ، ٤٢ ، ١٠٣

ح ١ - انظر البرابرة ، والتيونون

جروب (ج) ٢

جرونيباوم (ج. غون) ٤

جريجورى الاول (الكبير) ٤٥

ح ٢ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٦٧ ح ٣ ،

٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٨ ح ٢ ، ٢٧١

جريجورى الثانى (البابا) ٢٦٠ ،

٢٦٠ ح ١

جريجورى السابع (البابا) ٢٠ ،

١٠٤ ، ١٠٤ ح ١ ، ٢٧٢

جريجورى التاسع (البابا) ٢٢ ،

١٨٠ ، ١٨٠ ح ١ ، ٢٥١ ، ٢٥١

ح ١ ، ٣٠٠ - مرسوم الملاحة

٣٠٠

جريجورى الحادى عشر (البابا)

٢٨٩ ح ١

١٤٧ ، ١٦٠ ح ١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥ ، ٢٧٥ - الحروب الاهلية

١٣٨ - الحصون والقلاع ١١٥

ح ١ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ح ٢ ،

١٤٦ ، ١٦٧ - الفرسان ١٠ ، ١٤٨ -

المشاة ١٠ ، ١٤٨ ، ١٥٨ - انظر

حرب المائة عام ، وحرب

الوردتين ، والمدوان الصليبي ،

والقروسية

حرب المائة عام ١٠ ، ١٣٨ ، ١٤٢

ح ٢ ، ١٤٣ ح ١ ، ١٥٥ ح ١ ،

٢١٢ ح ١ ، ٢٧٤ ، ٣١٥ ، ٣١٥

ح ١

حرب الوردتين ١٣٨

الحروب الصليبية - انظر المدوان

الصليبي

الحريات السياسية (في العصور

الوسطى) ٤٧ ، ١٢٤ ، ١٣٦ -

انظر المدينة

الحضارة الاسلامية ٤

الحضارة الرومانية القديمة ٩ ، ١٢٤

حضارة العصور الوسطى ٢ - ٥٠ ،

٣٠ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ،

١١٥ ح ١

الجوباروتا (مدينة) ١٤٨ ح ٢ ،

١٤٩ - معركة ١٤٨

جويتر ٥٤

جوبيل ١٢٣ ح ١

جولاند ٢٠٢ ، ٢٠٢ ح ٣

جورج يعقوب ٤

جوسار (١ م) ٣

جوسيران ٣٢١

جوف (جاك لي) ٢

جوليانا الترويحية ٣١٣ - ٣١٤

جويين (مدينة) ١٦١

جيبون (ادوارد) ٧ ، ٤٦ ، ٥٠ ،

٢٠٢

جيركي (اوتو) ٢٨٠

جيروم (القديس) ٥٣ ، ٥٣ ح ١ ،

٧٧ ح ١ ، ٢٢٣ ، ٣٩٥

(ح)

الحج (حركة) ١٧٢ ح ١ ، ١٨٨ ،

٢٠٢ ، ٣٢٠

الحجاج (في العصور الوسطى) ٢٠٢

الحرب (في العصور الوسطى) ١٠٠٣ ،

درهام ٩٥	جزه طاهر ٤
دمشق ١٥٤	حنا (ملك فرنسا) ١٥٥ ج ١، ٢٠٤
دوبش (١) ٦	حنا قم الذهب ٢٢ ، ٢٨٩ ، ٢٨٩
الدولة (في العصور الوسطى) ٤ - انظر	ح ١، ٢٩١، ٢٩٢
الاقطاع ، والامبراطورية ،	حوا ١١٩ ، ١٥١
والبابوية ، والكنيسة الرومانية	(خ)
الدولة الكارولنجية ١٢٣ ج ١	الخوري (فيكارىوس) ١٠٦
دوميشيان (الامبراطور) ٥٥ ح ٢	(د)
دومينيك (القديس) ١٧٤ ح ٢ -	دانتي البجيري ٥٦ ، ٥٦ ح ٢
انظر الدومينيكان	٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ح ١، ١١٠ ، ١٥١
الدومينيكان (جماعة) ١١ ، ٥٨ ح	ح ١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥
٢١٢، ١ - انظر الديرية ، والرهبة	٣٠٢ ، ٣٠٣ - الكوميديا
ديبوا (بطرس) ٢٧٤-٢٧٦	الالهية ٥٦ ح ٢ ، ١٥١ ح ١
دير بيتر بورو ١٨٦	٣١٤ ، ٣٢١ ح ١ - انظر بياتريس
دير تشوسر ١٧٧	دانجل (سير جيفارد) ١٥٨
دير رامزي ١٨٦	الدانيون ٧٤ ج ١ ، ٢٠٢ - غزوات
دير سانت كاترين (دير سيناء)	٧٦
٦٤ ح ١ ، ١٦٨ ح ٢ ، ١٧٠ ح ١	الداوية (الفـرسان) ٢٢٢ ح ١
٢٨٩ ح ١	٣١٣
دير القديس الباني ١٨٦ ، ٢٦٠ ،	دربي ١٩٦
٢٦٠ ح ٣	دركاك (سير ريموند) ١٥٠

(ر)

رأس فينستر ٢٩٢

الراهبات ١٧٤، ١٧٤، ١٧٤ ح ٤ ،

١٧٧ ، ١٨٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ -

أنظر الديرية ، والرهينة

راى (سيرجون أوف) ١٥٠

الراين ٦٦ ح ١ ، ١٢٣ ح ١ ، ٣١٣

رتبف (ولیم) ١١٠ ح ١

الرحلات والأسفار (فى المصور

الوسطى) ٢٠٥ - ٢١٤ - انظر

التجارة ، والمفول

رشدال (المؤرخ) ٢٥٢

الرهبان ١١-١٦ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣١ ،

١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٧ ،

١١٧ ح ١ ، ١١٨ ، ١٦٨ ح ٢ ،

١٧٠ ح ١ ، ١٧١ ، ١٧١ ح ١ ،

١٧٣ ، ١٧٥-١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،

١٨٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ،

٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ - انظر

الديرية ، والرهينة

الرهينة (الرهبانية) ١١٠٥-١٣ ،

دير القديس دنيس ١٨٢

دير القديس فيكتور الاوغسطينى

٢٣١ ح ١

دير كلوفى ١٧٢ ، ١٧٢ ح ١ ، ٢٢٠ ح ١

دير كليرفو ١٧٣ ح ١ ، ٢٢٢ ح ١

دير مونت كاسينو ١٧١ ح ١

دير نورويتش ١٨٦

دير وستمنستر ١٨٦ ، ٢٠٥

دير ولسنجهام ١٨٦

الديرية ٤ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٠٠

١١٧ ح ١ ، ١٦٧-١٨٩ -

انظر الأديرة ، ودير ، والرهينة

ديفز (ه . و . كارلس) ٤

ديفيز (ه . و . س) ٢٨١

ديكيوس (الامبراطور) ٥١ ح ١

ديمتريوس (أسقف الاسكندرية)

٥١ ح ١

الديموقراطية (فى المصور الوسطى)

٢٨٠

دينانت (داود دى) ٢٣٣ ، ٢٣٣ ح ١

ديب ٨٦ ، ٨٦ ح ١

روسيا ٢٠٧
روما ٦٧ ح ٢ - ٣ ، ١١٠ ح ١ ،
١٤٢ ح ٢ ، ٢٢٢ ح ١ ، ٢٣٣ ح
١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ،
٢٧٩ ، ٢٧٩ ح ١ - أسقفية ٦٧
ح ٣ ، ٢٧٠ - بابوية ٦٧ ح ٣
الرومان القدماء ٦ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
١١٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨
رومولوس وريوس ٢٦٨ ح ١
الرياضيات (في العصور الوسطى)
٢٥٨
ريجا ٢٠٤
ريجالدي (الأسقف أودو) ٨١
ريجن (جزيرة) ٦٧ ، ٦٧ ح ١ - ٢
ريجنسبورج (برتولد أوف) ٦٥ ،
١٩٧ ، ١٩٧ ح ١ ، ٢١٣
ريشانجيه (ولیم) ٢٦٠ ح ٣
ريشار دي سان فيكتور ٢٣١ ح ١
ريشون (سير جوفري) ١٥٠
رينتون الشرقية (بانجلترا) ٩٢

٤٥ ح ٢ ، ٥٣ ح ١ ، ٦٧ ح ٣ ،
١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٦٧ ، ١٨٩ ، ٢٥٣ ،
٢٦٠ ح ٣ ، ٢٦٢ ح ١ - أوقاف
وهبات ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ٣١ ،
١٧٧ ، ١٨٨ - تدهور وانحيار
١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧١ ح ١ ، ١٧٨ ،
١٨٣ ، ١٨٥ ح ١ ، ١٨٦ - حياة
البطالة والكسل ١٤ - فساد ١٢ ،
١٣ ، ٣١ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ -
قوانين ١٢ - مستندات ووثائق
١٨٤ - والاصلاح ١١ ، ١٤ ،
١٧١ ح ١ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٥ - والاقطاع ١٤ ، ١٥ ،
١٨١ - انظر الأديرة ، ودير ،
والديرة ، والراهبات ، والرهبان
روان (مدينة) ٨٢ ، ٨٢ ح ١
روبرت (الايرل) ١٢٧ ، ١٢٨ ،
روبرت السسترشيان ١٧٣ ح ١
روبروك (ولیم) ٢٠٥ ، ٢٠٨ - ٢٠٩ -
انظر التبشير ، والتتار ، ولويس
التاسع ، والمنقول
روجرز (ثورولد) ١١٢

الوسطى) ٢٤، ٢٧، ٤٥، ١٠٢،
١٠٨

السترشيان ١١، ١٥، ١٧٣، ١٧٣
ج ٢٢٢، ١ ح ١ - انظر الديرية ،
والرهبنة، والكنيسة الرومانية
سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)
٤، ٣

شفن او كس (مدينة) ٢٥٥
سفروس (الامبراطور) ١٥١ ح ١
سقراط ٢٢٥
السكرستيات ٥٣، ٥٣ ح ٢ - رجال
١٨١، ١٨١ ح ١
السكسون - انظر الانجلو سكسون
سكشتي ٢٣٦

مكوتوس (سيدوليوس) ٢٢١ ح ١
السلاف (ديانة) ٦٦
سليمان الحكيم ٣١٩
سوانتوفيت ٦٧، ٦٧ ح ٢ - انظر
فيتوس
سويباكا ١٧١ ح ١
سورية ٥١ ح ١، ١٦٨، ١٧٠ ح ١ -

رينتون الغربية (بانجلترا) ٩٢
(ز)

زكي محمد حسن (دكتور) ٤
الزواج (قوانين) في العصور
الوسطى ٢٥٥ - ٢٥٧
(س)

سارامين (سير مانو اوف) ١٥٠
ماروم (كاتدرائية) ٢٦٢
ساسكس ٨٦، ٨٦ ح ٢
مالبير (سير بيتر اوف) ١٥٠
سانت لو (مدينة) ١٤٨، ١٤٨
ح ١
ساندويتش ٢٠٤

سان مارتان (جاك اوف) ١٦٢،
١٦٣

سقاتيوس ٥٦ ح ٢، ٧٧ ح ١
ستيفن (وليم فيتز) ١٢٥
ستيغفنون (كارل) ٣٩ ح ١، ٤١
ح ١
السحر والسموذة (في العصور

ح ١٦٤، ١ ح ٢٢١، ١ ح ٢٧٠ - أنشودة رولان ١٦٤ ح ١ -
انظر الامبراطورية الكارولنجية
الشام (بلاد) ١٣٩ ح ٣ - انظر
سورية

شامبانيا (مقاطعة) ١٢٩ ح ١
شاندوز (سيرجون) ١٦١-١٦٤
شتراسبوج (مدينة) ٢٥٥
شتراسبورج (رولمان مرسوين
أوف) ٣١٣
شترسمان ٢٦٤

الشرق الأدنى ١٦، ١٧
الشرق الأقصى ١٦، ١٧، ٢٠٥،
٢٠٩ ح ١، ٣١٥ ح ٢ - انظر
البابوية، والتتار، والمنقول
الشريف (لقب) ١٢٨، ١٢٨ ح ٢،
١٢٩

الشعب (في المصنوع الوسطى) ٥،
١٢، ٢٣، ٢٧، ٣١، ٢٥٥،
٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٥، ٢٩٣،
٣٠٧ - ٣٢٣ - انظر الاقطاع،
والكنيسة الرومانية

انظر الشام
سوزو (هنريش) ٢٦٤
السول (عملة) ٨٢، ٨٢ ح ٣
موهاج ١٦٨ ح ٢
مويسرا ٨٥
ميثيل (عبادة) ٤٩، ٤٩ ح ١
سيرابيس (عبادة) ٤٩، ٤٩ ح ١
١٦٧ ح ١
ميلفستر الأول (البابا) ١١٠ ح ١
٢٤٨، ٢٤٨ ح ١ - انظر

قسطنطين الكبير
سيليري (ج) ٢
السين (نهر) ٨٢ ح ١، ١٢٣ ح ١
سيناه (شبه جزيرة) ١٦٨ ح ٢
١٧٠ ح ١
سينز (مجلس) ٢٣١

(ش)
شارتر ٢٣٢ ح ٢ - مدرسة ٢٣٢
ح ٢
شارل العظيم (شارلمان) ٢٥، ١٢٣

انظر الاقطاع

الطهريون ٨١ - المذهب الطهري ٥٣ ،
ح ٥٣ ، ٢٨٩ ، ٣

(ع)

العالم العربي ١٣٩ ح ٣ أنظر العرب
عبد الحميد حمدي محمود (دكتور) ٤
عبد الرحمن بدوي (دكتور) ٣
عبد العزيز جاويد ٤

عبد المنعم ماجد (دكتور) ٤
المدوان الصليبي ١٦ ، ١٧ ، ٣٧ ،
٢٠٢ ، ٢٩٤ - الحملة الاولى ١٣٥
ح ٢ ، ٢٠٢ - الحملة الثانية ٢٢٢
ح ١ - الحملة السابعة ١٣٩ ح ١ -
الحملة التاسعة (حملة تونس) ١٣٩
ح ٣ - الحملات المتأخرة ٢٧٤
ح ١

العرب ٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ح ١ ،
١٧٢ ح ١ - انظر العالم العربي

عصبة الامم ٢٦٤

العصر الحديث ٧ ، ٥٦ ح ٢ ، ١١٥
ح ١ ، ٢٢٩

شكسبير ٧٧ ح ١ ، ٢٩٧ ح ٢

شلفورد الصغرى (بانجلترا) ١٠٤ ،
١٠٥

شلفورد الكبرى (بانجلترا) ١٠٤
شيربورج (مدينة) ١٤٥ ، ١٤٥ ح ١ ،
١٤٧

شيشرون ٢٣٥ ح ٢

شيلوك المرابي ٢٩٧ ، ٢٩٧ ح ٢ -
انظر التجارة ، وشكسبير ،
والكنيسة الرومانية

(ص)

صقلية ٦١ ح ٢

سموئيل بن كنعان ٦٠
الصناعة في الغرب - رأسمالية ٢٨٨ ح ٢
الصين ٢١٠ - انظر البابوية ، والتتار ،
والتجارة ، والشرق الاقصى ،
والمنقول

(ط)

الطب (في العصور الوسطى) ٢٥٣ -
٢٥٧ ، ٢٧٦ - انظر المستشفيات
الطبية (في العصور الوسطى) -

٢٦٠ ، ٢٦٣ - ٢٦٦ ، ٢٧٠ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ،

٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ -

تاريخ ٢ ، ٦٤ ح ٢ - مجتمع ٦ -

مدنية ٧ - مزايا ٤٦ ، ٤٨ -

مساوي ٤٦ ، ٤٩

العلوم الطبيعية (في العصور الوسطى)

٢٥٨

على مظهر (دكتور) ٣

(غ)

غالة ٢٢١ ح ١ - انظر الفرنجة

الغرب الأوروبي ٢ ، ٥ ، ٧ ، ١٢ ،

١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٣١ ،

٤٢ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦١ ح ٢ ، ٦٧

ح ٣ ، ١١٥ ح ١ ، ١٦٨ ح ٢ ،

١٧٠ ، ٢٢١ ح ١ ، ٢٢٦ ، ٢٤٨ ،

٢٦٠ ح ٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ،

٢٨٨ ح ٢ - انظر اوربا ، واللاتين

(ف)

الفاتيكان ١٣٤ ح ١

فاسبسيان ١٣٣ ح ٢

عصر النهضة ٧ ، ٢٦٢ ح ١ ، ٢٨٨

ح ٢

العصور القديمة ٥٥

العصور المظلمة ٥ ، ١٦ - ١٩ ، ٢٧ ،

٣٠ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ١٧٨ ،

٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٨٠ ، ٣٠٩ ،

٣١١

العصور الوسطى ٤ - ١٠ ، ١٣ ،

١٦ - ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ -

٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ح ١ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٨ ، ٥٤ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦١ ح ٢ ،

٦٣ ، ٦٦ ، ٧٤ ح ١ ، ٨٠ ، ٨٠ ،

ح ١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٤ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٥ ح ١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ح ١ ،

١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ح ١ ، ١٥١ ،

ح ١ ، ١٥٥ ح ١ ، ١٦٤ ح ١ ، ١٧٦ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ح ٢ ، ١٨٥ ،

١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ح ١ ، ٢١٤ ،

٢١٩ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ٢٢٨ -

٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ح ٢ ، ٢٣٧ ،

٢٤٧ ، ٢٥٠ - ٢٥٣ ، ٢٥٧ -

ح ١٦٣، ١٧٢، ١٨٤،
١٨٩، ٢٠٤، ٢١٢، ح ١، ٢٣٢
ح ٢، ٢٧٤، ٢٧٥ - انظر
الفرجة

فرنسيس الأسيسى (القدس) ٦٤،
٦٤ ح ٢، ١٨٠، ٢٥٣، ٣٠٣ -
انظر الفرنسيكان

الفرنسية الحديثة (اللغة) ١٣٩ ح ٢
الفرنسية الوسيطة (اللغة) ١٣٩
ح ١ - ٢، ٢١٣ ح ١

الفرنسيكان ١١، ٥٦ ح ١، ٦٤،
ح ٢، ١٧٤، ١٧٤ ح ١، ٢٠٥٠،
٢٣٠ - انظر الديرية، والرهنة،
وفرنسيس الأسيسى

الفرنسيون ١٤٢ ح ٢، ١٤٣ ح ١،
١٤٩، ١٥٠، ١٥٨ - ١٦٠،
١٦٣، ١٦٢

فرواسار (حنا) ١٠، ٧٧ ح ١،
١٣٦ ح ١، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٢،
ح ٢، ١٤٤، ١٤٤ ح ١، ١٤٨،
١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٦١،
١٦٢ - انظر حرب المائة عام

فالا (لورنتيوس) ٢٤٩، ٢٤٩ ح ٢
فالنتيان الثانى (الامبراطور) ٢٢٣
ح ١

فالنتيان الثالث (الامبراطور) ٢٤٧،
٢٤٧ ح ٢

فالنسان (ميرستيفن) ١٥٠

فالنسين (مدينة) ١٤٢ ح ٢

فرايبية (ج) ٣

فرجيل ٥٤، ٥٦ ح ٢، ٧٧ ح ١،
٨٩، ٨٩ ح ١، ٢٣٥ ح ٢

فردريك بارباروسا (الامبراطور)
٢٠، ٦١ ح ٢

فردريك الثانى (الامبراطور) ١١٠ ح ١
الفردية (مبدأ) ٣٦، ٨٥

فرسان الحمام ١٣٦ - انظر القروسية

الفرجة ٤١ ح ١، ٤٢، ١٥٠، ٢٥٠ -
انظر فرنسا

فرنسا ١٠، ٢٥، ٤٢، ٥٨ ح ١،

٨٦، ١٢٣، ١٢٣ ح ١، ١٢٤،

١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ ح ١، ١٣٩،

٣ ح ١، ١٤١ ح ١، ١٤٢ ح ٢،

١٤٣ ح ١، ١٤٥ ح ٢، ١٥١،

١٥٣، ١٥٤ ح ١، ١٥٥، ١٥٥،

الفكر القديم ٣٦، ٤٩، ٥٤، ٢٨١،

الفكر الوسيط ١٦٠، ١٩٠، ٣٦،

٥٠، ٥٤، ٥٨، ٦٠، ح ٦٦، ٦٢،

٢١٩ - ٢٣٧، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٨،

٢٦٥ - ٢٨١، ٢٨٧، ٣٠٩، ٣٢٢،

فلسطين ٥٣ ح ١٤١، ١٦٠، ح ١٧٠،

ح ١، ٢٠٣، ٢٧٨،

الفلسفة الحديثة ٢٢٩

الفلسفة القديمة ٥١ ح ١، ٨٩ ح ١،

٢٢٦ ح ١، ٢٢٩ - انظر ارسطو،

وسقراط

الفلسفة الوسيطة ٥، ١٦، ١٧،

١١٧، ٢١٩ - ٢٣٧، ٢٦٤ -

انظر الفكر الوسيط، والمسيحية

فلورنسا ١٧، ٢٣٥، ٢٣٦،

فنسان (مدينة) ١٤١

فنسان فيرر (القديس) ٢٨٠

الفنون ٤٧، ٤٩، ٢٥٨،

فؤاد حسنين علي (دكتور) ٤

فوسلر (ك) ٢

الفروسية (في المصور الوسطى) ٥٠،

١٠، ٣١، ١٣٣ - ١٦٤ - اضمحلال

١٣٨ - حفلات وطقوس ١٠،

١٣٥، ١٣٦، ١٥١ طبقة الفرسان

٩، ٣٨ ح ١، ١٣٥ ح ٢، ١٣٦ -

١٣٨، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٥،

١٥٩، ١٦٤ ح ١، ٣١٥ -

مباريات ١٠، ١٥٣، ١٦٠ -

مظاهر ١٣٥ ح ١ - والحب ١٣٥

ح ١ - والعرب ٣١، ١٣٤، ١٣٥ -

والكنيسة ١٣٥، ١٣٥ ح ٢،

١٣٦ - والنساء ١٥١ - ١٥٤

انظر الاقطاع

فريزيا ٦٦ ح ١

الفريزيون ٦٦، ٦٦ ح ١

فريير (لوبيوس اوف) ٢٢١ ح ١

فشر (١٠ ل ٤٠)

الفكر الانجليزى الوسيط ٣٥

الفكر الايطالى الوسيط ٣٥

الفكر الحديث ٣٦، ٥٤، ٣٢٢،

الفكر الفرنسى الوسيط ٣٥

(ق)

القانون الوسيط ١٩٠٥ ، ٢٧٠ ،

٦١ ج ٢٤٧ ، ٢٦٤ - ٣٠٢ ،

٣١٤ - انظر القانون الكنسي

قانون ثيودوسيوس ٢٤٧

القانون الروماني ٢٥٠

القانون الكنسي ١٩ ، ٢٠ ، ١٠٢ ،

٢٤٧ ، ٢٤٩ - ٢٥١ - انظر

البابوية ، وجراشيان

قايين ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣

قبرص ٢٠٤

قرطاجنة ٤٧ ح ١ ، ١٣٩ ح ٣ ، ٢٦٨ ،

قرطبة ٢٣١ ح ٢

قرية المصور الوسطى ٨٠٥ ، ٩٠٨ ،

١٥ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٧٣ - ٩٩ ، ٩٦ ،

١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٥ ،

١٢٤ - ١٢٦ ، ٢٩٢ - ٢٩٥ - الرياضة

٨٧ - كنيسة ١٠٧ ، ١٠٨ - مجلس

٨ ، ٧٣ - محكمة ٨٧ - منقآت

٧٥ - ٨٧ - موظفو ٨ ، ٨٧ ،

٨٨ - نظام الزراعة ٧ ، ٨٤ ، ٨٦ -

فوشاو (مدينة) ٢١٠

فولبرت (أسقف شارتز) ٨٠

ح ١

فولر (دكتور وارد) ٥٤

فيلكسن (اولمان) ١٦٧

ح ١

فيليب الرابع (ملك فرنسا) ٢٧٤

ح ١ ، ٢٧٥

فيتوس (القدس) ٦٧ ، ٦٧

ح ٢ - انظر سوانتوفيت

فيرارا ١٤٢ ح ٢

فيرز (لورد رالف) ١٥٦

الفينكنج ١٤٥ ح ٢

فيلدنج (هـ-زى) ٨٧ ، ٨٧

ح ١

فيلمور (سير جون أوف)

١٥٩ ، ١٦٠

فيليب (الأمير) ١٥٥ ، ١٥٥

ح ١

فيليبين (الأميرة) ١٤٢ ح ٢

فينوجرادوف (ب) ٦ ، ٣

كاريني (جون اوف بيانو) ٢٠٥،
 ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٨ ح ١ - انظر
 البابوية، والتتار، والكنيسة
 الرومانية، والمغول
 الكارثوزيان (جماعة) ١١، ١٧٣،
 ١٧٣ ح ٢ - انظر الديرية، والرهينة
 كارنتان (مدينة) ١٤٥، ١٤٥ ح ١
 كاسيليس (برترام اوف) ١٦٢
 كالفن (حنا) ٦٣، ٦٣ ح ٣
 كالم (ج) ٦
 كاليكستس الثاني (البابا) ٢٠
 كامبريدج (الايرل اوف) ١٥٨-١٦٠
 كامبريدج (مدينة) ١٢٤-١٢٦
 كامبريدج (مقاطعة) ٧٦، ١٠٤٦
 ١٢٦
 كانتربري ١٠١، ٢٠٢
 كانتون (مدينة) ٢١٠
 كانوسا (حادثة) ٢٠
 كبادوكيا ١٧٠ ح ١
 الكتاب المقدس (الانجيل) ٢٢،
 ٢٦، ٣١، ٤١ ح ١، ٥١ ح ١

والاقطاعية ٧٨ - وسياسة
 الاكتفاء الذاتي ٩١ - انظر
 الاقطاع
 قسطنطين الكبير ٤٤، ٨٢ ح ٣،
 ١١٠، ١١٠ ح ١، ١٦٨، ٢٤٧،
 ٢٤٧ ح ١، ٢٤٨ - هبة
 ١٩، ٢١، ١١٠ ح ١، ٢٤٨،
 ٢٤٩، ٢٤٩ ح ٢ - انظر سيليستر
 القسطنطينية ١١٠ ح ١، ٢١٢ ح ١،
 ٢٨٩ ح ١
 قشتالة ١٤٩
 القطيعة الدينية الكبرى في الغرب
 ٢٧٩ - انظر البابوية، والكنيسة
 الرومانية
 القوط ٢٥، ٣٦ - الشرقيون ٣٧ ح
 ١ - الغربيون ٦٧ ح ٣ - انظر
 البرابرة، والجرمان
 قيسارية ٥١ ح ١
 (ك)
 كاترين السينية (القديسة) ٢٧٩،
 ٢٧٩ ح ١
 كانز (سولومون) ٧

٢٢٠ ح ١ - الحركة ١١ -

الكلويون ٢٦ ، ١٧٢ ح ١ -
انظر الديرة ، والرهنة

كلية ترينيتي ١

كلية سان جون ١

كليفرود (ادوارد) ١٦٢

كليمنت الخامس (البابا) ٢٧٧ -

٢٧٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٨ ح ٤

كلينت السادس (البابا) ٢٣٠ ح ١ ،

٣١٥ ح ٢

الكميونات (القومونات) ١١٥

ح ١ - انظر مدن المصو-

الوسطى

كنت (بانجلترا) ٨٦ ، ٨٦ ح ٢

كنعان ٦٠

الكنيسة الانجليزى ١١٧ ح ١

الكنيسة الرومانية (اللاتينية) ٥ ،

١٢ ، ٩ ، ٦ - ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ،

٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦١ ح ٢ ، ٦٣ ،

٦٦ - ٦٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٠٣ ،

١٠٣ ح ١ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

٥٥٠ ، ٥٣ ح ٢ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٣ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١١٧ ح ١ ،

٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦١ ،

٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،

٢٨٧ ، ٢٨٨ ح ٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٤ ،

ح ١ ، ٢٩٥ - انظر التورا

الكتب (فى المصور الوسطى) ٥٣ ،

٥٦ ح ١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ -

انظر التعليم ، والجامعات ،

والكنيسة الرومانية

كرب (س.ج.٠) ٣ ، ٢

الكرمليون (الاخوان) ١٧٤ ، ١٢ ،

١٧٤ ح ٣ - انظر الديرة ،

والرهنة

الكلارجية ١٨١ ، ١٨١ ح ٢ - انظر

الكنيسة الرومانية

كلانفو (سير جون) ١٦٢

الكلت (ديانة) ١٦

كلمنت السكندرى ٥١ ح ١

كلوديان ٧٧ ح ١

كلونى (ديرة) ١٧٢ ، ١٧٢ ح ١ ،

خدمات ١٠٨، ١١٠، ١١١
 ١٧٦، ١٨٦ - رجال الدين
 ٨، ١٤، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٨٢
 ٩٩-١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩-
 ١١٢، ١١٥، ١١٧، ١١٧ ح ١
 ١٣٩ ح ٣، ١٦٨، ١٧٥، ١٨٣
 ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٢،
 ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٧٩
 ٣٠٧، ٣٢٠ - سجلات ١٠١-
 صلوات ٦٨ ح ١، ١٠٣، ١٧٦
 ٢٦٢، ٢٦٤ - صور ونقوش
 ١٠١، ١٠٢ ح ١ - طقوس
 ومعتقدات ٢٣ - ٢٦، ٤٥
 ٥٣ ح ٢، ٦٨، ١٠٢، ١٠٧
 ١٠٨، ٣١١، ٣٢٠ - عالمية ٥٢
 ١٠٢، ١٠٢ ح ١، ١١٧ ح ١
 ٢٧٤، ٢٧٩ - عشور ١٢١
 ١٢٢ - قوانين ٣٠، ٢٨٧
 ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١ -
 كاتدرائيات ١٠٥ - كتب
 الخدمة الدينية ٥٢ - المكتبة ١١١-
 مجالس ومجامع ٢٦، ٥١ ح ١
 ١٠٠، ١٠٩، ١٣٤ ح ١، ١٨٢

١٠٩-١١١، ١١٧ ح ١، ١١٩
 ١، ١٢٥، ١٢٦ ح ١، ١٦٨
 ١٧٤ ح ٢، ١٧٦، ٢٠٧، ٢١٩
 ٢٢٠ ح ١، ٢٢١ ح ٣، ٢٢٢
 ح ١، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨ ح ١
 ٢٣٢ ح ٢، ٢٣٣ ح ١، ٢٤٧
 ٢٤٧ ح ١، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٥
 ٢٧٠-٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٨ ح ٣
 ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧ ح ٣، ٣٠٨
 ٣١١، ٣١٢، ٣١٨، ٣٢٠
 ٣٢١ - احتفالات واعياد ٢٣
 ٢٤، ٢٦، ٣٠، ٣٠٧ - أسلحة
 ٩، ١٩ - اصلاح ١٢-١٤، ٢٠
 ٢٥، ٢٦، ٦٧ ح ٣، ١٧٢ ح ١
 ٢٢٩ ح ١، ٢٣٠ ح ١، ٢٣٤
 ح ٢، ٢٧٤ ح ١، ٣٢٠ ح ١
 ٣٢٢ - اضمحلال وانبيار ٩
 ١٩، ١١٧ ح ١، ١٧٢ ح ١
 ٣٢٠ - الخان ٦٧ ح ٣ - اوامر
 وتعليمات ٨، ١٩، ١٠٢
 ٢٣٧، ٢٩٧ ح ٣ - تبشير ٦٧
 ح ٣، ١٠٠ - تعليم ٨، ٥٤
 ٩٩، ١٠٠-١٠٢ - ثروة ١١٨-

كوتانس (مدينة) ١٤٨، ١٤٨ ح ١

كوتنشاي (شبه جزيرة) ١٤٤ ح ٢

١٤٥ ح ١ ، ١٤٨ ح ١

كوراس (سير ستيفن) ١٥٠

كورث (ج.) ٢

كورفينو (جون اوف مونت)

٢١٠ - انظر البابوية ، والتتار ،

والمغول

كوز نجتون (لورد ستيفن اوف)

١٥٦

كوسى (ميردى) ١٤١

كولبورن (ر.) ٦

كولت (عميد معهد القديس بولس)

٢٥٥

كولتون (ج.ج.) ١ - ٣ ، ٦ ، ٩ ،

١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٩ - ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٠ -

٣٢ ، ٨٠ ح ١ ، ١٤١ ح ١

٢٠٧ ح ٢ ، ٢١٤ ح ١ ، ٢٨٨

ح ٢ - مؤلفات ١ - ٢

كونياك (مدينة) ١٦١

كوير (سير بيتر اوف) ١٥٠

٢٣٣ ، ٢٧٨ - محاكم ٢٩٧ ح ٣

٣٢٢ - مدارس ١٠٠ ، ١٠١ -

مفاسد ٢٨ ، ١١٠ ح ١ ، ٢٦٠

ح ٣ ، ٢٦٢ ح ١ ، ٢٨٨ ح ٢ ،

٣١٩ ، ٣٢٠ ح ١ - مقبرة ١٠٣ ،

١١٠ - ملابس رجال الدين ٢٤ ،

٤٥ - مؤسسات دينية ١٠٥ -

نفوذ ١١٢ ، ١١٥ ، ٣٢٠ -

هبات وأوقاف ٢٦ ، ٤٥ ، ١٢١ -

هيئة اقطاعية ٢٢ ، ١١٢ -

واجبات ١٠٣ ، ١٢١ - والدولة

٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ -

وسياسة الاحتكار ٩ ، ١٠٠ -

١٠٣ ، ١١٠ - وعالم الاقتصاد

٢٨٧ - ٣٠٣ - انظر الأديرة ،

والاقطاع ، واوغسطين اوف

هيبيو ، والبابوية ، والتجارة ،

والديرية ، والرهينة

الكنيسة اليونانية (الشرقية) ٦١ ،

١٦٨ ، ١٢٠ ح ١

٢٥٠ كوبا

كوبلاند (ج.و.) ٣ ٦

٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ح ١ ،

٢٩٩ ، ٣١٣ - علماء ٨٣ ، ٢٢٤ ،

٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ،

لايكستر (مدينة) ١٢٦

لسبريس (لورد اوف) ١٥٠

لشونة ٨٧ ح ١

لنجمارد الروماني ١٨٤ ، ١٨٤ ح ١

لندن ١٠٠ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ، ٢٥٥ ،

٣١٤

اللهو والتسلية (في المصور الوسطى)

١٥٤ - ١٥٥

لوثر (مارتن) ٢٩ ، ٣٥ ، ٢٦٢

ح ١ - انظر الاصلاح الديني

لورا ١٥١ ح ١ - انظر بترارك

لوساك (جسر) ١٦١

اللواردية (الحركة) ١٧٧ ح ١ -

انظر ويكليف

اللوارديون ١٧٧ ح ١ ، ١٧٨ ،

١٨٤

لويس (ارشيبالد ر.) ٣

لويس التاسع ١٠ ، ١٣٩ ، ١٣٩ ح ١

كير (و. ب) ٧

كينجزلين (مدينة) ١ ، ٨٨ ، ١٢٤ ،

١٣٠

كيويت (عملة) ٢٠٣ ، ٢٠٣ ح ٢

كيوز (نيقولا وف) ٢٣٧ ، ٢٤٩ ،

٢٤٩ ح ٣

كيوك خان ٢٠٧ ح ٢

(ل)

اللاتينية (اللغة) ٣١ ، ٤٧ ح ١ ،

٥٢ ، ٥٦ ح ٢ ، ١١٧ ح ١ ، ١٣٦ ،

١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢١٣ ح ١ ، ٢٣٥ ،

٢ ، ٢٦٢ - ٢٦٤ ، ٢٧٤

لاروش (مير هيوج دي) ١٥٩ ،

١٦٠

لاكروا (بول) ٦

لانجلاند (وليم) ٢٨ ، ٢٩ ، ١٣٧ ،

١٣٧ ح ٢ - انظر بطرس الفلاح

لانكستر (دوق) ١٥٨ - ١٦٠

اللاهوت (علم) في المصور الوسطى

١١ ، ٥٦ ح ١ ، ٦١ ح ٢ ، ١١٧ ،

١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ح ٢ ، ٢٢٥ ،

ما كولي (ج س.) ١٤٤ ح ١	وح ٣، ١٤١ ح ١٤٢، ٢٠٨-
ماتتوا (مدينة) ٨٩ ح ١	انظر جوا نقييل
ماندونييه (الأب) ٢٣٢	لويس التقى ١٢٣ ح ١
المانش (بحر) ١٤٤ ح ٢	ليبك ٢٠٤
المازوية ٢٦٩، ٢٦٩ ح ١	ليتون (مدينة) ٩٤
مى (القديس) ٨٢، ٨٢ ح ٢	ليموج (مدينة) ١٥٥، ١٥٨،
مى الباريسى ١١٠ ح ١، ٢٦٠،	١٥٩، ١٦١
٢٦٠ ح ٣	لينياك (لورد اوف) ١٥٠
مثرى (عبادة) ٤٩، ٤٩ ح ١	ليو الثالث الايسورى (الامبراطور)
المجالس البلدية (البلديات) ١٢٣	٢٦٠ ح ٢
ح ١، ١٢٩ - انظر الاتحادات،	ليو العاشر (البابا) ٢٣٦
والمدن، والنقابات	ليو بيداس ٥١ ح ١
المجالس الدينية (حركة) ٢٨٠ -	لييج (مدينة) ٣٠٨
مجلس بازيل ٢٨٠ - مجلس	(م)
كونستانس ٢٨٠ - انظر البابوية،	مارتون (آدم اوف) ٩٣
والكنيسة الرومانية	مارثام (مقاطعة) ٨٤
المجتمع الاوروبى (فى العصور	مارى (الملكة) ١٨٨
الوسطى) ٤٣، ٧٣	ماسون (مدينة) ١٧٢ ح ١
المجتمع التيوتونى ٣٩، ٤١	ماشو (وليم دى) ٧٧ ح ١
المجتمع الحديث ٤٠	ماك تاجارت (دكتور) ٣١٠
المجتمع الرومانى القديم ٣٩، ٤٢،	ما كرينا ١٧٠ ح ١

مدن العصور الوسطى ٤ ، ٥ ، ١٠ ،
 ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ١١٥ ،
 ١١٥ ح ١ ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٢٩ ،
 ١٤٥ ح ٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٨٨ ،
 ح ٢ ، ٣١٧ - اسوار ٢٩ ، ١٢٣ ،
 ١٤٣ ح ١ - البرجوازية ٢٣ ، ٢٨٨ ،
 ح ٢ - حريات وامتيازات ٩ ،
 ١٢٦ - ١٢٩ - سكان ١٢٣ ،
 ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٢٣٥ ، ٢٨٨ ،
 ح ٢ - ضرائب ١٢٨ -
 مجالس بلدية ٩ ، ١٢٤ ، ٢٠١ -
 محكمة ١٢٨ - مساكن وبيوت
 ١٢٥ ، ٣١٧ - والاقتصاد النقدي
 ١٤ - انظر الاتحادات ، والتجارة ،
 والمجالس البلدية ، والنقابات
 المرأة (في العصور الوسطى) ١٥١ ح ١ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ - انظر الراهبات
 مراکش ٢٣١ ح ٢
 مرسوم فولستيد الامريكى ٢٩٥ ،
 ٣٠٠
 مريم العذراء ١٥١ ، ١٥٣ - كنيسة
 ١٥٤
 المستشفيات (في العصور الوسطى)

٤٧
 المجتمع المسيحى (في العصور الوسطى)
 ٤٨
 المجتمع الوسيط ٣٧ - ٣٨ ، ١١٢
 الجبر ٢٠٤
 محاكم التفتيش ١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
 ٣١٢ ، ٣١٣ - انظر الكنيسة
 الرومانية ، والمراطقة ، والمراطقة
 محمد القصاص (دكتور) ٣
 محمد انيس (دكتور) ٣
 محمد بدران ٤
 محمد مصطفى زيادة (دكتور) ٣ ، ٤
 المدارس الدينية (في العصور الوسطى)
 ١٥ ، ١٩ ، ٢٢٨ - انظر الاديرة ،
 والتعليم ، والجامعات ، والكنيسة
 الرومانية
 مدرسة القديس فيكتور التصوفية
 ٢٣١ ، ٢٣١ ح ١
 المدن الحرة ٤
 المدن الرومانية القديمة ١٠٣ ح ١
 ١٢٣ ح ١

٢٤٨ ح ٣ ، ٢٤٩ - انظر التجارة

ميشيليه (المؤرخ) ٢١٩

ميلان ١٤٢ ح ١ ، ٢٢٣ ح ١

(ن)

نابليون ٣١١

نابولي ٢١٢ ح ١

نانكنج (مدينة) ٢١٠

النبوات الدينية ٦٣ ، ٦٤ ح ١ ،

٣٠٧ - انظر الكنيسة الرومانية

النظريات السياسية (في العصور

الوسطى) ٢١ ، ٢٦٥ - انظر

اوغسطين ، والفكر الوسيط ،

وقسطنطين الكبير

النظم (في العصور الوسطى)

٢ - ٥ ، ٧ ، ٣٠ ، ٣٢ - انظر

الاقطاع ، والرهينة ، والقروسية ،

والقرية ، والكنيسة ، والمدينة

نظير حسان سعداوى (دكتور)

٣

النقابات (في العصور الوسطى)

مكيا فيلى ٢٧٦ ، ٢٧٦ ح ١

مفيس ١٦٧ ح ١

منتبورج (مدينة) ١٤٥ ، ١٤٥ ح ١ ،

١٤٧

المقصورة ١٣٩ ح ٣

الموت الأسود (وباء) ٣١٥ ، ٣١٥

ح ٢ ، ٣١٦

مور (القديس) ١٨٠

مور (سير توماس) ٥٧ ، ٥٧ ح ١

مور تيمر (مدينة) ١٦٣

موريان (لورد اوف) ١٥٠

موسى ٦١ ، ٢٣٦

موندفيل (سير جون) ٢٠٣ ،

ح ٢٠٣

مونرو (د.) ٢

ميتلاند (ف. و.) ١٢٤ ، ٢٥٩

ميخائيل (القديس) ٨٥ ، ٨٥ ح ١

ميخائيل (جنر) ١٥٤

ميرزن ١٢٣ ح ١

ميركانور (ايزيدورس) ٢٤٨ ،

النورمان ١٤٥ ، ١٠٥ ، ٧٦ ، ٤٢

ج ٢ ، ٢٠٢ - الغزو النورمانى

لانجلترا ٤٢ ، ٧٤ ، ٢٩٩ -

الروك النورمانى ٧٤ - ٨٤ ، ٧٦

نورمانديا (مقاطعة) ٨٢ ح ١ ،

٨٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ح ٢ ، ١٤٥

ح ١ ، ١٤٨ ح ١ ، ٢٧٤ ح ١

نورويتش ٧٦ - أسقفية ١٨٤ -

محكمة ٢٠٠

نولز (سير روبرت) ١٣٨

نيرون ١٣٣ ح ٢

نيزبورو (قلعة) ٢٠٤

نيقولا الأول (البابا) ٢٤٩ ،

٢٤٩ ح ١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥

نيقولا (جوفروا بن) ١٢٢

نيقية (مجمع) ١٣٤ ح ١

نيوتن بوليو (مدينة) ٩٣

نيومان (كاردينال) ٥٤ ، ٢٢٩

نيويورك ٣١٢

١٦ ، ٣١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ - نقابة

التجار ١٩٥ - ١٩٦ - تجار

الأسماك ٢٠١ - تجار الحرير

٢٠٠ - تجار الدواجن ٢٠١ -

حرفة الحياكة ١٩٥ - الدباغون

(الدباغة) ١٩٨ ، ٢٠١ - مزايا

١٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ - مساوى

١٦ ، ١٩٦ ، ١٩٩ - نواة ١٦ -

نظم ٢٠٠ - انظر الاتحادات ،
والمدن

نقابة تجار لايبستر ٢٠٠

نمرود ٢٦٦ ، ٢٦٨

النمسا ٢٧٤

النهضة (عصر) ٧ ، ٢١ ، ٣٥ ،

٢٢٠ ، ٢٢٠ ح ١

نهضة القرن الثانى عشر ١٨ ، ٢٠

نورمبرلاند ٩٥

نورفولك (مقاطعة) ٧٦ ، ٧٦

ح ٣

(٥)

هارتمان (ل.م.) ٤

هارفنت (فيليب دي) ١٨١

هارناك (أ.) ١٦٨ ، ١٦٨ ح ١

هازلدن ٩٥

هاسكينز (ش.ه.) ١٨ ، ٢٦٠

هاف فين (سير بيتر) ١٥٠

هاكلويت ٢٠٨

هانجشاو (مدينة) ٢١٠

هايد (وليم) ١٧

هايدلبرج (مدينة) ١٢٥

هدسن (وليم) ٧٦ ، ٧٦ ح ٢ ،

٢٠١ ، ٢٠٠ ، ٨٤

الهراطقة ١٣٩ ح ٣ ، ١٧٤ ح ٢ ،

١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ،

٣١١ - ٣١٣ - انظر محاكم

التفتيش ، والهرطقة

الهرطقة ٩ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٥٣ ،

٦٠ ، ٦٠ ح ٢ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح ٢ ،

١٠٧ ، ١١٧ ح ١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

١ ح ١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ح ١ ، ٢٣١ ،

٢٣٢ ح ٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٣ ح ١ ،

٢٣٦ ، ٣١١ - الاربوسية ٦٧

٣ ح ٢٢٣ ، ١ - انظر محاكم

التفتيش ، والهرطقة

هريستال ١٢٣ ح ١

الهند ٢٥٠

هنري الاول (ملك انجلترا) ١١٩

رسم ١٢٦ ، ٥

هنري الثالث (ملك انجلترا) ١٤١ ،

١٤١ ح ٢ ، ٢٦٠ ح ٣

هنري الرابع (الامبراطور) ٢٠

هنري الخامس (الامبراطور) ٢٠

هنري الخامس (ملك انجلترا)

١١٧ ح ١

هنري السادس (ملك انجلترا)

٦١ ح ٢

هنري السابع (ملك انجلترا)

١١٧ ح ١

٢٧٧، ٢٧٢، ٢٥٩
 الوثنية ٧، ٢٣، ٢٤، ٤٧ ح ١
 ٥١، ٦٧، ٦٧ ح ٢، ٦٨
 ١٠٤، ٢٣٣، ٢٤٧ ح ١، ٢٥٨
 ٣١٠ - الديانات ٦٦، ٦٧
 الوثنيون ٦٦ - ٦٨، ٢١٠
 ٢٢٧
 وركستر (جون أوف) ١١٩
 ورمز (اتفاقية) ٢٠
 وشكس (ملكة) ٧٤ ح ١
 وليم الفاتح ١٠٤، ١٠٥، ١٤٤
 ح ٢ - انظر النورمان
 وولفستون ٩٣
 ويكليف (يوحنا) ١١٧، ١١٧
 ح ١، ٢٣٣، ٢٣٧ - ثورة
 الفلاحين ١٧٨ - انظر اللولاردية،
 واللولارديون
 ويللوبي (لورداوف) ١٥٦

(ي)

يعقوب (القديس) ٢٧٧، ٢٧٨

هنري الثامن (ملك انجلترا) ٨٣،
 ١٨٥، ١٨٥ ح ١، ١٨٧، ١٨٨
 ٢٧٩
 الهنغار ١٤٥ ح ٢
 هنكمار اليمى ٢٢١ ح ١
 هوج سانت فاست (مدينة)
 ١٤٤
 هوج دى سانت فيكتور ٢٣١
 ح ١
 هووود (سير جون) ١٣٨
 هونوريوس الأول (البابا) ٢٥٩،
 ٢٥٩ ح ٢
 هير (فردريك) ١٢، ٢٣، ٢٥
 ٢٨
 هيلد براند ٦١ ح ٢
 هيوم ٢٣٥
 (و)

والويرث ١٣٨

الوثائق والسجلات (في المصور

الوسطى) ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٨

٣٠٨ ، ٢ ح ٢٥١ (٢٥١)	اليهود ٢٢٧ ، ٢٥٧ ، ٣١٥ ح ٢ -
يوحنا اللاهوتي (رؤيا) ٥٥ ، ٥٥	انظر اسرائيل ، واليهود - ودية ،
ح ٢	ويهو
يوركشير ١١٧ ح ١	اليهودية ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٣ - انظر
يوسف كرم ٣	اسرائيل ، واليهود ، ويهو
يولاند فيسكونتي ١٤٢ ح ٢	يهو ٥٠ - انظر اسرائيل ، واليهود ،
اليونان القدماء ٥٤ ، ١٦٨ ح ٢ ،	واليهودية
٢٦١ - انظر الاغريق	يواكيم الفيوري ٢٣٤ ، ٢٣٤ ح ٢
اليونانية (اللغة) ٤٧ ح ١ ٢٨٩ ،	يوحنا (القديس) ٣٠٩
ح ١	يوحنا الثاني والعشرون (البابا)

محتويات الكتاب

صفحة	تصدير الطبعة الثانية الجديدة
ز	كلمة المترجم (تصدير الطبعة الأولى)
٣٢- ١	مقدمة المؤلف ج.ج. كولتون
٣٣	

الفصل الاول

٧١-٣٥	الفوضى والتجديد
-------	-----------------

نهاية الامبراطورية الرومانية وبداية العصر الوسيط - الغزاة
البرابرة - النظام الاقطاعي - ظهور المسيحية - مزايا العصور
الوسطى ومساوئها - المسيحية والعبادات السابقة - الفكر
الوسيط - كنيسة العصور الوسطى - تأثير الوثنية في المسيحية.

الفصل الثاني

٩٨-٧٣	القرية في العصور الوسطى
-------	-------------------------

مجلس القرية - الفن والقنية - البابوية وتجارة الرق - تحول
الرجل الحر الى قن - طرق الخلاص من القنية - لهـمدار
الشرائع الكنسية في ايام الآحاد والأعياد المقدسة - الواجبات
والالتزامات المفروضة على الفلاح - الزراعة ونظاما الحقليين
والحقول الثلاثة - المروج والمراعى والغابات - الرياضة -
موظفو القرية الاقطاعية وعمالها - حاجيات القرية ومطالبها -
عزلة القرية - محكمة القرية .

الفصل الثالث

١١٣- ٩٩ الكنيسة والقرية

الكنيسة والتعليم - اتساع سلطان رجال الدين - النظام الأبرشي -
الواجبات المفروضة أداؤها للكنيسة - المؤسسات الدينية
الأخرى - موظفو الأبرشية - دخل الأبرشية - الخدمات
الكنسية - مبني الكنيسة وملحقاته - الجهاز الكنسي :

الفصل الرابع

١٣١-١١٥ المدن والحقول

المدينة والقرية - رجل الدين بوصفه من كبار ملاك الأرض -
العشور الكنسية - الضرائب المختلفة : الغرامة وضريبة الوفاة -
الحياة في المدينة وضواحيها - المنازل - حريات المدينة - النظم
البلدية - رؤساء المدن .

الفصل الخامس

١٦٦-١٣٣ الفروسية

المؤرخ تاكيتوس والفروسية - حفلات الفروسية وطقوسها -
شروط الالتحاق في طبقة الفرسان - امتيازاتها وواجباتها -
الفروسية في إنجلترا والقارة - نماذج عن الفروسية الوشيطة
من كتابي جوفيل وفرواسار .

الفصل السادس

١٩٣-١٦٧ الرهبنة والديرية

انتقال الرهبنة من الشرق إلى أوروبا - قانون باخومبيوس -

صفحة

تنظيم القديس بازيل - قانون القديس بندكت - الجماعات
الرهبانية الأخرى : الكلونيون ، السسترشيان ، الكارثوذيان -
القوانين الأوغسطينية - جماعات الاخوان الرهبان : الفرنسيسكان ،
الدومينيكان ، الكرمليون ، الاوغسطينيون - الأخوات
الراهبات - الوثائق والمستندات الأصلية المتعلقة بالرهبة -
تدهور الرهبة والديرية .

الفصل السابع

٢١٧-١٩٥

التجارة والاسفار

التقابات والاتحادات في العصور الوسطى - نشأتها وتطورها -
مساوئها ومزاياها - الاتحادات الدينية والجمعيات الخيرية -
نقابة التجار - المخالفات والغرامات - التجارة والحروب
الصليبية - نشاط انجلترا التجاري - الرحلات والاسفار
والمغامرات - بعثات البابوية إلى التتار في الشرق الأقصى -
ماركو بولو البندقى :

الفصل الثامن

٢٤٦-٢١٩

الفلسفة والفكر الحر

اسطورة نهاية العالم في سنة ١٠٠٠ - نهضة القرن الحادى عشر -
الفيلسوف ايبيلارد والقديس برنارد - منهج نعم ولا - بطرس

صفحة

اللمباردى وكتاب الجمل - اللاهوت والفلسفة المدرسية - توما
الأكوينى وكتاب الكامل فى اللاهوت - فلسفة الشك والتشكك
وتطور الفكر الوسيط - ولیم اوکھام ومارسيل بادوا - فلسفة
ابن رشد وأثرها - النزاع حول ارسطو - ظهور الفكر الحر -
المهرطقة ومحاکم التفتيش - بزوغ عصر جديد .

الفصل التاسع

٢٨٦-٢٤٧

القانون والشيامة

أهمية دراسة القانون فى جامعات العصور الوسطى - القانون
الكنسى - هبة قسطنطين المزورة والمراسيم البابوية المزيفة -
النهضة الكنسية فى القرن الثانى عشر - مرسوم جراشيان
والمجموعات اللاحقة - دور الجامعات فى أخريات العصور
الوسطى - الطب والدين - القانون وحفلات الزواج - نفشى
الجهالة بين رجال الدين وعامة الشعب - اللاتينية واللغات
القومية الرومانتيكية .

الفكر السياسى - القديس اوغسطين ومدينة الله - الصراع بين
البابوية والامبراطورية أو بين الكنيسة والدولة - النظريات
السياسية التى قامت حول هذا الكلام - الاتجاه نحو القومية -
انحلال البابوية .

صفحة

الفصل العاشر

٢٨٧-٣٠٥

الكنيسة وعالم الاقتصاد

التجارة والربح - الاشتراكية في المسيحية الأولى - يوحنا فم الذهب وعملية البيع والشراء - تحريم الكنيسة للتجارة - توما الأكويني والتجارة - القديس انطونينو - مبدأ السعر العادل في التجارة - الغرامات والرخص - موقف الكنيسة من الربا والاقراض بالفائدة - المبادئ المستجدة عن الربح والربا - موقف انوسنت الثالث من المشكلة - جريجورى التاسع ومرسوم الملاحة - العودة الى التحريم الشامل - كتاب ريموند اوف بنافورت عن القانون الكنسى - نظرية توما الأكويني الى مسألة الاتجار بالفائدة - بنفونو داليمولا ونيقولا بوزو - ممارسة الربا في أخريات العصور الوسطى - نحو عصر جديد .

الفصل الحادى عشر

٣٠٧-٣٢٥

ديانة الشعب

آراء الرجل العادى عن العقيدة - رأى العام الشعبى وأهميته - أثر الاختيار الشعبى فى الاحتفالات الكنسية والاهياد المقدسة - تبسيط الدين لعامة الشعب - فكرة الوحدة بين الكنيسة والدولة - التصوف والمتصوفون الشعبيون - التفاف أفراد الشعب حول كل من الكاهن والمحارب - دور الكنيسة فى هــذا المضمار -

صفحة

الخرطقة والرأى العام الشعبى - عدم شعبية محاكم التفتيش -
التصوف الشعبى وعلم اللاهوت - قصيدة بطرس الفلاح ودلالاتها
فى الكشف عن عصر تغير وانتقال .

المراجع التى اعتمد عليها المترجم فى حواشى الكتاب . ٢٢٧-٢٣٨

اللوحات والرسوم ٣٢٩-٣٤١

فهرس عام ٣٤٣-٣٨٠

محتويات الكتاب ٣٨١-٣٨٦